فلسفة المتنبي الشعرية

إبراهيم أبو عواد

مقدمة

إنَّ المُتَنَبِّي (٣٠٣ هـ _ ٣٥٤ هـ/ ٩١٥ م _ ٩٦٥ م) هو أعظم شاعر في اللغة العربية على الإطلاق، وهذا لَيْسَ تَوزيعًا مَجَّانِيًّا للألقابِ والرُّتَبِ،وَلَكِنَّهُ حقيقة واقعية مُسْتَمَدَّة مِنْ حَقيقةِ الإبداع اللغويِّ وَمَاهِيَّةِ الإنجاز الشِّعْرِيِّ . ولا شَكَّ أنَّ شِعْرَ المُتَنَبِّي كانَ مَصْدَرَ إلهامٍ للشُّعَرَاءِ والأُدباءِ والحُكَمَاءِ عَلى مَرِّ العُصُور.وأفضلُ شِعْرِه كانَ في الحِكمةِ وَفَلسفةِ الحَيَاةِ وَوَصْفِ المَعَارِكِ. وتَمَيَّزَ خَيَالُه بالقُوَّةِ والخُصُوبَةِ،فكانتْ ألفاظُه جَزْلَةً،ومَعَانيه مُبْتَكَرَة،وعِباراته رَصِينة،تُلائِم قُوَّةَ رُوحِه .

يُمثِّل هذا الكِتَابُ مُغَامَرَةً ذاتية ومُحَاوَلَةً شخصية لاكتشافِ شِعْرِ المُتَنَبِّي ، وَقَد اعتمدتُ على شُرَّاحِ شِعْرِه وَمُفَسِّرِيه القُدَامَى وَالمُعَاصِرِين ، حَيْثُ قُمْتُ بانتقاء أبيات شِعْرية له ، وتَصنيفها ضِمْن المَوْضُوعاتِ المَعرفيةِ والسِّيَاقاتِ الفِكرية،مِن أجْلِ الوقوف على فَلْسفته الشِّعْرية،وتَحديدِ أبعادِها ، وَرَسْمِ مَعَالِمِهَا . والشِّعْرُ _ أوَّلًا وأخيرًا _ هُوَ رُؤيةٌ ذاتية للوُجود بِكُلِّ جَوَانبه ، وفلسفةٌ شخصية للحياة بِكُلِّ تفاصيلها. وكُلُّ شَاعِرٍ هُوَ فَيلسوفٌ بالضَّرُورة ، وفلسفةُ الشاعرِ تَكْشِف شَخْصِيَّتَه بِدِقَّة.

يَتَكَوَّنُ هَذا الكِتَابُ مِنْ تِسْعَة عَشَر فَصْلًا،وهذه الفُصُولُ مُجْتَمِعَةً تُمَثِّل مَنظومةً فِكرية مُتكاملة، ونَسَقًا مَعرفيًّا شاملًا ، وتَيَّارًا لُغَوِيًّا إبداعيًّا ، مِمَّا يُسَاهِم في تَكْوِينِ فلسفة المُتَنَبِّي الشِّعْرية ، وإظهارِها كَحَقيقةٍ ماثلة للعِيَانِ ، وبُنْيَةٍ حياتية مَحسوسة ، وَلَيْسَتْ شيئًا نَظَرِيًّا هُلامِيًّا تَجْرِيديًّا .

سَوْفَ نَتَحَدَّث عَن أمْرِ اللَّهِ وقَضَائِه،وأنَّه هُوَ الغالبُ الذي لا يُغَالَب ، وأنَّه هُوَ الهادي والمُضِلُّ، ونتناول مَوضوع المَوْتِ ، وأنَّه آتٍ لا مَحَالة ، ولا مَهْرَب مِنْه ، ونَتَطَرَّق إلى القِيَمِ الفِكرية والفلسفية المُتعلقة بالمَوْتِ ، وكَيْفَ تَتَجَلَّى لُغَوِيًّا وشِعْرِيًّا ضِمْن نَسَقٍ إبداعيٍّ شديد التأثير . ويَبْرُز مَوضوعُ الحَيَاةِ بِكُلِّ مَا فِيها مِنْ أفراحٍ وأحزانٍ، وَتَظْهَر قِيَمُ الزَّوَالِ والفَنَاءِ والغِيَابِ وفِقْدَان المَعْنَى . وَتَظْهَر الدُّنيا باعتبارها مَرْحلةً مُؤقَّتةً، وكَينونةً وضيعةً زائلة ، أحوالُها مُتَقَلِّبَة، وشُؤونُها مُعَقَّدَة، وأنَّها مَجْمَع الأضدادِ والتناقضاتِ. وَنَتَحَدَّث عَن الرُّوحِ والنَّفْسِ والقَلْبِ ، باعتبارها مُكَوِّنَات الوُجودِ الحَيَاتيِّ الإنسانيِّ ، وكَيفيةِ تأثيرها في العَناصرِ المُحيطةِ . ولا يُمكِن إغفال أهمية الجِسْمِ ، فَهُوَ الكِيَانُ الماديُّ الحاملُ للرُّوحِ ، والجِسْمُ عُرْضَةٌ للأمراضِ والمُشكلاتِ ، وكُلُّ أزمةٍ في الكِيَانِ الماديِّ الحاملِ سَوْفَ تَنعكس على الكَينونةِ الرُّوحيةِ المَحمولةِ . وتَتَّضِح أهميةُ العَقْلِ والعِلْمِ ، فَهُمَا يُمَيِّزَان الإنسانَ عَن الحَيَوَانِ، ويُعْطِيَان للإنسانِ مَلَكَةَ الإدراكِ ، والقُدرةَ على التفكيرِ والنَّقْدِ، والخُروجِ مِنَ المَآزِق والأزماتِ ، والاستمرارِ في الحَياةِ ، والتَّوَسُّعِ في المَعَارِفِ والثَّقَافَاتِ .

وتَظْهَر أهميةُ الدَّهْرِ والزَّمَانِ واضحةً في الأنساق الشِّعْرية لُغَةً وفلسفةً ، والدَّهْرُ والزَّمَانُ مُرتبطان بالمَصَائبِ والشَّدائدِ والأزماتِ ، كما أنَّهما على تَمَاس وثيق معَ العُمْرِ الرَّاحلِ والشَّبَابِ الذاهبِ. والدَّهْرُ والزَّمَانُ يَسْتَمِدَّان المَعنى والحيويةَ مِنَ الناسِ ، والناسُ أصنافٌ مُختلفة ، وأجناسٌ شَتَّى ، يَتفاوتون في القُدراتِ العقلية والجِسميةِ والمَكانةِ الاجتماعية ، والناسُ لَيْسُوا أغبياء ، ولكنْ يُمْكِن أن تَخْدَعَ الناسَ بعضَ الوقتِ،وَبَعْضَ الناسِ كُلَّ الوقتِ ، لَكِنَّكَ لَنْ تَستطيع خِدَاعَ كُلِّ الناسِ كُلَّ الوَقْتِ . ونَتَطَرَّق إلى الحَديثِ عَن المَرْأةِ والحُبِّ والعِشْقِ ، معَ بيانِ صِفات المَرْأةِ المَعنويةِ والحِسِّية ، وعلاقاتِ المُحِبِّين وعَذاباتِهم ومُعاناتهم ، والفَرْق بَيْن الحَضَرِيَّاتِ والبَدَوِيَّاتِ . ويَبْرُز مَوضوع المَديحِ الذي يُشَكِّل أهميةً قُصْوَى، ويَدُلُّ على الصِّفَاتِ الحميدةِ عِنْد المَمْدُوح ، وهُناك مَدِيحٌ بِحَقٍّ وَمَدِيحٌ بباطل ، وهُناك مديحٌ للشَّخْصِ ومديحٌ لآبائه ، وهُناك مَديحٌ للغَيْرِ ومَدِيحٌ للنَّفْسِ . وإذا كانَ المديحُ دليلًا على الفرح والسَّعَادةِ ، فإنَّ البُكَاءَ دليلٌ على الحُزْنِ والألمِ ، والرابطةُ بَيْنَ الدَّمْعِ والشُّعُور لا تَنفصِل.ونتَحَدَّث عن الدِّيار والمنازلِ وتأثيرِها في النَّفْسِ الإنسانية ، والأماكنُ هِيَ مَنْبَعُ الأحلامِ والذِّكرياتِ ، وَهِيَ مُرتبطة بمراحل العُمْرِ المُختلفة بِكُلِّ مَشاعرِها الحَيَّاشَةِ وَأحاسيسِها المُتَنَاقِضَة.ويَتَّضِح مَوضوع المالِ وجَمْعه وفِقْدَانه ، وأنَّه عَرَضٌ زائلٌ ، والعَرَضُ لا يَدُوم زَمَانَيْن . ولا يُمْكِن تجاهُل السِّياسةِ باعتبارها قِيمةً مركزيةً في المُجتمعاتِ البشرية ، والسِّيَاسَةُ قائمةٌ على ثُنائية (الحاكم / المحكوم) ، ومُلتصقةٌ بتفاصيل حياة الناسِ مِنْ قَاعِ المُجتمع إلى قِمَّتِه . وَمِنْ أبْرَزِ المَواضيعِ الحَرْبُ ، والحَرْبُ تَعْني الإقدامَ والالتحامَ ، وَهِيَ تَشتمِل على التناقضاتِ ، حَيْث النَّصْر والهزيمة ، والشَّجَاعة والجُبْن ، والمَجْد والعَار . ولا تَنفصل الحَرْبُ عَن أدواتها التي تَتَمَثَّل في الأسلحةِ المُختلفةِ ، كالرِّماحِ وَالسُّيُوفِ والسِّهَامِ . ونُبيِّن وَضْعَ الأعداءِ بِكُلِّ التفاصيل القاسية والمُؤلمة ، حَيْث يَتِمُّ قَتْلُ نُفُوسِهم بِلا هَوَادة ولا رَحْمَة ، ونُوضِّح المَعاني الفلسفية العميقة المُرتبطة بمشاعرهم . ثُمَّ ننتقل إلى مَوضوع بعيد عَن جَوِّ الحَرْبِ والأعداءِ ، وهو الخَمْرُ ، وشُرْبُها، وتأثيرُها. وفي النهاية نُوضِّح مَنظومة الأخلاق والقِيَم والمبادئ (الإيجابية والسَّلْبية) ، ولا يَخْفَى أنَّ حياةَ الإنسانِ قائمة في مَنطقة رمادية بَيْنَ الأبيضِ والأسْوَدِ،والإنسانُ كُتلةٌ مِنَ الأخلاقِ الحميدةِ والأخلاقِ الذميمة ، فهو كائنٌ حَيٌّ غَيْرُ مَعْصُوم ولا مُقَدَّس . والإنسانُ يَستمد مَركزيةَ وُجودِه مِنْ هُوِيَّتِه البشرية ومَاهِيَّتِه الطِّينية ، فهو لَيْسَ مَلَاكًا ولا شَيْطَانًا . وفي الخِتَامِ، إنْ وَجَدْتَ أخي القارئ العزيز خَيْرًا في هذا الكتابِ فهو مِنَ اللَّهِ وَحْدَه ، وإنْ وَجَدْتَ شَرًّا فَهُوَ مِنْ نَفْسِي والشَّيطانِ ، والحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِين دائمًا وَأبَدًا .

إبراهيم أبو عواد

الفصل الأول
أمْرُ اللَّهِ وقَضَاؤُه

١ــ الأمْرُ لِلَّهِ

والأمْرُ لِلَّهِ رُبَّ مُجْتَهِدٍ مَا خَابَ إلا لأنَّهُ جَاهِدْ

الأمْرُ للَّهِ مِنْ قَبْل وَمِنْ بَعْد، وكُلُّ الأُمورِ بِيَدِهِ وَحْدَه، يُصَرِّفُها كَمَا يَشَاء في الوقت الذي يَشَاء. والإنسانُ مُطَالَبٌ بالعملِ لا النتيجةِ ، وَالاجتهادُ لا يُؤَدِّي دائمًا إلى النجاحِ ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الاجتهادِ نَيْلُ المُرَادِ ، وَقَدْ يَخِيب الجَاهِدُ ، ويَنَال مُرَادَه القَاعِدُ ، وكَمْ مِنْ مُرِيدٍ للخَيْرِ لا يُصِيبُه ، وَرُبَّ امْرِئٍ حَتْفُه فِيما تَمَنَّاه. وَقَدْ يَكُون الاجتهادُ طريقًا إلى الدَّمَارِ والضَّيَاعِ، وَسَبَبًا للخَيْبَةِ والفَشَلِ، لأنَّ الأمْرَ للَّهِ لا للمُجْتَهِدِ ، وإرادةُ اللَّهِ نافذةٌ في كُلِّ شَيْءٍ ، ولا قُدرة لِمَخلوقٍ معَ قُدرةِ الخالقِ ، لأنَّ صِفَات المَخلوق نِسْبِيَّة حادثة ، أمَّا صِفَات الخالق فهي مُطْلَقَة قديمة قِدَم ذَاتِه المُقَدَّسَةِ . والإنسانُ مَهْمَا كانَ قَوِيًّا وذَكِيًّا وحريصًا ومُنْتَبِهًا فهو كائنٌ ضعيفٌ مَحدود القُدرات والإمكانيات ، ولا يُمْكِن أن يَتجاوز قَدْرَه. والأشياءُ تَخْضَع للتَّقْديرِ،حَتَّى يَصِير الهَلاكُ في التَّدبير. وإذا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ للإنسانِ ، فإنَّ ذَكَاءَه سَيُدَمِّرُه ، واجتهادَه سَيَقْضِي عَلَيْه . والنَّجَاحُ يَكُون بِتَوْفِيقِ اللَّهِ، ولَيْسَ اجتهاد الإنسان .

٢ــ قَضَاءُ اللَّهِ

بِأبي مَنْ وَدِدْتُهُ فَافْتَرَقْنَا وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَاكَ اجْتِمَاعَا

جَعَلْتُ أبي فِدَاءً لِمَنْ وَدِدْتُهُ ، أوْ: أَفْدِي بأبي مَنْ أحْبَبْتُهُ ، فَافْتَرَقْنَا ، وَابْتَعَدْنَا عَنْ بَعْضِنا ، وَذَهَبَ كُلٌّ مِنَّا في طَرِيقِه،وَحَكَمَ اللَّهُ بَعْدَ فِرَاقِنَا أنْ نَلْتَقِيَ مِنْ جَديدٍ ، ونَجتمع كَمَا كُنَّا في السابقِ. وهذا يدلُّ على استعادةِ الذكرياتِ الماضيةِ ، واسترجاعِ الأحلامِ القديمة . وَقَضَاءُ اللَّهِ واقعٌ لا يَرُدُّه شَيْء ، وإذا حَكَمَ اللَّهُ فَلا مُعَقِّب لِحُكْمِه .

نَفَذَ القَضَاءُ بِمَا أرَدْتَ كَأنَّهُ لَكَ كُلَّمَا أزْمَعْتَ أمْرًا أزْمَعَا

هذا غُلُوٌّ واضحٌ ، ومُبَالَغَةٌ جَلِيَّة . كَأنَّ القَضَاءَ لَكَ ، لأنَّه خاضعٌ لإرادتك ، فإذا أرَدْتَ شَيْئًا أراده القَضَاءُ.وهذا يُشير إلى السَّيطرةِ التَّامَّةِ على الأحداثِ، والهَيمنةِ الكاملةِ عَلى مُجْرَياتِ الأُمُور. وكَأنَّ المَكَانَ والزَّمَانَ بِكُلِّ تفاصيلهما يُطِيعَان هَذا المَمْدُوحَ ، ولا يَعْصِيَانه ، مِمَّا يَدُلُّ عَلى أنَّه شَخْصٌ صاحبُ مَنزلةٍ رفيعةٍ ومَكانةٍ جَليلةٍ ومَرتبةٍ اجتماعية مَرْمُوقة .

٣_ لا أحَدَ يُغَالِبُ اللَّهَ

كَذَا خُلِقْتَ وَمَنْ ذَا الذي يُغَالِبُ رَبَّه

وَضَعَ اللَّهُ في الإنسانِ أخلاقًا وخَصائص ، وجَعَلَهُ مَطْبُوعًا عَلى صِفَاتٍ مُعَيَّنَة ، فَهُوَ لا يَزَال عَلى مَا خَلَقَه اللَّهُ ، لا يَقْدِر الناسُ عَلى تَغْيِيره،ولا يَستطيعون تَبديلَ صِفَاتِه،لأنَّ اللَّهَ قَاهِرٌ لا يُقْهَر ، وَغَالِبٌ لا يُغَالَبُ . والطَّبْعُ يَغْلِبُ التَّطَبُّعَ ، والخُلُقُ كَالخَلْقِ لا يَقْبَل التَّبديلَ أو التَّغييرَ ، وَمَنْ شَبَّ على شَيْءٍ شَابَ عَلَيْه . وعلى الرَّغْمِ مِنْ هَذا ، فَإنَّ " الطَّبْع يَغْلِب التَّطَبُّعَ " لَيْسَ قاعدةً مُطَّرِدَةً ، وَلِكُلِّ قاعدة استثناء، وهُناك مَنْ يَسْعَى إلى التَّغيير فَيَتَغَيَّر ، وهُناك مَنْ يَركَن إلى طَبْعِه فَيَطْغَى عَلَيْه.

٤_ إضلالُ اللَّهِ للعَبْدِ

يَا عَاذِلَ العَاشِقِينَ دَعْ فِئَةً أضَلَّهَا اللَّهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا

يا مَنْ تَلُومُ العاشقين في عِشْقِهِم ، اتْرُكْهُم ، وَدَعْكَ مِنْ عَذْلِ قَوْمٍ أضَلَّهُمُ اللَّهُ في الهَوَى ، حَتَّى غَرِقُوا فيه ، وَسَيْطَرَ على أرواحِهم وأجسامِهم ، وَهَيْمَنَ عَلى أحاسيسِهم ومَشاعرِهم ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِم حَتَّى غَلَبَ عُقُولَهم ، وَسَلَبَ وَعْيَهم ، وَقَهَرَ إرادتَهم ، كَيْفَ تُرْشِدُهم بَعْد أنْ أضَلَّهُمُ اللَّهُ ؟ ، وَكَيْفَ تَهْدِيهم بَعْدَ أنْ حَكَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم بعدمِ الاهتداءِ إلى السَّبِيلِ ؟ ، وَكَيْفَ تُنْقِذُهم مِنَ التِّيهِ ؟ . إنَّهُمْ لا يَستمعون إلى نصيحتك ، ولا يُصْغُون إلى لَوْمِكَ، لِمَا بِهِم مِنْ ضَلالِ العِشْقِ . وكُلُّ هذا يدلُّ على أنَّ الهِداية والضَّلال بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَه ، وأنَّ الإنسانَ لا يَقْدِر على هِداية نَفْسِه بِنَفْسِه ، وَمَنْ هَدَاه اللَّهُ فَلَنْ يُضِلَّه أحَد ، وَمَنْ أضَلَّه اللَّهُ فَلَنْ يُرْشِدَه أحَد .

الفصل الثاني

المَوْتُ

١_ المَوْتُ آتٍ

فَالمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ وَالمُسْتَعِزُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ

المَوْتُ واقعٌ لا مَحَالة ، وكائنٌ بِلا شَكٍّ ، وآتٍ بِلا رَيْبٍ ، في الوَقْتِ الذي يُريدُه اللَّهُ خالقُ المَوْتِ. يَأتي المَوْتُ على الناسِ، فَيُهْلِكُهم ، ويَقْضِي عَلَيْهِم ، ويَجْعَلُهُم أثَرًا إثْرَ عَيْنٍ ، وإنْ كانتْ نُفُوسُهُم نَفِيسةً وغَالِيةً وعَزِيزةً وشَرِيفةً وكَرِيمةً ، والنَّفِيسُ : الشَّيْءُ الذي يُنْفَسُ بِه ، أي : يُبْخَلُ بِه . والذي يَطْلُبُ العِزَّ بِمَالِه فهو الجاهلُ الذي لا عَقْل له، والعاقلُ لا يَنْخدع بِمَالِه،ولا يَغْتَرُّ بِمَا جَمَعَه مِنَ الدُّنيا لِعِلْمِه أنَّه لا يَبْقَى ، ولا يَدْفَع عَنْهُ شيئًا، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ هذا فهو أحْمَق.والدُّنيا فانية ، وَكُلُّ مَا فِيها زائلٌ ، وَمِنْ غَيْرِ المَنطقيِّ أن يَفتخر الإنسانُ بِشَيْءٍ فانٍ أوْ يَعْتَز بِشَيْءٍ زائل ، والإنسانُ كائنٌ لا يَدُوم ، فكيفَ تَدُوم مُمتلكاتُه ؟! . وإذا لَمْ تَتْرُك الدُّنيا الإنسانَ ، فَهُوَ الذي سَيَتْركها .

٢_ المَوْتُ قَبْلَ المَوْتِ

وَمَاتُوا قَبْلَ مَوْتِهِمُ فَلَمَّا مَنَنْتَ أعَدْتَهُمْ قَبْلَ المَعَادِ

إنَّهُم مَاتوا خَوْفًا مِنْكَ ، وهذا يدلُّ على قُوَّتِكَ وجَبَرُوتِكَ وهَيْبَتِكَ وَشِدَّةِ بَأسِكَ ، ومَنزلتك الرفيعة ، ومكانتك العظيمة ، ولَمَّا صاروا كالمَوْتَى ، فَكَأنَّهُم مَاتوا قَبْلَ المَوْتَةِ ، حتى إذا أحْسَنْتَ إلَيْهِم ، وأنْعَمْتَ عَلَيهم ، ومَنَنْتَ عليهم ، أعَدْتَهُم إلى الحياة قبل يَوْمِ القِيَامَةِ ، بِعَفْوِكَ عَنْهُم . وَالعَفْوُ مِنْ شِيَمِ الكِرَامِ ، وَالصَّفْحُ مِن شَأنِ العِظَامِ .

٣_ التَّشَبُّهُ بِالمَوْتِ

وَكُنْ كَالمَوْتِ لا يَرْثي لِبَاكٍ بَكَى مِنْهُ ويَرْوَى وَهُوَ صَادِ

كُنْ قاسيًا وفَظًّا عَلَيْهِم كَالمَوْتِ ، لا يَرْحَم الباكي مِنْ خَوْفِه ، ويَرْوَى بِمَا يَشْرَب مِنَ الدِّمَاءِ ، وَهُوَ معَ ذلك عَطْشَان لِحِرْصِه عَلى القَتْلِ . كُلَّمَا شَرِبَ الدِّمَاءَ ازدادَ عَطَشًا.وهذا يُشير إلى القَسْوَةِ

والشِّدَّةِ والعُنْفِ والسُّلُوكِ العَدَائيِّ ضِد الآخَرين ، وَقَهْرِ الأعداءِ ، وإذلالِهم ، وَسَحْقِهِم بِلا هَوَادَة ولا رَحْمَة ، ولا مَجَال للمَشَاعِر، ولا مَكَان للأحاسيس .كُنْ كَالمَوْتِ لا يَرْحَم ، ولا يَتَأثَّر لحزينٍ ، ولا يَرِقُّ لِبَاكٍ ، وَيَرْوَى المَوْتَ وَهُوَ عَطْشَان بَعْدَ الرَّيِّ ، فَيَزْدَاد عَطَشًا .

٤_ حَلاوةُ المَوْتِ

إذا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلى كُلِّ سَابِحٍ رِجَالٌ كَأنَّ المَوْتَ في فَمِهَا شَهْدُ

إنَّه سَيِّدٌ في قَوْمِه ، ومُطَاعٌ فِيهِم ، يأمُر فَيَخْضَعُون لأمْرِه، وَيَنْهَى فَيَخْضَعُون لِنَهْيِه . مَتَى مَا شاءَ أحاطتْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ رِجَالٌ يَسْتَعْذِبُون طَعْمَ المَوْتِ كَمَا يُسْتَحْلَى الشَّهْدُ . إذا دَعَوْتُهُم أجابوني مُحِيطين بِي على فَرَسٍ سابحٍ، أي: مَتَى شِئْتُ أحْدَقَتْ بِي رِجَالٌ راكبون على فَرَسٍ سابحٍ ، وكانوا أبطالًا يَمتازون بالشَّجَاعةِ والجُرْأةِ والإقدامِ ، يَجِدُون المَوْتَ في الحَرْبِ حُلْوًا كالعَسَلِ .

٥_ طَعْمُ المَوْتِ

فَطَعْمُ المَوْتِ في أمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ المَوْتِ في أمْرٍ عَظِيمِ

المَوْتُ وَاحِدٌ في كُلِّ الحالاتِ والظُّرُوفِ. لا فَرْقَ في المَوْتِ، إنَّ طَعْمَ المَوْتِ في الأمْرِ الهَيِّنِ كَطَعْمِهِ في الأمْرِ الشَّديدِ الصَّعْبِ ، فلا مَعنى للخَوْفِ ، ولا جَدْوَى مِنَ الجُبْنِ ، ولا سَبِيل للمُغَامِر إلا الإقدام والاقتحام ، وأنْ يَقْصِد أسْمَى الأُمُور ، وأعظمَ المَنازِلِ ، وأرفعَ الدَّرَجَاتِ .

٦_ طِبَاعُ المَوْتِ

فَالْمَوْتُ تُعْرَفُ بالصِّفَاتِ طِبَاعُهُ لَمْ تَلْقَ خَلْقًا ذَاقَ مَوْتًا آئِبَا

المَوْتُ تُعْرَف صِفَاتُه وَطِبَاعُه بالوَصْفِ لا بالتَّجْرِبَةِ ، لأنَّ المَوْتَ ذَهَابٌ بِلا عَوْدَة ، ولا تَلْقَى أحَدًا ذَاقَ المَوْتَ ثُمَّ عادَ ، حَتَّى تَعْرِفَ حَقِيقَةَ المَوْتِ وَمَاهِيَّتَه وَتَفَاصِيلَه . والمَعنى : إنَّ شَجَاعَةَ المَمْدُوحِ كَالمَوْتِ إنْ شُوهِدَ أهْلَكَ ، وإن اقْتُصِرَ فيه على الصِّفَة عُلِمَ وَلَمْ يُهْلِكْ . وهذا يُشير إلى أهمية الابتعاد عن التَّجْرِبَةِ ، والاكتفاءِ بالوَصْفِ مِنْ بَعِيد ، لأنَّ التَّجْرِبَةَ مُهْلِكَة ، ولا تُوجَد فُرصة للتَّعويضِ ، وَمَنْ جَرَّبَ المَوْتَ انْتَهَى وَهَلَكَ وَغَابَ ، ولا يُوجَد أمَلٌ في العَوْدَةِ ، ولا يُمْكِن أنْ يَحْضُرَ مِنْ جَدِيدٍ .

٧_ المَوْتُ مُرُّ المَذَاقِ

إلْفُ هَذا الهَوَاءِ أَوْقَعَ في الأَنْفُسِ أنَّ الحِمَامَ مُرُّ المَذَاقِ

الأَنْفُسُ تَعَوَّدَتْ عَلى الحَياةِ الماديَّة الاستهلاكية ، وَغَرِقَتْ في المُتْعَةِ والاستمتاعِ والنَّعِيمِ وَرَغَدِ العَيْشِ ، وَأَلِفَت الهَوَاءَ ، فَظَنَّتْ أنَّ المَوْتَ كَرِيهُ الذَّوْقِ لإلْفِهَا الهَوَاء الرَّقيق الطَّيِّب ، وذلك أوْقَعَ في أنفُسِهِم أنَّ المَوْتَ مُرُّ الطَّعْم، لأنَّ مَتَاعَ الدُّنيا سَيْطَرَ عَلَيْهِم ، وحُبَّ الحَيَاةِ زَيَّنَ لَهُمُ الخَوْفَ والجُبْنَ ، وأراهم طَعْمَ المَوْتِ مُرًّا . وفي هذا بَيَانُ عُذْرِ الأعداءِ حِينَ خَافُوا مِنَ المُواجهةِ ، وَجَبُنُوا عَن اللقاءِ، وَلَمْ يُجاهِروا بالحَرْبِ. إنَّ الأعداءَ الذينَ يَكْرَهُونَكَ ويُعَادُونَكَ،وَلَكِنَّهم يُخْفُون حِقْدَهم، ويَسْتُرُون عَدَاوَتَهُم، ولا يُظْهِرُونها لَكَ ، عَشِقُوا حُطَامَ الدُّنيا وشَهَوَاتِهَا ، وَأَلِفُوا تَنَسُّمَ هذا الهَوَاءِ ، ومَنْ تَعَوَّدَ على نَعيمِ الدُّنيا وَأَلِفَهَا واستطابَ حَيَاتَهَا ، فَهُوَ مُتَمَسِّكٌ بِها ، وَحَرِيصٌ عَلَيها ، ويَخْتار مَا يُؤَدِّي إلى المُحافظةِ عَلَيها والقِيَامِ بِأمْرِها، فَإلْفُهُمْ لها أوْقَعَ في أنْفُسِهِم أنَّ المَوْتَ مُرُّ المَذَاقِ .

٨ _ خَوْضُ المَنَايَا

إذا اعتَادَ الفَتَى خَوْضَ المَنَايَا فَأَهْوَنُ مَا يَمُرُّ بِهِ الوُحُولُ

مَن اعتادَ أنْ يَخُوضَ غَمَرَاتِ المَنَايا ، وَيَقْتَحِمَ أهوالَ المَوْتِ وَمَكَارِهَه ، ويُوَاجِه الشَّدائدَ والأزماتِ ، فَأهْوَنُ مَا يُعَانيه خَوْض المَاءِ والطِّينِ ، وَهُمَا الوَحْلُ . وهذه رِسالةٌ واضحة لِمَنْ يَثِقُ في نَفْسِه وقُدراته. إنَّ الإنسانَ إذا تَعَوَّدَ خَوْضَ المَهَالِكِ التي هِيَ أسباب المَوْتِ ، لَمْ يُبَالِ بِالوُحُولِ ، وهذا يُشير إلى أنَّ الوَحْلَ لا يَمْنَعُه مِنَ السَّفَرِ، لأنَّه يَخُوض مَا هُوَ أشد مِنَ الوَحْلِ . وإذا كانَ الإنسانُ مُتَعَوِّدًا على التَّحَدِّيَاتِ ومُواجهةِ المُشكلاتِ والمَصائبِ والكوارثِ ، فَإنَّ الصِّعَابَ التي يُوَاجهها سَتَكُون بَسِيطةً وَسَهْلَةً عَلَيْه .

٩_ المَوْتُ ضَرْبٌ مِنَ القَتْلِ

إذا مَا تَأمَّلْتَ الزَّمَانَ وَصَرْفَهُ تَيَقَّنْتَ أنَّ المَوْتَ ضَرْبٌ مِنَ القَتْلِ

إذا تَأمَّلْتَ تصاريفَ الزَّمانِ وأحوالَه وتَقَلُّبَاتِه ، عَلِمْتَ أنَّ المَوْتَ نَوْعٌ مِنَ القَتْلِ ، وذلك أنَّ مَنْ لَمْ يُقْتَلْ بالسَّيْفِ ، فَكَأنَّه قُتِلَ بِتَقَلُّبِ الزَّمانِ وَمُرورِ الأيَّامِ ، لأنَّ كِلَيْهِمَا فَوَات الرُّوح . وَبِمَا أنَّ المَوْتَ مَحْتُومٌ عَلى كُلِّ أحَدٍ،فَكَأنَّ المَوْتَ صارَ قَاتِلًا بِلا رَحمةٍ ولا هَوَادَةٍ ولا مَشَاعِر ولا أحاسيس.

١٠_ دَوَاءُ المَوْتِ

وَقَدْ فَارَقَ الناسُ الأحِبَّةَ قَبْلَنَا وَأعْيَا دَوَاءُ المَوْتِ كُلَّ طَبِيبِ

فَارَقَ الناسُ أحبابَهم قَبْلَنَا ، واحْتَرَقُوا بِلَوْعَةِ البِعَادِ، وذاقوا ألَمَ الفِرَاقِ، فَلَيْسَ هذا بأوَّل حبيب فَارَقَ حَبِيبَه . وإنَّ مِمَّا يُعَزِّي عَن هذا المَيِّتِ الذي هَلَكَ وَغَابَ وَاخْتَفَى ، وصارَ أثَرًا إثْرَ عَيْنٍ ، أنَّ السالفين قَبْلَنَا قَدْ فَارَقُوا أحبابَهم ، وَسَلَبَ المَوْتُ أنفُسَهُم ، وأعْجَزَ دَوَاءُ المَوْتِ الذي أصابَهم كُلَّ طَبيبٍ أرادَ عِلاجَه ، وكُلَّ عَزيزٍ حَاوَلَ دَفْعَه .

١١_ غَدْرُ المَوْتِ

غَدَرْتَ يَا مَوْتُ كَمْ أفْنَيْتَ مِنْ عَدَدٍ بِمَنْ أصَبْتَ وكَمْ أسْكَتَّ مِنْ لَجَبِ

غَدَرْتَ أيُّها المَوْتُ بهذه المُتَوَفَّاةِ (أُخْت سَيْف الدَّوْلَة) ذَات المَنزلةِ الرَّفيعةِ والمَكانةِ الجليلةِ، وكَانَ يَنْبغي أنْ تَكُونَ وَفِيًّا لَهَا ومُخْلِصًا لها، وضَيَّعْتَ مَا كانَ يَلْزَمُكَ مِنْ حَقِّها ، ومُرَاعَاةِ أمْرِهَا ، وَرِعَايَةِ حَيَاتِهَا ، والاعتناءِ بِعُمْرِهَا، فَكَمْ أفْنَيْتَ أيُّها المَوْتُ بإصابتكَ لَهَا مِنْ عَدَدِ قَوْمٍ كانَ فَضْلُها يُظْهِرُهم ويَجْمَعُهم ويُوَحِّدُهم. أظْهَرَ إهلاكَ شَخْصٍ، وَأضْمَرَ فيه إهلاكَ عَالَمٍ ، كانتْ تُحْسِنُ إلَيْهِم ، وَتَتَفَضَّلُ عَلَيْهِم ، فَهَلَكُوا بِهَلاكِها. وكَمْ أسْكَتَّ أيُّها المَوْتُ مِنْ لَجَبِ طَوائف كانَ إحسانُها يَعُمُّهُم ويَشْمَلُهُم . لَقَدْ مَاتَ بِمَوْتِها بَشَرٌ كثير ، وَأسْكَتَّ لَجَبَهُم وتَرَدُّدَهُم في خِدْمتها ورِعايةِ شُؤونِها والاعتناءِ بمصالحِها . أوْ أنَّهُم سَقَطُوا عَنْ بِرِّهَا وَصِلَتِهَا، فكأنَّهم مَاتوا وغابوا واخْتَفَوْا . أفْنَيْتَ أيُّها المَوْتُ بإفنائِها كثيرًا مِنَ الناسِ ، وَأسْكَتَّ أصواتَهم ، لأنَّهُم ماتوا بِمَوْتِها ، لأنَّ حَيَاتَهُم كَانتْ بِها .

ومَعْنى آخَر : يا مَوْتُ غَدَرْتَ بهذه المُتَوَفَّاة ، بَعْد أنْ كُنْتَ تَصِل بِها إلى إفناءِ الأعداءِ وإهلاكِهم والقَضَاءِ عَلَيْهِم ، الذين هُمُ الكُفَّار ، وإلى إسكاتِ لَجَبِهِم ، لأنَّها تُجَهِّز الجَيْشَ ، وَتُنْفِق في سَبيلِ اللَّهِ تَعَالى .

ومَعْنى آخَر: غَدَرْتَ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ يا مَوْتُ ، حَيْثُ أَخَذْتَ أُخْتَه ، وكُنْتَ تُفْنِي بِهِ العَدَدَ الكثيرَ، وتُهْلِك بِهِ الأعداءَ ، وَتُهْلِك بِهِ الجُيوشَ الذين لَهُمْ لَجَبٌ ، وَهُوَ اختلاطُ الأصواتِ والصِّيَاحُ والضَّجيجُ . لَقَدْ حَلَّ الصَّمْتُ الرَّهيبُ ، وانتَشَرَ الفَرَاغُ المُوحِشُ ، ولا يُوجَد صَوْتٌ ولا أثَرٌ . وإذا كانَ سَيْفُ الدَّولةِ عَوْنَكَ يا مَوْتُ على الإفناءِ والإهلاكِ ، كانَ مِنْ حَقِّكَ أنْ لا تُصِيبَه بِأُخْتِه .

١٢_ المَوْتُ شَافٍ

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يَكُنَّ أمَانِيَا

كَفَى المَرْءَ مَرَضًا أنْ يَرَى المَوْتَ شِفَاءً لِهُ مِنَ الأمراضِ . كَفَى بِكَ مِنَ الدَّاءِ وَشِدَّتِهِ ، وَمِنَ المَكْرُوهِ وَبُلُوغِ غَايَتِه ، أن تَرَى المَوْتَ شِفَاءً تَطْلُبُه ، وَتَعْتَدَّ بِهِ دَوَاءً تَرْغَبُه . إذا أفْضَتْ بِكَ الحَال إلى أن تَتَمَنَّى المَوْتَ،فَتِلْكَ غايةُ الشِّدَّة.وإنَّ دَاءً شِفَاؤُهُ المَوْت أقْسَى الأدواءِ. وَحَسْبُ المَنَايَا في الظَّفَرِ بِبُغْيَتِهَا ، والتَّمَكُّنِ مِنْ إرادتها ، أنْ يَكُنَّ أمَانِي يُؤْمَل وُرُودُهَا ، وَرَغَبَاتٍ يُسْتَبْطَأ حُلُولُهَا . وَالمَنِيَّةُ (المَوْت) إذا صَارَتْ أُمْنِيَّةً ، فهذه أسْوَأُ حَالٍ وأعظمُ كارثةٍ وغَايَةُ البَلِيَّةِ . والمَعْنَى : كَفَاكَ مِنْ أذِيَّةِ الزَّمَانِ مَا تَتَمَنَّى مَعَهُ المَوْت . كَفَاكَ أنْ يَكُونَ المَوْتُ هُوَ الدَّوَاءَ الشَّافي لَكَ . إذا وَصَلَتْ بِكَ الحال أنْ تَتَمَنَّى المَوْتَ ، فإنَّ ذلك هُوَ غايةُ الشِّدَّةِ والبَلاءِ، لأنَّ المَوْتَ هُوَ أقْسَى الأدواء ، والمَقصودُ هُنا بالدَّاءِ أذِيَّة الزَّمَانِ والبَلِيَّة. كَمْ هُوَ صَعْبٌ ذلك الدَّوَاء الذي يَكُون المَوْتُ مُلائِمًا له، بَلْ وَصَلَتْ بِهِ الأُمُور الى تَمَنِّي المَوْتِ للهُرُوبِ مِنْ ذلك الدَّاءِ القَاسِي الذي يُفْقِر القُلوبَ ويُدَمِّرُها، وَهُوَ يُدْرِك تمامًا أنَّ تَمَنِّي المَوْتِ هُوَ أقْسَى حَالاتِ اليأسِ التي يَستحيل مَعَهَا البَقَاء .

١٣_ لا بُدَّ مِنَ المَوْتِ

وَإذا لَمْ يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ العَجْزِ أنْ تَكُونَ جَبَانَا

إذا كانَ المَوْتُ حَقًّا لا مَفَرَّ مِنْهُ ، وَوَاقِعًا لا مَحَالَة، ولا بُدَّ مِنْهُ، والفَنَاء لا مَهْرَب مِنْهُ، ولا يُمْكِن لأحَدٍ أنْ يَتَجَنَّبَ المَوْتَ أوْ يَهْرُبَ مِنْهُ،فَمِنَ العَجْزِ أنْ تَجْبُنَ عَمَّا لا يُنَجِّيكَ مِنْهُ تَوَقُّعُكَ، ولا يَدْفَعُهُ عَنْكَ إشفاقُكَ وَتَحَرُّزُكَ . وَمِنْ عَلامةِ الضَّعْفِ والخِسَّةِ والنَّقْصِ أنْ تَمُوتَ خائفًا وَمَذعورًا ، بَدَلًا مِنْ أنْ تَمُوتَ شُجَاعًا ، وَمِقْدَامًا ، وَمُدَافِعًا عَنْ حَقِّكَ أوْ دِينِكَ أوْ وَطَنِكَ . وهذا تَعبيرٌ واضحٌ عَنْ فَضْلِ الشَّجَاعَةِ وَالمَوْتِ بِشَرَفٍ عَلى الجُبْنِ والمَوْتِ بِعَارٍ .

١٤_ مُلاقَاةُ المَنَايَا

غَيْرَ أنَّ الفَتَى يُلاقِي المَنَايَا كَالِحَاتٍ وَلا يُلاقي الهَوَانَا

إنَّ الرَّجُلَ العاقلَ الرَّاشِدَ الشُّجَاعَ الحُرَّ، العَالِمَ بحقيقةِ أمْرِه ، يُؤْثِر لِقَاءَ المَنَايَا كَالِحَاتٍ لِشِدَّتِهَا وصُعُوبتها ، ولا يُلاقي الهَوَانَ مُعْتَرِفًا بِه ، ولا يَرْتَضِيه مُسَلِّمًا لَه. أي إنَّ الحُرَّ أَحَبُّ إلَيْهِ المَوْت مِنْ

أنْ يَلْقَى ذُلًّا وَهَوَانًا . إنَّهُ يُقْدِم عَلى المَوْتِ ، وَيُقْبِل عَلَيْهِ ، رَغْمَ قَسْوَتِه وصُعوبةِ مُواجهته في جَميعِ الظُّروفِ ، ولكنَّه يَرْفُض أن يَعِيشَ ذَليلًا مُهَانًا ، فَهُوَ يُفَضِّل المَوْتَ بِهَيئته الكَئِيبة على الهَوَانِ مَهْمَا كانَ ، وَمَا ذلك إلا لأنَّ الحَيَاة لا تَدُوم لأيِّ إنسانٍ ولا لأيِّ مَخلوق ، وكُلُّ إنسانٍ سَوْفَ يَذُوق كَأسَ المَوْتِ لا مَحَالة .

١٥_ المَنَايَا هِيَ الغَايَةُ

فَإنْ يَكُ إنْسَانًا مَضَى لِسَبِيلِهِ فَإنَّ المَنَايَا غَايَةُ الحَيَوَانِ

إنْ يَكُ هَذا الإنسانُ قَدْ هَلكَ ومَاتَ ، فَإنَّ غَايَةَ الحَيَوَانِ المَوْت ، فلا عار عَلَيْه مِن ذَلِك . وَلَمْ يُرِد هَذا الإنسانُ الخُلُودَ ، فَمَصِيرُ كُلِّ حَيٍّ إلى المَوْتِ .

١٦ _ مُشَابَهَةُ الأمْوَاتِ

مَنْ لا تُشَابِهُهُ الأحْياءُ في شِيَمٍ أمْسَى تُشَابِهُهُ الأمْوَاتُ في الرِّمَمِ

هذا شَخْصٌ عظيم صاحب مَنزلة رفيعة ومَكانة سَامِيَة، لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبِيهٌ مِنَ الأحياءِ في شِيَمِهِ وأخلاقِه وصِفَاتِه ، كانَ فريدًا في كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ له نَظِير ، وهذا يَدُلُّ على تَفَوُّقِه على جَميعِ الناسِ، وَقَدْ صارَ مِنَ الأمواتِ يُشَابِهُونه في العِظَامِ البَالِيَةِ . مَاتَ فَأشْبَهَ الأمواتَ وأشبَهُوه. إنَّ المَوْتَ وَحَّدَ بَيْنَه وبَيْنَ الناسِ العاديين ، وَضَاعَت المَنزلةُ الرَّفيعةُ ، وَاخْتَفَت المَكانةُ السَّامِيَةُ ، وَغَابَت الأخلاقُ الحميدةُ والصِّفَاتُ الحَسَنَةُ ، ولا فَرْقَ بَيْنَ مَيِّتٍ وَمَيِّتٍ . كُلُّ الأمواتِ مُتَشَابِهُون في التُّرَابِ ، أجسادُهم مُتَحَلِّلَة ، وَعِظَامُهم بَالِيَة . لَقَدْ سَاوَى المَوْتُ بَيْنَ جَميعِ الناسِ ، ولا فَرْقَ بَيْنَ شَرِيفٍ وحَقِيرٍ، وغَنِيٍّ وفَقِيرٍ، ومَلِكٍ ومَمْلُوكٍ ، وقَوِيٍّ وضَعِيفٍ، وَذَكَرٍ وأُنثى. كُلُّهُم أمواتٌ للفَرَاغِ وَالعَدَمِ .

١٧_ المَوْتُ المُشَهِّي

فَنَالَ حَيَاةً يَشْتَهِيهَا عَدُوُّهُ وَمَوْتًا يُشَهِّي المَوْتَ كُلَّ جَبَانِ

عَاشَ أجْمَلَ حَيَاةٍ وأطْيَبَهَا ، عَدُوُّهُ يَشْتَهِي مِثْلَ تِلْك الحَيَاةِ ، أي إنَّه عاشَ في عِزٍّ ومَجْدٍ وَرَغَدٍ ومَنَعَةٍ، يَتَمَنَّاهُ العَدُوُّ لِنَفْسِه،ثُمَّ مَاتَ مَوْتًا يُشَهِّي المَوْتَ إلى الجُبَنَاءِ،لأنَّه كانَ مَوْتًا في عَافِيَةٍ بِلا أَلَمٍ ولا مَرَضٍ، وَالجَبَانُ يَشْتَهِي أنْ يَمُوتَ حَتْفَ أنْفِه ، أي: عَلى فِرَاشِه مِنْ غَيْرِ قَتْلٍ .

١٨_ السَّلامَةُ مِنَ المَوْتِ إلى المَوْتِ

وَإنْ أسْلَمْ فَمَا أبْقَى وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الحِمَامِ إلى الحِمَامِ

إنْ سَلِمْتُ مِنْ مَوْتٍ هُنا اليَوْم، فَلَنْ أنْجُوَ مِنْ مَوْتٍ غَدًا هُناك ، فالسَّلامَةُ لا تَعْني لَكَ البَقَاءَ. أي إنْ سَلِمْتُ مِنَ المَوْتِ فَلَنْ أَخْلُدَ في هذه الدُّنيا ، ولَكِنِّي أَسْلَمُ مِنَ المَوْتِ بِطَرِيقَةٍ إلى المَوْتِ بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى،أي إنَّ الخُلُودَ في الحَيَاةِ مُمْتَنِعٌ، ولا بَقَاءَ لِحَيٍّ في الدُّنيا، ومَصِيرُ الناسِ هُوَ الفَنَاء .

١٩_ سُرْعَةُ المَنِيَّةِ

قَدْ كَانَ أسْرَعَ فَارِسٍ في طَعْنَةٍ فَرَسًا وَلَكِنَّ المَنِيَّةَ أسْرَعُ

هذا فارسٌ عظيمٌ يَمتاز بالجُرْأةِ والشَّجَاعَةِ، قَدْ كَانَ أسْرَعَ الفُرْسَانِ فَرَسًا إلى الطَّعْنِ ، وأشَدَّهُم إقدامًا على اقتحامِ غَمَرَاتِ الحَرْبِ ، ولَكِنَّ المَوْتَ أسْرَعُ في إدراكِ مَا تَقْصِدُه ، وأقْرَبُ إلى مَا تَبْغِيه وتَعْتمده ، ولا أحَد يَسْبِقُ المَوْتَ ، والمَوْتُ غَالِبٌ لا مَغْلُوب .

٢٠_ ضَجْعَةُ المَوْتِ

لا بُدَّ للإنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعَ عَنْ جَنْبِه

لا بُدَّ للإنسانِ مِن اضطجاعٍ في القَبْرِ، لا يَقْلِبُه ذلك الاضطجاعُ عَنْ جَنْبِه ، أي إنَّه يَبْقَى كَمَا اضْطَجَعَ ، لا يَتَحَرَّك ، لأنَّه جُثَّة هامدة. لا بُدَّ للإنسانِ مِنْ ضَجْعَةٍ بِالمَوْتِ لا تَقْلِبُه عَنْ جَنْبِه ، ولا تُمَلِّكُه شَيْئًا مِنْ أمْرِه ، تَطْرُقُه بِأجْلِه ، وَتُسَلِّمُه إلى مَا قَدَّمَه مِنْ عَمَلِه ، وهَذا يشير إلى أنَّ المَوْتَ لا مَفَرَّ مِنْه ، ولا يُمْكِن لأيِّ شخصٍ أنْ يَهْرُبَ مِنْه .

٢١_ شُرْبُ المَوْتِ

نَحْنُ بَنُو المَوْتَى فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لا بُدَّ مِنْ شُرْبِه

نَحْنُ بَنُو المَوْتَى المَطْبُوعون عَلى المَوْتِ ، والمخلوقون له ، ولا يُمْكِن الهُروب مِنْه، فَمَا بَالُنا نَعَافُ مَا لا بُدَّ لَنَا مِنَ الوُرودِ عَلَيْهِ ، وَنَكْرَه مَا لا عَاصِمَ لَنَا مِنَ المَصِيرِ إلَيْه ؟. نَحْنُ أبناءُ الأمواتِ ،

ولا بُدَّ لَنَا مِنْه ، وكَمَا مَاتَ مَنْ تَقَدَّمَنَا مِنْ آبائِنا ، فكذلك نَحْنُ على أثَرِهِم . لَقَدْ مَاتَ آباؤُنا وأجدادُنا،وَنَحْنُ سَنَمُوت أيضًا،فَكَيْفَ نَكْرَه مَا لا بُدَّ لَنَا مِنْه ؟! ، إنَّ الفَرْعَ يَلْتَحِق بِأصْلِه وَيَعُود إلَيْه.

٢٢_ المَوْتُ يُوحِّد بَيْنَ الجَاهِلِ والعَالِمِ

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأنِ في جَهْلِهِ مِيتَةَ جَالِينُوسَ في طِبِّهِ

المَوْتُ يُسَاوِي بَيْنَ الجميعِ على اختلافِ عُقُولِهم وقُدراتِهم ومَوَاهِبِهِم وَطَبَقاتِهِم الاجتماعية . يَمُوتُ رَاعِي الغَنَمِ فِيما هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الجَهْلِ كَمِيتَةِ جالينوس معَ مَنزلته مِنَ العِلْمِ والطِّبِّ ، على سَبيلٍ واحدة، وَطَرِيقةٍ في العَجْزِ عَنْ دَفْعِ المَوْتِ واضحة . لا حِيلَة لأحَدٍ في المَوْتِ، يَسْتَوِي فِيه الأحمقُ الجاهلُ والطبيبُ العَالِمُ ، فَجَهْلُ هَذا لا يُقَدِّمُ أجَلَه، وَعِلْمُ الآخَرِ لا يُؤَخِّر مَوْتَه. إنَّ المَوْتَ حَتْمِيٌّ عَلى كُلِّ أَحَدٍ جَاهِلًا كانَ أوْ عَالِمًا ، فالرَّاعِي الجَاهِلُ يَمُوتُ كَمَا يَمُوتُ الطبيبُ الحَاذِقُ . والجَديرُ بالذِّكْرِ أنَّ العَرَبَ تَضْرِبُ المَثَلَ بالجَهْلِ بِرَاعِي الضَّأنِ ، فَتَقُول : أجْهَلُ مِنْ رَاعِي الضَّأنِ .

٢٣_ مَوْتُ الأكَاسِرَةِ الجَبَابِرَةِ

أيْنَ الأكَاسِرَةُ الجَبَابِرَةُ الأُلَى كَنَزُوا الكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ ولا بَقُوا

أيْنَ المُلُوكُ ؟ ، وَأيْنَ الجَبَابِرَةُ الذينَ كَنَزُوا المالَ وَأعَدُّوه ، فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ المَوْتِ شَيْئًا . لَمْ يَحْمِهِم المالُ مِنَ الفَنَاءِ ، وَلَمْ تَحْرُسْهُم الكُنُوزُ مِنَ العَدَمِ . لَمْ تَبْقَ الكُنُوزُ، وَلَمْ يَبْقَوْا هُمْ . إنَّ فَقْدَهُم مُحَقَّقٌ ، لَقَدْ جَمَعُوا الأموالَ ، وَسَهِرُوا الليالي في عَدِّهَا وإحْصَائِهَا ، وحَرَسُوها بأظافِرِهم وأسنانِهِم ، ولَمْ يَبْقَوْا هُمْ ولا أموالُهم. أيْنَ مَصِيرُ العُظَمَاءِ السابقين وَمَصِيرُ كُنوزِهم التي جَمَعُوهَا ؟، إنَّه الفَنَاءُ وَالفَرَاغُ وَالعَدَمُ، وَهَذه حَالُ الدُّنيا.والأكَاسِرَةُ جَمْعُ كِسْرَى، وَهُوَ لَقَبُ مَلِكِ الفُرْسِ قديمًا .

٢٤_ الفَنَاءُ هُوَ المَصِيرُ

وَرَأيْتُ كُلًّا مَا يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِتَعِلَّةٍ وإلى الفَنَاءِ يَصِيرُ

وَرَأيْتُ كُلَّ إنسانٍ يُمَنِّي نَفْسَه وَيُرَجِّي نَفْسَه بِشَيْءٍ مِنَ الأشياءِ ، ومَصِيرُه إلى المَوْتِ وَالفَنَاءِ والعَدَمِ. وَالتَّعِلَّةُ: التَّعْلِيلُ، يُقَال : فُلان يُعَلِّل نَفْسَه بِكَذا، أي: يُمَنِّي نَفْسَه ذلك وَيُرَجِّي بِهِ الوَقْتَ .

٢٥_ الدَّفْنُ في التُّرَابِ

مَا كُنْتُ أحْسَبُ قَبْلَ دَفْنِكَ في الثَّرَى أنَّ الكَوَاكِبَ في التُّرَابِ تَغُورُ

مَا كُنْتُ أَظُنُّ قَبْلَ مَوْتِكَ أنَّ النُّجُومَ تَخْتفي في التُّرَابِ ، حَتَّى رَأيْتُكَ وَأنْتَ أكثرُ بَرِيقًا ولَمَعَانًا وإضاءةً مِنَ الكَواكبِ قَدْ غِبْتَ في التُّرَابِ. وهذا يَعْني أنَّ قَبْرَه أشرَقَ بِنُورِ وَجْهِه .

٢٦_ الضَّرِيحُ مَحْفُورٌ في القَلْبِ

حَتَّى أَتَوْا جَدَثًا كَأنَّ ضَرِيحَهُ فَي قَلْبِ كُلِّ مُوَحِّدٍ مَحْفُورُ

حَتَّى أَتَوُا القَبْرَ الغريبَ كَأنَّه قَدْ حُفِرَ في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ لِحُزْنِهم عَلَيْه ، وَمَحَبَّتِهِم له ، وتَأثُّرِهِم الشَّديدِ بِفِرَاقِه . وَسَوْفَ يَظَلُّ حَيًّا في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ إلى الأبَدِ . والجَدَثُ : القَبْرُ ، والجَمْعُ أجْدَاث ، والضَّرِيحُ : الشَّقُّ في وَسَطِ القَبْرِ ، واللَّحْدُ : الشَّقُّ في جَانِبِ القَبْرِ .

٢٧_ اسْتِسْقَاءُ الغَمَامِ للقَبْرِ

فَأصْبَحْتُ أسْتَسْقِي الغَمَامَ لِقَبْرِهَا وَقَدْ كُنْتُ أسْتَسْقِي الوَغَى وَالقَنَا الصُّمَّا

بَعْدَ أنْ كُنْتُ أسْتَسْقِي الحَرْبَ وَالرِّماحَ الصُّلْبَةَ دِمَاءَ الأعداءِ، صِرْتُ أسْتَسْقِي السَّحَابَ قَبْرَهَا، فأقول : سَقَى اللَّهُ قَبْرَها _ عَلى عَادَةِ العَرَبِ في الدُّعَاءِ للقُبورِ بِسُقْيَا السَّمَاءِ _ ، والمَعْنَى : تَرَكْتُ الحَرْبَ وَجْدًا بِهَا ، وَحُزْنًا عَلَيْهَا ، وَاشتَغَلْتُ بالدُّعَاءِ لها .

٢٨_ النَّعْي

يَا مَنْ نُعِيتُ عَلى بُعْدٍ بِمَجْلِسِهِ كُلٌّ بِمَا زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ

يُخَاطِبُ الشَّاعرُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الحَمْدَانيَّ : يا مَنْ نُعِيتُ بِمَجْلِسِه ، عَلَى بُعْدِ دَارِي مِنْ دَارِه ، وانتزاحِ مَحَلِّي عَنْ مَحَلِّه ، كُلُّ شَخْصٍ بِمَجْلِسِكَ قال إنِّي مَيِّتٌ رُوحُه غَيْرُ باقية في الدُّنيا . كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُرْتَهَنٌ بِمَا ذَكَرَه النَّاعِي لَهُ مِنَ المَوْتِ الذي لا بُدَّ مِنْهُ ، ولا مَحِيص لأحَدٍ عَنْه، والشَّامِتُ في ذلك سَاقِطٌ ، والحِرْصُ فِيه مِنَ المُتَرَبِّصِين لا مَعْنى له ، والناسُ في المَوْتِ إسْوَةٌ ، وَلَيْسَ بِهِم

عَلى استدفاعِه قُوَّة ، والجميعُ سَوْفَ يَمُوت بلا استثناء ، ومَصِيرُ الخَلائقِ كُلِّهَا إلى الفَنَاءِ والعَدَمِ . وكُلُّ أَحَدٍ مُرْتَهَنٌ بِالمَوْتِ لا بُدَّ مِنْه . وَنَعْيُ الرَّجُلِ: الإخبارُ بِمَوْتِه ، وَالمُرْتَهَنُ بِالشَّيْءِ : المَوْقُوفُ عَلَيْه ، المُتَّخَذ مَقَام الرَّهْن عَنْه .

كَمْ قَدْ قُتِلْتُ وكَمْ قَدْ مُتُّ عِنْدَكُمُ ثُمَّ انتَفَضْتُ فَزَالَ القَبْرُ وَالكَفَنُ

قالَ الشَّاعِرُ وَهُوَ يُرِيدُ سَيفَ الدَّوْلَةِ الحَمْدَانيَّ : كَمْ قَدْ مُتُّ عِنْدَكُم وَفُقِدْتُ وَهَلَكْتُ وَقُتِلْتُ ، ثُمَّ انْتَفَضْتُ فَزَالَ الكَفَنُ وَالقَبْرُ ، وكَذَبَ ذلك الخَبَرُ والذِّكْرُ . لَقَدْ أُخْبِرْتُمْ بِمَوْتي ، وَتَحَقَّقَ ذلك عِندَكُم،ثُمَّ بانَ الأَمْرُ بِخِلاف ذلك ، فَكَأني كُنْتُ مَيْتًا ثُمَّ خَرَجْتُ مِنَ القَبْرِ .

قَدْ كَانَ شَاهَدَ دَفْني قَبْلَ قَوْلِهِمِ جَمَاعَةٌ ثُمَّ مَاتُوا قَبْلَ مَنْ دَفَنُوا

يَقُولُ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الحَمْدَانيِّ مُعَرِّضًا بِتَرَبُّصِهِ بِه ، وَمَا يَعْتقده مِنَ الضَّغينةِ له : قَدْ كانَ شَاهَدَ دَفْنِي قَبْلَ الذينَ نَعَوْني عِنْدَكَ ، وَقَطَعُوا عَلى مَوْتي في مَجْلِسِكَ ، جَمَاعَةٌ حَقَّقُوا ذلك ، وَقَرَّرُوه عِنْدَكَ ، ثُمَّ ماتَ أُولئك المُخْبِرُون، وَبَقِيتُ بَعْدَهُم ، وَسَلِمْتُ ، وأَكْذَبَ اللَّهُ قَوْلَهُم ، فَهَلَكُوا قَبْلَ مَنْ دَفَنُوه بِزَعْمِهِم،وَتَلِفُوا ، وَلَمْ أَتَضَرَّرْ بِكَذِبِهِم . وهذا البَيْتُ فيه استهزاء واضحٌ وسُخْرِيَة لاذعة ، لَقَدْ زَعَمُوا أَنَّني دُفِنْتُ ثُمَّ مَاتوا قَبْلي . وَقَوْلُه : دَفَنُوا ، أي: إنَّهُم قالوا ذلك .

*

الفصل الثالث

الحَيَاةُ

١ــ الحَيَاةُ شَهِيَّة

وَالمَرْءُ يَأمُلُ وَالحَيَاةُ شَهِيَّةٌ وَالشَّيْبُ أوْقَرُ والشَّبِيبَةُ أنْزَقُ

الإنسانُ يَتَمَنَّى الحَيَاةَ الطَّيبةَ الجَمِيلةَ، وَيَتَمَنَّى الشَّبَابَ أبَدًا، لأنَّ هَذا مِنْ طَبْعِ البَشَرِ وَعَادَتِهِم، وَيَكْرَه الشَّيْبَ ، والشَّيْبُ خَيْرٌ للإنسانِ ، لأنَّ في الشَّيْبِ الحِلْمَ والوَقَارَ والحِكْمَةَ . والإنسانُ يُحِبُّ الشَّبَابَ وَهُوَ شَرٌّ لَه ، لأنَّه يَحْمِلُه عَلى الطَّيْشِ وَالخِفَّةِ. إنَّ الشَّيْبَ أوْقَرُ مِنْ غَيْرِه ، والشَّبِيبَةُ أنْزَقُ مِنْ غَيْرِها. والمَعنى العام:الإنسانُ يَكْرَه الشَّيْبَ، وَهُوَ خَيْرٌ لَه، لأنَّه يُفِيدُه الحِلْمَ والوَقَارَ ، وَيُحِبُّ الشَّبَابَ ، وَهُوَ شَرٌّ لَه ، لأنَّه يَحْمِلُه عَلى الطَّيْشِ وَالخِفَّةِ .

٢ــ عَدَمُ بَقَاءِ الحَيَاةِ

وَلَوْ أنَّ الحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أَضَلَّنَا الشُّجْعَانَا

لَوْ أنَّ الحَيَاةَ باقيةٌ غَيْرُ فائتة ، وَمُقِيمَةٌ غَيْرُ راحلة ، لَعَدَدْنَا الشُّجْعَانَ أَضَلَّنَا عَنِ القَصْدِ ، وأجْهَلَنَا بِطَرِيقِ الرُّشْدِ، بِتَعَرُّضِهِم للمَهَالِكِ ، وَتَقَحُّمِهِم في المَخَاوِفِ. لَوْ كانت الحياةُ باقيةً لَكَانَ الشُّجَاعُ الذي يَتَعَرَّضُ للقَتْلِ بِحُضُورِ القِتَالِ أضَلَّ الناسِ وأجْهَلَهُم . لَوْ كانت الحَيَاةُ تَدُوم لَكَانَ أغْبَى شَخْص هُوَ الشُّجَاعَ الذي يَمْتَاز بالجُرْأةِ والإقدامِ ، وَيَتَعَرَّض للقَتْلِ ، فَيُقْتَل ، فَحَرَمَ بذلك نَفْسَه مِنْ بَقَاءِ الحَيَاةِ وَلَذَّاتِهَا وَشَهَوَاتِهَا ، وَلَكِن إذا كانَ المَوْتُ لا بُدَّ مِنْه ، وفي الشَّجَاعَةِ المَجْدُ والشَّرَفُ والرِّفْعَةُ ، فالشَّجَاعَةُ أَوْلَى مِنَ الجُبْنِ، وأفْضَلُ مِنْه.إنَّ الحَيَاةَ لا تَبْقَى وَإنْ جَبُنَ الإنسانُ ، وَلَزِمَ بَيْتَه ، وَحَرَصَ عَلى البَقَاءِ . والحَيَاةُ لا تَدُوم ، فَمَا يَنْبَغِي للحَيِّ أنْ يَخَافَ وَيَجْبُنَ ، إذْ لا بُدَّ مِنْ لِقَاءِ المَوْتِ ، والمَوْتُ آتٍ لا مَحَالَة ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ . وفي الجُبْنِ العَارُ والخِزْيُ .

٣ ــ الحَيَاةُ غُرُور

إنِّي لأعْلَمُ واللبيبُ خَبِيرُ أنَّ الحَيَاةَ وَإنْ حَرَصْتَ غُرُورُ

إنِّي لأعْلَمُ والعاقلُ الذَّكِيُّ عَلِيمٌ وَخَبِيرٌ أنَّ الحَيَاةَ الدُّنيا وَإنْ حَرَصَ عَلَيها الإنسانُ وَهْمٌ وَكَذِبٌ وَغُرُورٌ، يَغْتَرُّ بِها الإنسانُ، ويَنْخَدِع بِهَا، وَيَظُنُّ أنَّه يَبْقَى وَيَدُوم وَتَطُول حَيَاتُه ، ولَكِن لا بَقَاء لأحَدٍ.

٤_ الحَيَاةُ هِيَ المَوْتُ

إذا كَانَ الشَّبَابُ السُّكْرَ وَالشَّيْبُ هَمًّا فَالحَيَاةُ هِيَ الحِمَامُ

إذا كانَ الشَّخْصُ خِلالَ فَترةِ الشَّبَابِ كَالسَّكْرَانِ جاهلًا بالأُمُور ، وغَافِلًا عَن العَوَاقِب ، وكانَ في فَترةِ الشَّيْبِ حَزِينًا بسببِ ضَعْفِه ، وكَئِيبًا بسببِ حَاجَتِه إلى الآخَرِين ، فَلا خَيْرَ في الحَيَاةِ ، بَلْ إنَّ هذه الحَيَاةَ هِيَ المَوْتُ بِعَيْنِه . إنَّ الحَيَاةَ في الدُّنيا مُنَغَّصَةٌ مُكَدَّرَةٌ ، لأنَّ الشَّابَّ كَالسَّكْرَانِ في سُكْرِ شَبِيبته ، والشَّيْبُ هَمٌّ لِضَعْفِ الإنسانِ عِند الشَّيْبِ ، واهتمامِه لِمَا فَاتَ مِنْ عُمْرِه ، وَهَذِهِ الحَيَاةُ مَوْتٌ بِعَيْنِه . إنَّ الحَيَاةَ مَوْتٌ مُكْتَمِلُ الأركانِ ، وكَامِلُ المَعَالِمِ .

٥_ زَوَالُ الحَيَاةِ

كَثِيرُ حَيَاةِ المَرْءِ مِثْلُ قَلِيلِهَا يَزُولُ وباقي عَيْشِهِ مِثْلُ ذَاهِبِ

حَيَاةُ المَرْءِ وَاحِدَةٌ ، لا تَتَكَرَّر ولا تُسْتَعَاد ولا تُسْتَرْجَع ، والمَرْءُ يَعِيشُ مَرَّةً وَاحدةً ، ثُمَّ مَصِيرُه إلى المَوْتِ ، وَمَهْمَا طَالَ عُمْرُ الإنسانِ فَإنَّ له نِهَاية حَتْمِيَّة ، هِيَ الفَنَاءُ والعَدَمُ . والعُمْرُ سَوَاءٌ كانَ طَوِيلًا أَمْ قصيرًا ، فهو زائلٌ مُضْمَحِل ، ولا فَرْقَ بَيْنَ كَثيرِ حَياةِ المَرْءِ وقَلِيلِها ، فَكِلاهُمَا وَهْمٌ مُنْتَهٍ . وَهَذا حَثٌّ عَلى الشَّجَاعَةِ والإقدامِ والتَّضحيةِ والبُطولةِ ، وَنَهْيٌ عَن الخَوْفِ والجُبْنِ وَالخِزْيِ والعَارِ، أي: إذا كانت الحَيَاةُ فَانِيَةً زائلةً، لا تَدُوم ولا تَبْقَى ، وَإنْ كانت طويلةً ، فلا مَعْنى للخَوْفِ وَالجُبْنِ.

٦_ الحَيَاةُ غَيْرُ المُلائِمَةِ

وَمَا الحَيَاةُ وَنَفْسِي بَعْدَمَا عَلِمَتْ أنَّ الحَيَاةَ كَمَا لا تَشْتَهِي طَبَعُ

وَمَا لِنَفْسِي مَعَ الحَيَاةِ بَعْدَ أنْ عَلِمْتُ أنَّ الحَيَاةَ غَيْرَ المُشْتَهَاةِ طَبَعٌ وَدَنَسٌ وَقَذَارَةٌ . هَذه الحَيَاةُ لا تُلائِم نَفْسِي بَعْدَ أنْ عَلِمْتُ أنَّها مَطبوعة عَلى عَكْسِ مَا أُرِيدُ وأَرْغَبُ وأشْتَهِي . لا أُرِيدُ هذه الحَيَاةَ التَّعيسةَ البائسة .

٧_ الحِرْصُ عَلى الحَيَاةِ

أرى كُلَّنا يَبْغي الحَيَاةَ لِنَفْسِهِ حَرِيصًا عَلَيْهَا مُسْتَهَامًا بِهَا صَبَّا

أرى كُلَّنا يُرِيدُ الحَيَاةَ بِمَا يَفْعَلُه ، وَيَسْعَى لَهَا فِيمَا يُقَدِّرُه ، تَمَسُّكًا بِهَا ، وَحِرْصًا عَلَيها ، وإيثارًا لها ، وَشَغَفًا بِهَا ، وَصَبَابَةً بِحُبِّهَا . كُلٌّ مِنَّا طَالِبٌ للحَيَاةِ ، وَعَاشِقٌ لَهَا ، وَلاهِثٌ وَرَاءَهَا ، يُحِبُّهَا بِكُلِّ مَشَاعِرِه وأحاسيسِه ، وَيَحْرِص عَلَيها أشَدَّ الحِرْصِ، وَيَتَمَسَّك بِهَا بأظافرِه وأسنانِه .

٨ _ لَذِيذُ الحَيَاةِ

وَلَذِيذُ الحَيَاةِ أنْفَسُ في النَّفْسِ وَأشْهَى مِنْ أنْ يُمَلُّ وَأحْلَى

إنَّ الحَيَاةَ غاليةٌ وثمينةٌ وَشَهِيَّةٌ وجَميلةٌ وبَرَّاقَةٌ ، لا تُمَلُّ ، ولا تُكْرَه ، ولا يُسْأم مِنْهَا ، وَالحَيَاةُ أَعَزُّ وَأحْلَى مِنْ أنْ يَمَلَّهَا صَاحِبُها ، أوْ يَبْتَعِد عَنْهَا ، أوْ يَضْجَر مِنْهَا .

٩ _ صَفَاءُ الحَيَاةِ

تَصْفُو الحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ

الحَيَاةُ لا تَصْفُو للعاقلِ الذي يَلْحَظُ الدُّنيا بِعَيْنِ المَعْرِفَةِ ، وَيَتَأمَّلُهَا تَأمُّلَ الدِّرَايَةِ والتَّجْرِبَةِ ، وإنَّما تَصْفُو لِجَاهِلٍ لا يَعْرِف عَوَاقِبَها فَيَتَوَقَّعُهَا ، أوْ غَافِلٍ لا يَمْتَثِل تَصَارِيفَها فيتذكرها . إنَّ الحَيَاةَ تَصْفُو لِجَاهِلٍ بأحوالِ الدُّنيا، أوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى مِنْ حَيَاتِه ، وَمَا يُتَوَقَّع في العَوَاقِبِ مِن انقضائِها. والجاهلُ الغافلُ مُرتاحٌ ، وَقَد استراحَ مَنْ لا عَقْلَ له ، إذْ إنَّ العَاقِلَ كَثِيرُ الهُمُومِ وَالفِكْرِ في الأُمُور ، ولا يَكَاد يَفْرَح بِشَيْءٍ ، ولا يَهْنَأ بِه ، والأحمقُ لا يُفَكِّر بِشَيْءٍ ، فَيَهْتَمُّ لَه ، أوْ يُحَلِّلُه ، أوْ يُفَسِّرُه.

وَلِمَنْ يُغَالِطُ في الحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُومُهَا طَلَبَ المُحَالِ فَتَطْمَعُ

وأيضًا ، تَصْفُو الحَيَاةُ لِمَنْ يُغَالِط نَفْسَه في الحَقائِقِ ، وَيُعَلِّلُها بالأماني الكاذبة ، وَيُطَمِّعُها في الأُمُورِ المُستحيلةِ . وَتَصْفُو الحَيَاةُ لِمَنْ يُكَابِر فِيها عَقْلَه ، وَتَحْسُن عِندَ مَنْ يُغَالِط فيها نَفْسَه ، فَيَخْدَعُها بِالمُحَالِ ، فَتَرْكَن إلَيْه ، ويُمَنِّيها إيَّاه فَتَعْتمد بِأمَلِها عَلَيْه . والمَقصودُ بالحَقائِقِ مَا لا شَكَّ

فِيه للعاقل ، وَهِيَ أنَّ الدُّنيا دَارُ مَخَاوِف وأخطار ومَصائب وكوارث وأزَمَات ، والإنسانُ فِيها عَلى خَطَرٍ عَظِيم ، وإنَّ الحَيَاةَ غَيْرُ باقيةٍ ، فَمَنْ غَالَطَ في هذا نَفْسَه ، وَمَنَّاهَا السَّلامَةَ وَالبَقَاءَ ، صَفَا لَهُ العَيْشُ في الوَقْتِ، وَصَارَتْ حَيَاتُه ناعمةً وهادئةً ولطيفةً ، حِينَ أَلْقَى عَنْ نَفْسِه الفِكْرَةَ في العَوَاقِبِ، وكَلَّفَ نَفْسَه طَلَبَ المُحَالِ مِنَ البَقَاءِ في السَّلامةِ معَ نَيْلِ المُرَادِ ، فَطَمِعَتْ في ذلك . ولا خُلُود لأحَدٍ في الدُّنيا ، ولا بَقَاء لأحَدٍ في الحَيَاةِ . وَقَدْ بَدَأت الدُّنيا بِدُون الإنسانِ ، وَسَتَنْتَهِي بِدُونِه .

١٠ــ عَدَمُ المَلَلِ مِنَ الحَيَاةِ

وإذا الشَّيْخُ قَالَ أُفٍّ فَمَا مَلَّ حَيَاةً وإنَّمَا الضَّعْفَ مَلَّا

أُفٍّ : كَلِمَةٌ يَقُولُها المُتَضَجِّرُ الكَارِهُ للشَّيْءِ . إذا مَلَّ الشَّيْخُ وَضَجِرَ وَسَئِمَ ، فقالَ لِنَفْسِه : أُفٍّ ، وَأظْهَرَ الاستطالةَ لِمُدَّةِ عُمْرِه ، فَإنَّ ذلك المَلَلَ مِنْ ضَعْفِ الكِبَرِ لا مِنَ الحَيَاةِ . أي : لَيْسَ ذلك لِأنَّه مَلَّ الحَيَاةَ وَسَئِمَهَا، وَاسْتَثْقَلَهَا وَكَرِهَهَا، وإنَّما مَلَّ الضَّعْفَ وَالهَرَمَ، وَاسْتَكْرَهَ الكِبَرَ وَالأَلَمَ ، يُشِير إلى أنَّ الحَيَاةَ جَميلةٌ شَهِيَّةٌ ، تَألَفُهَا طِبَاعُ البَشَر ، وتُسْتَحَبُّ في الكِبَرِ والشَّيخوخةِ .

١١ ــ العَيْشُ السَّعِيدُ في الحَيَاةِ

آلَةُ العَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ فإذا وَلَّيَا عَنِ المَرْءِ وَلَّى

إنَّ العَيْشَ يَحْلُو وَيَطِيب بالشَّبَابِ وَصِحَّةِ البَدَنِ ، فَإذَا لَمْ يَكُنْ في العَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ ، ضَاعَت الحَيَاةُ ، وَفَسَدَ العَيْشُ ، وَوَلَّى بِذَهَابِهما. ولا يَحْيَا الإنسانُ حَيَاةً سَعِيدَةً إلا بِصِحَّةِ جِسْمِهِ وَشَبَابِه ، فَهُمَا كالآلَةِ للحَيَاةِ ، فَإذَا فَقَدَهُمَا فَقَدَ سَعَادَتَه . وَلَذَّةُ العَيْشِ معَ صِحَّةِ الجِسْمِ وَحَيَوِيَّةِ الشَّبَابِ،وإذا فَقَدَ المَرْءُ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْن الأساسِيَّيْن، فَلَيْسَ لَهُ عَيْشٌ ، بَلْ إذا وَلَّيَا وَلَّى المَرْءُ، أي إنَّ المَرْءَ يُفَارِقُ الحَيَاةَ بِفِرَاقِهِمَا،ويُصبح شَبَحًا لا قِيمَة له، وَمَسْخًا لا مُسْتَقْبَل له ، وَوَهْمًا لا حقيقة له.

١٢ــ حَيَاةٌ بِلا مَعْنى

إذا مَا عَدِمْتَ الأصْلَ وَالعَقْلَ وَالنَّدَى فَمَا لِحَيَاةٍ في جَنَابِكَ طِيبُ

إذا لَمْ يَكُنْ للمَرْءِ أصْلٌ ولا عَقْلٌ ولا جُودٌ ، لَمْ تَطِبْ لأحَدٍ حَيَاةٌ عِندَه . أي : إذا عَدِمْتَ جَمِيعَ خِصَالِ الخَيْرِ ، فَلا يَطِيب لأحَدٍ الحَيَاةُ في قُرْبِكَ . وهذا يَدُلُّ على أنَّ الصِّفَات الجميلة والأخلاق الحميدة لَدَى المَرْءِ ، تَجْذِب إلَيْه الآخَرِين ، وتُقَرِّبُهُم مِنْهُ ، وتُحَبِّبُهُم فِيه .

الفصل الرابع
الدُّنيا

١_ البُكَاءُ عَلى الدُّنيا

نَبْكِي عَلى الدُّنيا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمُ الدُّنيا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

نَبْكِي على فِرَاقِ الدُّنيا ، ولا بُدَّ لَنَا مِنْهُ ، لأنَّه لَمْ يَجْتَمِعْ قَوْمٌ في الدُّنيا إلا تَفَرَّقُوا ، لأنَّ عَادَةَ الدُّنيا الجَمْعُ والتَّفريقُ . وَالبَشَرُ دَائِمُو البُكَاءِ على الدُّنيا ، والحُزْنِ عَلَيْهَا ، والأسَفِ عَلى فَوَاتِ نَصِيبِهِم مِنْهَا ، وهذا كُلُّه لا مَعْنى له ، ولا فائدة مِنْه ، لأنَّ مَصِيرَ الناسِ في هَذه الدُّنيا هُوَ الفِرَاقُ ، وهذا يُشِير إلى حَتْمِيَّةِ المَوْتِ ، واستحالةِ الهُرُوبِ مِنْه ، لذلك يَنْبغي عَدَمُ المُبَالَغَةِ في الحُزْنِ عَلى فِرَاقِ الأحِبَّةِ ، والاتِّعَاظُ بالأُمَمِ السابقة ، لأنَّ الفِرَاقَ وَاقِعٌ لا مَحَالَة ، وَكَائِنٌ بِلا شَك ، وَفِرَاقُ الأحِبَّةِ أَمْرٌ مِنْ طَبيعةِ الحَيَاةِ البَشَرِية .

٢_ الدُّنيا لِمَنْ غَلَبَ

فَالمَوْتُ أعْذَرُ لِي وَالصَّبْرُ أجْمَلُ بِي وَالبَرُّ أوْسَعُ وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

المَوْتُ أعْذَرُ لِي مِنْ أنْ أعِيشَ ذَلِيلًا مُهَانًا بِلا وَزْنٍ ولا قِيمَةٍ ، فإذا قُتِلْتُ في طَلَبِ المَعَالي قَامَ المَوْتُ بِعُذْرِي، وَالصَّبْرُ أجْمَلُ بِي ، لأنَّ الجَزَعَ عَادَةُ اللِّئَامِ ، وَالبَرُّ أوْسَعُ لِي مِنْ مَنْزِلي، فأنا أُسَافِرُ وَأتَنَقَّلُ في البِلادِ ، وَالدُّنيا لِمَنْ غَلَبَ وَزَاحَمَ لا لِمَنْ لَزِمَ المَنْزِلَ ، وهذا يدلُّ على أهميةِ الحَرَكَةِ والنَّشَاطِ والحَيَوِيَّةِ والانطلاقِ والسَّعْي نَحْو المَجْدِ والشَّرَفِ والرِّفْعَة .

٣_ اسْتِصْغَارُ الدُّنيا

وَلَمْ نَرَ شَيْئًا يَحْمِلُ العِبْءَ حَمْلَهُ وَيَسْتَصْغِرُ الدُّنيا وَيَحْمِلُهُ طِرْفُ

مَا رَأيْنَا شَخْصًا يَحْمِلُ المَغَارِمَ ، وَمُؤَنَ العُفَاةِ (طُلَّاب المَعروف ، الوَاحِدُ عَافٍ) وَالحِلْمَ وَالوَقَارَ مِثْل مَا يَحْمِلُه المَمْدُوحُ ، وَهُوَ مَعَ ذلك يَسْتَصْغِر الدُّنيا لِعِظَمِ هِمَّتِه ، ومعَ ذلك يَحْمِلُه طِرْف . والعِبْءُ : الحِمْلُ الثقيل ، والطِّرْفُ : الفَرَسُ الكريم .

٤ _ الدُّنيا سَبَبُ الظَّمَأ

أظْمَتْنِيَ الدُّنيا فَلَمَّا جِئْتُهَا مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا

أعْطَشَتْني الدُّنيا بِمَا أصَابَتْني مِنْ مِحَنِهَا ، فلمَّا سَألْتُهَا أنْ تَكْشِفَ عَنِّي بِالرَّاحَةِ والرِّضَا زَادَتْني بَلاءً ، فَأمْطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَ وكوارث وأزَمَاتٍ . والاسْتِسْقَاءُ : طَلَبُ السَّقْي. كانَ حَظُّهُ مِنَ الدُّنيا الحِرْمَان ، فَلَمَّا أقْبَلَ يَلْتَمِسُ جُودَها وَعَطَاءَها ، أفْرَغَتْ عَلَيْه المَصَائِبَ . لَقَدْ شَوَّقَتْهُ الدُّنيا إلى الظَّفَرِ بِالمُرَادِ، وَمَنَعَتْهُ نَيْلَه والحُصُولَ عَلَيْه .

٥ _ تَقَلُّبُ الأحْوَالِ في الدُّنيا

كَذَا الدُّنيا عَلى مَنْ كَانَ قَبْلي صُرُوفٌ لَمْ يُدِمْنَ عَلَيْهِ حَالا

لَمْ تَزَل الدُّنيا على هَذه الحَالِ مُذْ كانتْ، لا تَثْبُت صُرُوفُها عَلى حَالٍ واحدة ، ولا تَدُوم وَفْقَ نَسَقٍ وَاحِدٍ ، فكذلك كانَ حَالُها مَعَ غَيْرِي مِنَ الناسِ الذينَ قَبْلي .

٦_ سَعَةُ الدُّنيا

وَمَا انْسَدَّتِ الدُّنيا عَلَيَّ لِضِيقِهَا وَلَكِنَّ طَرْفًا لا أرَاكِ بِهِ أعْمَى

مَا انْسَدَّتِ الدُّنيا عَلَيَّ لأنَّها ضَيِّقَة، بَلْ هِيَ واسعة،وَلَكِنْ بسبب فَقْدِكَ.والعَيْنُ التي لا أراكَ بها عَمْيَاء،فلذلك انْسَدَّتْ عَلَيَّ الدُّنيا وضاقتْ.إنَّني كالأعمى لِفَقْدِكَ ، والأعمى تَنْسَدُّ عَلَيْه المَسَالِك .

٧_ نَكَدُ الدُّنيا

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنيا عَلى الحُرِّ أنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وَمِنْ قِلَّةِ خَيْرِ الدُّنيا أنَّ الحُرَّ يَحتاج فِيها إلى إظهار صَداقة عَدُوِّه لِيَأمَنَ شَرَّه ، وَهُوَ يَعْلَم أنَّه لَهُ عَدُوٌّ، ثُمَّ لا يَجِدُ بُدًّا مِنْ أنْ يُرِيَ الصَّدَاقَةَ مِنْ نَفْسِهِ دَفْعًا لِفَسَادِهِ وَشَرِّه. وأرادَ: مَا مِنْ مُدَاجَاتِهِ بُدٌّ ، ولكنَّه سَمَّى المُدَاجَاةَ صَدَاقَةً لَمَّا كانتْ في صُورةِ الصَّدَاقَةِ ، وَلَمَّا كانَ الناسُ يَحْسَبُونَه صَدَاقَةً .

والمُدَاجَاةُ : المُدَارَةُ والمُلايَنَةُ وَسَتْرُ العَدَاوَةِ . مِنْ مِحَنِ الدُّنيا عَلى الحُرِّ أنْ يَرَى عَدُوًّا له ، وَيُظْهِر مِنْ صَدَاقَتِه ، بحيث لا يَكُون مِنْ إظهارِها بُدٌّ . والأصْلُ : مَا مِنْ إظهارِ صَدَاقَتِهِ بُد ، غَيْرَ أنَّه حَذَفَ المُضَاف ، لأنَّ العَدُوَّ لا يَكُون صَدِيقًا .

٨_ قَسْوَةُ الدُّنيا

فَمَا لِي وَللدُّنيا طِلابِي نُجُومُهَا وَمَسْعَايَ مِنْهَا في شُدُوقِ الأرَاقِمِ

هذه شَكْوَى مِنَ الدُّنيا : مَا لِي أطْلُبُ مِنَ الدُّنيا مَعَالي الأُمُور ، فأتَحَمَّلُ المَشَاقَّ والأخطارَ ، وَأقْتَحِمُ المَهَالِكَ ، وأنا مُرتبكٌ في نَوائِبِها وخُطُوبِها ، يَعْني أنَّ الدُّنيا عَكَسَتْ عَلَيْه الأمْرَ . إنَّه يَطْلُبُ المَجْدَ والشَّرَفَ والمَنزلةَ الرَّفيعةَ والمَكانةَ الجليلة ، لَكِنَّ مَسْعَاهُ في شُدُوقِ الأرَاقِمِ ، أي : الخُطُوب المُهْلِكَة والنَّوَائِب المُفْظِعَة ، التي لا تُؤَدِّي إلى فائدة ، وَلَيْسَ مِنْهَا جَدْوى . كَيْفَ أبْلُغُ مَا أنا ساعٍ في طَلَبِه مِنَ العُلَا وطُرُقي إلَيْه مَحفوفة بالمَكَارِهِ ، كَأنَّني أسْعَى في شُدُوقِ الأرَاقِمِ(أفواه ذُكُور الحَيَّاتِ) ، والمَقصودُ بِشُدُوقِ الأراقِمِ : مَوَاضِع الهَلاك .

٩_ إهْمَالُ الدُّنيا

لا ألْحَظُ الدُّنيا بِعَيْنَيْ وَامِقٍ ولا أُبَالي قِلَّةَ المُوَافِقِ

لا أنْظُرُ إلى الدُّنيا بِعَيْنَيْ مَنْ يَعْشَقُهَا ، فَيَذِلُّ لِطَلَبِهَا ، ولا أُبَالي أنْ لا أجِدَ مَنْ يُوَافِقُني عَلى طَلَبِي مَعَالي الأُمُورِ ، وإذا عَظُمَ المَطلوبُ قَلَّ المُسَاعِدُ . لا أُبَالي بالدُّنيا ، ولا أعْبَأ بِها ، لِعِلْمِي أنَّها غَدَّارَةٌ خَدَّاعَةٌ ، ولا أُبَالي بِقِلَّةِ الأصحابِ لِعِلْمِي بِنِفَاقِهِم .

١٠_ خِيَانةُ الدُّنيا

قَذِي الدَّارُ أخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ وَأخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ الحَابِلِ

هَذه الدُّنيا أكثرُ خِيَانةً مِنَ الفَاجِرَةِ التي تَحْلِفُ لِمَنْ أحَبَّهَا وَوَثِقَ بِهَا ، وَتَكُون كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ شَخْصٍ آخَر ، وأكثرُ خِدَاعًا مِنَ حِبَالَةِ الصَّيَّادِ التي تَصْرَعُ مَن اطْمَأنَّ إلَيْهَا .

١١_ حُبُّ الدُّنيا

تَفَانَى الرِّجَالُ عَلى حُبِّهَا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلى طَائِلِ

الرِّجَالُ تَفَانَوْا عَلى حُبِّ الدُّنيا، وَلَمْ يَحْصُلُوا مِنْهَا عَلى شَيْءٍ، والطَّائِلُ : كُلُّ شَيْءٍ يُرْغَبُ فِيه ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ ذُو طَوْلٍ (فَضْلٍ). وَالرِّجَالُ يَقْتُلُ بَعْضُهُم بَعْضًا في سَبيلِ حُبِّ الدُّنيا، وَهُمْ زائلون، وَهِيَ زائلة . لَمْ يَحْصُلُوا على طَائِلٍ مِنْ أمْرِهَا ، لأنَّهَا تَأخُذ مَا تُعْطِيه ، وَتَهْدِم مَا تَبْنِيه ، وتُصبح مُرَّةً بَعْدَ حَلاوتها ، وَمُعْوَجَّةً بَعْدَ استقامتها ، فَمَنْ عَرَفَهَا رَفَضَهَا ، وَمَنْ تَدَبَّرَهَا هَجَرَهَا . وَحُبُّ الدُّنيا هُوَ سَبَبُ التَّثَاقُلِ إلى الأرض ، وكذلك مَا مِنْ عَبْدٍ تَأسِرُه الشَّهَوَاتُ إلا وَالسَّبَبُ في هذه الشَّهَوَاتِ هُوَ الدُّنيا أيضًا ، وكذلك الانغماس في التَّرَفِ . والإنسانُ إذا عَمَّرَ في الدُّنيا ، وَأَغْرَقَ نَفْسَه في التَّرَفِ بهذه الصُّورة الكارثية ، فَلَنْ يُفَكِّر في المَوْتِ والآخِرَةِ ، فَهُوَ يُعَمِّر الدُّنيا ، وَيُخَرِّب الآخِرَةَ ، فَمَن الطبيعيِّ أن يَكْرَه الانتقالَ مِنَ العَمَارِ إلى الخَرَابِ، لأنَّه خَرَّبَ الآخِرَةَ، فَبِذلك يَمِيل إلى حُبِّ الدُّنيا، ويَتَمَسَّكَ بِهَا بأظافرِه وأسنانِه ، وَتَسْتَوْلي عَلى مَشَاعِرِه وأحاسيسِه . وَحُبُّ الدُّنيا هُوَ الذي يُؤَدِّي بالناسِ إلى التَّنَافُسِ في دَارِ الغُرُورِ الفانيةِ الزَّائلةِ ، فَهُمْ يَتَنَافَسُون على أُمُورِ الدُّنيا بِمَا يُوجِد الحَسَدَ وَالحِقْدَ وَالبَغْضَاءَ وَالحُرُوبَ والصِّرَاعات . وَالعُمْرُ مَهْمَا طَالَ سَيَمْضِي ، وَيَنْتَهي ، ويُصبح الإنسانُ أثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، ويُنْسَى كَأنَّه لَمْ يَكُنْ ، وَيُفْضِي إلى مَا قَدَّمَ ، والنَّتيجةُ : الخُلُودُ في الجَنَّةِ أو الخُلُود في النار .

١٢_ صُحْبَةُ الدُّنيا

وَمَنْ صَحِبَ الدُّنيا طَوِيلًا تَقَلَّبَتْ عَلى عَيْنِهِ حَتَّى يَرَى صِدْقَهَا كَذِبَا

مَنْ طَالَتْ صُحْبَتُهُ للدُّنيا رَأى ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا وَأمَامَهَا وَخَلْفَهَا، كَالمُتَقَلِّبِ عَلى عَيْنِهِ ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ ، فَعَلِمَ أنَّ صِدْقَهَا كَذِبٌ ، وأنَّها وَهْمٌ وَخُدْعَةٌ . وأحوالُ الدُّنيا مُتَقَلِّبَةٌ مِنَ المَضَرَّةِ وَالمَسَرَّةِ وَالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، عَلى عَادَةِ الزَّمَان ، فَمَنْ صَحِبَ الدُّنيا عَلِمَ أنَّ مَا يُعَانِيه مِنْ أحوالِها زائلٌ، فَكَأنَّ مَا يَرَاه حقيقةً وَصِدْقًا هُوَ مُحَالٌ وكَذِب . وَالحَيَاةُ الدُّنيا مُتَقَلِّبَةٌ وَمُتَغَيِّرَةٌ . إذا قَضَى الإنسانُ وَقْتًا طويلًا يَعِيش في هذا العَالَمِ، سَوْفَ يَشْهَد أنَّ الحقيقة تَتَحَوَّل إلى كَذِبٍ ، والأمُورُ

تَتَغَيَّر بشكلٍ سريعٍ وغَيْرِ مُتَوَقَّع . وَمَنْ عَمَّرَ تَبَدَّلَ بِهِ الحال ، فصارَ العُمْرُ الذي يَسُرُّه يَسُوءُه ، لِقُرْبِهِ مِنَ الفَنَاءِ وَالعَدَمِ ، فَكَأنَّ كُلَّ شَيْءٍ في الدُّنيا وَإنْ كانَ سُرُورًا فَإنَّهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ومُصِيبة وكارثة ، وصاحبُ الدُّنيا يَرَى صِدْقَهَا كَذِبًا، وَحَيَاتَهَا مَوْتًا ، لأنَّ عَاقِبَتَهَا إلى الفَنَاءِ ، وَغَايَةَ أمْرِهَا إلى الزَّوَالِ.

١٣_ عِلَّةُ الدُّنيا

وَكَيْفَ تُعِلُّكَ الدُّنيا بِشَيْءٍ وَأنْتَ لِعِلَّةِ الدُّنيا طَبِيبُ

كَيْفَ أصَابَتْكَ الدُّنيا بِعِلَّةٍ وأنتَ طَبِيبُهَا الذي تُعَالِج مَرَضَهَا ، وتُدَاوِي عِلَّتَهَا ، وتُذْهِب سَقَمَهَا، وتُصْلِحُهَا مِنَ الفَسَادِ ؟ . أنتَ تَشْفِي العِلَلَ عَن الدُّنيا ، فَتُقَوِّم المُعْوَجَّ ، وَتَنْفِي الظُّلْمَ وَالعَبَثَ والفَسَادَ ، فَكَيْفَ تُعِلُّكَ الدُّنيا وأنتَ طَبِيبُهَا الذي يُعَالِج عِلَّتَهَا ؟ .

١٤_ هِبَةُ الدُّنيا

أبَدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدُّنيا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلا

شِيمَةُ الدُّنيا أنْ تَسْتَرِدَّ مَا تَهَبُ وتُعْطِي ، فَلَيْتَهَا بَخِلَتْ وَمَا جَادَتْ. الدُّنيا تَعُود عَلى مَا تَهَبُ فَتَأخذه ، فَلَيْتَهَا بَخِلَتْ وَمَا جَادَتْ ، فالمَنْعُ أفضلُ مِنْ عَطاءٍ مُكَدَّرٍ، والدُّنيا تَأخُذ العَطِيَّةَ ، وتُكَدِّر الصَّافِي ، وتُفْسِد الصالحَ ، فلا تَنْخَدِعْ بِعَطِيَّةِ الدُّنيا ، فَلَيْسَتْ تَتْرُك مَا أعْطَتْ عَلى أحَدٍ .

١٥_ كِفَايَةُ الدُّنيا

فَكَفَتْ كَوْنَ فُرْحَةٍ تُورِثُ الغَمَّ وَخِلٍّ يُغَادِرُ الوَجْدَ خِلَّا

لَيْتَ الدُّنيا كَفَتْ كَوْنَ فُرْحَةٍ تُورِث الغَمَّ وَتُعْقِب تَرْحَةً ، والفُرْحَةُ : المَسَرَّةُ وَالسُّرُورُ ، والتَّرْحَةُ : الهَلاكُ والانقطاعُ . وَلَوْ بَخِلَت الدُّنيا وَلَمْ تُعْطِ لَكَفَتْنَا الفَرَحَ بِوُجودِ شَيْءٍ يُعْقِب لِفَقْدِه الغَمَّ . وَلَيْتَ الدُّنيا كَفَتْ كَوْنَ خَلِيلٍ يَتْرُك الحُزْنَ خَلِيلًا ، وَيَجْعَلُه صَاحِبًا للمَرْءِ بَعْدَ خَلِيلِه الذي كانت الدُّنيا وَهَبَتْهُ له ، أي: وَلَيْتَ الدُّنيا كَفَتْ كَوْنَ خَلِيلٍ يَتْرُك الوَجْدَ خَلِيلًا إذا ماتَ .

١٦_ عِشْقُ الدُّنيا

وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلى الغَدْرِ لا تَحْفَظُ عَهْدًا ولا تُتَمِّمُ وَصْلا

الدُّنيا مَعْشُوقَةٌ مَحْبُوبَةٌ مَعَ كَوْنِها غَدَّارَةً خائنةً خَدَّاعَةً ، تَغْدُرُ بالناسِ وتَخُونُهم وتَخْدَعُهم ، وتَسْترجع مَا تُعْطِي ، لا تَحْفَظ لأحَدٍ عَهْدًا ، وَإنْ وَاصَلَتْ لا يَدُوم وَصْلُهَا، أي: إنَّها تَقْطَع الوَصْلَ ، ولا تَدُوم عَلى العَهْدِ .

١٧_ التَّمَسُّكُ بالدُّنيا

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبِفَكِّ اليَدَيْنِ عَنْهَا تُخَلَّى

كُلُّ مَنْ أبْكَتْهُ الدُّنيا فإنَّما يَبْكي لِفَوْتِ شَيْءٍ مِنها، ولا يُخَلِّيها الإنسانُ إلا قَسْرًا بِفَكِّ يَدَيْه ، وَهُوَ لا يَتْرُك الدُّنيا إلا مُرْغَمًا بِلا إرادةٍ مِنْه ولا رَغْبَة ، وَهَذا يَدُلُّ عَلى تَمَسُّكِ الإنسانِ بالدُّنيا بأظافرِه وأسنانِه . كُلُّ دَمْعٍ تُسِيلُه ، فإنَّما هُوَ أَسَفٌ عَلى مُفَارقتها ، وكُلُّ حُزْنٍ تَبْعَثُه فإنَّما ذلك إشفاق على مُبَاعدتها ، وَبِحَلِّ اليَدَيْنِ المُتَمَسِّكَتَيْن بالدُّنيا تُتْرَك وتُفَارَق ، وَبِفَكِّهِمَا عَنْهَا تُخَلَّى وَتُبَايَن.يُشِيرُ بهذا إلى المَوْتِ الذي يَغْلِبُ أهْلَ الدُّنيا عَلى قُوَّتِها، وَيُخْرِجُهُم عَنْهَا مَعَ عِشْقِهِم لها .

١٨_ شِيَمُ الدُّنيا

شِيَمُ الغَانِيَاتِ فِيهَا فَمَا أدْرِي لِذَا أنَّثَ اسْمَهَا الناسُ أَمْ لا

صِفَاتُ الغَانِيَاتِ في الدُّنيا، يُشِيرُ إلى مَا هُنَّ عَلَيْهِ مِنَ البُخْلِ بالوُدِّ ، وَالغَدْرِ ، والخِيَانَةِ ، وَعَدَمِ الوَفَاءِ بالعَهْدِ ، وَتَخَلُّقُ الدُّنيا بهذه الخَلِيقَةِ ، واحتمالُها عَلى هذه الطريقة . إنَّ عَادَةَ الدُّنيا كَعَادَةِ النِّسَاءِ، لا يَدُمْنَ عَلى الوَصْلِ ، ولا يَحْفَظْنَ العَهْدَ ، فَلا يَدْرِي هَلْ أَنَّثَ الناسُ اسْمَ الدُّنيا لِهَذِهِ المُمَاثَلَةِ، وَبَعُدُوا بِها عَن التَّذكير لهذه المُشَاكَلَة ، أَمْ لِغَيْرِ ذلك مِمَّا قَصَدُوا نَحْوَه ، وَسِوَاه مِمَّا أدركوا عِلْمَه. لا يَدْري هَلْ أُنِّثَت الدُّنيا لهذه المُشَابَهَةِ بالنِّسَاءِ أَمْ لا. والشاعرُ يَعْلَمُ أنَّهَا لَمْ تُؤَنَّثْ لأنَّها تُشْبِهُ الغَوَاني، ولكنَّه أظْهَرَ تَجَاهُلًا لِعُذوبةِ اللفظِ وَصَنْعَةِ الشِّعْرِ .

١٩_ التَّفَكُّرُ في الدُّنيا

وَمَنْ تَفَكَّرَ في الدُّنيا وَمُهْجَتِهِ أَقَامَهُ الفِكْرُ بَيْنَ العَجْزِ وَالتَّعَبِ

وَمَنْ تَفَكَّرَ في الدُّنيا ، وَتَصَرُّفِهَا في أُمُورِ نَفْسِه وَتَقَلُّبِهَا واختلافِ حَالاتِها ، أقامه فِكْرُهُ بَيْنَ التَّعَبِ فِيما يَتَدَبَّرُه ، وَالعَجْزِ عَمَّا يُعَاينه وَيَطْلُبُه ، وهَذا يُشِير إلى أنَّ عِلْمَ الإنسانِ يَسِيرٌ، وَهُوَ على العَجْزِ والنُّقْصَانِ مَفْطُورٌ . إنَّما يُقِيمه الفِكْرُ بَيْنَ العَجْزِ وَالتَّعَبِ ، لأنَّه يَتْعَب تَارَةً في طَلَبِ الدُّنيا ، وَتَارَةً يَتْرُك طَلَبَهَا للعَجْزِ خَوْفًا عَلى مُهْجَتِه ، فَلا يَنْفَكُّ الإنسانُ مِنْ تَعَبٍ أوْ عَجْزٍ ، فالطالبُ مَتْعُوبٌ، وَالقَاعِدُ عَن الطَّلَبِ عَاجِزٌ ، وإنَّما عَجْزُه للخَوْفِ عَلى مُهْجَتِه، فَلَوْ تَيَقَّنَ بِسَلامَةِ المُهْجَةِ لَمْ يَقْعُدْ عَن الطَّلَبِ ، وَلَمْ يَركَنْ إلى العَجْزِ .

٢٠_ نِهَايَةُ الدُّنيا

حَتَّى أصَابَ مِنَ الدُّنيا نِهَايَتَهَا وَهَمُّهُ في ابْتِدَاءاتٍ وَتَشْبِيبِ

أصَابَ هَذا القائدُ العظيمُ نِهَايَةَ الدُّنيا وَغَايَتَهَا القُصْوَى ، وهي المُلْكُ ، فَلا شَيْءَ في الدُّنيا فَوْقَ المُلْكِ، وَهُوَ مَعَ ذلك في أوَّلِ مَطَالِبِهِ وَتَشْبِيبِ هِمَّتِه ، وَلَمْ تَبْلُغْ هِمَّتُهُ أقْصَى مُرَادِهَا . لَمْ يَصِلْ إلى نِهَايَةِ هِمَّتِهِ ، فَهِمَّتُهُ مَعَ إصَابَتِهِ المُلْك في ابتدائِها وَأوَّلِ أمْرِهَا . وَالتَّشْبِيبُ : ذِكْرُ أيَّامِ الشَّبَابِ واللَّهْوِ والغَزَلِ ، وذلك يَكُون في ابتداءِ قَصائدِ الشِّعْرِ ، يَبْدَأ بِه أوَّلًا ، هَذا هُوَ الأصْلُ ، ثُمَّ صَارَ يُسَمَّى ابتداء كُلِّ أمْرٍ تَشْبِيبًا، وَإنْ لَمْ يَكُنْ في ذِكْرِ الشَّبَابِ .

٢١_ طَلَبُ الدُّنيا

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنيا إذا لَمْ تُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ

لِمَنْ تَطْلُب الدُّنيا جَاهِدًا في طَلَبِهَا،وَتُنَافِس فِيها مُظْهِرًا حُبَّهَا والتَّمَسُّكَ بِهَا، إذا كُنْتَ لا تَقْصِد بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ تُعْلِيه وَتُظْهِرُه ، أوْ مَسَاءَةَ عَدُوٍّ تَضَعُه وَتُحَطِّمُه ؟! . وإنَّما تُرَاد الدُّنيا لِرَفْعِ الأولياء، وَخَفْضِ الأعداء ، وَلَيْسَتْ تَصْلُح لِغَيْرِ هَذَيْن .

٢٢_ لَعْنُ الدُّنيا

لَحَا اللَّهُ ذِي الدُّنيا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

لَعَنَ اللَّهُ هذه الدُّنيا مَنْزِلًا لراكبٍ يَقْطَع فِيها مَسَافَةَ عُمْرِه ، وَيَتَقَلَّب بَيْنَ خُطُوبِها فِيمَا يُحَاوِل مِنْ أمْرِه،فَمَا تَزَال غادرةً بأهْلِها، جَائِرَةً في حُكْمِها،تُعَذِّب صَاحِبَ الهِمَّةِ العالية بِقِلَّةِ الاستعدادِ له ، وَتُؤَمِّلُه لِشِدَّةِ الاغترارِ بِه . وهذا ذَمٌّ شديدٌ للدُّنيا التي لا يَنَال بِها المَرْءُ مُرَادَه ، فَكُلُّ صَاحِبِ هِمَّةٍ شَريفةٍ فِيها يَكُون مُعَذَّبًا بإجدابها عَلَيْه.بِئْسَ المَنْزِل هِيَ فَإنَّ مَنْ كانَ أعلى هِمَّةً كانَ أشَدَّ عَنَاءً فِيها.

٢٣_ التَّعَادِي في الدُّنيا

وَمُرَادُ النُّفُوسِ أصْغَرُ مِنْ أنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأنْ تَتَفَانَى

الدُّنيا فانيةٌ ، والمُرادُ فِيها فَانٍ ، وَهِيَ أقَلُّ مِنْ أنْ يُعَادِيَ بَعْضُنا بَعْضًا ، لأجْلِ مُرَادِ النَّفْسِ ، وَهُوَ ذاهبٌ زائلٌ . وَمُرَادُ النَّفْسِ أقَلُّ وَأصْغَرُ ، وَمُدَّةُ التَّمَتُّعِ بِهِ إذا تَمَكَّنَ أحْقَرُ وأقْصَرُ مِن انتشارِ العَدَاوَةِ لأجْلِه ، وَتَفَشِّي أسبابِ التَّفَاني إعْجَابًا بِأمْرِه. وَمَالُ الإنسانُ ومَتَاعُ الدُّنيا يُقَاتَل عَلَيْه ، وَهُوَ مَنقولٌ عَنْهُ لا مَحَالَة . وَمَطَالِبُ النُّفُوسِ الدُّنْيَوِيَّةُ أحْقَرُ وَأقَلُّ مِنْ أنْ تَكُونَ سَبَبًا للعَدَاوَةِ والاقتتالِ بَيْنَ البَشَرِ، فالدُّنيا فانيةٌ ، والعاقلُ مَنْ زَهِدَ فِيها . وهَذا نَهْيٌ عَن المُعَادَاةِ والتَّحَاسُدِ لأجْلِ مُرَادِ النَّفْسِ ، فَإنَّه أقَلُّ مِنْ أنْ تَتَكَلَّفَ لأجْلِه مُعَادَاةَ الآخَرِين .

٢٤ _ أَعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنيا

أَعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَّمَانِ كِتَابُ

أَعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنيا سَرْجُ فَرَسٍ سَابِحٍ ، لأنَّ الشُّجَاعَ إذا رَكِبَه امْتَنَعَ ، وَأفْضَلُ جَلِيسٍ في الزَّمَانِ كِتَابٌ ، لأنَّكَ لا تَخْشَى غَدْرَه ولا خِيَانَتَه ، وَيُؤَدِّبُكَ بآدابِه ، وَيُؤْنِسُكَ عِنْدَ الوَحْشَةِ بِحِكَمِه.

إنَّ سَرْجَ الفَرَسِ أَعَزُّ مَكَانٍ لأنَّه يُسَافِر عَلَيْه، فَيَطْلُب المَعَالي،أوْ يَهْرُب مِنَ الظُّلْمِ وَاحتمالِ الذُّلِّ، أوْ يُحَارِب عَدُوًّا يَدْفَع عَنْ نَفْسِه شَرَّه ، والكِتَابُ أفْضَلُ جَلِيسٍ لأنَّه يَأمَن شَرَّه ، ولا يَحْتَاج في مُجالسته إلى مَؤُونة ، والكِتَابُ يَقُصُّ عَلَيْهِ أنباءَ المَاضِين ، فَهُوَ خَيْرُ صَاحِبٍ وَرَفِيقٍ . والإنسانُ لا يَعْرِف لَذَّةَ العَيْشِ حَتَّى يَصِيرَ في وَحْدَتِهِ جَلِيسًا للكُتُبِ .

٢٥_ البَحْثُ عَنْ كَرِيمٍ في الدُّنيا

أمَا في هَذِهِ الدُّنيا كَرِيمُ تَزُولُ بِهِ عَنِ القَلْبِ الهُمُومُ

يَشْكُو خُلُوَّ الدُّنيا عَنِ الكِرَامِ. أمَا في هَذه الدُّنيا كَرِيمٌ يُسْكَن إلَيْه ، وَذُو فَضْلٍ يُعَوَّل عَلَيْه ، تَزُول بِمَوْضِعِهِ هُمُومُ النَّفْسِ وَتَبْعُد ، وَتُدْفَع عَنْهَا المَكَارِهُ وَتُطْرَد ؟. ألا يُوجَد كَرِيمٌ يَأنَس بِهِ فَاضِلٌ فَيَزُول بِهِ هَمُّه ؟ .

٢٦_ البَحْثُ عَنْ مَكَانٍ في الدُّنيا

أمَا في هَذِهِ الدُّنيا مَكَانٌ يُسَرُّ بِأهْلِهِ الجَارُ المُقِيمُ

أمَا في هَذه الدُّنيا مَكَانٌ صَالِحٌ يَسْكُن العاقلُ إلى مِثْلِه ، وَيُسَرُّ بِما يُبَاشِرُه مِنْ حُسْنِه ، ويَأنَس الجَارُ المُقِيمُ فِيه بِعَوَائِدِ فَضْلِه ، وَيَغْدُو وَيَرُوح شاكرًا لأهْلِه ؟ . يَعْني أنَّ جميع الأمكنةِ قَدْ عَمَّهَا اللُّؤمُ وَالجَوْرُ ، فَلَيْسَ في الدُّنيا مَكَانٌ أهْلُه يَحْفَظُون الجَارَ فَيُسَرُّ بِجِوَارِهِم .

*

الفصل الخامس
الرُّوحُ والنَّفْسُ وَالقَلْبُ

١ــ تَرَدُّدُ الرُّوحِ

رُوحٌ تَرَدَّدَ في مِثْلِ الخِلالِ إذا أطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبَنِ

لِي رُوحٌ تَذهَبُ وَتَجِيءُ في بَدَنٍ مِثْلَ الخِلالِ في النُّحُولِ والرِّقَّةِ والهُزَالِ ، إذا طَيَّرَت الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ الذي عَلَيْهِ لَمْ يَظْهَرْ ذلك البَدَنُ لِرِقَّتِهِ وَدِقَّتِه ، أي : إنَّما يُرى لِمَا عَلَيْه مِنَ الثَّوْبِ ، فإذا ذَهَبَ عَنْهُ الثَّوْبُ لَمْ يَظْهَرْ .

٢ــ تَقَطُّعُ النَّفْسِ أسًى

لَمَّا تَقَطَّعَتِ الحُمُولُ تَقَطَّعَتْ نَفْسِي أسًى وكَأنَّهُنَّ طُلُوحُ

الحُمُولُ : الأحْمَالُ عَلى الإبِلِ . وَيُريد بِها الإبِلَ التي حَمَلَتْهَا . لَمَّا تَفَرَّقَت الإبِلُ سَائِرَةً تَقَطَّعَتْ نَفْسِي وَجْدًا ، ثُمَّ شَبَّهَهَا بأشجار الطَّلْحِ ، وَالعَرَبُ تُشَبِّهُ الإبِلَ وَعَلَيْهَا الهَوَادِجُ والأحْمَالُ بالأشجار. وَالطَّلْحُ : شَجَرٌ أسْفَلُه رَقِيقٌ ، وَأعلاه كَالقُبَّةِ، فَشَبَّهَ الحُمُولَ بذلك .

٣ــ طَبْعُ النَّفْسِ

وكُلٌّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنَّ طَبْعَ النَّفْسِ للنَّفْسِ قَائِدُ

كُلُّ أحَدٍ يَعْرِفُ فَضْلَ الشَّجَاعَةِ والسَّخَاءِ ، وَيَعْرِفُ الطريقَ إلَيْهِما ، ولكنَّ طَبْعَ اللئيمِ يَقُودُه إلى الجُبْنِ وَالبُخْلِ،وَطَبْعُ الكريمِ يَحُثُّهُ عَلى الشَّجَاعَةِ والبَذْلِ،فَطَبْعُ كُلِّ إنسانٍ يَقُودُه إلى مَا يَمِيل إلَيْه ، فالإنسانُ طَوْعُ الطَّبْعِ.كُلُّ أَحَدٍ يَرى طَرِيقَ الشَّجَاعَةِ وَالجُودِ،لأنَّهما طريقان واضحان لا خَفَاء بِهما ،

ولكنْ إنَّما يَسْلُك طَرِيقَهما مَنْ قَادَتْهُ نَفْسُه إلَيْهما ، وكانَ مَطْبُوعًا عَلَيهما ، أي إنَّ المَمْدُوحَ مَجْبُولٌ عَلَيهما، وَمِنْ ثَمَّ تَقُودُكَ نَفْسُكَ إلَيْهِمَا . كُلُّ العَالَمِ يَعْرِفُ طَرِيقَ الشَّجَاعَةِ وطَرِيقَ الجُودِ ، وَلَكِنَّه لا يَسْلُكُهُمَا، لأنَّ طَبْعَه يَقُودُه إلى غَيْرِهِمَا ، وهذا تَفْضِيلٌ للمَمْدُوحِ عَلى سِوَاه ، لأنَّ طَبْعَه جَعَلَهُ يَأتي مَا لا يَأتيه الناس .

٤ــ النُّفُوسُ الكِبَارُ

وإذا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأجْسَامُ

إذا عَظُمَتِ الهِمَّةُ وَكَبُرَتِ النَّفْسُ ، تَعِبَ الجِسْمُ في غَايَاتِها وَمَطَامِعِها وَتَحصيلِ مُرَادِها ، فالهِمَّةُ العاليةُ تُتْعِبُ الجِسْمَ في طَلَبِ مَعَالي الأمُورِ وَمَرَاقي المَجْدِ ، ولا تَرْضَى بالمَنزلةِ الدَّنِيَّةِ ، فَتَطْلُب الرُّتبةَ الشريفةَ . أي : إنَّ الجِسْمَ يَتْعَبُ في الوُصُولِ إلى هذه المَقاصدِ العظيمةِ ، بِخِلافِ الفاشلِ البَلِيدِ ، فإنَّه قَد ارتاحَ مِن هَذا كُلِّه .

٥ــ النَّفْسُ الحُرَّةُ

وَمَنْ كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِكَ حُرَّةٍ فَفِيهِ لَهَا مُغْنٍ وفِيهَا لَهُ مُسْلِ

مَنْ كانتْ نَفْسُه حُرَّةً كَنَفْسِكَ أغْنَتْهُ عَنْ تَعْزِيَةِ غَيْرِه ، وَأسْلَتْهُ عَنْ مُصِيبته ، ففي نَفْسِه مَا يُسَلِّيه عَمَّا يَجِدُه مِنَ الهُمُوم والمَصائبِ ، وَهُوَ يَعْرِف أنَّ الإنسانَ لا يَخْلُو في دَهْرِه مِنَ الحَوادثِ والكوارثِ والشَّدَائدِ والمَصائبِ ، وَمَنْ عَرَفَ هذا وَطَّنَ نَفْسَه على فَقْدِ الأحِبَّةِ ، فلا يَتَأثَّر بِعُنْصُرِ المُفَاجأةِ القاتلِ ، ولا يَنهار أمامَ الأخبارِ المُؤلِمة ، ولا يَفْقِد السَّيطرةَ أمامَ الأحداثِ الفظيعة .

٦ــ النَّفْسُ الجَبَّارَةُ

نَفْسٌ لَهَا خُلُقُ الزَّمَانِ لأنَّهُ مُفْنِي النُّفُوسِ مُفَرِّقٌ مَا جَمَّعَا

نَفْسٌ عَظِيمَةٌ جَبَّارَةٌ لَهَا شِيمَةُ الزَّمَانِ وَصِفَتُهُ ، أي إنَّ خُلُقَ هَذه النَّفْسِ المُتَفَرِّدَةِ يَتَشَابَهُ مَعَ خُلُقِ الزَّمَانِ ، لأنَّه قَاتِلُ النُّفُوسِ وَمُبِيدُهَا وَمُفْنِيهَا وَجَاعِلُهَا أثَرًا إثْرَ عَيْنٍ ، مُفَرِّقٌ الأشياءَ المُجْتَمِعَة ، وَمُشَتِّتُهَا ، وَمُبَعْثِرُهَا ، وكُلُّ شَيْءٍ جَمَّعَهُ الزَّمَانُ فَسَوْفَ يُفَرِّقُهُ كَأنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ .

٧_ الفِدَاءُ بِالنَّفْسِ

يُفَدِّونَهُ حَتَّى كَأنَّ دِمَاءَهُمْ لِجَاري هَوَاهُ في عُرُوقِهِم تَقْفُو

مِنْ حُبِّهِم لِهَذا المَمْدُوحِ يَقُولُون لَه : نَفْدِيكَ بِأنْفُسِنَا ، لِتَمَكُّنِ حُبِّهِ في قُلُوبِهِم ، فَكَأنَّ هَوَاه جَرَى في عُرُوقِهِم قَبْلَ جَرَيَانِ الدَّمِ فِيها ، وكَأنَّ دِمَاءَهُم تَتْبَع مَا جَرَى في عُرُوقِهِم مِنَ المَحَبَّةِ قَبْلَ جَرَيَانِ الدَّمِ فِيها .

وَنَفْسِي لَهُ نَفْسِي الفِدَاءُ لِنَفْسِهِ وَلَكِنَّ بَعْضَ المَالِكِينَ عَنِيفُ

أنا مَمْلُوكٌ لَهُ ، فَلَهُ نَفْسِي ، أَفْدِيهِ بِنَفْسِي ، لَكِنَّه مَالِكٌ عَنِيفٌ لا يَرْفُقُ بِي بَعْدَ أنْ مَلَكَنِي . أنا عَبْدُهُ ، فَلْيَصْنَعْ بِي مَا أَحَبَّ ، ثُمَّ قال : نَفْسِي فِدَاءٌ لَهُ ، ثُمَّ عَرَّضَ بِه ، فقال : وَلَكِنَّ بَعْضَ المَالِكِينَ عَنِيفُ ، أي : إنَّهُ لَمَّا مَلَكَ قَسَا عَلَيْهِ وَعَنُفَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَرْحَمْهُ ، وَلَمْ يَرْفُقْ بِه ، وأرادَ إتلافَ نَفْسِهِ ، وكانَ حَقُّهُ أنْ يَرْفُقَ بِهَا .

٨_ وُقُوعُ الشَّيْءِ سَهْلٌ في الأنْفُسِ

كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ في الأنْفُسِ سَهْلٌ فِيهَا إذا هُوَ كَانَا

كُلُّ مَا لَمْ يَقَعْ مِمَّا يُسْتَصْعَب في النُّفُوسِ ، فَهُوَ سَهْلٌ إذا وَقَعَ . إنَّما يَصْعُبُ الأمْرُ عَلى النَّفْسِ قَبْلَ وُقُوعِه ، فإذا وَقَعَ الأمْرُ صَارَ سَهْلًا وبَسِيطًا ، والمَكْرُوهُ هُوَ انتظارُه ، والانتظارُ مُؤلِمٌ وَشَدِيدٌ، وَتَوَقُّعُ الشَّيْءِ أكثرُ صُعوبةً مِنْ وُقُوعِه . كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ المُسْتَكْرَهِ في النُّفُوسِ،

والمَخُوفِ بالمُتَوَقَّعِ في القُلُوبِ ، سَهْلٌ في النُّفُوسِ إذا وَقَعَ أمْرُه ، خَفِيفٌ عَلَيْهَا إذا تَحَقَّقَ كَرْبُه ، وَلَيْسَ يُجْدِي عَلى الإنسانِ إيثارُ الخَوْفِ ، ولا يَمْنَعُه مِنَ المَكروهِ استعمالُ التَّوَقُّعِ .

٩ _ القَلْبُ غَيْرُ غَادٍ

وَإنِّي عَنْكَ بَعْدَ غَدٍ لَغَادٍ وَقَلْبي عَنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِ

إنَّني غَادٍ عَنْكَ بَعْدَ غَدٍ،وَقَلْبي غَيْرُ مُرْتَحِلٍ عَنْ فِنَائِكَ . أنا مُرْتَحِلٌ عَنْكَ ، وَقَلْبي مُقِيمٌ عِنْدَكَ.

١٠ _ طَرْفُ القَلْبِ

وَإطْرَاقُ طَرْفِ العَيْنِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إذا كَانَ طَرْفُ القَلْبِ لَيْسَ بِمُطْرِقِ

إغْضَاؤُهُ عَنْهُ لا يَنْفَعُهُ إذا كانَ يَعْرِفُه بِقَلْبِه ، والإطْرَاقُ أنْ يَرْمِيَ بِبَصَرِه إلى الأرضِ . إنَّ غَضَّ البَصَرِ عَنْهُ لَيْسَ نَافِعًا ولا مُفِيدًا ، إذا كَانَ القَلْبُ يَرَاهُ بالبَصِيرَةِ ، وهذا يُشِير إلى أنَّ العِبْرَةَ بِرُؤْيَةِ القَلْبِ ، ولَيْسَ بِرُؤْيَةِ البَصَرِ. وَرُؤْيَةُ القَلْبِ (البَصِيرَة) هِيَ المُعْتَمَدَةُ وَالمُعَوَّلُ عَلَيْهَا .

*

الفصل السادس

الجِسْم

١ــ نُحُولُ الجِسْمِ

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أنَّني رَجُلٌ لَوْلا مُخَاطَبَتي إيَّاكَ لَمْ تَرَني

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أنَّني رَجُلٌ لَوْ لَمْ أتكَلَّمْ لَمْ يَقَعْ عَلَيَّ البَصَرُ ، أي : إنَّما يُسْتَدَلُّ عَلَيَّ بِصَوْتي . أنا رَجُلٌ مُنْهَارٌ ضَعِيفٌ ، ذَابَ لَحْمِي ، وانكمشَ جِسْمِي ، وَضَاعَتْ قُوَّتي ، وَاخْتَفَتْ حَيَوِيَّتي ، وَصِرْتُ شَبَحًا هُلامِيًّا وَمَسْخًا هَامِشِيًّا وأثَرًا إثْرَ عَيْنٍ ، مِنْ شِدَّةِ النُّحُولِ وَالهُزَالِ ، وَلَمْ أَعُدْ أُرَى بِالعَيْنِ ، وَلَمْ أَعُدْ أُعْرَفُ بالنَّظَرِ ، وإنَّما أُعْرَفُ بِصَوْتي ، فَهُوَ الشَّيْءُ الوحيدُ الذي بَقِيَ مِنِّي .

٢ ــ صِحَّةُ الأجْسَامِ بالعِلَلِ

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ فَرُبَّمَا صَحَّتِ الأجْسَامُ بِالعِلَلِ

لَعَلِّي أَحْمَدُ عَاقِبَةَ عَتْبِكَ ، وذلك أنْ أتأدَّبَ بَعْدَ عَفْوِكَ ، فلا أعُودُ إلى شَيْءٍ أسْتَوْجِبُ بِهِ العَتْبَ ، كَمَنْ يَعْتَلُّ ، فَرُبَّمَا تَكُون عِلَّتُهُ أمانًا له مِنْ أمراضٍ غَيْرِها ، فَيَصِح جِسْمُه بِعِلَّتِهِ ، ويُصبح مَرَضُهُ سَبَبَ شِفَائِه وَعَافِيَتِه ، ويُصبح دَاؤُهُ مَصْدَرَ الصِّحَةِ لِجِسْمِه . لَعَلَّ مَا أحْدَثَه الوُشَاةُ مِنْ لَوْمِكَ إيَّايَ مَحْمُود العَاقِبَة ، فَقَدْ يَفْسُدُ العُضْوُ الواحدُ بِالكَيِّ ، فَتَصْلُح بَقِيَّةُ الأعضاءِ ، فالصَّدِيقُ لا تَزِيدُ مَحَبَّتُهُ إلا بَعْدَ أنْ يُجَرَّبَ ، وَرُبَّ لَوْمٍ أفْضَى إلى احتفاء ، وَعِلَّةٍ أوْصَلَتْ إلى شِفَاء .

٣ــ إصَابَةُ الجُسُوم

يَهُونُ عَلَيْنَا أنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أعْرَاضٌ لَنَا وَعُقُولُ

يَهُونُ عَلَيْنَا أنْ تُصَابَ أجْسَامُنَا في الحَرْبِ ، وأن تَتَعَرَّضَ للجِرَاحِ وَالقَتْلِ ، فَإنَّ الأجْسَامَ فانيةٌ زائلةٌ لا قِيمَة لَهَا عِنْدَنَا، إذا كانتْ أعراضُنا وافرةً ، وَعُقُولُنا مِنَ الخَطَأ سَالِمَة . إذا سَلِمَت الأعراضُ والعُقُولُ ، فَلا حَظَّ للأجسامِ عِنْدَنَا ، بَلْ يَهُونُ عَلَيْنَا مَا يَحْدُث فِيها مِنَ الجِرَاحِ والأمراضِ .

٤ _ الجِسْمُ فَوْقَ الدَّاءِ

وَجِسْمُكَ فَوْقَ هِمَّةِ كُلِّ دَاءٍ فَقُرْبُ أقَلِّهَا مِنْهُ عَجِيبُ

لا تَطْمَعُ الأدْوَاءُ (جَمْع دَاءٍ) أنْ تَحُلَّ بِكَ ، فَمِنَ العَجَبِ أنْ يَقْرَبَكَ أقَلُّ الأدْوَاءِ . إنَّ جِسْمَكَ أعلى مَحَلًّا مِنْ أنْ يُصِيبَه أعظمُ الأدواء ، وَأنْ تَبْلُغَ هِمَّتُهُ إلَيْه ، فَكَيْفَ وَصَلَ إلَيْكَ الدُّمَّلُ الذي هُوَ أقَلُّ الأدواءِ وَأحْقَرُهَا ؟! .

٥_ مَرَضُ الجِسْمِ

عَلِيلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القِيَامِ شَدِيدُ السُّكْرِ مِنْ غَيْرِ المُدَامِ

جِسْمِي مَرِيضٌ ، لا أستطيعُ القِيَامَ مِنْ فِرَاشِي ، مُتَّصِلُ السُّكْرِ بِلا مُدَامٍ ، أي : كَأنَّني سَكْرَان مِنْ غَيْرِ خَمْرٍ ، وهذا يَدُلُّ عَلى شِدَّةِ ضَعْفِهِ وَتَعَبِه ، واستيلاءِ المَرَضِ عَلَيْهِ في جُمْلَةِ أمْرِه .

٦_ الفَمُ المَرِيضُ

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجِدْ مُرًّا بِهِ المَاءَ الزُّلالا

المَرِيضُ الذي يُصَابُ بِمَرارةٍ في فَمِهِ ، إذا شَرِبَ المَاءَ العَذْبَ وَجَدَهُ مُرًّا . مَثَلُهُم مَعِي كَمَثَلِ المَرِيضِ معَ المَاءِ الزُّلالِ يَجِدُه مُرًّا لِمَرارةِ فَمِه ، كذلك هَؤلاء إنَّما يَذُمُّونَني لِنُقْصَانِهِم ، وَقِلَّةِ مَعرفتهم بِفَضْلي ، والنَّقْصُ فِيهِم لا فِيَّ ، وَلَوْ صَحَّتْ حَوَاسُّهُم لَعَرَفُوا فَضْلي ، والزُّلالُ : المَاءُ العَذْبُ الصافي البارد السَّلِس . لَقَدْ اسْتَعْمَلَ الشاعرُ هذا المَثَلَ فِيمَنْ يَعِيبُون شِعْرَه لِعَيْبٍ في ذَوْقِهِم الشِّعْرِيِّ ، وَضَعْفٍ في إدراكِهم الأدبيِّ ، وَقَدْ شَبَّهَ حَالَهُم بِحَالِ المَرِيضِ الذي يَجِدُ المَاءَ العَذْبَ الزُّلالَ مُرًّا في فَمِه ، بِجَامِعِ السَّقَمِ في كُلٍّ مِنْهُمَا .

الفصل السابع
العَقلُ والعِلْمُ

١ــ تأثيرُ العَقْلِ في الحُبِّ

فَإنَّ قَلِيلَ الحُبِّ بِالعَقْلِ صَالِحٌ وَإنَّ كَثِيرَ الحُبِّ بِالجَهْلِ فَاسِدُ

قَلِيلُ الحُبِّ صَالِحٌ وَمُفِيدٌ ، إذا كَانَ مَحْكُومًا بالعَقْلِ ، ومُنْضَبِطًا بِه ، وكَثِيرُ الحُبِّ فَاسِدٌ إذا دَعَا إلَيْهِ الجَهْلُ ، وَهَذا يَدُلُّ على أهميةِ العَقْلِ في المَشاعرِ والأحاسيسِ ، والقليلُ مِنْ حُسْنِ رَأيِ العاقلِ مَعَ تَمَامِهِ وَفَضْلِه أفْضَلُ مِنْ كَثيرٍ مِمَّا يَبْذُلُهُ غَيْرُه ، مِمَّنْ لا تُؤْمَنُ بَوَادِرُ جَهْلِه . لَقَدْ عَلَّمَهُمْ مَعنى الحُبِّ الحَقِّ ، فَرَبَطَ الحُبَّ بالعَقْلِ ، وَوَضَعَ العَقْلَ ــ وَلَيْسَ العِلْم ــ في مُقَابِل الجَهْلِ ، وكَأنَّ مَا يُحَدِّد جَدْوَى الحُبِّ لَيْسَتْ الكَثْرَة أو القِلَّة، بَلْ الإحاطة بِشَمائلِ المَحبوبِ بشكلٍ عَقْلانيٍّ ، بُغْيَةَ الوُصُول إلى جَوْهَرِ الحُبِّ، ومَاهِيَّةِ العَلاقةِ بَيْنَ المُتَحَابِّين .

٢ــ حُبُّ العَاقِلين

يُحِبُّ العَاقِلُونَ عَلى التَّصَافي وَحُبُّ الجَاهِلِينَ عَلى الوَسَامِ

يُحِبُّ العاقلون عَلى قَدْرِ مَا يَجِدُونه فِيمَنْ أَحَبُّوه مِنَ المُصَافَاةِ وَالمُشَاكَلَةِ والمُؤاخَاةِ والمُشَارَكَةِ. وَحُبُّ الجَاهِلِين عَلى قَدْرِ وَسَامَةِ مَنْ يَخُصُّونَه بِمَحَبَّتِهِم ، وَبِحَسَبِ جَاهِ مَنْ يَعْتَمِدُونه بِمَوَدَّتِهِم ، وإنَّما ذلك لأنَّ مَوَدَّتَهُم احتيالاتٌ لا يُوثَقُ بِهَا ، وَصِنَاعَاتٌ لا حقيقة لها . وَالعَاقِلُون يُحِبُّ بَعْضُهُم بَعْضًا على مَعْنى الإخلاصِ في الصَّفَاءِ ، فَيُحِبُّ العَاقِلُ صَدِيقَه وإنْ كانَ قَبِيحَ المَنْظَرِ ، وَالجَاهِلُ يُحِبُّ الوَسِيمَ ، وَإنْ كانَ لَيْسَ لَهُ بِوَادٍّ ولا صَفِيٍّ . وَالعَاقِلُ يُحِبَّ مَنْ يُحِبُّه عَلى صَفَاءِ الوُدِّ ، فَمَنْ أصْفَى لَهُ الوُدَّ أَحَبَّه ، مَهْمَا كَانَ شَكْلُه أوْ مَنْظَرُه . والجَاهِلُ يُحِبُّ عَلى جَمَالِ الصُّورةِ ، وذلك حُبُّ الجُهَّالِ ، لأنَّه لَيْسَ كُلُّ جَمِيلِ المَنْظَرِ يَسْتَحِقُّ المَحَبَّةَ ، والشَّخْصُ قَدْ يَكُون جَمِيلَ الصُّورة ، وَلَكِنَّه سَيِّئ الأخلاق .

٣_ شَقَاءُ العَاقِلِ

ذُو العَقْلِ يَشْقَى في النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأخُو الجَهَالَةِ في الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

العَقْلُ تِلْك الهِبَةُ الإلهيَّةُ والنِّعْمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ قَدْ تَكُون وَبَالًا عَلى صَاحِبِهَا ، فَتُتْعِبُه وتُشْقِيه ، ولا يَشْعُر بِطَعْمِ الحَيَاةِ ولا بِلَذَّتِهَا ، لأنَّه يُفَكِّر في كُلِّ شَيْءٍ وَيُحَلِّلُه ، وَيَحْرِص عَلى النَّظَرِ في عَوَاقِبِ الأُمُور . إنَّ العَاقِلَ يَشْقَى وَإنْ كَانَ في نِعْمَةٍ لِتَفَكُّرِهِ في عَاقِبَةِ أمْرِهِ ، وَعِلْمِهِ بِتَحَوُّلِ الأحوالِ ، وَالجَاهِلُ يَنْعَمُ في الشَّقَاوَةِ لِغَفْلَتِهِ وَقِلَّةِ تَفَكُّرِهِ في العَوَاقِبِ. وَحَلاوَةُ الدُّنيا للجَاهِلِ ، وَمَرَارَةُ الدُّنيا للعَاقِلِ . وَثَمَرَةُ الدُّنيا السُّرُورُ ، وَمَا سُرَّ عَاقِلٌ يَتَفَكَّرُ في العَوَاقِبِ وَيَخَاف مِنْهَا . وَالعَاقِلُ يَتَفَكَّر فِيمَا هُوَ فِيه ، وَيَعْلَم أنَّه إلى زَوَالٍ ، فَلا يَزَال في هَمٍّ يُشْقِيه . وَالجَاهِلُ يَكُون في شَقَاوَةٍ وَهُوَ يَحْسَبُ أنَّه في نَعِيمٍ . وَالعَاقِلُ يَشْقَى بِنَعِيمِ عَقْلِه ، فَهُوَ في تَفكيرٍ دَائِمٍ ، وَقَلَقٍ مُتَوَاصِلٍ ، في سَبيلِ تَحقيقِ أهدافِه وَمَرَامِيه ، وَوُصُولِ مَا يَتُوق إلَيْه مِنَ المَراتبِ العاليةِ ، والدَّرَجَاتِ السَّامِيَةِ . وَالعَاقِلُ وإنْ كانَ في النَّعيمِ ، فَإنَّه لا يَهْنَأ بِه ، لِعِلْمِهِ بِزَوَالِه ، وَالجَاهِلُ وإنْ كانَ في الشَّقَاوَةِ ، فَهُوَ يَتَلَذَّذ لِجَهْلِهِ بِعَوَاقِبِه . وَمَنْ لا يَشْغَلُهُ ذِهْنُه بالتَّفكيرِ يَعِيش مُرتاحًا ، مُقَارَنَةً بِمَنْ يَغُوصُ في بِحَارِ الأفكارِ والنَّظَرِيَّاتِ والفَرَضِيَّاتِ والتَّأمُّلاتِ والهَوَاجِسِ . وَالعَاقِلُ لا يُسَاكِنُ شَهْوَةَ الطَّبْعِ ، لِعِلْمِهِ بِزَوَالِهَا ، والجَاهِلُ يَظُنُّ أنَّها خَالِدَةٌ ، وَهُوَ بَاقٍ عَلَيْهَا ، فَهَذا يَشْقَى بِعِلْمِه ، وَهَذا يَنْعَمُ بِجَهْلِه . وَالجَاهِلُ الخَالِي مِنَ الهُمُومِ وَلَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ ولا طُمُوح ، أكثرُ رَاحَةً وأقَلُّ عَنَاءً مِمَّنْ أتْعَبَهُ التَّفكيرُ ، وتَكَالَبَتْ عَلَيْهِ الهُمُومُ .

٤ _ إفَادَةُ العَالِمِ

إذا مَا العَالِمُونَ عَرَوْكَ قَالُوا أَفِدْنا أيُّهَا الحَبْرُ الإمَامُ

إذا جَاءَ العُلَمَاءُ إلى هَذا المَمْدُوحِ سَألُوه أنْ يُفِيدَهُم . وَالحَبْرُ : العَالِمُ . إذا زَارَكَ العُلَمَاءُ وَقَصَدُوكَ وَأَتَوْكَ ، وَسَألُوكَ عَن العِلْمِ ، قالوا : أَفِدْنَا أيُّها الإمَامُ في العِلْمِ ، أي إنَّ العُلَمَاءَ يَسْتَفِيدُون مِنْكَ وَيَتَعَلَّمُون .

٥_ رُسُوخُ العِلْمِ

أدِيبٌ رَسَتْ لِلْعِلْمِ في أرْضِ صَدْرِهِ جِبَالٌ جِبَالُ الأرْضِ في جَنْبِهَا قُفُّ

هَذا المَمْدُوحُ أدِيبٌ عَظِيمٌ رَسَتْ في صَدْرِهِ جِبَالُ العِلْمِ ، التي هِيَ إذا قِيسَتْ جِبَالُ الأرْضِ إلَيْهَا صَغُرَتْ في جَنْبِهَا ، كَالقُفُّ إلى جَنْبِ الجِبَالِ ، والقُفُّ : مَا ارتَفَعَ مِنَ الأرْضِ وَغَلُظَ وَلَمْ يَبْلُغْ أن يَكُون جَبَلًا . شَبَّهَ العُلُومَ التي في صَدْرِ المَمْدُوحِ بالجِبَالِ ، ثُمَّ فَضَّلَ عُلُومَه عَلى جِبَالِ الأرْضِ . لَقَد استعارَ لِعِلْمِهِ اسْمَ الجِبَالِ لِكَثْرَةِ عِلْمِهِ وَزِيَادَتِهِ عَلى عِلْمِ الناسِ ، ولمَّا استعارَ لَهُ اسْمَ الجِبَالِ استعارَ لِصَدْرِهِ الأرْضَ ، لأنَّ الجِبَالِ تَكُون عَلى الأرْضِ ، ثُمَّ فَضَّلَهَا عَلى جِبَالِ الأرْضِ فَضْلَ الجِبَالِ عَلى القِفَافِ (جَمْع قُفُّ) .

٦_ التَّفَكُّرُ عِلْمٌ

تَفَكُّرُهُ عِلْمٌ وَمَنْطِقُهُ حُكْمٌ وَبَاطِنُهُ دِينٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفُ

إنَّما يَتَفَكَّرُ لِيَعْلَمَ وَيَجْتَهِدَ في المَسائلِ الشَّرْعِيَّةِ ، فَإذَا نَطَقَ نَطَقَ بالحِكْمَةِ ، والحُكْمِ بَيْنَ الناسِ ، فَيَنْطَوِي بَاطِنُه عَلى دِينِ اللَّهِ ، وَيُظْهِر للناسِ الظَّرْفَ وَمَكارمَ الأخلاقِ .

٧_ العِلْمُ والغَيْبُ

مُسْتَنْبِطٌ مِنْ عِلْمِهِ مَا في غَدٍ فَكَأنَّ مَا سَيَكُونُ فِيهِ دُوِّنَا

إنَّهُ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الأُمُورِ ، يَعْرِفُ في يَوْمِهِ مَا يَحْدُثُ في غَدٍ ، فَكَأنَّ مَا سَيَكُون مَكتوبٌ عِنْدَه، مَجْمُوعُ الصُّورةِ لَدَيْه . إنَّه يَسْتَنْبِط مِنْ عِلْمِه مَا يَكُون في غَدٍ ، فَكَأنَّ مَا لَمْ يَكُنْ بَعْد قَدْ دُوِّنَ في عِلْمِه. يَعْرِفُ بِعِلْمِه مَا يَقَعَ فِيمَا يُسْتَقْبَل ، فَكَأنَّ مَا سَيَكُون قَدْ كُتِبَ في عِلْمِه، أي إنَّ عِلْمَه صَحِيفَةُ الكائناتِ . وأيضًا ، يَسْتَدِلُّ بِما في يَوْمِه عَلى مَا سَيَقَع في غَدٍ فَيَعْرِفُه .

٨ ـ إحْكَامُ العِلْمِ

قَدْ صَيَّرَتْ أوَّلَ الدُّنيا وَآخِرَهَا آباؤُهُ مِنْ مُغَارِ العِلْمِ في قَرَنِ

آبَاءُ المَمْدُوحِ عَالِمُون بِالسِّيَرِ وَالأخبارِ ، وَضَابِطُون للأيام ، فَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَ مَا مَضَى مِنْ أحوالِ الدُّنيا ، وَمَا يَأتي مِنْ بَعْد في عِلْمِهِم ، كَمَا يُجْمَع البُعْرَانُ في مُغَارٍ واحدٍ ، وَهُوَ الحَبْلُ الذي يُشَدُّ بِه البَعِيرُ إلى الآخَرِ . آباؤُهُ مُتَبَحِّرُون في العِلْمِ ، جَمَعُوا عُلُومَ أوَّلِ الدُّنيا وَآخِرِهَا ، فَصَارَتْ مَعلومةً لَدَيْهِم ، ومَعروفةً عِنْدَهُم . والحَبْلُ المُغَارِ يَكُونَ جَيِّدَ الفَتْلِ ، واستعارَه هَاهُنا في إحْكَامِ العِلْمِ .

٩ـ قِلَّةُ العِلْمِ تُؤَدِّي إلى الفَهْمِ السَّقِيمِ

وكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

وكَمْ مِنْ شَخْصٍ يَعِيبُ القَوْلَ الصَّحِيحَ وَيَذُمُّهُ وَيَسْتَقْبِحُهُ ، وَمُشْكِلَتُهُ أنَّه لَمْ يَفْهَمْهُ ، لأنَّ عَقْلَه بَسِيطٌ ، وَفَهْمَه قَاصِرٌ . وفي بَعْضِ الأحيانِ ، يَعِيبُ الإنسانُ قَوْلًا حَسَنًا، لِجَهْلِهِ بِمَعْنَاه ، وَظَنِّهِ أنَّ بِهِ عَيْبًا أوْ خَطَأً ، وإنَّما أتى العَيْبُ مِنْ سُوءِ فَهْمِه له ، لا مِنَ القَوْلِ نَفْسِه .

وَلَكِنْ تَأخُذُ الآذَانُ مِنْهُ عَلى قَدْرِ القَرَائِحِ وَالعُلُومِ

الناسُ يَفْهَمُون مَا دَقَّ مِنَ الكَلامِ عَلى مِقْدَارِ عُلُومِهِم وَقَرَائِحِهِم ، وَالقَرَائِحُ (جَمْع قَرِيحَة) ، وَهِيَ خَالِصُ الطَّبْعِ. كُلُّ أُذُنٍ تَأخُذُ مِمَّا تَسْمَع عَلى قَدْرِ طَبْعِ صَاحِبِهَا وَعِلْمِه، أي إنَّ الجَاهِلَ إذا سَمِعَ شَيْئًا لَمْ يَفْهَمْهُ وَلَمْ يَعْلَمْهُ، وكُلُّ أحَدٍ عَلى قَدْرِ طَبْعِهِ وَعِلْمِهِ يَعْلَم مَا يَسْمَع . أُذُنُ الشَّخْصِ تَأخُذُ الأقوالَ بِحَسَبِ القَرِيحَةِ التي يَمْتَلِكُهَا وَعِلْمِه، فَإنْ كانَ جاهلًا أوْ غَبِيًّا سَيَرَى الأقْوَالَ تَفِيضُ بِالعُيُوبِ ، وَلَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ فَهْمِهَا وإدراكِها. وَالعِلْمُ إنَّما يُسْتَفَادُ مِنْهُ بِقَدْرِ عِلْمِ الرَّجُلِ ، فَمَن ارتفعَ في العِلْمِ أَخَذَ مِنْهُ قَدْرًا أكبر .

١٠ــ العِلْمُ بأسرارِ الدِّيَاناتِ واللُّغَى

عَلِيمٌ بِأسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللُّغَى لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ الناسَ والكُتُبَا

يَعْلَمُ مِنَ الدِّيَانَاتِ واللُّغَاتِ مَا لا يَعْلمُهُ غَيْرُه . وَعَبَّرَ عَنْهُ بالسِّرِّ لِخَفَائِه عَلى غَيْرِه، وَلَهُ خَوَاطِر في العِلْمِ يَفْضَحُ بِها العُلَمَاءَ وكُتُبَهُم،لأنَّهُم لَمْ يَبْلُغُوا مِنَ العِلْمِ مَا يَجْرِي عَلى خَاطِرِه .

١١ ــ العِلْمُ الوَاضِحُ لا يَحْتَاجُ إلى بُرْهَان

وَلَيْسَ يَصِحُّ في الأفْهَامِ شَيْءٌ إذا احْتَاجَ النَّهَارُ إلى دَلِيلِ

مَن احتاجَ إلى أنْ يَعْلَمَ النَّهَارَ بِدَليلٍ يَدُلُّهُ عَلَيْهِ ، لَمْ يَصِح في فَهْمِه شَيْء ، لأنَّه لا فَهْمَ له ، كذلك كلامي كانَ واضحًا ، فَمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ كانَ كَمَنْ لا يَعْلَمُ النَّهَارَ نَهَارًا . وَالنَّهَارُ لا تُطْلَبُ الأدلة عَلَيْه ، ولا يُمْكِن لأحَدٍ المُخَالَفَة فِيه.وإذا احتاجَ أحَدٌ إلى إقامةِ البُرْهَانِ عَلى وُجودِ النَّهَار ، وَقَدْ عَمَّ نُورُه الآفَاقَ ، فَاحْكُمْ عَلَيْهِ أنَّ ذِهْنَه فَاسِدٌ ، لأنَّه أنكَرَ البَدِيهِيَّاتِ ، ولا تُجَادِلْهُ ، وَأَرِحْ نَفْسَكَ مِنْ مُحَاورته ، لأنَّه أنكَرَ مَا لا يُمْكِن إنكارُه . وإنَّما يُقَامُ الدَّليلُ عَلى الشَّيْءِ الخَفِيِّ ، فَأمَّا الظاهرُ الجَلِيُّ فَهُوَ بِمَنزلةِ النَّهَارِ الذي لا يُحْتَاج إلى الدليل ، لأنَّ كُلَّ مَنْ رَآه عَرَفَه ، وَمَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ ضَوْءُ النَّهَارِ ، فلا فائدة لإقامة الدَّلالة في حَقِّهِ ، إذ المُعَايَنَة أقْوَى .

١٢ــ العِلْمُ العَمِيقُ

يَدِقُّ عَلى الأفكارِ مَا أنْتَ فَاعِلٌ فَيُتْرَكُ مَا يَخْفَى وَيُؤْخَذُ مَا بَدَا

إنَّ مَا تَفْعَلُهُ مِنَ المَكارِمِ والعَجائبِ لا تُحِيطُ بِه أفكارُ الشُّعَرَاءِ ، فَيَذكُرُون مَا ظَهَرَ لَهُمْ ، وَيَتْرُكُون مَا خَفِيَ عَنْهُم . أي إنَّ مَا تَبْتَدِعُه مِنَ المَكارِمِ يَخْفَى على أفكارِ الشُّعَرَاءِ ، فَيَذكُرُون مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَيَتْرُكُون مَا خَفِيَ ، وَلَيْسَ يُريد أنَّ المُقْتَدِين بِكَ في المَكارِمِ يَأخُذون مَا ظَهَرَ مِنْكَ ، ويَتْرُكُون مَا خَفِيَ ، وَلَوْ أرادَ ذلك لَمَا أتى بالأفكارِ ، وَلَقَالَ : يَدِقُّ عَلى الكِرَامِ .

١٣_ سَعَةُ العِلْمِ

وَقَتَلْتَ الزَّمَانَ عِلْمًا فَمَا يُغْرِبُ قَوْلًا ولا يُجَدِّدُ فِعْلا

عَرَفْتَ الزَّمَانَ بحقيقته ، فَلا يأتي الزَّمَانُ بِقَوْلٍ غَرِيبٍ لَمْ تَعْرِفْه ، ولا يَفْعَل جَدِيدًا لَمْ تُجَرِّبْه . وَيُقَال: قَتَلْتَ الشَّيْءَ عِلْمًا إذا تَيَقَّنْتَه . لَقَدْ عَرَفْتَ الزَّمَانَ وألْوَانَه وَصُرُوفَه وأحوالَه وَتَقَلُّبَاتِه مَعرفةً تَامَّةً ، فلا يأتي بِشَيْءٍ غَريبٍ ولا فِعْلٍ جَديدٍ ، لَمْ تَرَهُ وَلَمْ تَعْرِفْهُ . ومَعنى : قَتَلْتَ الزَّمَانَ عِلْمًا ، أي: عَلِمْتَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَذْلَلْتَهُ بِعِلْمِكَ ، وَلَيَّنْتَهُ لَكَ .

رُبَّ مَا لا يُعَبِّرُ اللَّفْظُ عَنْهُ والذي يُضْمِرُ الفُؤادُ اعْتِقَادُه

رُبَّ شَيْءٍ لا يُعَبِّرُ اللفظُ عَنْهُ ، أي : إنْ كُنْتُ قَصَّرْتُ فِيما قُلْتُهُ باللسان ، فإنَّما المُعْتَمَدُ وَالمُعَوَّلُ عَلى مَا يَعْتَقِدُهُ القَلْبُ . رُبَّ شَيْءٍ مِنْ مَدْحِكَ لا يَبْلُغُهُ لَفْظِي بِالعِبَارَةِ عَنْهُ ، وَمَا يُضْمِرُهُ قَلْبي هُوَ اعْتِقَادُهُ فِيكَ،وفي اسْتِحْقَاقِكَ ذلك المَدْح ، وهذا اعتذارٌ عَنْ قُصُورِهِ في وَصْفِهِ وَمَدْحِه .

١٤_ العِلْمُ قَبْلَ التَّجْرِبَةِ

مُجَرَّبًا فَهَمًا مِنْ قَبْلِ تَجْرِبَةٍ مُهَذَّبًا كَرَمًا مِنْ غَيْرِ تَهْذِيبِ

تَرَعْرَعَ المَلِكُ عَلى هَذه الأحوال ، فَهُوَ مُجَرَّبٌ قَبْلَ تَجْرِبَةٍ ، لِمَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنَ الفَهْمِ ، مُهَذَّبٌ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الكَرَمِ ، فَلا يَحْتَاج إلى التَّهْذِيبِ والتَّجْرِيبِ .

*

الفصل الثامن
الدَّهْرُ وَالزَّمانُ

١ــ عَدَمُ القَناعَةِ مِنَ الدَّهْرِ

أيْنَ فَضْلِي إذا قَنِعْتُ مِنَ الدَّهْرِ بِعَيْشٍ مُعَجَّلِ التَّنْكِيدِ

أيْنَ فَضْلي إذا رَضِيتُ مِنَ الدَّهْرِ بِعَيْشٍ قَلِيلِ الخَيْرِ ؟ . وَالتَّنْكِيدُ : التَّقْلِيلُ . يَشْكُو سُوءَ حَالِهِ مَعَ فَضْلِهِ، وَبُعْدِ مَحَلِّه. إذا قَنِعْتُ بِعَيْشٍ قَليلٍ قَدْ عُجِّلَ لِي نَكَدُه، وَأُخِّرَ عَنِّي خَيْرُه ، فَأيْنَ فَضْلي؟، أي : مَكَان فَضْلي ، قَدْ خَفِيَ فَلَيْسَ يُرى .

٢ ــ نَكَبَاتُ الدَّهْرِ

إنْ تَرْمِني نَكَبَاتُ الدَّهْرِ عَنْ كَثَبٍ تَرْمِ امْرَأً غَيْرَ رِعْدِيدٍ ولا نَكِسِ

إنْ رَمَاني الدَّهْرُ بالمَصائبِ والكَوارثِ والشَّدَائدِ مِنْ قَرِيبٍ ، مِنْ حَيْثُ لا يُخْطِئُ ، فَإنِّي غَيْرُ جَبَانٍ ولا سَاقِطٍ دَنيءٍ ، أي : لا أخَافُ ولا أجْبُنُ مِنْه . والنَّكَبَاتُ : جَمْعُ نَكْبَة ، وَهِيَ المِحْنَة . وَعَنْ كَثَبٍ : عَنْ قُرْبٍ . والرِّعْدِيدُ : الجَبَانُ . والنَّكِسُ : السَّاقِطُ الخَامِلُ . إنْ تَرْمِنِي مِحَنُ الزَّمَانِ عَنْ قُرْبٍ، فَقَدْ رَمَتْ امْرَأً غَيْرَ جَبَانٍ ، ولا ضَعِيفٍ سَاقِطٍ ، يُوهِنُهُ رَمْيُهَا .

٣ــ بَنَاتُ الدَّهْرِ

ولا أَظُنُّ بَناتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُني حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرْقَهَا هِمَمِي

لا أَظُنُّ المَصَائِبَ تَدَعُني حَتَّى أَدْفَعَهَا عَنْ نَفْسِي بِسَدِّ طَرِيقِهَا إلَيَّ، وذلك أنْ يَتَقَوَّى بِالمَالِ والأنصارِ. وَبَنَاتُ الدَّهْرِ : صُرُوفُه وَنَوَائِبُه التي تَتَوَلَّد مِنْهُ ، وَتَحْدُث فِيه . وَالعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ البُنُوَّةَ وَالأُخُوَّةَ فِيمَنْ فَعَلَ شَيْئًا يُعْرَف بِه ، فَيَقُولون : هَذا ابْنُ سَفَرٍ ، إذا كَانَ مُعْتَادًا للأسفار ، وَهُوَ أخُو مَعْرُوفٍ ، وأبو الأضياف .

أبِنْتَ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ فَكَيْفَ وَصَلْتِ أنْتِ مِنَ الزِّحَامِ

يُخَاطِبُ الحُمَّى قَائِلًا:عِنْدِي كُلُّ مُصِيبَةٍ، فَكَيْفَ وَصَلْتِ إلَيَّ وَقَدْ تَزَاحَمَتْ عَلَيَّ المَصَائِبُ ؟، أَلَمْ يَمْنَعْكِ زِحَامُ المَصَائِبِ مِنَ الوُصُولِ إلَيَّ ؟ . وهَذا يُشِيرُ إلى اعْتِمَادِ الدَّهْرِ لَهُ بِمَا يَكْرَهُه ، وَشِدَّةِ تَكَرُّرِه عَلَيْهِ بِمَا يُؤْلِمُه. وَقَدْ سَمَّى الحُمَّى بِنْتَ الدَّهْرِ ، لأنَّها تَحْدُثُ فِيه ، فَكَأنَّه أبٌ لَهَا .

٤_ صُرُوفُ الدَّهْرِ

لأيِّ صُرُوفِ الدَّهْرِ فِيهِ نُعَاتِبُ وَأيَّ رَزَايَاهُ بِوِتْرٍ نُطَالِبُ

مَصَائِبُ الدَّهْرِ التي وَقَعَتْ بسبب مَوْتِ المَمْدُوحِ (المَرْثِيِّ) كثيرةٌ لا تُحْصَى ، أَيَّهَا نُعَاتِبُ ؟، لَقَدْ كَثُرَتْ حَتَّى طَغَتْ ، فَلَمْ يَعُدْ هُناك قُدْرَةٌ عَلى أنْ نُعَاتِبَ مُصِيبَةً دُون أُخْرَى . أيَّ مُصِيبَةٍ مِنْ مَصَائِبِ الدَّهْرِ نُعَاتِبُ ، فَقَدْ كَثُرَتْ ، فَلا يُمْكِن مُعَاتَبَتُهَا ، ولا مُطَالَبَتُهَا لِكَثْرَتِهَا . كَيْفَ نُعَاتِبُ نَوَائِبَ الدَّهْرِ وَمَصَائِبَهُ ، وَهِيَ كثيرة، لا تَنْتَهي إلا وتَبْدَأ مُصِيبَةٌ جَديدة ، وَالوِتْرُ: الثأرُ . والرَّزَايَا : جَمْعُ الرَّزِيَّة ، أي : المُصِيبة . مِنْ كَثْرَةِ نَوَائِبِ الدَّهْرِ لا نَدْري مَا الذي نُعَاتِبُ مِنهَا ، وَمِنْ كَثْرَةِ الرَّزَايَا لا نَدْري أيُّهَا نُطَالِبُ بِالوِتْرِ (الثأر) .

٥_ الدَّهْرُ العَصِيُّ

وَأطَاعَكَ الدَّهْرُ العَصِيُّ كَأنَّهُ عَبْدٌ إذا نَادَيْتَ لَبَّى مُسْرِعَا

الدَّهْرُ الذي لا يُطِيعُ أَحَدًا أطَاعَكَ فِيمَا أَرَدْتَ مِنْهُ طَاعَةَ العَبْدِ السَّرِيعِ الإجابة ، كَأنَّ الدَّهْرَ عَبْدُكَ، إذا نَادَيْتَ أجَابَكَ مُسْرِعًا بالتَّلْبِيَّةِ والإجابةِ .

٦_ لا شَيْءَ يُحْمَدُ في الدَّهْرِ

مَنْ خَصَّ بِالذَّمِّ الفِرَاقَ فَإنَّني مَنْ لا يَرَى في الدَّهْرِ شَيْئًا يُحْمَدُ

إنْ كانَ الناسُ يَذُمُّونَ الفِرَاقَ خَاصَّةً ، فأنا أَذُمُّ جَمِيعَ الدَّهْرِ ، ولا أرى في الدَّهْرِ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ وَالمَدْحَ . كُلُّ شَيْءٍ في الدَّهْرِ مَذمُومٌ وسَيِّئ ، وهَذا يَدُلُّ عَلى نَفْسٍ مَرِيرَةٍ وَمُعَانَاةٍ شَديدةٍ وَتَعَاسَةٍ شاملة وعَامَّة ومُتَوَاصِلَة ، لَيْسَ فِيها انقطاع ، وَلا يُوجَد استثناء مِنْهَا .

٧_ صُرُوفُ الدَّهْرِ أنصار

وأراكَ دَهْرُكَ مَا تُحَاوِلُ في العِدَى حَتَّى كَأنَّ صُرُوفَهُ أنْصَارُ

يَقُولُ دَاعِيًا لَه : أراكَ دَهْرُكَ مِنْ أعْدَائِكَ مَا تُرِيدُه مِنْهُم ، حَتَّى تَكُونَ صُرُوفُ الدَّهْرِ (مَصَائِبُه) أنصارًا لَكَ ، وَمِنْ جُمْلَةِ أوليائكَ . أراكَ الزَّمَانُ مَا تَطْلُبُهُ في أعْدَائِكَ مِنَ الظَّفَرِ بِهِم حَتَّى كَأنَّ صُرُوفَه أعْوَانٌ لَكَ عَلى مَا تُرِيد .

٨_ شِدَّةُ الأيَّامِ

قَدْ ذُقْتُ شِدَّةَ أيَّامِي وَلَذَّتَهَا فَمَا حَصَلْتُ عَلى صَابٍ ولا عَسَلِ

قَدْ ذُقْتُ شِدَّةَ أيَّامي وَصُعُوبَتَهَا ، وَلَذَّتَهَا وَرَفَاهِيَتَهَا ، فَمَا حَصَلْتُ عَلى صَابٍ مِنْ مُرِّهَا ، ولا عَسَلٍ مِنْ حُلْوِهَا ، لأنَّ لَذَّاتِ الأيَّامِ وَمَكَارِهَهَا مُنْتَقِلَةٌ فَانِيَة ، وَمُسْتَحِيلَةٌ زائلة ، تَتَعَاقَبُ وَلا تَدُوم ، وَتَنْتَقِل ولا تُقِيم،ومَا كانَ كذلك ، فَلَيْسَ يُقْطَع عَلى اسْتِكْرَاهِ مُرِّه ، ولا يُحَتَّمُ على اسْتِعْذابِ حُلْوِه. جَرَّبْتُ أحْوَالَ الدَّهْرِ ، وَذُقْتُ حَلاوَتَه وَمَرَارَتَه ، فَمَا وَجَدْتُ لِشَيْءٍ مِنْهَا حَقِيقَةً ، لأنَّه لا يَدُوم ، ولا يَبْقَى. مَرَّ بِي مِنَّ الدَّهْرِ الحَلاوَةُ والمَرَارَةُ ، فَلَمْ أَحْصُلْ مِنْهُمَا عَلى صَابٍ ولا عَسَلٍ ، لانقضائِهما وَمُرُورِهما . وَمَنْ عَرَفَ الأيَّامَ لَمْ يَرَ رَغَدَهَا نَعِيمًا ، وَلَمْ يَعْتَبِرْ ضَرَرَهَا مُصِيبَةً ، لأنَّ لَذَّاتِ الأيَّامِ وَمَصَائِبَهَا كُلَّهَا فَانِيَةٌ زائلةٌ ، لا تَدُوم المَنفعةُ ، ولا تَدُوم المَضَرَّةُ. وَالصَّاب : شَجَرٌ مُرٌّ .

وَعَادَ في طَلَبِ المَتْرُوكِ تَارِكُهُ إنَّا لَنَغْفُلُ وَالأيَّامُ في الطَّلَبِ

وَعَادَ الدَّهْرُ عَلَيْكَ في طَلَبِ مَا تَرَكَه ، وَاسْتِرْجَاعِ مَا سَلَّمَه ، إنَّا غَافِلُون عَن مَصائبِ الدَّهْرِ ، وَهُوَ في طَلَبِنَا حَتَّى يَأتِيَنَا فَجْأةً. إنَّا لَنَغْفُلُ وَالأيَّامُ طَالِبَةٌ ، وَالمَصَائبُ في الإسراعِ نَحْوَنَا .

أَوَدُّ مِنَ الأيَّامِ مَا لا تَوَدُّهُ وَأشكُو إلَيْهَا بَيْنَنَا وَهِيَ جُنْدُهُ

أُحِبُّ مِنَ الأيَّامِ الإنصافَ والجَمْعَ بَيْني وَبَيْنَ أَحِبَّتِي،وذلك مَا لا تَوَدُّهُ الأيَّامُ،وَأشكُو إلَيْهَا الفِرَاقَ وَالأيَّامُ جُنْدُ الفِرَاقِ ، لأنَّها سَبَبُ البُعْدِ والتَّفْرِيقِ ، فَكَيْفَ أرْجُو مِنَ الأيَّامِ أنْ تُصْغي إلى شَكْوَاي ؟.

يُبَاعِدْنَ حِبًّا يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ فَكَيْفَ بِحِبٍّ يَجْتَمِعْنَ وَصَدُّهُ

إذا كانت الأيَّامُ يُبْعِدْنَ مِنَّا الحَبِيبَ المُوَاصِلَ لَنَا، فَكَيْفَ يُقَرِّبْنَ الحَبِيبَ المُقَاطِعَ المُهَاجِرَ لَنَا؟. أي إنَّ الأيَّامَ يُبْعِدْنَ عَنَّا حَبِيبًا وَوَصْلُهُ مَوْجُود ، فَكَيْفَ الطَّمَعُ في حَبِيبٍ صَدُّهُ مَوْجُود ؟ ، هَذا أجْدَرُ بِمَعُونته الأيَّام عَلى الفِرَاقِ وَالبِعَادِ .

أبَى خُلُقُ الدُّنيا حَبِيبًا تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبي مِنْهَا حَبِيبًا تَرُدُّهُ

رَفَضَت الدُّنيا والأيَّامُ أنْ تُدِيمَ لَنَا حَبِيبًا عَلى الوِصَالِ ، فَكَيْفَ إذا طَلَبْتُ مِنْهَا حَبِيبًا تَمْنَعُهُ عَنْ وِصَالِنَا ؟ ، كَيْفَ أَطْلُبُ مِنْهَا أنْ تَرُدَّهُ إلى الوَصْلِ بَعْدَ أنْ أَعْرَضَ وَهَجَرَ ؟ . وإذا كانَ مَا في يَدِكَ لا يبْقَى عَلَيْكَ ، فَمَا قَدْ مَضَى أبْعَدُ مِنَ الرُّجُوعِ إلَيْكَ .

أمَا تَغْلَطُ الأيَّامُ فِيَّ بِأنْ أرى بَغِيضًا تُنَائي أوْ حَبِيبًا تُقَرِّبُ

لِمَاذا لا تُخْطِئُ الأيَّامُ فَبَدَل أنْ تُقَرِّبَ الذي أكْرَهُهُ تُبْعِدُه وَتُقَرِّب مِنِّي مَنْ أُحِبُّه ؟ . أمَا يَقَعُ للأيَّامِ الغَلَطُ مَرَّةً واحدةً بِتَقْرِيبِ الحبيبِ أوْ إبعادِ البَغِيضِ ؟ . يُريد أنَّ الأيَّامَ مُولَعَةٌ بِتَقْرِيبِ مَنْ يَكْرَهُهُ ، وإبعادِ مَنْ يُحِبُّه . أفَلا تَغْلَطُ الأيَّامُ مَرَّةً فَتُبْعِد البَغِيضَ وَتُقَرِّب الحَبِيبَ ؟ . وَجَعَلَ ذلك غَلطًا مِنَ الأيَّامِ ، لأنَّه خِلاف مَا تأتي بِه الأيَّامُ .

يُضَاحِكُ في ذَا العِيدِ كُلٌّ حَبِيبَهُ حِذَائي وأبكي مَنْ أُحِبُّ وَأنْدُبُ

كُلُّ أَحَدٍ في هَذا العِيدِ يُسَرُّ بِأهْلِهِ في وَطَنِه ، وأنا بَعِيدٌ عَمَّنْ أُحِبُّ ، أبْكِي عَلى فِرَاقِه ، وأشتاقُ إلى لِقَائِه . يُضَاحِكُ إزائي في هَذا العِيدِ كُلُّ مُحِبٍّ حَبِيبَه ، وَيَزُور كُلُّ قَرِيبٍ قَرِيبَه ، وأبكي مَنْ أُحِبُّ وَأَحْزَنُ لِبُعْدِه ، وَأنْدُبُهُ ، وَأتَأسَّفُ عَلى فَقْدِه .

٩_ لُبْسُ الدَّهْرِ

إذا مَا لَبِسْتَ الدَّهْرَ مُسْتَمْتِعًا بِهِ تَخَرَّقْتَ وَالمَلْبُوسُ لَمْ يَتَخَرَّقِ

إذا كُنْتَ لابِسًا للدَّهْرِ ، وَتَسْتَمْتع بِه ، وَتَعِيش فِيه ، تَخَرَّقْتَ أنْتَ، والمَلْبُوسُ الذي هُوَ الدَّهْر، لَمْ يَتَخَرَّقْ ، بَلْ يَكُون أبَدًا جَدِيدًا ، بِخِلافِ سَائِرِ المَلابِسِ ، فَأنْتَ تُبْلِيهَا وَتُخَرِّقُهَا ، وَالدَّهْرُ يُبْلِي الأبدانَ ، وَيُفْنِيهَا . إذا اسْتَمْتَعْتَ بِعُمْرِكَ كَالمُسْتَمْتِعِ بِمَا لَبِسَه ، فَنِيتَ أنْتَ ، وَمَا لَبِسْتَهُ مِنَ الدَّهْرِ بَاقٍ لَمْ يَبْلَ ، أي إنَّ الإنسانَ يَبْلَى ، والدَّهْرُ جَدِيدٌ لا يَبْلَى .

١٠_ عَجَبُ الدَّهْرِ

الدَّهْرُ يَعْجَبُ مِنْ حَمْلِي نَوَائِبَهُ وَصَبْرِ نَفْسِي عَلى أحْدَاثِهِ الحُطُمِ

الدَّهْرُ نَفْسُهُ يَسْتَغْرِبُ مِنْ قُدْرَةِ الشاعرِ على تَحَمُّلِ مَصَائِبِهِ وَشَدَائِدِهِ ، وَصَبْرِ نَفْسِهِ عَلى أحْدَاثِهِ الجَسِيمَةِ التي تُحَطِّمُ مَنْ أصَابَتْهُ . وَأحْدَاثُه : مَا يَجْرِي مِن شَدائد وتَقَلُّبَاتِ الزَّمَنِ . إنَّ الدَّهْرَ معَ غَلَبَتِهِ لِكُلِّ أَحَدٍ يَعْجَبُ مِن احتمالي شَدَائِدَه ، وَمِنْ صَبْرِي على أحداثِه الكاسرةِ . وهَذا يَدُلُّ على تَفَرُّدِ الشَّاعِرِ وَقُوَّتِهِ النَّفْسِيَّةِ ، ويَرَى نَفْسَه حَالَةً استثنائيةً ، حَيْثُ يُوَاجِهُ الشَّدَائِدَ والمَصَائِبَ بِصَبْرٍ جَسَدِيٍّ وَرُوحِيٍّ ، يُثِيرُ دَهْشَةَ الدَّهْرِ نَفْسِه . وهَذا يَعْكِسُ فلسفةَ الشاعر في تَعظيمِ الذاتِ والصُّمُودِ أمَامَ المَصَاعِبِ ، وكَأنَّ مُعَانَاتَهُ لَيْسَتْ مُجَرَّد اختبار ، بَلْ هِيَ دَليلٌ عَلى تَفَوُّقِهِ عَلى الآخَرِين .

١١ _ الزَّمَانُ لا يَشِيبُ

تَغَيَّرَ حَالِي والليالي بِحَالِهَا وَشِبْتُ وَمَا شَابَ الزَّمَانُ الغُرَانِقُ

تَغَيَّرَ حَالي وتَبَدَّلَ وَضْعِي ، والليالي بِحَالِهَا ، لَمْ تَتَغَيَّرْ ، وَلَمْ تَتَبَدَّلْ . الليالي قَدْ أَثَّرَتْ فِيَّ وَغَيَّرَتْني ، وَهِيَ بِحَالِهَا، وَشِبْتُ أنا والزَّمَانُ لا يَتَغَيَّرُ عَنْ حَالِهِ وَحَدَاثَتِهِ . وَالغُرَانِقُ : الشَّابُّ الناعم.

١٢_ هَانَ الزَّمَانُ عَلى القَلْبِ

هَانَ عَلى قَلْبِهِ الزَّمَانُ فَمَا يَبِينُ فِيهِ غَمٌّ ولا جَذَلُ

هَذه صِفَةُ العَاقِلِ الحَكِيمِ الذي يَسْتَخِفُّ بالمَصائبِ ، ويَسْتهينِ بالشَّدَائدِ ، ولا يُبَالي بالحَوَادثِ ، لِعِلْمِهِ أنَّها فَانِيَةٌ زائلةٌ ، لا يَبْقَى الغَمُّ ، ولا يَدُوم السُّرُورُ ، فَلا يَكُون لَهُمَا في النَّفْسِ أَثَرٌ ، فلا يَبْطَر عِنْدَ السُّرُورِ ، ولا يَجْزَع عِنْدَ الحُزْنِ . والدَّهْرُ يَوْمَان : يَوْمٌ لَكَ ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، فَإنْ كَانَ لَكَ فلا تَبْطَر ، وإنْ كَانَ عَلَيْكَ فَاصْبِرْ ، كِلاهُمَا يَزُولُ ، لا يَثْبُتُ ، ولا يَبْقَى ، ولا يَدُوم . إنَّه يَسْتَهِينُ بالزَّمَانِ وَيَسْتَخِفُّ بِهِ ، فَلا يَحْزَن لإدْبَارِه ، ولا يَفْرَح بإقبالِه ، بَلْ غَرَضُه فِعْلُ الجَمِيلِ لاقتناءِ الثَّنَاءِ الجَزِيلِ .

١٣_ جُمُوحُ الزَّمَانِ

جَمَحَ الزَّمَانُ فَلا لَذِيذٌ خَالِصٌ مِمَّا يَشُوبُ ولا سُرُورٌ كَامِلُ

الزَّمَانُ جَمُوحٌ ، انْطَلَقَ وَانْدَفَعَ ، يُكَدِّر اللَّذَّاتِ ، وَيُلَوِّثُ الشَّهَوَاتِ ، فَكُلُّ لَذِيذٍ مَشُوبٌ بالتَّنْغِيصِ ، وكُلُّ سُرُورٍ فِيهِ نَاقِصٌ غَيْرُ كَامِلٍ . وَسَاعَاتُ السَّعَادَةِ قليلةٌ وسَرِيعَةُ المُرُورِ ، وَالمُتَعُ مَعْجُونَةٌ بالكَدَرِ ، والإنسانُ مَخلوقٌ في تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ ، ولا يُمْكِن الحُصُولُ في الدُّنيا عَلى الهَنَاءِ الصَّافي وَالسَّعَادَةِ الخَالِصَةِ وَالنَّعِيمِ الكَامِلِ .

١٤ _ ذَمُّ أهْلِ الزَّمَانِ

أَذُمُّ إلى هَذا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ فَأعْلَمُهُمْ فَدْمٌ وَأحْزَمُهُمْ وَغْدُ

أَذُمُّ إلى أهْلِ الزَّمَانِ أهْلَه ، فَأعْلَمُ هَذا الزَّمَانِ جَاهِلٌ غَبِيٌّ ، وإذا كانَ الأعْلَمُ غَبِيًّا ، كَيْفَ يَكُون الجَاهِلُ ؟! ، وأكْثَرُهُمْ حَزْمًا لَئِيمٌ ضَعِيفٌ حَقِيرٌ ، لا خَيْرَ عِنْدَه ، ولا فَائدة مِنْه . وَقَدْ صَغَّرَ أهْلَ الزَّمَانِ عَلى جِهَةِ التَّحْقِيرِ .

١٥_ حَالاتُ الزَّمَانِ

وَحَالاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى وَحَالُكَ وَاحِدٌ في كُلِّ حَالِ

أحْوَالُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ مُتَفَرِّقَةٌ ومُختلفة ، ولا يُزْعِجُكَ مِنْهَا شَيْء ، ولا يُغَيِّرُكَ عَنْ حَالِكَ مِنَ الصَّبْرِ وَالثَّباتِ وَالحِلْمِ وَالوَقَارِ في جَميعِ الأوقاتِ . يَتَلَوَّنُ الزَّمَانُ وَتَخْتلف حَالاتُه عَلَيْكَ ، ولا تَتَحَوَّلُ حَالُكَ مِنَ الصَّبْرِ وَالكَرَمِ وَالرَّزَانَةِ . والمَعنى: لا تَخْتَلِفُ حَالُكَ وإن اختلفتْ أحوالُ الزَّمَانِ . إنَّ أحوالَ الزَّمَانِ تَخْتَلِف عَلَيْكَ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، وَالشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَحَالُكَ لا تَخْتَلِف في كَرَمِ نَفْسِكَ ، وَنَفَاذِ عَزْمِكَ .

١٦ _ أهْوَالُ الزَّمَانِ

دُونَ الحَلاوَةِ في الزَّمَانِ مَرَارَةٌ لا تُخْتَطَى إلا عَلى أهْوَالِهِ

لا يُمْكِن الوُصُولُ إلى حَلاوةِ الزَّمَانِ إلا بَعْدَ ذَوْقِ مَرَارَتِه ، ولا يُمْكِن تَجَاوُزُ تِلْك المَرَارَةِ إلا بارتكابِ أهْوَالِه . و " عَلى " يَتَضَمَّنُ مَعْنى الرُّكُوبِ ، أي : تُركَب أهوالُ الزَّمَانِ للوُصُولِ إلى حَلاوته . وبالتأكيد، دُون الحَلاوةِ مَرَارَةٌ ، وَدُون الآمَالِ أهوالٌ، ولا بُدَّ مِنْ بَذْلِ الجُهْدِ للوُصُولِ إلى المُرَادِ ، فلا رِبْحٌ بِلا مَشَقَّةٍ ، ولا انتصارٌ بِلا عَذابٍ .

أذَاقَني زَمَني بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى مَا عَاشَ وَانْتَحَبَا

يَقُول شَاكِيًا مِنْ زَمَانِه : أذَاقَني زَمَني مِنْ مَصَائِبِهِ وَمِحَنِهِ مَا نَشِبَ في حَلْقِي ، أي : غَصَّ بِهَا حَلْقِي ، وَلَمْ أسْتَسِغْهَا ، وَلَمْ أقْدِرْ عَلى ابتلاعِها ، وَلَوْ ذَاقَ الزَّمَنُ مَا أذَاقَني مِنَ المَصَائبِ والمِحَنِ لَبَكَى بُكَاءً مَرِيرًا، وانْتَحَبَ مَا عَاشَ. والانتحابُ : البُكَاءُ الشَّدِيدُ المُسْتَمِر .

١٧ _ نُيُوبُ الزَّمَانِ

إنَّ نُيُوبَ الزَّمَانِ تَعْرِفُني أنا الذي طَالَ عَجْمُهَا عُودِي

قَدْ طَالَتْ صُحْبَتي مَعَ الزَّمَانِ، وَقَدْ جَرَّبَني، وَعَرَفَ صَلابَتي، وَصَبْرِي عَلى مَصَائِبِهِ وَشَدَائِدِه . وَعَجْمُ العُودِ : عَضُّهُ لِتُعْرَفَ صَلابَتُه مِنْ رَخَاوَتِه .

١٨_ شِدَّةُ حُبِّ الزَّمَانِ

يُجَمِّشُكَ الزَّمَانُ هَوًى وَحُبًّا وَقَدْ يُؤْذِي مِنَ المِقَةِ الحَبِيبُ

الزَّمَانُ يُحِبُّكَ حُبًّا شديدًا ، فآلَمَكَ بهذا القَدْرِ مِنَ الأَلَمِ ، لأنَّ الحَبِيبَ يُؤْذِيه الحَبِيبُ إذا غَلَبَهُ الحُبُّ ، تَدَلُّلًا وتَذَلُّلًا . إنَّ الزَّمَانَ يُدَاعِبُكَ ، وَيَتَعَرَّض لَكَ ، لِحُبِّهِ إيَّاكَ ، فآذاكَ وَآلَمَكَ ، فَإنَّ المُحِبَّ رُبَّمَا آذى حَبِيبَه بِالعَضِّ وَغَيْرِه مَحَبَّةً مِنْه . وَالمِقَةُ : الحُبُّ ، وَالتَّجْمِيش : المُغَازَلَة وَمُدَاعَبَة الحَبِيبِ ومُلاعَبته وَالمُمَازَحَة مَعَه . الذي أصَابَكَ تَجْمِيشٌ مِنَ الزَّمَانِ حُبًّا لَكَ ، لأنَّكَ جَمَالُه وأشرفُ أهْلِه ، وإنْ تأذَّيْتَ بِه ، فَقَدْ يَكُون مِنَ الأذى مِقَة مِنَ المُؤذِي ، أي : مَحَبَّة مِنْه .

١٩_ تَقْصِيرُ أهْلِ الزَّمَانِ

وَسَعَى فَقَصَّرَ عَنْ مَدَاهُ في العُلَا أهْلُ الزَّمَانِ وَأهْلُ كُلِّ زَمَانِ

وَسَعَى إلى المَجْدِ وَالمَعَالي ، فَعَجَزَ أهْلُ زَمَانِه عَنْ بُلُوغِ شَأْوِهِ ، كذلك كُلُّ أهْلِ زَمَانٍ قَبْلَه وَبَعْدَه . لَقَدْ سَبَقَ الجَمِيعَ ، وَلَمْ يَسْبِقْهُ أحَدٌ ، وَقَصَّرَ عَنْ إدراكِ مَنْزِلَتِهِ وَمُمَاثَلَةِ فِعْلِهِ أهْلُ زَمَانِهِ بِجُمْلَتِهِم ، وَالمُحَاوِلُون لإدراكِه بِعَامَّتِهِم ، وَمَنْ تَقَدَّمَه مِنَ الكُرَمَاءِ في الأزمنةِ الخَالِيَةِ ، وَمَنْ كانَ قَبْلَهُم مِنْهُم في المُدَدِ السالفة .

٢٠_ صُحْبَةُ الناسِ للزَّمَانِ

صَحِبَ الناسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِن شَأنِهِ مَا عَنَانَا

صَحِبَ الناسُ زَمَانَهُم قَبْلَنَا ، وَكُلُّ مَنْ صَحِبَ الزَّمَانَ اهْتَمَّ بِشَأنِه كَمَا نَهْتَمُّ نَحْنُ ، وَأتْعَبَهُم في شَأنِهِ الذي أتْعَبَنَا ، أي إنَّ كُلَّ الناسِ يَهُمُّهُمُ الزَّمَانُ ، ويَحْرِصُون عَلى فَهْمِه ، ومَعرفةِ أحوالِه وَتَقَلُّبَاتِه ، وهَذا يُوحِي بِكَثْرَةِ مَتَاعِبِ الحَيَاةِ . لَقَدْ اخْتَبَرَ الناسُ هَذا الزَّمَانَ قَبْلَنَا كَي يَتَّخِذُوه صَدِيقًا لَهُمْ كَمَا رَافَقْنَاه ، ولكنَّ الزَّمَانَ أتْعَبَهُم كَمَا أتْعَبَنَا .

٢١ _ الغُصَّةُ مِنَ الزَّمَانِ

وَتَوَلَّوْا بِغُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أحْيَانَا

لَمْ يَنَلْ أَحَدٌ مُرَادَه مِنَ الزَّمَانِ ، وَلَمْ يَبْلُغْ أَمَلَه، فَمَاتَ بِغُصَّتِهِ ، وإنْ سَرَّ في بَعْضِ الأحيان . جَمِيعُ الناسِ رَحَلُوا مِنْ هَذه الدُّنيا ، وَهُمْ في مَرَارَةٍ وأسى ، وإنْ أسْعَدَهُم الزَّمَانُ أحْيَانًا . لَقَدْ صَحِبُوا الزَّمَانَ،ثُمَّ مَاتُوا بِغُصَّةٍ ، لَمْ يَبْلُغُوا مَا أَمَّلُوا مِنَ الزَّمَانِ ، وَإنْ كَانَ قَدْ فَرَّحَهُم حِينًا ، فَقَدْ نَغَّصَهُم أكْثَرَ مِمَّا فَرَّحَهُم . خَرَجَ كُلُّ الناسِ مِنْ هَذا الزَّمَانِ بالمَرَارَةِ والأسى والمَتَاعِبِ الكثيرةِ ، وإنْ كانوا قَدْ شَعَرُوا ببعضِ السَّعَادَةِ في أوقاتٍ قليلة .

٢٢_ لَيَالي الزَّمَانِ

رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لَيَالِيهِ وَلَكِنْ تُكَدِّرُ الإحْسَانَا

قَدْ تُحْسِنُ لَيَالي الزَّمَانِ الصَّنِيعَ ، وَلَكِنَّهَا تَمْزُجُ الإحسانَ بالإساءةِ والتَّكْدِيرِ . وَرُبَّمَا : تَدُلُّ عَلى التَّقْلِيلِ . وَلَكِنْ : يَدُلُّ على الاستدراكِ ، وَسُرْعَةِ التَّحَوُّلِ مِنْ حَالٍ إلى حَال . وَلَيَالِيه : تَدُلُّ عَلى الظُّلْمَةِ والهُمُومِ ، وجَاءَتْ جَمْعًا لِتَدُلَّ عَلى الكَثْرَةِ . قَدْ تُقَدِّمُ لَيَالي الزَّمَانِ للإنسانِ عَمَلًا جَمِيلًا حَسَنًا ، ولكنْ سَرْعَان مَا يَتَحَوَّل إلى إساءةٍ ، فالصِّحَّةُ تَتَحَوَّلُ إلى مَرَضٍ ، والغِنَى يَتَحَوَّلُ إلى فَقْرٍ ، والنَّجَاحُ يَتَحَوَّل إلى فَشَلٍ . عَادَةُ الزَّمَانِ هَكَذَا ، يُعْطِي ثُمَّ يَرْجِع فِيمَا يُعْطِي ، وَيُحْسِن ولا يُتَمِّم الإحسانَ ، والزَّمَانُ يَأخُذُ مَا أعْطَاه، وَيُكَدِّرُ مَا أصْفَاه ، وَيُفْسِدُ مَا أصْلَحَه . والزَّمَانُ إذا أحْسَنَ أوَّلًا ، كَدَّرَ وَأسَاءَ آخِرًا ، وهَذه صِفَتُه وَطَبِيعَتُه ودَيْدَنُه .

٢٣ _ رَيْبُ الدَّهْرِ

وَكَأنَّا لَمْ يَرْضَ فِينَا بِرَيْبِ الدَّهْرِ حَتَّى أعَانَهُ مَنْ أعَانَا

إنَّ الزَّمَانَ لَمْ يَرْضَ فَقَطْ بِصُرُوفِهِ وَمَصَائبِه ، حَتَّى سَاعَدَهُ الناسُ بالشَّرِّ ، فَزَادُوا مِن وَيْلاتِه . لَمْ يَكْفِنَا مَا نُقَاسِيه مِنْ حَوَادَثِ الزَّمَانِ، حَتَّى أعَانَهُ عَلَيْهَا حُسَّادُنَا وَأعْدَاؤُنَا، فَصَارُوا أعْوَانًا للزَّمَانِ عَلى الإساءةِ إلَيْنَا. هَذا الذي أعَانَ عَلَيَّ الدَّهْرَ كَأنَّه لَمْ يَرْضَ بِمَا يُصِيبُني مِنْ مِحَنِهِ حَتَّى أعَانَهُ عَلَيَّ. وَرَيْبُ الدَّهْرِ : حَوَادِثُه . يَذكُرُ تَعَادِي الناسِ وَمَا يَقَعُ بَيْنَهُم بسبب ذلك مِنَ المِحَنِ ، حَتَّى كَأنَّ بَعْضَهُم يُعِينُ الدَّهْرَ عَلى بَعْضٍ . كَأنَّ الذي يُعِينُ الدَّهْرَ عَلى نِكَايَةِ أهْلِه ، لَمْ يَرْضَ بِمَا تَجُرُّ حَوَادِثُ الدَّهْرِ مِنَ البَلاءِ ، فَزَادَ عَلَيْهَا بَلاءً العَدَاوَةَ وَالشَّرَّ .

٢٤_ التَّعَامُلُ مَعَ الزَّمَانِ

كُلَّمَا أنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً رَكَّبَ المَرْءُ في القَنَاةِ سِنَانَا

إذا ابْتَدَرَ الزَّمَانُ للإساءةِ بِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ صَارَتْ عَدَاوَةُ المُعَادِي مَدَدًا لِقَصْدِه ، فَجَعَلَ القَنَاةَ مَثَلًا لِمَا في طَبْعِ الزَّمَانِ ، وَجَعَلَ السِّنَانَ مَثَلًا للعَدَاوَةِ . وَالزَّمَانُ إذا أنْبَتَ قَنَاةً ، إنَّما يُنْبِتُهَا بالطَّبْعِ، ولا يَشْعُرُ لأيِّ شَيْءٍ تَصْلُح ، فَيَتَكَلَّف الإنسانُ اتِّخَاذَ القَنَاةِ ، تَوَصُّلًا إلى هَلاكِ النُّفُوسِ ، فالزَّمَانُ

يَفْعَلُ ولا يَشْعُرُ مَا يُراد بِه . وَقَدْ أَسْنَدَ إنباتَ القَنَاةِ إلى الزَّمَانِ ، أي : إلى غَيْرِ فَاعِلِه الأصليِّ ، لأنَّ الزَّمَانَ لَيْسَ في قُدْرَتِه وَطَبِيعَتِه الإنباتُ ، وإنَّما الذي يَفْعَل إنباتَ القَنَاةِ حَقِيقَةً حَوَادِثُ تَحْصُلُ في الزَّمَانِ. والقَنَاة: عُود الرُّمْحِ ، والسِّنَانُ : نَصْلُهُ الذي يُطْعَنُ بِه . إذا أنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً ، أي : كَيْدًا أوْ شَرًّا يَطْلُبُ بِهِ هَلاكَنَا ، رَكَّبَ الإنسانُ في تِلْك القَنَاةِ السِّنَانَ فَيَجْعَلُهَا رُمْحًا .

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أنْ يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

أَطْلُبُ مِنَ الزَّمَانِ اسْتِقَامَةَ الأحْوَالِ، وَالزَّمَانُ لا يَبْلُغُ هَذا مِنْ نَفْسِه ، لأنَّه دَائِمُ التَّقَلُّبِ والتَّغَيُّرِ، ربيع وَصَيْف وَخَرِيف وَشِتَاء . أوْ : إنَّ هِمَّتَهُ أعلى مِنْ أنْ يَكُونَ في وُسْعِ الزَّمَانِ البُلُوغُ إلَيْهَا ، وَهُوَ يَتَمَنَّى عَلى الزَّمَانِ أنْ يُبَلِّغَه مَا في هِمَّتِه . أوْ : يُطَالِب الزَّمَانَ بأنْ يُخَلِّيَهُ مِنَ الأضْدَادِ ، والزَّمَانُ لَيْسَ يَبْلُغ هذا مِنْ نَفْسِه ، فَإنَّ الليلَ والنَّهَارَ كَالمُتَضَادَّيْن . أوْ: إنَّني أقْتَرِحُ عَلى الزَّمَانِ الاستبقاءَ، وَهُوَ لَمْ يَنَلْ في نَفْسِه البَقَاءَ. أُرِيدُ وأبْتَغِي مِنْ زَمَني أنْ يُوصِلَني إلى مَا لَمْ يَصِلْ إلَيْهِ الزَّمَنُ بِنَفْسِه ، أي : يُرِيدُ وَيَتَمَنَّى أنْ يَظَلَّ شَبَابًا ، وَيَظَلَّ في سَعَادَةٍ وَصِحَّةٍ ، ولا يَشِيب أبَدًا . أُرِيدُ مِنَ الزَّمَانِ أنْ يَدُومَ عَلى حَالٍ، فَلا يَسْلُب مِنِّي الشَّبَابَ ، ولا يُكَدِّر عَلَيَّ السُّرُورَ ، فلا أهْرَم ، ولا أهْتَم ، وهذه حالةٌ لَوْ أرَادَهَا الزَّمَانُ لِنَفْسِهِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا، لأنَّه لَو اختارَ أنْ يَكُونَ نَهَارًا دائمًا ، أوْ رَبيعًا أبدًا ، لَمَا أمْكَنَه ذلك ، لأنَّ أحْوَالَه تَتَغَيَّر وَتَتَقَلَّب ، حَيْثُ يأتي الليلُ بَعْدَ النَّهَار ، ويَأتي الصَّيْفُ بَعْدَ الرَّبيع ، فَكَيْفَ يُبَلِّغُني الزَّمَانُ مَا لا يَقْدِر عَلَيْهِ لِنَفْسِه ؟! . إذا لَمْ يَبْلُغ الزَّمَانُ مُرَادَه في نَفْسِه ، فَجَدِيرٌ ألا يُبَلِّغَني مُرَادِي ، إذْ لَوْ كانَ ذلك في نِطَاقِ قُوَّتِهِ لآثَرَ بِهِ نَفْسَه . يَتَعَجَّبُ مِنْ تَشَطُّطِهِ عَلى الزَّمَنِ ، وتَكْلِيفِهِ إيَّاه مَا لَيْسَ في وُسْعِه ، ولا يَجِد مُعِينًا عَلَيْهِ مِنْ طَبْعِه . وَجَعَلَ للزَّمَانِ نَفْسًا ، وإنَّما هُوَ نُورٌ وَظُلْمَة ، تَحْدُثان عِند حَرَكَةِ الفَلَكِ ، لأنَّ العَرَبَ تَنْسُبُ الأفعالَ إلى الدَّهْرِ كَثِيرًا ، لِوُقُوعِهَا فيه ، فَيَقُولُون : فَعَلَ الزَّمَانُ ، وَصَنَعَ .

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إلا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ البَدَنُ

مَا دُمْتَ حَيًّا فَلا تُبالِ بالزَّمَانِ وَمَصَائِبِهِ وكَوَارِثِه ، فإنَّها فَانِيَةٌ ، تَزُول ولا تَبْقَى ، والذي لا عِوَضَ مِنْهُ إذا فاتَ هُوَ الرُّوح فَقَط. مَا دَامَتْ رُوحُكَ في الجَسَدِ، فلا تَعْبَأ بِحَوَادِثِ الدَّهْرِ، ولا تَهْتَم بِها ، فَإنَّهَا لا تَدُوم . وقِيل : أرادَ لا تُبالِ بأهلِ الدَّهْرِ مَا دُمْتَ حَيًّا .

فَمَا يَدُومُ سُرُورٌ مَا سُرِرْتَ بِهِ وَلا يَرُدُّ عَلَيْكَ الفَائِتَ الحَزَنُ

فَمَا يَدُومُ سُرُورٌ لَكَ مَا سَرَّكَ وَأَفْرَحَكَ وَأَنِسْتَ بِه ، ولا يَرُدُّ الحُزْنُ عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ وَأَوْحَشَكَ ، فَكِلا الأَمْرَيْنِ سَرِيعُ الزَّوَالِ ، وَمَا شُهِدَ مِنْهُمَا قَرِيبُ الانتقالِ ، وَمَا كَانَتْ هَذه حَالَه ، فالسُّرُورُ مِنْهُ لا تُكْثِر الغِبْطَةَ بِه ، وَالحُزْنُ فِيه لا يَشْتَدُّ الأسَفُ له . سُرُورُكَ بإقبالِ الدَّهْرِ لا يَدُوم ، وإنْ حَرَصْتَ عَلى دَوَامِه،وَجَزَعُكَ عَلى مَا يَفُوتُكَ مِنْهُ لا يَرُدُّهُ عَلَيْكَ،فلا تَفْرَحْ بِلَذَّةٍ إنْ وَصَلَتْ إلَيْكَ ، ولا تَحْزَنْ عَلَيْهَا إنْ فَاتَتْكَ . لا تُبالِ بِمَا يُحْدِثُه لَكَ الدَّهْرُ ، فَإنَّ الفَرَحَ لا يَدُومُ ولا يَبْقَى ، والحُزْن عَلى الغَائِبِ لا يَرُدُّهُ عَلَيْكَ، ولا يُرْجِعُه إلَيْكَ. وهذا يدلُّ على تَقَلُّبَاتِ الحَيَاةِ وأحوالِها. السَّعَادَةُ وَالحُزْنُ كِلاهُمَا عَابِرٌ ، فَلا سُرُورٌ يَدُوم إلى الأبَدِ ، ولا الحُزْنُ يُعِيدُ مَا فَاتَ ، مِمَّا يُوَضِّح أهميةَ التَّوَازُنِ في المَشَاعِرِ ، وَعَدَم الغَرَقِ في الأفراحِ الزائلةِ ، أو الأحزانِ المَاضِيَةِ . ولا بُدَّ مِنْ عَيْشِ اللحظةِ بِوَعْيٍ وَرِضا ، وهذه دَعْوَةٌ إلى التأمُّلِ في طَبيعةِ الحَيَاةِ الفَانِيَةِ ، والتعامل معَ أحداثِها بِحِكْمَةٍ واتِّزَان .

٢٥_ هَرَمُ الزَّمَانِ

أتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ في شَبِيبَتِهِ فَسَرَّهُمْ وَأتَيْنَاهُ عَلى الهَرَمِ

إنَّ المُتَقَدِّمِين جَاؤُوا الزَّمَنَ وَهُوَ شَابٌّ ، فَسَرَّهُم ، وأفْرَحَهُم ، وَفَعَلَ مَعَهُم مَا يُريدون ، وَجَاءَ وَقَدْ هَرِمَ الزَّمَانُ ، أي : شَاخَ وَبَلَغَ أقْصَى الكِبَرِ ، فَلَمْ يُحْسِن المُعَامَلَةَ مَعَه . أبناءُ الزَّمَانِ مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ كانوا في شَبَابِ الدَّهْرِ ، فَسَرَّهُم ، وَمَنَحَهُم الفَرَحَ والسَّعَادَةَ ، وَنَحْنُ أَتَيْنَا الزَّمَانَ وَقَدْ صَارَ عَجُوزًا ، فَلَمْ نَجِدْ عِنْدَه مَا يُفْرِحُنا وَيُسْعِدُنا . مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ سَالِفِ الأُمَمِ أدْرَكُوا الزَّمَانَ في أوَّلِ أمْرِه، فنالوا خَيْرَه ، وَأَتَيْنَاهُ نَحْنُ في آخِرِهِ ، فَلَمْ نَجِدْ إلا التَّعَبَ والعَنَاءَ ، كَأولادِ الرَّجُلِ إذا جاؤوا في أوَّلِ شَبَابِهِ انتَفَعُوا بأبيهم ، وكَسَبَ لَهُمُ الأموالَ ، وسَرَّهُم ، وأفْرَحَهُم ، وأكْرَمَهُم ، وَأحْسَنَ إلَيْهِم ، وَجَعَلَهُم يَسْتَمْتِعُون بِمَلَذَّاتِ الحَيَاةِ وَشَهَوَاتِهَا ، وإذا جاؤوا لَه بَعْدَ الكِبَرِ والعَجْزِ والفَقْرِ ، لَمْ يَنَلْ أولادُه مِنْهُ إلا الهَمَّ والغَمَّ والحُزْنَ والتَّعَبَ وَالحِرْمَانَ وَالمُعَانَاةَ ، وَقَدْ يَمُوت الأبُ ، فَيَبْقَى الأولادُ أيْتَامًا وَحِيدِين مَحْرُومين . لَقَدْ اسْتَنْبَطَ الشاعرُ عَصْرًا بِكَامِلِهِ ، وَبِكُلِّ تَنَاقضاتِه ، وَبجميعِ اختلافاتِه وأضْدَادِه، وعَبَّرَ عَنْ إحْسَاسِهِ الدَّقيقِ بالزَّمَنِ واتِّجَاهَاتِه ، مِمَّا أكْسَبَ شِعْرَه قِيمةً تاريخيةً وَجَمَالِيَّةً تَوَالَتْ عَبْرَ العُصُور .

٢٦_ ضَيَاعُ الوَقْتِ

وَقْتٌ يَضِيعُ وَعُمْرٌ لَيْتَ مُدَّتَهُ في غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الأُمَمِ

لِي وَقْتٌ يَضِيعُ في مُخَالَطَةِ أهْلِ الدَّهْرِ وَمُصَاحَبَتِهِم ، لأنَّهُم أوْغَادٌ وأنذالٌ ، يَضِيعُ الوَقْتُ بِصُحْبَتِهِم، وَلَيْتَ مُدَّةَ عُمْرِي كانتْ في أُمَّةٍ أُخْرَى مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ،وهَذه شَكْوَى مِنْ أهْلِ الدَّهْرِ. وَقْتِي ضَائِعٌ بَيْنَ أهْلِ هَذا الجِيلِ الذي أنا فِيهِم ، وَعُمْرِي يَذْهَب هَدَرًا بَيْنَهُم ، لأنَّني لا أحْصُلُ عَلى مَا أُرِيدُ ، ولا أنَالُ مَا ألْتَمِسُ . لَيْتَني كُنْتُ قَبْلَ هَذا الوَقْتِ بَيْنَ الأُمَمِ المَاضِيَةِ . لَقَدْ تَمَنَّى أنْ يَكُونَ عُمْرُهُ ذَهَبَ بَيْنَ السَّالِفِ مِنَ الأُمَمِ، لأنَّهُم أفْضَلُ مِنَ الجِيلِ الذي هُوَ فِيه .

٢٧ _ العُمْر

فُؤَادٌ مَا تُسَلِّيهِ المُدَامُ وَعُمْرٌ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللِّئَامُ

غَرَضِي بَعِيدٌ، وَطُمُوحِي عَالٍ ، وَمَرَامِي مُتَعَذِّر ، وَأُمْنِيَّتِي صَعْبَةُ التَّحقيقِ ، إذْ لَسْتُ كالناسِ أرْضَى بِمَا يَرْضَوْنَ بِه، ولا تُلْهِيني الخَمْرُ عَن المَعَالي، ولا تَثْنِيني عَن غَايَتي، وَيَتَأسَّفُ على العُمْرِ القَصِيرِ، لَوْ كانَ العُمْرُ طَوِيلًا لَرَجَوْتُ أنْ أُدْرِكَ أغْرَاضِي ، وأُحَقِّقَ أحْلامي وَأهْدَافي بِطُولِ العُمْرِ ، وَلَكِنَّ العُمْرَ قَصِيرٌ، وَمُدَّتَهُ قليلة ، فَهُوَ كَهِبَةِ اللِّئَامِ يَسِيرَةٌ حَقِيرَةٌ ، فَمَا أخْوَفَني أن لا أُدْرِكَ غَرَضِي بِقَدْرِ مَا أَرْجُوه مِنَ العُمْرِ.عُمْرِي قَلِيلٌ لا يُمْكِن أنْ أُحَقِّقَ فِيه كُلَّ مَا أُرِيدُ،وَعُمْرِي أقْصَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ طُمُوحَاتي.

٢٨_ الشَّبَاب

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلى الشَّبَابِ وَلِمَّتِي مُسْوَدَّةٌ وَلِمَاءِ وَجْهِيَ رَوْنَقُ

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلى شَبَابي وأنا لا أزَالُ فِيه . يَحْزَنُ عَلَيْهِ ، وَشَعْرُهُ كَثِيفٌ أَسْوَد ، وَيَرْثِيه ، وَوَجْهُهُ يَنْبِضُ بِنَضَارَةِ الشَّبَابِ وَجَمَالِه ، وذلك لأنَّه عَلِمَ بأنَّ هذا الشَّبَابَ، وَإنْ بَلَغَ أَوْجَهُ ، فَإنَّه إلى زَوَالٍ عَمَّا قَرِيب ، فأصابه الأسى عَلى نَفْسِه إذْ يَتَرَقَّب فِرَاقَه . واللِّمَّةُ : شَعْرُ الرَّأسِ المُجَاوِزُ شَحْمَةَ الأُذُنِ . وَمُسْوَدَّة : سَوْدَاء . والرَّوْنَق : الحُسْنُ والصَّفَاءُ .

وَمَا مَاضِي الشَّبَابِ بِمُسْتَرَدٍّ ولا يَوْمٌ يَمُرُّ بِمُسْتَعَادِ

مَا يَمْضِي مِنَ الأيَّامِ لا يُسْتَرْجَع ، ولا يُسْتَعَاد ، فَاشْغَلْ نَفْسَكَ بِمَا هُوَ الأهَم والمَطْلُوب ، وَمَا يَمْضِي مِنَ العُمْرِ فَائِتٌ لا يَعُود . وهَذا حَثٌّ عَلى لُزُومِ الكَائِنِ قَبْلَ فَوْتِه ، إنَّ الشَّبَابَ إذا مَضَى ، وَهُوَ الزَّمَانُ الذي لا يُمْكِن تَحَمُّل المَشَاقِّ في طَلَبِ المَعَالي ، لا يُمْكِن رَدُّه، فكذلك اليَوْم الذي يَمُرُّ لا يُمْكِن إعَادَتُه، سَوَاءٌ كَانَ مِنْ أيَّامِ الشَّبَابِ أوْ غَيْرِهَا .

٢٩_ المَصَائِبُ والحَوَادِث

مَصَائِبُ شَتَّى جُمِّعَتْ في مُصِيبَةٍ وَلَمْ يَكْفِهَا حَتَّى قَفَتْهَا مَصَائِبُ

لَيْسَتْ هَذه مُصِيبَةً واحدةً ، بَلْ هِيَ مَصَائِب مُتَفَرِّقَة ، لِعِظَمِهَا ، جُمِّعَتْ في مُصِيبَةٍ واحدةٍ ، لأنَّه مَاتَ بِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْفِهَا ذلك حَتَّى تَبِعَتْهَا مَصَائِب أُخْرَى ، وهي أقوالُ الأعداءِ : إنَّنا شَامِتُون بِمَوْتِه، فَإنَّ هَذه مُصِيبة انْضَمَّتْ إلَيْهَا. وَالمَصَائِبُ لا تأتي فُرَادَى .

أنكَرْتُ طَارِقَةَ الحَوَادِثِ مَرَّةً ثُمَّ اعْتَرَفْتُ بِهَا فَصَارَتْ دَيْدَنَا

كُنْتُ في أَمْنٍ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ، فَلَمَّا حَدَثَتْ مَرَّةً أنْكَرْتُهَا ، وَجَزِعْتُ مِنْهَا ، ثُمَّ تَكَرَّرَتْ عَلَيَّ حَتَّى صَارَتْ عَادَةً لِي ، فلا أُنكِرُهَا الآن . أنْكَرْتُ المَصَائِبَ والشَّدَائِدَ في أوَّلِ الأمْرِ ، وَقُلْتُ : لَيْسَتْ تَقْصِدُني ، وأنا أخطأتُ في قَصْدِي ، ثُمَّ لَمَّا كَثُرَتْ أَقْرَرْتُ بِهَا وَعَرَفْتُ أنَّهَا تأتيني ، فَصَارَتْ عَادَةً لِي لا تُفَارِقُني ، ولا أَنْفَكُّ مِنْهَا . والدَّيْدَنُ : العَادَة .

لَيْتَ الحَوَادِثَ بَاعَتْني الذي أَخَذَتْ مِنِّي بِحِلْمِي الذي أَعْطَتْ وَتَجْرِيبي

لَيْتَ المَصَائِبَ وَالشَّدَائِدَ رَدَّتْ عَلَيَّ شَبَابي ، وَأَخَذَتْ مِنِّي الذي أعْطَتْهُ مِنَ الحِلْمِ والتَّجْرِبَةِ ، وَرَدَّتْني إلى أحوالِ الحَدَاثَةِ والصِّبَا (صِغَر السِّنِّ) . وَقَدْ كَانَ مَعِي مِنَ الحُلْمِ والتَّجْرِبَةِ مَا يَكْفِيني . يَتَمَنَّى لَوْ يَعْقِد صَفْقَةَ تَبَادُلٍ مَعَ الزَّمَنِ ، خُذْ خِبْرَاتِكَ ، وَأعْطِني رَاحَةَ بَالِي . إنَّ الحَوَادِثَ أَخَذَتْ مِنِّي الشَّبَابَ ، وأعْطَتْني الحِلْمَ والتَّجْرِبَةَ، فَلَيْتَهَا بَاعَتْ مَا أَخَذَتْ مِنِّي بِمَا أَعْطَتْ ، أي : لَيْتَهَا رَدَّتْ عَلَيَّ مَا أَخَذَتْهُ مِنَ الصِّبَا ، وَأَخَذَتْ مَا أَعْطَتْ مِنَ الحِلْمِ والتَّجْرِبَةِ . يَضْرِبُ مَثَلًا لإنسانٍ بَلَغَ مِنْ تَجَارُبِ الحَيَاةِ مَا بَلَغَ ، لَكِنَّهُ اشتَرَى كُلَّ ذلك مِنْ حَوَادِثِ الدُّنيا بِشَبَابِهِ وَأجْمَلِ أيَّامِه .

عَرَفْتُ نَوَائِبَ الحَدَثَانِ حَتَّى لَوِ انْتَسَبَتْ لَكُنْتُ لَهَا نَقِيبا

بسبب كَثْرَةِ مَا أصَابَتْني نَوَائِبُ الحَدَثَانِ (مَصَائِبُ الدَّهْرِ) صِرْتُ عارفًا بِهَا ، حَتَّى لَوْ كانتْ لَهَا أنسابٌ لَكُنْتُ نَقِيبَهَا ، والنَّقِيبُ للقَوْمِ هُوَ الذي يَعْرِفُ أنْسَابَهُم . إنَّني عَرَفْتُ حَوَادِثَ الدَّهْرِ ، حَتَّى لَوْ كانت الحَوَادِثُ مِنَ الأحْيَاءِ المُنْتَسِبِين إلى الآباء ، لَكُنْتُ العَارِفَ بِهَا وبأنسابِها ، وَمِنْ أيْنَ تُولَد ، وإلى مَنْ تُنْسَب ، كَمَا يَعْرِفُ النَّقِيبُ الأنسابَ .

فَقُلْتُ لِكُلِّ حَيٍّ يَوْمُ سُوءٍ وَإنْ حَرَصَ النُّفُوسُ عَلى الفَلاحِ

كُلُّ حَيٍّ لا بُدَّ لَهُ مِنْ يَوْمِ سُوءٍ، يُوَافِيه أجَلُه فِيه ، وَإنْ حَرَصَ الناسُ عَلى البَقَاءِ ، فلا سَبِيلَ لَهُمْ إلَيْه . إنْ حَرَصَت النُّفُوسُ عَلى البَقَاءِ والنَّجَاةِ والدَّوَامِ والخُلُودِ ، سَيَأتيها يَوْمٌ تَمُوتُ فِيه .

رَمَاني الدَّهْرُ بالأرْزَاءِ حَتَّى فُؤادي في غِشَاءٍ مِنْ نَبَالِ

كَثُرَتْ مَصَائِبُ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وأصَابَ قَلْبي بِسِهَامِهِ حَتَّى صَارَ في غِلافٍ مِنَ السِّهَامِ لِتَوَالِيهَا وَتَتَابُعِهَا عَلَيْه . الدَّهْرُ رَمَاني بِسِهَامِ المَصَائِبِ والشَّدَائِدِ والكَوَارِثِ، حَتَّى عَمَّتْ قَلْبي ، وصَارَ كَأنَّه في غِطَاءٍ أوْ غِشَاءٍ مِنْ سِهَامٍ .

فَصِرْتُ إذا أصَابَتْني سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلى النِّصَالِ

صِرْتُ إذا رَمَاني الدَّهْرُ بِسِهَامِهِ لَمْ تَصِلْ إلى قَلْبي ، لأنَّهَا لا تَجِدُ لَهَا مَوْضِعًا للإصابةِ ، بَلْ تَتَكَسَّر نِصَالُها عَلى النِّصَالِ التي قَبْلَهَا ، لأنَّهَا تَصُكُّ بَعْضُها بَعْضًا ، وهذا تَمْثِيلٌ مَعْنَاه أنَّ المَصَائِبَ تَوَالَتْ عَلَيَّ ، حَتَّى هَانَتْ عِنْدِي ، وَأصْبَحْتُ مُحَصَّنًا مِنَ الآلامِ بالآلامِ، والشَّيْءُ إذا كَثُرَ اعْتَادَه الإنسانُ. تَكَالَبَتْ عَلَيَّ مَصَائِبُ الحَيَاةِ وَأحْزَانُهَا،وَمَلأتْ قَلْبي بالسِّهَامِ ، حَتَّى إنَّ المَصَائِبَ التي يَقْذِفُني بِهَا الدَّهْرُ صَارَتْ لا تَهُمُّني ، ولا تَعْنِيني، لأنَّ قَلْبي مُشْبَعٌ بِهَا . لا تَقَعُ السِّهَامُ عَلى القَلْبِ، وَإنَّما تَقَع عَلى سِهَامٍ أُخْرَى كثيفة اخْتَرَقَتْ قَلْبي ، فَتَتَكَسَّر عَلَيْهَا، لأنَّ قَلْبي قَدْ لَفَّتْهُ المَصَائِبُ وَالأحْزَانُ كَغِشَاءٍ مِنَ السِّهَامِ . إنَّ سِهَامَ الدَّهْرِ لَمْ تَدَعْ في قَلْبي مَوْضِعًا إلا وَفِيهِ سَهمٌ ، حَتَّى كَأنَّ الدَّهْرَ إذا رَمَاني بِسِهَامِهِ وَقَعَ سَهْمٌ عَلى سَهْمٍ آخَر ، وَلَمْ يَجِدْ في قَلْبي مَكَانًا خَالِيًا ، فَتَكَسَّرَت السِّهَامُ عَلى السِّهَامِ . والمَعْنى: لَمْ يَعُدْ في قَلْبي مَكَانٌ للمَصَائِبِ لِكَثْرَةِ مَا أُصِيبَ بِهَا .

أَتَتْهُنَّ المُصِيبَةُ غَافِلاتٍ فَدَمْعُ الحُزْنِ في دَمْعِ الدَّلالِ

هَؤلاء النِّسَاءُ كُنَّ في غَفْلَةٍ عَمَّا جَاءَهُنَّ، وكُنَّ يَتَدَلَّلْنَ فَيَبْكِينَ ، فَهَاجَمَهُنَّ الحُزْنُ آمِنَاتٍ مِنْهُ ، فَبَكَيْنَ حُزْنًا لا دَلالًا،فَاخْتَلَطَ مِنْهُنَّ الدَّمْعَان: دَمْعُ الحُزْنِ وَدَمْعُ الدَّلالِ. أَتَتْهُنَّ المُصِيبَةُ عَلى حِينِ غَفْلَة،وَلَمْ يَكُنَّ مِنَ المَصَائِبِ عَلى عَادَةٍ، فَهُنَّ يُظْهِرْنَ الدَّلالَ مَعَ الحُزْنِ، وَيُبْدِينَ الوَلَهَ مَعَ الحُسْنِ .

بِذَا قَضَتِ الأيامُ مَا بَيْنَ أهْلِهَا مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ

هَكَذَا حَكَمَت الأيَّامُ بَيْنَ الناسِ ، وَقَضَتْ عَلى مَنْ صَحِبَهَا بِتَصَرُّفِهَا، أنْ يَكُونَ سُرورُ الغَالِبِين في أَسَفِ المَغْلُوبين ، وَمَصَائِبُ المَنْكُوبين فَوَائِدُ قَوْمٍ آخَرِين ، وهَذَا مَثَلٌ سَائِرٌ ، وَالمَثَلُ مِنْ أرْفَعِ أبْوَابِ البَدِيعِ. ولا شَكَّ أنَّ سُرُورَ قَوْمٍ مَسَاءَةُ آخَرِين ، وَمَا حَدَثَ مِنْ حَدَثٍ في الدُّنيا إلا سُرَّ بِهِ قَوْمٌ ، وَسِيءَ بِهِ آخَرُون .

وَإنَّا لَنَلْقَى الحَادِثَاتِ بِأنْفُسٍ كَثِيرُ الرَّزَايَا عِنْدَهُنَّ قَلِيلُ

يُخْبِرُ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبْرِ وَقِلَّةِ الجَزَعِ لِحَوَادِثِ الدَّهْرِ . وَإنَّا لَنَلْقَى المَصَائِبَ والشَّدَائِدَ بِنُفُوسٍ كَرِيمَةٍ ، وَقُلُوبٍ صَابرةٍ ، وعَزائم ثابتة ، تَسْتَقِلُّ الرَّزَايَا الكَثِيرَةَ ، وتَحْتَقِر الخُطُوبَ الجَلِيلَةَ . والرَّزَايَا جَمْعُ الرَّزِيَّة ، وَهِيَ المُصِيبَة . إنَّ لَنَا نُفُوسًا كَريمةً ، وَقُلُوبًا صَابِرَةً عَلى حَوَادِثِ الدَّهْرِ ، وَكَثْرَةُ الرَّزَايَا والشَّدَائِدِ عِنْدَ نُفُوسِنَا وقُلُوبِنَا قَلِيلٌ ، لِكَثْرَتِهَا وَصَبْرِهَا .

ألا لا أُرِي الأحْدَاثَ حَمْدًا ولا ذَمَّا فَمَا بَطْشُهَا جَهْلًا ولا كَفُّهَا حِلْمَا

لا أَحْمَدُ الحَوَادِثَ السَّارَّةَ، ولا أَذُمُّ الحَوَادِثَ الضَّارَّةَ ، فَإنَّهَا إذا بَطَشَتْ بِنَا أوْ ضَرَّتْ لَمْ يَكُنْ ذلك جَهْلًا مِنْهَا، وإذا كَفَّتْ عَن الضَّرَرِ لَمْ يَكُنْ ذلك حِلْمًا ، أي إنَّ الفِعْلَ في جَمِيعِ ذلك للَّهِ وَحْدَه ، ولَيْسَ للأحْدَاثِ ، وإنَّمَا تُنْسَب الأفعالُ إلَيْهَا اسْتِعَارَةً وَمَجَازًا . لا أُرِي الأحْدَاثَ أنِّي أَحْمَدُهَا ، ولا أَذُمُّهَا ، لأنَّهَا إذا حَدَثَ فِيهَا شَرٌّ ، فَلا عِلْمَ لَهَا بِالجِنَايَةِ ، وإن اتَّفَقَ خَيْرٌ فَلَيْسَتْ بِالمَحْمُودَةِ عَلَيْه ، لأنَّهَا لَمْ تُرِدْهُ ، وَلَمْ تَكُن السَّبَب في فِعْلِه .

عَرَفْتُ الليالي قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا فَلَمَّا دَهَتْني لَمْ تَزِدْني بِهَا عِلْمَا

كُنْتُ عَالِمًا بالليالي وَتَفرِيقِهَا بَيْنَ الأحِبَّةِ قَبْلَ أنْ تَصْنَعَ بِنَا هَذا التَّفْرِيقَ ، فلمَّا دَهَتْني هَذه المُصِيبَةُ ، لَمْ تَزِدْني بالليالي عِلْمًا ، لأنَّني كُنْتُ أعْرِفُ ذلك مِنْهَا . وَمَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ العَقْلِ وَرَأى عَوَاقِبَ الأُمُورِ قَبْلَ وُقُوعِهَا ، لَمْ يَجْزَعْ بِحُلُولِهَا . كُنْتُ عَرَفْتُ الليالي وَسُوءَ صَنِيعِهَا قَبْلَ وُقُوعِ مَا أَوْقَعَتْ ، فَلَمَّا أَوْقَعَتْ مَا أَوْقَعَتْ ، وَابْتَلَتْنَا بالمُصِيبَةِ ، لَمْ تُصِبْني الليالي بِشَيْءٍ لَمْ أَعْرِفْهُ مِنْ أحوالِها ، وَلَمْ تَزِدْني عِلْمًا بِسُوءِ تَصَرُّفِهَا . وَالإنسانُ خُلِقَ في تَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ ، والدُّنيا دَارُ ابتلاءٍ ومَصَائِب وكَوَارِث،والعاقلُ يَتَوَقَّع حُدُوثَ المَصَائِبِ، وَيَتَّخِذ كَافَّةَ الاحتياطاتِ وَالإجراءاتِ، فَإذَا وَقَعَت المُصِيبَةُ أو الكارثة ، لَمْ يُنْكِرْهَا ، وَلَمْ يَسْقَطْ ضَحِيَّةً لِعُنْصُرِ المُفَاجَأةِ القَاتِلِ ، وَلَمْ يَرْتَبِكْ ، وَلَمْ يُصَبْ بالانهيارِ ، وإنَّما يَتَعَامَل مَعَهَا بِهُدُوءٍ وتَركيزٍ وَفْقَ خُطَّةِ الطَّوَارِئِ المُعَدَّةِ مُسْبَقًا .

كَيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ الخُطُوبِ تَخَلُّصًا مِنْ بَعْدِ مَا أَنْشَبْنَ فِيَّ مَخَالِبَا

كَيْفَ أرْجُو التَّخَلُّصَ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ وَبَلايَاه بَعْدَ أنْ تَمَكَّنَتْ مِنِّي وَأدْخَلَتْ فِيَّ مَخَالِبَهَا ؟!. كَيْفَ أرْجُو التَّخَلُّصَ مِنَ الخُطُوبِ بَعْدَ أنْ نَالَتْ مِنِّي وَنَفِذَ فِيَّ حُكْمُهَا ؟! .

أوْحَدْنَني وَوَجَدْنَ حُزْنًا وَاحِدًا مُتَنَاهِيًا فَجَعَلْنَهُ لِي صَاحِبَا

أفْرَدْنَني مِمَّنْ أُحِبُّ، يَعْنِي المَصَائِب ، وَقَرَنَّنِي بالحُزْنِ الذي هُوَ وَاحِدُ الأحزانِ ، وَهُوَ حُزْنُ الفِرَاقِ . خُطُوبُ الدَّهْرِ فَرَّقَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أحْبابي ، وَأَفْرَدَتْنِي مِنْهُمْ ، أوْ : أوْجَدَتْني وَحِيدًا ، أوْ وَاحِدَ أزماني . لَقَدْ وَجَدَت المَصَائِبُ حُزْنًا وَحِيدًا مُتَنَاهِيًا في الشِّدَّةِ ، فَجَعَلَتْهُ لِي صَاحِبًا ، وَقَرَنَتْهُ بِي ، فأنا وَحِيدٌ ، وَالحُزْنُ وَحِيدٌ .

وَنَصَبْنَني غَرَضَ الرُّمَاةِ تُصِيبُني مِحَنٌ أَحَدُّ مِنَ السُّيوفِ مَضَارِبَا

إنَّ الخُطُوبَ جَعَلَتْني هَدَفًا للمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ ، وَرَمَتْنِي بِمِحَنٍ تُصِيبُني ، وَهِيَ أَحَدُّ مِنْ مَضَارِبِ السُّيُوفِ ، لأنَّ مَنْ أصَابَتْهُ السُّيُوفُ رُبَّمَا يَبْرَأ ، وَمَنْ أَصَابَتْهُ المِحَنُ لا يَبْرَأ . واختيارُه " السُّيُوف " جَاءَ دَقِيقًا وَمُوَفَّقًا ، إذْ قَدْ يُخْطِئُ الرُّمْحُ هَدَفَه ، وَقَدْ يَنْحَرِف السَّهْمُ عَنْ مَرْمَاه، وَلَكِنَّ السَّيْفَ في يَدِ الشُّجَاعِ قَلَمَّا يَضِلُّ طَرِيقَه نَظَرًا إلى قُرْبِ المَسَافَةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْن : السَّيْف والهَدَف .

الفصل التاسع

الناس

١_ اختلافُ أحْوَالِ الناسِ

عَلى ذَا مَضَى الناسُ اجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ وَمَيْتٌ وَمَوْلُودٌ وَقَالٍ وَوَامِقُ

عَلى هَذا مَضَى الناسُ قَبْلَنَا لَهُم اجتماعٌ مَرَّةً ، وَفُرْقَةٌ مَرَّةً ، وَمِنْهُمْ مَيْتٌ يَمُوتُ ، وَمَوْلُودٌ يُولَد ، وَمِنْهُمْ مُبْغِضٌ وَمُحِبٌّ . إنَّ الناسَ يَجْتَمِعُونَ تَارَةً ، وَيَتَفَرَّقُونَ أُخْرَى ، وَوَاحِدٌ يَمُوتُ ، وَآخَرُ يُولَد ، وَوَاحِدٌ مُبْغِضٌ ، وَآخَرُ عَاشِقٌ . وقِيل : مَعْنَاه : إنَّ بَنِي آدم على اجتماعٍ بَعْدَ فُرْقَةٍ ، وَمَيْت بَعْد مَوْلُود ، وَمُبْغِض بَعْد عَاشِقٍ .

٢_ نَاسٌ صِغَارٌ

وَدَهْرٌ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارٌ وَإنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثٌ ضِخَامُ

يَذُمُّ أهْلَ الدَّهْرِ ، فَيَقُول : هَذا دَهْرٌ ، أهْلُهُ صِغَارُ القَدْرِ وَالهِمَمِ ، لَيْسَ لَهُمْ قِيمَةٌ ولا هِمَّةٌ ، مَعَ عِظَمِ أجْسَامِهِم . وهَذا يَدُلُّ على اعتزازِه بِنَفْسِه ، واستصغارِه للناسِ وَنُفُوسِهِم وشُؤُونِهِم .

وَمَا أنا مِنْهُمُ بِالعَيْشِ فِيهِم وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ

لَسْتُ مِنْ هَؤلاء الذينَ ذَكَرْتُهُم ، مَا أنا مِنْهُمْ ، وَإنْ عِشْتُ بَيْنَهُم ، وَإنْ كُنْتُ حَيًّا مُقِيمًا فِيهِم، فأنا فَوْقَهُم كَالذَّهَبِ الذي يُوجَد في التُّرَابِ ، وَهُوَ أشْرَفُ مِنْه ، وَيَنْفَصِل عَنْهُ ، ولا يَنْتَمِي إلَيْه . لَسْتُ مِنْ هَؤلاء الناسِ ، وَإنْ كُنْتُ أعِيشُ بَيْنَهُم ، بَلْ جَوْهَرِي يُخَالِفُ جَوْهَرَهُم ، وَطِبَاعِي تُنَافي طِبَاعَهُم ، كَمَا أنَّ الذَّهَبَ يَتَوَلَّدُ مِنَ التُّرَابِ ، وَمَعَ ذلك جَوْهَرُه يُخَالِفُ جَوْهَرَ التُّرَابِ . لَقَدْ شَبَّهَ نَفْسَه بالذَّهَبِ ، وسَائِرَ الناسِ بالتُّرَابِ .

٣_ حُثَالَةُ الناسِ

وَشِبْهُ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إلَيْهِ وَأشْبَهُنَا بِدُنْيَانا الطَّغَامُ

الشَّيْءُ يَمِيلُ إلى شَبَهِهِ ، والدُّنيا خَسِيسَةٌ ، لذلك أَلِفَتِ الأوْغَادَ وَالرَّعَاعَ وَحُثَالَةَ الناسِ ، لأنَّهُم أشكالُها في اللُّؤْمِ وَالخِسَّةِ وَالدَّنَاءَةِ، والشَّكْلُ إلى الشَّكْلِ أَمْيَلُ لا مَحَالَة. الدُّنيا تَمِيلُ إلى الأراذِلِ ، لِخَسَاسَةِ قَدْرِهَا ، كَمَا يَمِيلُ الشَّيْءُ إلى مَا يُشْبِهُهُ . فَكَمَا أنَّ الدُّنيا حَقِيرَةٌ خَسِيسَة ، فَهِيَ أيْضًا تَنْجَذِبُ إلى الأراذِلِ ، للتَّجَانُسِ بَيْنَهُمَا .

٤ــ الناسُ حَيْثُ أَنْتَ

إنَّما الناسُ حَيْثُ أنْتَ وَمَا الناسُ بِنَاسٍ في مَوْضِعٍ مِنْكَ خَالِ

أنْتَ كُلُّ الناسِ ، فَإذَا غِبْتَ عَنْ مَوْضِعٍ فَقَدْ غَابَ الناسُ كُلُّهُم . وقِيل : إنَّمَا صَارَ الناسُ ناسًا إذا كُنْتَ فِيهِم ، لأنَّهُم يَأتَمُّونَ بِكَ ، وكُلُّ مَوْضِعٍ خَلا مِنْكَ ، فَأهْلُهُ لا يُعَدُّونَ مِنَ الناس .

٥ــ أفَاضِلُ الناسِ

أفَاضِلُ الناسِ أغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الهَمِّ أخْلاهُمْ مِنَ الفِطَنِ

الأفْضَلُونَ كالأغراضِ للزَّمَانِ ، يَرْمِيهم بِمَصَائِبِهِ وكَوَارِثِهِ ، وَيَقْصِدُهُم بِالمِحَنِ وَالنَّوَائِبِ ، وإنَّمَا يَخْلُو مِنَ الحُزْنِ مَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ الفِطْنَةِ وَالبَصِيرَةِ ، أي إنَّ الزَّمَانَ يَقْصِد بِشَرِّهِ الأفْضَلَ والأحْسَنَ.

٦ ــ في الناسِ أمْثِلَةٌ

في الناسِ أمْثِلَةٌ تَدُورُ حَيَاتُهَا كَمَمَاتِهَا وَمَمَاتُهَا كَحَيَاتِهَا

أشباهُ الناسِ لا خَيْرَ فِيهِم ، ولا هِمَّةَ لَهُم ، وَمَوْتُهَا وَحَيَاتُهَا سَوَاء . أشباهُ الناسِ وَلَيْسُوا بِنَاسٍ ، ولا فَصْلَ بَيْنَ حَيَاتِهِم وَمَوْتِهِم ، لأنَّه لا خَيْرَ فِيهِم ، ولا فَرْقَ بَيْنَ وُجُودِهِم وَعَدَمِهِم ، لأنَّه لا فائدة مِنْهُم . و (تَدُور) صِفَةُ (أمثلة) ، أي : تَنْتَقِل مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ .

٧ــ قِلَّةُ طُمُوحِ بَعْضِ الناسِ

وفي الناسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ وَمَرْكُوبُهُ رِجْلاهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ

في الناسِ مَنْ لَيْسَ لَهُ هِمَّة ، فَقَدْ رَضِيَ بالقَاعِ والدُّونِ مِنَ العَيْشِ ، وَاقْتَصَرَ عَلى طَعَامِ بَطْنِه ، ولا يَرْكَبُ إلا رِجْلَيْه،ولا يَلْبَسُ إلا جِلْدَه.في الناسِ مَنْ هُوَ مُنْخَفِضُ الهِمَّة،وَمَحْدُودُ الرُّؤيةِ، وَضَعِيفُ النَّفْسِ ، يَقْبَل بالحَيَاةِ الدُّونِيَّةِ ، ويَرْضَى بِمَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنَ العَيْشِ ، ولا يَطْلُب مَا وَرَاءَه ، وَيَمْشِي رَاجِلًا عَارِيًا . أي إنَّه لا يَسْعَى إلى مَعَالي الأُمُورِ ، وَلَيْسَ لَهُ طُمُوح ، ولا يُفَكِّر في تَحْسِينِ وَضْعِه .

٨_ مَعْرِفَةُ الناسِ

وَمَنْ عَرَفَ الأيَّامَ مَعْرِفَتي بِهَا وبالناسِ رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ

إذا عَرَفَ أَحَدٌ الأيَّامَ مَعْرِفَتي بِهَا وَبِأهْلِهَا ، قَتَلَهُمْ غَيْرَ رَاحِمٍ لَهُم ، وَلا مُشْفَقٍ عَلَيْهِم . مَنْ عَرَفَ أحْوَالَ الأنَامِ ، وَطِبَاعَ الأيَّامِ ، كَمَا عَرَفْتُ وَجَرَّبْتُ مِنْ لُؤمِهِم وَحِقْدِهِم وَحَسَدِهِم وَنِفَاقِهِم وَسُوءِ أخلاقِهِم ، لَمْ يَتْرُكْ وَاحِدًا عَلى قَيْدِ الحَيَاةِ ، بَلْ قَتَلَهُم جَمِيعًا بِلا رَحْمَةٍ ولا شَفَقَةٍ ، وَرَوَّى رُمْحَه مِنْ دِمَائِهِم .

٩_ الدَّوَرَانُ عَلى الناسِ

أسَأتَ وَأحْسَنْتَ عَنْ قُدْرَةٍ وَدُرْتَ على الناسِ دَوْرَ الفَلَكْ

أسأتَ عَلى أعْدَائِكَ ، وَأحْسَنْتَ إلى أوْلِيَائِكَ ، عَنْ قُدْرَةٍ عَلَيْهِم جَمِيعًا، وَعَمَّمْتَ الناسَ بالخَيْرِ والشَّرِّ عُمُومَ الفَلَكِ إيَّاهُم بالسَّعْدِ والنَّحْسِ . أسأتَ إلى أعْدَائِكَ ، وَأحْسَنْتَ إلى أوْلِيَائِكَ ، باختيارٍ مِنْكَ وَقُدْرَةٍ واقتدارٍ ، وأنتَ الدائرُ على الناسِ بالخَيْرِ والشَّرِّ ، والإحْسَانِ وَالإساءةِ ، والسَّعْدِ والنَّحْسِ ، دَوْرَ الفَلَكِ الدَّوَّارِ ، إلا أنَّه لا اختيار لَهُ ولا قُدْرَة ، وأنْتَ تَفْعَل مَا تَفْعَلُه عَنْ قُدْرَةٍ واختيار ، فأنتَ الفَلَكُ الدائرُ في الحقيقة ، وأنتَ أفْضَلُ مِنْه .

١٠ _ تَجْرِيبُ الناسِ

إذا مَا الناسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإنِّي قَدْ أكَلْتُهُمُ وَذَاقَا

إذا مَا الناسُ جَرَّبَهُمْ عَاقِلٌ ذَكِيٌّ ، وَذَاقَ، فَإنِّي قَدْ أكَلْتُهُمْ. إنِّي أعْرَفُ بأحوالِ الناسِ مِنْ كُلِّ عَاقِلٍ ، فأنا بِمَنْزِلَةِ الآكِلِ ، وغَيْرِي كالذائقِ . إذا مَا الناسُ جَرَّبَهُم لَبِيبٌ ، عَالِمٌ بِأُمُورِهِم ، خَبِيرٌ

بأحوالِهم ، فَمَوْقِعُ ذلك مِنِّي عَلى ثَبَاتِ مَعْرِفَتِه مَوْقِعَ الذائِقِ مِنَ الآكِلِ، وَالمُتَطَرِّفِ مِنَ المُسْتَوْعِبِ، لإحاطتي بِمَعْرِفَتِهِم ، وَتَمَكُّنِي في اخْتِبَارِهِم. إنَّ مَعْرِفَتي بالناسِ أكثرُ مِنْ مَعرفةِ اللبيبِ المُجَرِّبِ ، لأنِّي كَالآكِلِ ، وَهُوَ كالذائقِ ، والآكِلُ أَتَمُّ مَعْرِفَةً بالمَأكولِ مِنَ الذائقِ . والإنسانُ إذا أكَلَ الشَّيْءَ فَقَدْ عَرَفَه أكْثَرَ مِمَّا عَرَفَه غَيْرُه ، فَجَعَلَ الذينَ جَرَّبُوا الناسَ كأنَّهُم ذَاقُوا طَعَامًا تَفَرَّدَ بِأكْلِه .

١١ _ أَعْدَلُ الناسِ

يَا أعْدَلَ الناسِ إلا في مُعَامَلَتِي فِيكَ الخِصَامُ وَأنتَ الخَصْمُ وَالحَكَمُ

أنْتَ أَعْدَلُ الناسِ إلا إذا عَامَلْتَنِي ، فَإنَّكَ ظَالِمٌ لِي ، وَلَسْتَ بِعَدْلٍ عَلَيَّ ، وَخِصَامِي وَقَعَ فِيكَ ، وأنْتَ الخَصْمُ الحَاكِمُ ، إنَّكَ مَلِكٌ لا أُحَاكِمُكَ إلى غَيْرِكَ ، لأنَّ الخِصَامَ وَقَعَ فِيكَ . أنْتَ أعْدَلُ الناسِ إلا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، فَأنْتَ لا تُنْصِفُنِي ، ولا تُعِينُنِي قَدْرَ مَا أَسْتَحِقُّهُ عِنْدَكَ مِنَ المَنْزِلَةِ . فِيكَ الخِصَامُ ، أي : الخُصُومَةُ بَيْنِي وَبَيْنَ أعدائي وَقَعَتْ فِيكَ ، وأنْتَ الخَصْمُ ، لأنَّكَ مِلْتَ إلَيْهِم ، ولأنِّي أُخَاصِمُكَ عَلى مَنْزِلَتِي عِنْدَكَ ، وأنْتَ الحَاكِمُ ، فَاحْكُمْ عَلى نَفْسِكَ ، فَوَفِّنِي مَا أَسْتَحِقُّهُ مِنَ المَنْزِلَةِ . وقِيل: مَعْناه معَ ذلك : كَيْفَ أَطْمَعُ في الانتصافِ مِنْكَ ؟ .

١٢_ قُعُودُ الناسِ

قَعَدَ الناسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِيكَ وَقَامَتْ بِهَا القَنَا وَالنُّصُولُ

لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مِنَ المُلُوكِ مَسَاعِيكَ التي قَامَتْ بِهَا رِمَاحُكَ وَسُيُوفُكَ . تَخَلَّفَ كُلُّ أَحَدٍ عَنْ مَسَاعِيكَ ، فَكَأنَّهُم قُعُودٌ عَنْهَا ، وَقَدْ يَكُونُ قُعُودُهُم باختيارِهِم ، أوْ أنَّهُم قَعَدُوا لِعَجْزِهِم عَنْ بُلُوغِ مَا أرَادُوه ، وقَامَتْ بِهَا القَنَا والنُّصُولُ التي مَعَكَ لأنَّكَ تَعْمَلُهَا في الحَرْبِ ، ولا يَعْمَلُهَا غَيْرُكَ .

١٣_ التَّفَوُّقُ عَلى الناسِ

وَلَكِنْ تَفُوقُ الناسَ رَأيًا وَحِكْمَةً كَمَا فُقْتَهُمْ حَالًا وَنَفْسًا وَمَحْتِدَا

أنْتَ أَصْوَبُ الناسِ رَأيًا ، وَأَلْطَفُهُم حِكْمَةً ، كَمَا أنَّكَ أحْسَنُهُمْ حَالًا ، وَأشرَفُهُمْ نَفْسًا ، وَأكْرَمُهُمْ أصْلًا. إنَّكَ تَفْعَلُ مَا هُوَ في الظاهرِ وَضْع الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه ، ولكنْ لا اعتراضَ

عَلَيْكَ ، لأنَّ رَأيَكَ أصْوَبُ الآراءِ ، فَلَعَلَّكَ رَأيْتَ فِيه مَا خَفِيَ عَلى غَيْرِكَ . أنْتَ أعْرَفُ بِمَوَاقِعِ الإساءةِ والإحسانِ مِنْ كُلِّ إنسان ، لأنَّكَ فَوْقَ كُلِّ أَحَدٍ بالعَقْلِ والإصَابَةِ في الأُمُورِ ، كَمَا أنَّكَ فَوْقَهُم بالحَالِ، لأنَّكَ أعْظَمُ مِنْهُمْ في المَكَانَةِ الاجتماعيةِ، وَفَوْقَهُمْ بِالنَّفْسِ ، لأنَّكَ أعْلاهُمْ هِمَّةً ، وَفَوْقَهُمْ في الأصْلِ ، لأنَّكَ ذُو أصْلٍ شَرِيفٍ وَمَنْصِبٍ كَرِيمٍ .

فَإنْ تَفُقِ الأنَامَ وَأنْتَ مِنْهُمْ فَإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغَزَالِ

لَقَدْ تَفَوَّقَ على الناسِ جَمِيعِهِمْ ، مَعَ أنَّه فَرْدٌ مِنْهُمْ ، كَمَا تَفَوَّقَ المِسْكُ عَلى دَمِ الغَزَالِ الذي هُوَ جُزْءٌ مِنْه . أنْتَ مِنَ الناسِ ، لَكِنَّكَ أفْضَلُ مِنْهُم وَتَفُوقُهُمْ كَالمِسْكِ ، فَهُوَ شَيْءٌ مِنْ دَمِ الغَزَالِ وَفَاقَه ، فَلَيْسَ عَجِيبًا ولا غَرِيبًا أنْ تَكُونَ مِنَ الناسِ ، وأنْتَ فَوْقَهُم ، وأعْظَمُ مِنْهُمْ ، فَالمِسْكُ مِنْ دَمِ الغَزَالِ ، وَيَفُوقُه ، وَيُخَالِفُ سَائِرَ الدِّمَاءِ رِيحًا وَطَبْعًا وَمَكَانَةً .

١٤ _ كَلامُ الناسِ

وَمَا لِكَلامِ الناسِ فِيمَا يُرِيبُني أُصُولٌ ولا لِلْقَائِلِيهِ أُصُولُ

كَلامُ الناسِ في غَيْبَتِي ، وَالطَّعْنُ فِيَّ ، لا أَصْلَ لَه ، إذْ لا عَيْبَ فِيَّ ، وكذلك لا أَصْلَ لِمَنْ يُعِيبُني ، وَيَطْعَن فِيَّ . مَا يَتَكَلَّم بِهِ حُسَّادِي فِيمَا يُرِيبُني لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ ، ولا لَهُمْ أَصْلٌ ، أي : إنَّهُمْ يَكْذِبُون عَلَيَّ ، فَلا أَصْلَ لِمَا يَقُولون ، لأنَّه كَذِبٌ ، ولا أَصْلَ لَهُمْ ، أي : لا نَسَبَ يُعْرَف بذلك .

١٥_ أقْدَارُ الناسِ

أنا الذي بَيَّنَ الإلَهُ بِهِ الأقْدَارَ وَالمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَه

بَيَّنَ اللَّهُ بِي مَقَادِيرَ الناسِ في الفَضْلِ ، فأنا أَصِفُ كُلَّ أَحَدٍ بِمَا فِيه . أوْ : بَيَّنَ اللَّهُ بِي أقْدَارَ الناسِ ، مَنْ أحْسَنَ إلَيَّ وأكْرَمَني ، دَلَّ ذلك عَلى مُرُوءَتِهِ ، وَمَيْلِهِ إلى ذَوِي الفَضْلِ ، وَمَن اسْتَخَفَّ بِي ، وَسَخِرَ مِنِّي ، وَلَمْ يَعْبَأ بِي ، وَلَمْ يُبَالِ بِشَأني ، دَلَّ ذلك عَلى خِسَّةِ قَدْرِهِ وَلُؤمِ خُلُقِه . والإنسانُ حَيْثُمَا جَعَلَ نَفْسَه ، فَمَنْ صَانَ نَفْسَه ، وَرَفَعَ قَدْرَها ، رَفَعَ الناسُ أيضًا قَدْرَه ، وَمَنْ تَعَرَّضَ للهَوَانِ أُهِينَ . أوْ : الإنسانُ حَيْثُمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ، فلا يَقْدِر أَحَدٌ أنْ يَتَقَدَّمَ مَنْزِلَتَه التي وَضَعَه اللَّهُ بِها.

أنا الذي جَعَلَنِي اللَّهُ مِنَ الفَضْلِ والكَمَالِ ، فَقَدْرُ كُلِّ إنسانٍ يَتَبَيَّنُ إذا قُورِنَ بِفَضْلِي ، وَقِيسَ مَحَلُّهُ إلى مَحَلِّي . إنَّ أقْدَارَ الناسِ تَتَبَيَّنُ بِمَدْحِي أوْ بِهِجَائي ، فَمَنْ مَدَحْتُهُ رَفَعْتُ قَدْرَه ، وَمَنْ هَجَوْتُهُ وَضَعْتُ قَدْرَه ، وَأَخْمَلْتُ ذِكْرَه . والهَاءُ في (جَعَلَه) ، قِيل : تَرْجَعُ إلى اسْمِ اللَّهِ تعالى ، وقِيل : إلى المَرْءِ ، أي : حَيْثُمَا جَعَلَ نَفْسَه .

وَرُبَمَّا أُشْهِدُ الطَّعَامَ مَعِي مَنْ لا يُسَاوِي الخَبْزَ الذي أَكَلَه

إنَّني معَ فَضْلي وَمَجْدِي وَمَنْزِلَتي الرَّفِيعَةِ وَمَكَانتي العَظِيمَةِ ، قَدْ آكُلُ مَعَ شَخْصٍ تَافِهٍ حَقِيرٍ لا يُسَاوي مَا يَأكُلُهُ مِنَ الطَّعَامِ .

وَيُظْهِرُ الجَهْلَ بِي وَأعْرِفُهُ وَالدُّرُّ دُرٌّ بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَه

إنَّ الذي آكُلُ مَعَهُ يُظْهِرُ أنَّه جَاهِلٌ بِي ، وَأنا أَعْرِفُهُ عَلى خُمُولِه. كَيْفَ يَجُوز أَلَّا يَعْرِفَنِي وأنا في الظُّهُورِ كَالشَّمْسِ وَهُوَ خَامِلٌ مَغْمُورٌ ؟! . أوْ : إنَّني عَارِفٌ بِفِعْلِهِ أنَّه يُظْهِرُ الجَهْلَ بِي مَعَ أنَّه يَعْرِفُني. أوْ : أنا أَعْرِفُ جَهْلَه بِي . والدُّرُّ دُرٌّ ، بِرَغْمِ مَنْ جَهِلَه ، وَهَذا مَثَلٌ . أي : لا يَضُرُّني جَهْلُ مَنْ لا يَعْرِفُ فَضْلِي ، كَمَا أنَّ الدُّرَّ لا يَحُطُّ قِيمَتَه جَهْلُ مَنْ لا يَعْرِفُ قَدْرَه وَقِيمَتَه .

١٦ــ اسْتِحَالَةُ خِدَاعِ الناسِ

وَهَبْنِي قُلْتُ هَذا الصُّبْحُ لَيْلٌ أيَعْمَى العَالِمُونَ عَنِ الضِّيَاءِ

افْرِضْ أنَّني قُلْتُ فِيكَ كَلامًا سَيِّئًا ، فَكَيْفَ أَقْدِرُ أنْ أقُولَ والناسُ يَعْرِفُونَ فَضْلَكَ وأصْلَكَ ، فَكَأنِّي إذا هَجَوْتُكَ أقُولُ في النَّهَارِ : هَذا لَيْلٌ ، فَهَلْ يَقْدِرُ عَلى ذلك أَحَدٌ ؟ ، إذا قالَ هَذا سَيُكَذِّبُهُ الناسُ ، وَمَنْ يَقْدِرُ عَلى تَغْطِيَةِ عَيْنِ الشَّمْسِ ؟ . قَدِّرْ أنَّني هَجَوْتُكَ وَكَأنَّني بذلك كَمَنْ يَقُول: هَذا النَّهَارُ لَيْلٌ ، فَكَيْفَ يَتَأتَّى هَذا ، وأفعالُكَ لا تَخْفَى عَلى أَحَدٍ كَضِيَاءِ الشَّمْسِ ، وَهَلْ يَعْمَى الخُبَرَاءُ والعُلَمَاءُ عَن النُّورِ والضِّيَاءِ ؟ . لا شَكَّ أنَّ الجَمِيعَ قَادِرٌ عَلى مُشَاهَدَةِ ضِيَاءِ الشَّمْسِ في النَّهَارِ . والإنسانُ يُمْكِنُهُ أن يَخْدَعَ الناسَ بَعْضَ الوقتِ ، وَبَعْضَ الناسِ كُلَّ الوقتِ ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ خِدَاعَ كُلِّ الناسِ كُلَّ الوَقْتِ .

١٧ــ الأهْلُ

أَحِنُّ إلى أهْلِي وَأهْوَى لِقَاءَهُمْ وَأيْنَ مِنَ المُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

أَحِنُّ إلى أهْلِي حَنِينَ العَاشِقِ المُشْتَاقِ إلَيْهِمْ ، وَأهْوَى لِقَاءَهُم ، وَأَحْرِصُ عَلَيْهِم، وكَيْفَ لِي بِهِمْ مَعَ شِدَّةِ الشَّوْقِ ، وَاسْتِحْكَامِ الصَّبَابَةِ والتَّوْقِ ، وَهُمْ كَعَنْقَاء مُغْرِب في تَعَذُّرِ قُرْبِهِم، وَشِدَّةِ بُعْدِهِم . والعَنْقَاءُ : طَائِرٌ وَهْمِيٌّ ، والمُغْرِبُ : البَعِيدُ . أنا أشتاقُ إلى أهْلِي ، وأشتَهِي لِقَاءَهُمْ ، وَلَكِنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ بُعْد العَنْقَاءِ ، فَهَلْ أَصِلُ إلَيْهِمْ ؟، إنَّ اشتياقي إلَيْهِمْ كَاشتياقِ المُشْتَاقِ إلى عَنْقَاء مُغْرِب ، فَكَمَا أنَّه لا يُمْكِن الوُصُول إلى العَنْقَاءِ ، كذلك وُصُولِي إلى أهْلِي. أشتاقُ إلى أهْلِي ، وَلَكِنَّهُمْ عَلى البُعْدِ مِنِّي ، واشتياقي إلَيْهِمْ كَمَن اشتاقَ إلى العَنْقَاءِ ، وَهِيَ طَائِرٌ يُوصَفُ بالمُغْرِبِ ، لِبُعْدِهِ مِنَ الناسِ وَذَهَابِهِ حَتَّى لا يُرى .

بِمَ التَّعَلُّلُ لا أهْلٌ وَلا وَطَنٌ وَلا نَدِيمٌ وَلا كَأسٌ وَلا سَكَنُ

بِأيِّ شَيْءٍ أُعَلِّلُ نَفْسِي وَأُسَلِّيهَا وَأُبْعِدُهَا عَن دَائرةِ الأحزانِ ، وأنا بَعِيدٌ عَنْ أَهْلِي وَوَطَنِي ، وَلَيْسَ لِي مِمَّا أُعَلِّلُ النَّفْسَ بِهِ مِنَ نَدِيمٍ (صَدِيقٍ) ولا كَأسِ خَمْرٍ ولا بَيْتٍ. بِأيِّ مِنَ الأشياءِ أُطَيِّبُ نَفْسِي بالأمَلِ والرَّاحَةِ والمُؤَانَسَةِ ؟! ، وَهُوَ يُشِيرُ إلى نَقْصٍ مَادِيٍّ واغترابٍ مُطْلَقٍ ، لِيُشَوِّقَ المُتَلَقِّي إلى المَأسَاةِ المَادِيَّةِ لاغترابِه ، حَيْثُ اغترابُه جَمَاعِيًّا عَنِ الأهْلِ وَالوَطَنِ ، فالأهْلُ ضَائِعُونَ مُغَيَّبُونَ جَسَدًا بِلا وَعْيٍ وَفِكْرٍ وَرُوحٍ ، وَالوَطَنُ مَفْقُودٌ لا كِيَانٌ لَهُ ولا كَيْنُونَة . ولا يُوجَد صَدِيقٌ يَجْتَمِعُ مَعَهُ عَلى شُرْبِ الخَمْرِ،وَلَيْسَ لَهُ سَكَنٌ (البَيْت والنِّسَاء)، حَيْثُ لا يَأنَسُ لَهُنَّ لاغْتِرَابِهِنَّ عَنْهُ فِكْرًا وَوَعْيًا.

١٨ــ الجَارُ السَّيِّئُ

رَأيْتُكُمْ لا يَصُونُ العِرْضَ جَارُكُمُ وَلا يَدِرُّ عَلى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ

أنْتُمْ تُذِلُّونَ الجَارَ ، وَتَشْتُمُونَ عِرْضَه ، فَمَنْ جَاوَرَكُمْ لَمْ يَقْدِرْ عَلى صَوْنِ عِرْضِهِ مِنْكُمْ ، والنَّعَمُ إذا رَعَى أرْضَكُمْ لَمْ يَدِرَّ اللَّبَنُ عَلى ذلك المَرْعَى لِوَخَامَتِهِ ، وَهَذا مِنْ أوْجَعِ الهِجَاءِ . رَأيْتُكُمْ تُضَيِّعُونَ جَارَكُمْ، ولا تَصُونُون عِرْضَه ، وَتُهِينُونَه ، ولا تُرِيدُون بِرَّه ، وَرَأيْتُ عَطَاءَكُمْ لا تُمْنَى بِهِ نِعْمَة، وإحْسَانَكُمْ لا تَنْتَقِلُ بِهِ إلى الصَّلاحِ حَالَةً ، وكَنَّى بِقَوْلِه : (وَلا يَدِرُّ عَلى مَرْعَاكُمُ اللَّبَنُ) عَن هَذه العِبَارَةِ ، لأنَّ المَرْعَى قُوَّةُ المَاشِيَةِ ، واللَّبَنَ فَائِدَتُه ، والدُّرُورَ مَادَّتُه .

جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ

مَنْ قَرُبَ مِنْكُم مَلَلْتُمُوهُ وَأَبْغَضْتُمُوه ، وَمَنْ أَحَبَّكُمْ حَقَدْتُمْ عَلَيْهِ . لَسْتُمْ تُجَازُونَ المُحِبَّ ولا القَرِيبَ بِمَا يَسْتَحِقَّانِه . والضَّغَنُ : الحِقْدُ وَالكَرَاهِيَةُ . وَهُوَ يُشِيرُ إلى ضَحَالَتِهِم الفِكْرِيَّةِ والرُّوحِيَّةِ ، وَانْحِطَاطِهِم الأخلاقيِّ في عَلاقَتِهِمْ مَعَ مَنْ يَقْتَرِبُ مِنْهُمْ ، وَيُشِيرُ أيضًا إلى دُونِيَّتِهِم العَاطِفِيَّةِ وَالحِسِّيةِ، حَيْثُ إنَّ كُلَّ مَنْ أَحَبَّهُمْ يُقَابِلُونَهُ بالحِقْدِ وَالكَرَاهِيَةِ .

وَتَغْضَبُونَ عَلى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ وَالمِنَنُ

وَتَغْضَبُونَ عَلى الشَّخْصِ الذي حَصَلَ عَلى عَطَائِكُمْ وَصِلَتِكُمْ ، وَتَسْخَطُونَ عَلَيْهِ بِسَبَبِ مَا نَالَهُ مِنْ فَضْلِكُمْ، حَتَّى يُعَاقِبَهُ ذلك التَّنْغِيصُ وَالكَدَرُ ، وَيَتْلُوهُ الامتنانُ والضَّجَرُ ، فَلَيْسَ تَسْلَمُ لَكُمْ عِنْدَ أَحَدٍ نِعْمَةٌ ، ولا تَرتَفِع بِكُمْ لِمُؤَمِّلٍ رُتْبَةٌ. إذا أحْسَنْتُمْ إلى إنسانٍ نَغَّصْتُمْ إلَيْهِ نِعَمَكُم ، حَتَّى يَصِيرَ التَّنْغِيصُ وَالمِنَنُ عُقُوبَةً عَلَيْه ، أي : لا يَحْلُو عَطَاؤُكُمْ مِنَ المِنَنِ والأذى حَتَّى يَصِيرَ آخِذُهُ مُعَاقَبًا بِتَنْغِيصِ مَا أَخَذَهُ بِالمِنَّةِ . إنَّكُمْ تَغْضَبُونَ عَلى مَنْ أَخَذَ باستحقاقٍ عَطَاءَكُمْ ، لِيَتَوَقَّفَ غَضَبُكُمْ فَقَط بَعْدَمَا تَتَأَكَّدُونَ مِنَ التَّضْيِيقِ المَعْنَوِيِّ عَلَيْهِ (التَّنْغِيص) ، بِسَبَبِ ادِّعَائِكُم المُتَكَرِّرِ أَنَّكُمْ أصحابُ فَضْلٍ عَلَيْهِ (مِنَن)، فلا يَهْنَأ بِمَا أَخَذَ ، وَهَذا انعكاسٌ عَمَلِيٌّ لِسُوءِ أخلاقِهِم .

سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيلي وَحْشَةً لَكُمُ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الوَسَنُ

لَمَّا فَارَقْتُكُمْ اسْتَوْحَشْتُ لِفِرَاقِكُمْ ، حَتَّى امْتَنَعَ رُقَادي ، لِإلْفِي إيَّاكُمْ عَلى جَفَائِكُمْ ، ثُمَّ قَوِيتُ فَتَصَبَّرْتُ ، وَعَادَ إلَيَّ النَّوْمُ . وَالمَرِيرُ : مَا فُتِلَ مِنَ قَوِيِّ الحَبْلِ ، يُقَال : اسْتَمَرَّ مَرِيرُهُ ، إذا قَوِيَ عَزْمُه . وَالوَسَنُ : النُّعَاسُ أوْ أوَّل النَّوْم . لَمَّا فَارَقْتُكُمْ سَهِرْتُ وَحْشَةً لِفِرَاقِكُمْ ، فلمَّا طَالَت الأيَّامُ نَسِيتُكُمْ ، وَتَسَلَّيْتُ عَنْكُمْ ، وَعَادَ النَّوْمُ إلى عَيْنَيَّ .

وَإنْ بُلِيتُ بِوُدٍّ مِثْلِ وُدِّكُمُ فَإنَّني بِفِرَاقٍ مِثْلِهِ قَمِنُ

إنْ كُنْتُ في قَوْمٍ آخَرِين ، فَعَامَلُوني مُعَامَلَتَكُمْ ، فَارَقْتُهُمْ كَمَا فَارَقْتُكُمْ . و (قَمِنُ) : جَدِير ، أي: قَادِرٌ عَلى فِرَاقٍ جَدِيد .

الفصل العاشر
المَرْأةُ وَالحُبُّ وَالعِشقُ

١ _ أوْصَافُ المَرْأةِ المَعْنويَّةُ وَالحِسِّيةُ

خَوْدٌ جَنَتْ بَيْني وَبَيْنَ عَوَاذِلي حَرْبًا وَغَادَرَتِ الفُؤادَ وَطِيسَا

شَابَّةٌ نَاعِمَةٌ جَمِيلَةٌ أَوْقَعَتْ حَرْبًا بَيْني وَبَيْنَ عَوَاذِلي في حُبِّهَا ، لأَنَّهُنَّ يَلُمْنَنِي وَأَعْصِيهِنَّ ، فَحَدَثَتْ مُقَاتَلَةُ قَلْبي مَعركة الحَرْب بَيْني وَبَيْنَ عَوَاذِلي . لِكَثْرَةِ مَا يَلُمْنَنِي في هَوَاهَا ، وَيُغْضِبْنَني وَيُرَاجِعْنَنِي ، كَانَ بَيْني وَبَيْنَهُنَّ حَرْبٌ بِسَبَبِهَا . وقيل : أرادَ أَنَّهَا لَمَّا أَوْقَعَتْ بَيْنَنَا القِتَالَ ، وَتَرَكَتْ قَلْبي مُوقَدًا بالنارِ بِمَا فِيه مِنْ حَرَارَةِ التَّوَقُّدِ وَالوَجْدِ وَالعِشْقِ فَصَارَ كَالتَّنُّورِ . وَالوَطِيسُ : تَنُّورٌ مِنْ حَدِيدٍ،سُمِّيَ بذلك لأَنَّ المَطَارِقَ دَقَّتْهُ ، يُرِيدُ حَرَارَةَ قَلْبِهِ بِمَا فِيه مِنْ حَرَارَةِ الحُبِّ وَالعِشْقِ وَالهَوَى.

فَتَاةٌ تَسَاوَى عِقْدُهَا وَكَلامُهَا وَمَبْسِمُهَا الدُّرِّيُّ في الحُسْنِ وَالنَّظْمِ

تَشَابَهَتْ مِنْهَا ثلاثةُ أشياء ، وَهِيَ: عِقْدُهَا المُنْتَظِمُ مِنَ الدُّرِّ (اللُّؤْلُؤ) ، وَكَلامُهَا العَذْبُ الرَّائِعُ الشَّبِيهُ بالدُّرِّ ، وَثَغْرُهَا الذي تَبَسَّمَتْ عَنْهُ كَالدُّرِّ ، فَهِيَ تُشْبِهُهُ في حُسْنِهَا وَنِظَامِهَا . إنَّ عِقْدَهَا وَكَلامَهَا وَفَمَهَا سَوَاءٌ في الحُسْنِ والنَّظْمِ والرَّوْعَةِ والبَهَاءِ واللَّمَعَانِ .

أذاقَ الغَوَاني حُسْنُهُ مَا أذَقْنَني وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّي عَلى الصَّرْمِ

حُسْنُهُ أذَاقَ الغَوَاني مِنْ أَلَمِ العِشْقِ مَا أذَاقَتْنِي الغَوَاني مِنْه ، وَصَارَ عَفِيفًا ، فَجَازَى الغَوَاني عَنِّي بِتَنَزُّهِهِ عَنْهُنَّ عَلى مَا فَعَلْنَ بِي مِنَ الهِجْرَانِ . وَالغَوَاني : جَمْعُ غَانِيَة ، وَهِيَ المَرْأةُ التي اسْتَغْنَتْ بِجَمَالِهَا عَنْ مَدْحِ الناسِ ، أو التي اسْتَغْنَتْ بِزَوْجِهَا عَنْ غَيْرِه . فَعَلَ بِهِنَّ مَا فَعَلْنَ بِي ، لأَنَّهُنَّ عَشِقْنَهُ فَلَمْ يُوَاصِلْهُنَّ ، وَعَفَّ عَنْهُنَّ، فَكَانَ ذلك جَزَاءً لَهُنَّ عَنْ هَجْرِهِنَّ لِي . والصَّرْمُ : الهِجْرَان وَالمُقَاطَعَة .

كَأنَّ بَنَاتِ نَعْشٍ في دُجَاهَا خَرَائِدُ سَافِرَاتٌ في حِدَادِ

كَأنَّ هَذه الكَواكِب في ظُلَمَاتِ هذه الليلةِ الطويلةِ نِسَاءٌ بِيضُ الوُجُوهِ ، قَدْ كَشَفْنَ وُجُوهَهُنَّ ، وَلَبِسْنَ ثِيَابًا سُودًا . شَبَّهَ الكَوَاكِبَ بِوُجُوهِ الجَوَارِي السَّافِرَاتِ ، وَشَبَّهَ الليلَ في سَوَادِهِ بالثِّيَابِ السُّودِ التي تَلْبَسُهَا الجَوَارِي . وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، شَبَّهَ هَذه الكَوَاكِبَ وَهِيَ مُضِيئَةٌ في سَوَادِ الليلِ بالجَوَارِي السَّافِرَاتِ في الثِّيَابِ السُّودِ . وَبَنَاتُ نَعْشٍ : كواكب معروفة ، والسَّافِرَاتُ : اللواتي كَشَفْنَ عَنْ وُجُوهِهِنَّ ، وَالحِدَادُ : ثِيَابٌ سُود تُلْبَس في الحُزْنِ، وَعِند المُصِيبة .

لَحَاهَا اللَّهُ إلا مَاضِيَيْهَا زَمَانَ اللَّهْوِ وَالخَوْدَ الشَّمُوعَا

لَعَنَ اللَّهُ هَذه الرُّبُوعَ إلا مَاضِيَيْنِ فِيهَا. وَهُوَ استثناء مُنْقَطِع ، لَكِنَّ شَيْئَيْنِ مِنْهُمَا قَدْ مَضَيَا ، فَإنِّي لا أدْعُو عَلَيْهِمَا: أحَدُهُمَا زَمَان اللَّهْوِ ، والثاني الخَوْدُ الشَّمُوعُ . أبْعَدَ اللَّهُ أيَّامَهَا التي عِشْتُهَا في تِلْكَ الرُّبُوعِ إلا مَاضِيَيْنِ فِيهَا ، المَاضِي الأوَّلُ الذي يُرِيدُ أنْ يَعُودَ هُوَ زَمَانُ اللَّهْوِ ، أي : زَمَان الوَصْلِ والمُتْعَةِ والصِّبَا والجَمَالِ والنَّشَاطِ . والمَاضِي الثاني الذي يُرِيدُ أنْ يَعُود ، زَمَان اللقاءِ بالفَتَيَاتِ الجَمِيلاتِ الضَّحُوكَاتِ اللواتي يُبْعِدْنَ عَنَّا هَمَّ الحَيَاةِ. والخَوْدُ : الجَارِيَة النَّاعِمَة السَّهْلَة الخُلُق . والشَّمُوعُ : اللَّعُوبُ المَزَّاحَةُ .

مُنَعَّمَةٌ مُمَنَّعَةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّفُ لَفْظُهَا الطَّيْرَ الوُقُوعَا

مُدَلَّلَةٌ مُرَفَّهَةٌ مُتَرَفِّعَةٌ عَلى كُلِّ مَنْ أرادَ وِصَالَهَا ، لا أَحَدَ يَصِلُ إلَيْهَا ، أي : مَمْنُوعَة الوُصُولِ إلَيْهَا، ضَخْمَةُ العَجِيزَةِ ، لَوْ سَمِعَ الطَّيْرُ كَلامَهَا لَسَقَطَ عَلى الأرْضِ . إنَّهَا مُنَعَّمَةٌ مَمْنُوعَةُ الوُصُولِ إلَيْهَا ، سَمِينَةٌ ، حَسَنَةُ الصَّوْتِ وَالمَنْطِقِ ، لَوْ سَمِعَ الطَّيْرُ لَفْظَهَا في الهَوَاءِ لَسَقَطَ عَلى الأرْضِ ، فَكَأنَّ لَفْظَهَا كَلَّفَ الطَّيْرَ الوُقُوعَ عَلى الأرْضِ، وَهَذا يَدُلُّ عَلى حُسْنِ لَفْظِهَا ، وَعُذوبةِ كَلامِهَا .

كَأنَّ نِقَابَهَا غَيْمٌ رَقِيقٌ يُضِيءُ بِمَنْعِهِ البَدْرَ الطُّلُوعَا

إنَّ نِقَابَهَا يُشْرِقُ لإضَاءَةِ وَجْهِهَا مِنْ تَحْتِهِ كَمَا يُشْرِقُ الغَيْمُ الرَّقِيقُ مِنْ فَوْقِ القَمَرِ ، الذي هُوَ البَدْرُ . شَبَّهَ نِقَابَهَا بِغَيْمٍ رَقِيقٍ ، وَوَجْهَهَا بِالبَدْرِ ، وَيُضِيءُ الغَيْمُ بِسَبَبِ مَنْعِهِ البَدْرَ مِنَ الطُّلُوعِ . وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، شَبَّهَ النِّقَابَ عَلى وَجْهِهَا بِغَيْمٍ رَقِيقٍ عَلى البَدْرِ ، يَمْنَعُهُ أنْ يَبْرُزَ مِنْهُ ، فذلك الغَيْمُ

مُضِيءٌ بِضَوْءِ البَدْرِ تَحْتَه ، كذلك نِقَابُهَا يُشْرِقُ لإضاءةِ وَجْهِهَا مِنْ تَحْتِهِ ، كَمَا يُشْرِقُ الغَيْمُ الرَّقِيقُ فَوْقَ القَمَرِ وَيُضِيء .

أَقُولُ لَهَا اكْشِفِي ضُرِّي وَقَوْلي بِأَكْثَرَ مِنْ تَدَلُّلِهَا خُضُوعَا

لِي خُضُوعِي لَهَا في قَوْلي هذا أكثر مِنْ دَلالِهَا عَلى كَثْرَتِهِ . أَقُولُ لها في حَالِ تَضَرُّعِي وَتَوَاضُعِي لَهَا : اكْشِفِي ضُرِّي . وَخُضُوعي في قَوْلي هذا أكثر مِنْ تَدَلُّلِهَا عَلَيَّ عَلى كَثْرَتِه ، وذلك أنَّ الدَّلالَ يَكُون مَعَ الخُضُوعِ ، فَكَأنَّه يَقُول : إنَّهَا تَتَمَنَّعُ وَتَتَدَلَّلُ وأنا أخْضَعُ لها وَأتَذَلَّلُ حَتَّى يَزِيدَ خُضُوعِي عَلى مَا لَهَا مِنَ التَّدَلُّلِ والتَّمَنُّعِ ، وَإنْ كانَ تَدَلُّلُهَا كَثِيرًا وَغَيْرَ مُتَنَاهٍ ، فَخُضُوعِي أكْثَرُ مِنْه .

غَدَا بِكِ كُلُّ خِلْوٍ مُسْتَهَامًا وَأصْبَحَ كُلُّ مَسْتُورٍ خَلِيعَا

أصْبَحَ كُلُّ خَلِيٍّ مِنَ الهَوَى والهَمِّ وَالِهًا بِكِ ، مُتَحَيِّرًا في هَوَاكِ ، هَائِمًا ذَاهِبَ العَقْلِ بِسَبَبِ شَغَفِهِ بِكِ ، وَأصْبَحَ كُلُّ عَفِيفٍ شَرِيفٍ في حُبِّكِ فَاسِدًا وَمُتَهَتِّكًا وَتَارِكًا للحَيَاءِ وَرَاكِبًا لِهَوَاه ، وَهَذا يَدُلُّ عَلى جَمَالِهَا ودَلالِهَا وَشِدَّةِ العِشْقِ لَهَا وَالشَّغَفِ بِهَا وَالمَيْلِ إلَيْهَا .

وَمَنْ خَبَرَ الغَوَانِي فَالغَوَانِي ضِيَاءٌ في بَوَاطِنِهِ ظَلامُ

مَنْ جَرَّبَ النِّسَاءَ الجَمِيلاتِ وَامْتَحَنَهُنَّ وَعَرَفَهُنَّ ، فَإنَّهُنَّ ضِيَاءٌ في الظاهر ، ظَلامٌ في البَاطِنِ . إنَّهُنَّ مُشْرِقَاتٌ لامِعَاتٌ ، وَهَذَا عَرَضٌ زَائِلٌ ، أمَّا حَقِيقَتُهُنَّ الدَّاخِلِيَّةُ فَهِيَ ظَلامٌ وضَلالٌ . إنَّهُنَّ مَعْرُوفَاتٌ بِضِيَاءِ الظاهرِ ، وَلَكِنَّ الجَوْهَرَ مُعْتِمٌ . وَالظَاهِرُ خَادِعٌ ، وَلا تَجِدُ في عُمْقِ النِّسَاءِ وَبَاطِنِهِنَّ إلا الظَّلام . واللَّهْوُ مَعَ النِّسَاءِ طَرِيقُ الدَّمَارِ وَضَيَاعِ المَجْدِ .

وَأصْبَحَ شِعْرِي فِيهِمَا حِينَ مَدَحْتُهُمَا بِهِ في مَكَانِهِ وفي عُنُقِ الحَسْنَاءِ يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ

أصْبَحَ شِعْرِي فِيهِمَا حِينَ مَدَحْتُهُمَا بِهِ في مَكَانِهِ ، أي : في المَكَانِ الذي يَنْبَغي أنْ يَكُونَ فِيه، لأنَّهُمَا أهْلٌ أنْ يُمْدَحَا بِهِ ، فَزَادَ حُسْنُه ، كَمَا أنَّ العِقْدَ إذا كانَ في عُنُقِ الحَسْنَاءِ ، أوْ في العُنُقِ المَوْصُوفِ بِالحُسْنِ، ازْدَادَ حُسْنُهُ وَجَمَالُه ، لَمَّا كانَ ذلك مَكَانَه . شَبَّهَ حَالَ الشِّعْرِ يُثْنَى بِهِ عَلى الرَّجُلِ الكَرِيمِ ، فَيَزْدَاد الشِّعْرُ جَمَالًا لِحُسْنِ مَوْضِعِه ، بِحَالِ العِقْدِ الثَّمِينِ ، يَزْدَاد بَهَاءً في عُنُقِ الفَتَاةِ الحَسْنَاءِ ، والمَعْنى: زِيَادَةُ جَمَالِ الشَّيْءِ لِجَمَالِ مَوْضِعِه .

وَلَوْ كَانَتِ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلى الرِّجَالِ

لَوْ كَمُلَ النِّسَاءُ كَمَالَ هَذِهِ المَرْأةِ المَفْقُودَةِ ، وَحَصَلْنَ عَلى مَا حَصَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الفَضْلِ وَالشَّرَفِ وَالمَجْدِ ، لَظَهَرَ فَضْلُ النِّسَاءِ عَلى الرِّجَالِ . لَوْ كَانَتْ نِسَاءُ العَالَمِ في الكَمَالِ كَهَذِهِ لَفُضِّلْنَ عَلى الرِّجَالِ، وَتَفَوَّقْنَ عَلَيْهِمْ . أي إنَّ هَذِهِ كانتْ أفضلَ مِنَ الرِّجَالِ ، فَلَوْ أشبَهَهَا غَيْرُهَا مِنَ النِّسَاءِ ، لَكَانَتْ مِثْلَهَا في الفَضْلِ .

وَمَا التَّأنيثُ لاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ ولا التَّذكيرُ فَخْرٌ للهِلالِ

لَمْ تَزْرِ بِهَا الأُنوثَةُ ، كَمَا لا يَزْرِي بالشَّمْسِ تأنيثُ اسْمِهَا. والذُّكُورَةُ لا تُعَدُّ فَضِيلَةً في كُلِّ أحَدٍ ، كَمَا لا يَحْصُلُ للقَمَرِ فَخْرٌ بِتَذكيرِ اسْمِه . والشَّمْسُ لا يَعِيبُهَا أنَّهَا أُنثى طَالَمَا أنَّهَا تُمِدُّ الدُّنيا بالنُّورِ والحَيَاةِ . ولا يَنْفَعُ الهِلالَ كَوْنُهُ ذَكَرًا طَالَمَا أنَّهُ صَغِيرٌ قَلِيلُ الفَوَائِدِ . الشَّمْسُ مُؤَنَّثَةٌ ، وَالفَضْلُ لَهَا ، وَالقَمَرُ مُذَكَّرٌ ، وَلَيْسَ يَعْدِلُ بِهَا . لا اعتبار بالذُّكُورَةِ وَالأُنوثَةِ ، وإنَّما الاعتبارُ بالفِعْلِ والفَضْلِ والعَطَاءِ، فالهِلالُ مُذَكَّرٌ، والشَّمْسُ مُؤَنَّثٌ، ومَعَ ذلك فَإنَّ الشَّمْسَ أفْضَلُ مِنَ الهِلالِ .

تَرَكْتَ خُدُودَ الغَانِيَاتِ وَفَوْقَهَا دُمُوعٌ تُذِيبُ الحُسْنَ في الأعْيُنِ النُّجْلِ

تَرَكْتَ النِّسَاءَ الجَمِيلاتِ يَبْكِينَ عَلَيْكَ ، حَتَّى تَجَرَّحَتْ أجْفَانُهُنَّ ، وَذَهَبَ حُسْنُ عُيُونِهِنَّ . تَرَكْتَ خُدُودَ الغَانِيَاتِ مِنْ نَوَادِبِكَ ، وَالمُنَعَّمَاتِ مِنْ بَوَاكِيكَ ، وَفَوْقَهَا دُمُوعٌ مَسْفُوحَةٌ عَلَيْكَ ، فَائِضَةٌ لِمُصَابِكَ ، كَأنَّهَا تُذِيبُ الحُسْنَ في العُيونِ البَاكِيَاتِ بِهَا ، وَتَصُبُّهُ في الجُفُونِ المُفَرِّقَةِ لَهَا . والأعْيُنُ النُّجْلُ: الوَاسِعَةُ الحَسَنَةُ . وإنَّمَا اختارَ لَفْظَ الإذابةِ ، لأنَّ حُسْنَ العُيونِ يَذهَبُ بالبُكَاءِ مَعَ مُرُورِ الأيَّامِ ، ولا يَذهَبُ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، لذلك كَانَ لَفْظُ الإذابةِ أبْلَغَ مِنْ قَوْلِه : تُزِيلُ الحُسْنَ ، أوْ تُذْهِبُ الحُسْنَ.وأيضًا،لَمَّا كَانَ الذَّوْبُ في مَعْنى السَّيَلانِ، والدَّمْعُ سَائِلٌ، فَكَأنَّ الحُسْنَ سَالَ مَعَه .

وَفَتَّانَةَ العَيْنَيْنِ قَتَّالَةَ الهَوَى إذا نَفَحَتْ شَيْخًا رَوَائِحُهَا شَبَّا

ذَكَرْتُ امْرَأةً تَفْتِنُ الناسَ بِحُسْنِ عَيْنَيْهَا ، وَتَقْتُلُهُمْ بِهَوَاهَا ، إذا شَمَّ عَجُوزٌ رَوَائِحَهَا الطَّيِّبَةَ عَادَ شَابًّا . والنَّفْحُ : انتشارُ رَائِحَةِ العِطْرِ . ذَكَرْتُ فَتَّانَةَ العَيْنَيْنِ بِفُتُورِهِمَا وَسِحْرِهِمَا ، قَتَّالَةَ الهَوَى بِتَمْكِينِهِ مِنَ النُّفُوسِ ، واستيلائِهِ عَلَيْهَا، إذا نَفَحَتْ رَوَائحُ طِيبِهَا شَيْخًا طَاعِنًا في السِّنِّ ، جَدَّدَتْ شَبَابَه ، وَصَرَفَتْ إلى التَّصَابي نِيَّتَه . وَالتَّصَابي : مَيْلُ العَجُوزِ إلى اللَّعِبِ واللَّهْوِ كَالصِّبْيَانِ .

وَأَغْيَدُ يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عَاقِلٍ عَفِيفٍ وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فَاسِقِ

وَنَاعِمٌ مَائِلُ العُنُقِ جَمَعَ بَيْنَ خِفَّةِ الرُّوحِ وَحُسْنِ الجِسْمِ ، وَالعَاقِلُ العَفِيفُ يَهْوَى رُوحَهُ لِخِفَّتِهِ وَظَرَافَتِه ، وَالفَاسِقُ يَمِيلُ إِلَيْهِ حُبًّا لِجِسْمِه . إِنَّهُ كَامِلُ الحُسْنِ خَلْقًا وَخُلُقًا، فَحُسْنُهُ حُسْنَان : رُوحَانِيٌّ، وَهُوَ حُسْنُ خُلُقِه، وَجُسْمَانِيٌّ، وَهُوَ حُسْنُ خَلْقِه،فَأَوْجَبَ ذلك أنْ يَعْشَقَهُ العَفِيفُ والفَاسِقُ، فَالعَفِيفُ يَهْوَى نَفْسَه ، وَلَهَا الحُسْنُ الخُلُقِيُّ، وَالفَاسِقُ يَهْوَى جِسْمَه ، وَلَهُ الحُسْنُ الخَلْقِيُّ .

حِسَانُ التَّثَنِّي يَنْقُشُ الوَشْيُ مِثْلَهُ إذا مِسْنَ في أجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

إِنَّهُنَّ إذا تَثَنَّيْنَ فَيُؤَثِّر مَا عَلَيْهِنَّ مِنَ الوَشْيِ في أبْدَانِهِنَّ لِنُعُومَتِهَا، فَيَنْقُش عَلَيْهَا آثارًا مِثْلَ آثارِ الوَشْيِ ، كَمَا تَرَى نَقْشَ الخَاتَمِ في الشَّمْعِ إذا وُضِعَ عَلَيْه . بِسَبَبِ نُعُومَةِ أجْسَادِهِنَّ وَرِقَّةِ جُلُودِهِنَّ يُؤَثِّرُ الوَشْيُ فِيهَا مِثْلَ نُقُوشِهِ إذا مَشَيْنَ مُتَبَخْتِرَاتٍ . وَالوَشْيُ : نَقْشُ الثَّوْبِ ، وَيَكُونُ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ .

مَظْلُومَةُ القَدِّ في تَشْبِيهِهِ غُصُنًا مَظْلُومَةُ الرِّيقِ في تَشْبِيهِهِ ضَرَبَا

مَنْ شَبَّهَ قَدَّهَا (قَامَتَهَا أوْ قَوَامَهَا) بِالغُصُنِ ، فَقَدْ ظَلَمَهَا ، لأنَّ قَدَّهَا أحْسَنُ مِنَ الغُصُنِ ، وَأقْوَمُ مِنْه،وَمَنْ شَبَّهَ رِيقَهَا بِالعَسَلِ (الضَّرَبِ) فَقَدْ ظَلَمَهَا، لأنَّ رِيقَهَا أطْيَبُ مِنَ العَسَلِ، وَأحْلَى مِنْه.

بَيْضاءُ تُطْمِعُ في مَا تَحْتَ حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوبًا إذا طُلِبَا

جَمَالُهَا ودَلالُهَا وأُنْسُهَا وحُسْنُ حَدِيثِهَا يُغْرِيكَ ، وَيُطْمِعُكَ فِيمَا تَحْتَ ثَوْبِهَا ، فَإذا طُلِبَ ذلك عَزَّ مَطْلُوبًا. مُنَعَّمَةٌ مُرَفَّهَةٌ لا تَبْرُزُ للشَّمْسِ، ولا تَتْعَبُ في العَمَلِ، نَقِيَّةٌ مِنَ الدَّنَسِ وَالرَّيْبِ ، وَعَفِيفَةٌ تَرُدُّ يَدَ طَالِبِهَا عَنْهَا. هِيَ تُطْمِعُكَ في نَفْسِهَا بِلِينِ كَلامِهَا ، وفي نَيْلِ مَا تُرِيدُ مِنْ جَسَدِهَا ، فَإذَا طَلَبْتَهَا وَجَدْتَهَا أَعَزَّ مَطْلُوبٍ ، ولا يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَيْهَا . إِنَّهَا جَمِيلَةٌ مُدَلَّلَةٌ ، لَكِنَّهَا شَرِيفَةٌ عَفِيفَة .

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

هَذه الحَبِيبَةُ كَأَنَّهَا الشَّمْسُ، تَرَى شُعَاعَهَا بِعَيْنِكَ قَرِيبًا، وَتَعْجِزُ عَنْ أنْ تُمْسِكَهُ بِيَدِكَ. كَأَنَّهَا مِنْ قُرْبِهَا وَبُعْدِ مَنَالِهَا الشَّمْسُ ، فَإِنَّكَ تَرَى شُعَاعَهَا قَرِيبًا مِنْكَ ، فَإِنْ أَرَدْتَ أنْ تَقْبِضَ عَلَيْهِ لَمْ يُمْكِنْكَ، فكذلك هَذه المَرْأة.شَبَّهَ الحَبِيبَةَ بِشُعَاعِ الشَّمْسِ في قُرْبِهِ مِنَ العَيْنِ ، وَبُعْدِهِ مِنَ القَبْضِ عَلَيْه .

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هَذَا الشَّادِنُ العَرَبَا

مَرَّتْ بِنَا هَذه الجَارِيَةُ بَيْنَ جَارِيَتَيْنِ مُتَسَاوِيَتَيْنِ في السِّنِّ حَيَاءً مِنْ أنْ تَمُرَّ بِنَا وَحْدَهَا ، فَاسْتَخَفَّتْ بِهِمَا، فَعَرَفْتُهَا لِفَضْلِ حُسْنِهَا ، فَقُلْتُ لَهَا : أنْتِ غَزَالٌ ، فَكَيْفَ شَابَهَ الغَزَالُ العَرَبَ ؟، أوْ : كَيْفَ اجْتَمَعَ الغَزَالُ مَعَ العَرَبِ ؟ ، لأنَّهَا غَزَالٌ، وَالتِّرْبَانُ مِنَ العَرَبِ .

أَجِدُ الجَفَاءَ عَلى سِوَاكِ مُرُوءَةً وَالصَّبْرَ إلا في نَوَاكِ جَمِيلا

الامْتِنَاعُ مِنَ النِّسَاءِ مُرُوءَةٌ عِنْدِي إلا مِنْكِ ، والصَّبْرُ جَمِيلٌ إلا في بُعْدِكِ وَفِرَاقِكِ ، لأنَّ فِرَاقَ الحَبِيبِ قَبِيحٌ .

بَيْضَاءُ يَمْنَعُهَا تَكَلَّمَ دَلُّهَا تِيهًا وَيَمْنَعُهَا الحَيَاءُ تَمِيسَا

بَيْضَاءُ نَاعِمَةٌ يَمْنَعُهَا دَلالُهَا وَعِزَّةُ نَفْسِهَا أنْ تَتَكَلَّمَ ، فَهِيَ لا تُكَلِّمَ العَاشِقِينَ مِنْ تِيهِهَا وَتَكَبُّرِهَا، وَيَمْنَعُهَا الحَيَاءُ أنْ تَتَثَنَّى وَتَتَدَلَّلَ أمَامَ الرِّجَالِ ، فَهِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُم ، وَلَيْسَتْ في مُتَنَاوَلِ أيْدِيهِم .

وَأرى تَدَلُّلَكِ الكَثِيرَ مُحَبَّبًا وأرى قَلِيلَ تَدَلُّلٍ مَمْلُولا

الدَّلالُ الكَثِيرُ مِنْكِ مُحَبَّبٌ ، وأنا أَمَلُّ الدَّلالَ القَلِيلَ مِنْ غَيْرِكِ . أَمَلُّ دَلالَ غَيْرِكِ ، وَإنْ قَلَّ ، وَأُحِبُّ دَلالَكِ ، وَإنْ كَثُرَ . والتَّدَلُّلُ : الدَّلالُ وَالغُنْجُ .

٢_ كِتْمَانُ الحُبِّ

كَتَمْتُ حُبَّكِ حَتَّى مِنْكِ تَكْرِمَةً ثُمَّ اسْتَوَى فِيكِ إسْرَارِي وإعْلاني

كَتَمْتُ حُبَّكِ وَأخْفَيْتُهُ عَن الناسِ ، حَتَّى عَنْكِ ، إكْرَامًا لَكِ ، وَاحْتِرَامًا لِمَكَانَتِكِ ، وَتَعْظِيمًا للحُبِّ حَتَّى لا يَطَّلِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، ثُمَّ غَلَبَنِي ذلك ، فَاسْتَوَى سِرِّي وَجَهْرِي ، أي : أَظْهَرْتُ مِنْهُ مِثْلَ مَا كُنْتُ أُخْفِي. لَقَدْ تَغَيَّرَتْ الحَالُ حَتَّى صَارَ الإسْرَارُ وَالإعْلانُ سَوَاءً ، أي : لَمْ يَنْفَع الإسْرَارُ ، وَصَارَ كالإعلانِ، حَيْثُ ظَهَرَ الحُبُّ بِالشَّوَاهِدِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ، وَبَطَلَ الكِتْمَانُ . كَتَمْتُ حُبَّكِ حَتَّى كَتَمْتُهُ مِنْكِ تَكْرِمَةً لَكِ ، إذْ في إظْهَارِهِ فَضِيحَةُ المَحْبُوبِ ، أوْ تَكْرِمَةً لِنَفْسِهِ مِنَ الاستكانةِ للنِّسَاءِ ،

ثُمَّ أَطْلَقَ كِتْمَانَه ، فَظَهَرَ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنَ الأَمَارَاتِ ، كَالبُكَاءِ وَالنُّحُولِ وَغَيْرِ ذلك ، فَاسْتَوَى فِيهِ إِسْرَارِي وَإِعْلانِي ، لأنَّ السِّرَّ في الظُّهُورِ كَالعَلانِيَةِ .

٣_ كَاتِمُ الحُبِّ

وَكَاتِمُ الحُبِّ يَوْمَ البَيْنِ مُنْهَتِكٌ وَصَاحِبُ الدَّمْعِ لا تَخْفَى سَرَائِرُهُ

وَكَاتِمُ الحُبِّ يَوْمَ الفِرَاقِ مُفْتَضِحٌ ، وَصَاحِبُ الوَجْدِ تَظْهَرُ سَرَائِرُهُ بِدُمُوعِه . إنَّ الذي يَكْتُمُ حُبَّهُ لِكَيْلا يَطَّلِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، يَبْدُو سِرُّهُ يَوْمَ الفِرَاقِ ، لأنَّه يَجْزَعُ وَيَبْكِي ، فَيُسْتَدَلُّ بِجَزَعِهِ وَبُكَائِهِ عَلى حُبِّه . وَهَذِه حَالُ المُحِبِّ عِنْدَ الفِرَاقِ ، يَنْكَشِفُ سِرُّهُ وَإِنْ حَاوَلَ التَّكَتُّمَ ، أوْ تَفْضَحُهُ دُمُوعُه . وَالسَّرَائِرُ جَمْعُ سَرِيرَة ، وَهِيَ مَا يُكْتَمُ وَيُسَرُّ .

٤_ جَرَيَانُ الحُبِّ

جَرَى حُبُّهَا مَجْرَى دَمِي في مَفَاصِلِي فَأَصْبَحَ لِي عَنْ كُلِّ شُغْلٍ بِهَا شُغْلُ

جَرَى حُبُّ هَذه المَرْأةِ في عُرُوقي مَجْرَى الدَّمِ ، لِشِدَّةِ امْتِزَاجِهِ بِي، فَشَغَلَنِي عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا. جَرَى حُبُّهَا في جَمِيعِ بَدَني ، وَاسْتَوْلَى عَلَيَّ بِجُمْلَتِي، وَجَرَى مَجْرَى الدَّمِ ، أي إنَّهُ امْتَزَجَ بِجَمِيعِ بَدَني كَالدَّمِ الجاري فيه ، فأصبحَ لِي شُغْلٌ بِهَا ، يَشْغَلُني عَنْ كُلِّ شُغْلٍ سِوَاه . وهَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ حُبَّهَا سَيْطَرَ عَلَيْهِ بِشَكْلٍ كَامِلٍ مِنْ شِدَّةِ تأثيرِه في رُوحِهِ وَعَقْلِهِ وَبَدَنِه .

٥ _ زِيَارَةُ المُحِبِّ

يَمَّمْتُ شَاسِعَ دَارِهِمْ عَنْ نِيَّةٍ إنَّ المُحِبَّ عَلى البِعَادِ يَزُورُ

قَصَدْتُ دَارَهُم البَعِيدَةَ للزِّيَارَةِ عَنْ قَصْدٍ ، حُبًّا لَهُمْ ، وَشَوْقًا إِلَيْهِمْ ، إنَّ المُحِبَّ يَزُورُ حَبِيبَه ، وَإِنْ كانَ عَلى البُعْدِ مِنْه .

٦_ القَنَاعَةُ مِنَ الحَبِيبِ

وَقَنِعْتُ باللُّقْيَا وَأَوَّلِ نَظْرَةٍ إنَّ القَلِيلَ مِنَ الحَبِيبِ كَثِيرُ

رَضِيتُ بِرُؤْيَتِهِم ، بَلْ بِأَوَّلِ نَظْرَةٍ، وَلَمْ أُطِل المُقَامَ للنَّظَرِ ، إنَّ القَلِيلَ مِنَ المُحِبِّ كَثِيرٌ ، فَأَنَا مُحِبٌّ لَهُمْ .

٧_ مَكَانُ المُحِبِّ

مُحِبُّكَ حَيْثُمَا اتَّجَهَتْ رِكَابي وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ البِلادِ

حَيْثُمَا تَوَجَّهْتُ فأنا مُحِبُّكَ ، وَحَيْثُمَا كُنْتُ فأنا ضَيْفُكَ ، لأنَّني آكُلُ مِمَّا أَعْطَيْتَني وَزَوَّدْتَني . حَيْثُمَا سِرْتُ وَنَزَلْتُ فَإنَّني مُحِبُّكَ ، وَحَيْثُ كُنْتُ مِنَ البِلادِ فَإنَّني ضَيْفُكَ ، لأنَّ عَطَايَاكَ عظيمة ، وأياديك غَيْرُ مُنْقَطِعَة ولا فَانِيَة .

٨ _ هِيَامُ الفُؤادِ

هَامَ الفُؤادُ بِأعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ بَيْتًا مِنَ القَلْبِ لَمْ تَمْدُدْ لَهُ طُنُبا

هَامَ قَلْبي بِأعْرَابِيَّةٍ اتَّخَذَتْ بَيْتًا مِنْ قَلْبي ، فَنَزَلَتْهُ ، وَالقَلْبُ بَيْتٌ بِلا طُنُبٍ ولا أوتادٍ ، بِخِلافِ بُيُوتِ أَهْلِ البَادِيَةِ. أوْ : إنَّهَا مَلَكَتْ فُؤَادِي بِلا مَشَقَّةٍ ولا كُلْفَةٍ ، فَكَانَتْ كَمَنْ سَكَنَ بَيْتًا لَمْ تَتْعَبْ بإقَامَتِهِ ، ولا شَدِّ طُنُبِه . والطُّنُبُ: حَبْلٌ يُشَدُّ بِهِ الخِبَاءُ وَالسُّرَادِقُ .

٩_ الحُبُّ يَمْنَعُ الكَلامَ

الحُبُّ مَا مَنَعَ الكَلامَ الأَلْسُنَا وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَا

الحُبُّ يَمْنَعُ لِسَانَ المُحِبِّ مِنَ الكَلامِ،فَلا يَقْدِر عَلى وَصْفِ مَا في قَلْبِهِ إذا رَأى المَحْبُوبَ ، وإنَّمَا يُبْهَتُ وَيَخْرَس ، فَلا يَقْدِر عَلى الكَلامِ ، وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ هِيَ الإعْلانُ لِمَنْ قَدَرَ عَلى الكِلامِ. أوْ : إنَّ المُحِبَّ يَجِبُ عَلَيْهِ كِتْمَانُ مَا هُوَ فِيه، لأنَّ ذلك أجْمَلُ بِمَنْ يُحِبُّ ، وَأَلَذُّ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا يُعْلِنُه ، فَهُوَ ضِد لِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أنْ يَفْعَلَه ، وَهُوَ الكِتْمَان .

١٠ _ تَمَنِّي الوَصْلِ

لَيْتَ الحَبِيبَ الهَاجِرِي هَجْرَ الكَرَى مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَاصِلِي صِلَةَ الضَّنَى

لَيْتَ الحَبِيبَ الذي هَجَرَني مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ مِنِّي ، كَمَا هَجَرَ النَّوْمُ عَيْنَيَّ ، وَاصَلَني كَمَا وَاصَلَني المَرَضُ المُقِيمُ في جَسَدِي ، وَالمُلازِمُ لِي . لَقَدْ هَجَرَني النَّوْمُ ، وَلَمْ أَعُدْ أستطيعُ أنْ أنام ، وَحَالَتِي مَعَ النَّوْمِ كَحَالَتِي مَعَ الحَبِيبِ ، كِلاهُمَا هَجَرَني ، وَاجْتَمَعَا عَلى فِرَاقي .

١١ _ تَوَقُّدُ الأنْفَاسِ

وَتَوَقَّدَتْ أنْفَاسُنَا حَتَّى لَقَدْ أشْفَقْتُ تَحْتَرِقُ العَوَاذِلُ بَيْنَنَا

لِشِدَّةِ حَرَارَةِ الوَجْدِ ، صَارَتْ أنفاسُنا كالنارِ المُتَوَقِّدَةِ ، حَتَّى خِفْتُ عَلى العَوَاذِلِ أنْ يَحْتَرِقْنَ فِيمَا بَيْنَنَا. أَلْهَبَتْ أنفاسُنا حَرَارَةَ الشَّوْقِ، حَتَّى خِفْتُ أنْ تَحْتَرِقَ العَوَاذِلُ اللواتي كُنَّ بَيْنَنَا . وَوَجْهُ إشفَاقِهِ عَلَيْهِنَّ، مَعَ أنَّ العَوَاذِلَ مُبْغِضَاتٌ للعُشَّاقِ ، هُوَ أنَّ العَاذِلَ (اللائِمَ) لا يَكُونُ في الأغلب إلا قَرِيبًا ، أوْ نَاصِحًا شَفِيقًا . أوْ : إنَّه خَافَ أنْ تَدُلُّ أنفاسُه على حَالِهِمَا مِنْ حَرَارَةِ الشَّوْقِ . وَيُمْكِنُ أنْ يَكُونَ خَوْفُه مِنَ احتراقِ نَفْسِهِ وَاحتراقِ حَبِيبِه ، ثُمَّ يَتَعَدَّى الاحتراقُ إلى العَوَاذِلِ ، لأنَّهُنَّ لا يَحْتَرِقْنَ بِحَرَارَةِ أنْفَاسِهِمَا إلا بَعْدَ احْتِرَاقِهِمَا .

١٢ _ الحُزْنُ عَلى فَقْدِ الحَبِيبِ

خَلِيلايَ دُونَ الناسِ حُزْنٌ وَعَبْرَةٌ عَلى فَقْدِ مَنْ أحْبَبْتُ مَا لَهُمَا فَقْدُ

الحُزْنُ وَالعَبْرَةُ (الدَّمْعَةُ) هُمَا الخَلِيلان لِي ، لأنَّهُمَا يُلازِمَانِي ، ولا يُفَارِقَانِي ، مَا لَهُمَا فَقْدٌ ، أي: فَقَدْتُ مَنْ كُنْتُ أُحِبُّهُ ، وَصَاحَبَني لِفَقْدِهِ حُزْنٌ وَعَبْرَةٌ لَسْتُ أفْقِدُهُمَا . لَمَّا فَقَدْتُ حَبِيبي أَعْرَضْتُ عَن الناسِ ، وَانْفَرَدْتُ بِالبُكَاءِ وَالحُزْنِ ، فَهُمَا الصَّدِيقَانِ وَالرَّفِيقَانِ لِي ، وَلَيْسَ لَهُمَا فَقْدٌ .

١٣ _ النَّصِيبُ مِنَ الحَبِيبِ

نَصِيبُكَ في حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُكَ في مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

الحَبِيبُ الذي تَرَاه في اليَقَظَةِ، وَتَسْتمتع بِه ، كَأنَّكَ تَرَاه في الحُلْمِ، لأنَّ ذلك الوِصَالَ يَنْقَطع عَنْ قَرِيبٍ بِالمَوْتِ، كَمَا يَنْقَطع الاستمتاعُ بِخَيَالِ الحَبِيبَةِ عِند الانتباه . والعُمْرُ كَالمَنَامِ ، والمَوْتُ كالانتباهِ مِنَ المَنَامِ، والناسُ نِيَامٌ ، فَإذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا . إنَّ نَصِيب الإنسانِ مِنْ وِصَالِ حَبِيبَتِهِ في

حَيَاتِه ، كَنَصِيبِهِ مِنْ وِصَالِ خَيَالِهِ في مَنَامِه ، لاتِّفَاقِ الأمْرَيْن في سُرْعَةِ انقِطَاعِهِمَا ، وَحَتْمِيَّةِ زَوَالِهِمَا.وَمَا تَنَالُهُ مِنَ اللَّذَّةِ والسُّرُورِ بِقُرْبِ حَبِيبِكَ وَهْمٌ زَائِلٌ،لا حَقِيقة له، كَمَا لا حَقِيقَة لِمَا تَرَاه في المَنَامِ مِنْ خَيَالِ الحَبِيبِ ، فَنَصِيبُكَ مِنْهُ عِيَانًا كَنَصِيبِكَ مِنْ خَيَالِه الذي لَيْسُ هُوَ بِشَيْءٍ حَقِيقَةً .

١٤ _ حُبُّ القَلْبِ

حَبَبْتُكَ قَلْبي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأى وَقَدْ كَانَ غَدَّارًا فَكُنْ أنْتَ وَافِيَا

يُخَاطِبُ قَلْبَه : أحْبَبْتُكَ قَبْلَ أنْ تُحِبَّ الحَبِيبَ الذي ابْتَعَدَ عَنْكَ ، وَغَدَرَ بِكَ ، فأنكَرْتَ غَدْرَه، فَلا تَصْنَعْ مَعِي مِنَ الغَدْرِ مِثْل مَا صَنَعَ بِكَ حَبِيبُكَ ، فَتَكُون قَدْ فَعَلْتَ مَا كَرِهْتَهُ مِنْ غَيْرِكَ . وَجَعَلَ حَنِينَ قَلْبِه إلى الحَبِيبِ غَدْرًا مِنْه ، لأنَّه يُؤْلِمُه وَيُؤَدِّي إلى تَلَفِه ، فَتَقَع المُفَارَقَةُ بَيْنَه وَبَيْنَ قَلْبِه ، وَهِيَ التي ذَاقَهَا مِنْ حَبِيبِه ، وَهَذا تَعْرِيضٌ مِنْهُ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ . لَقَدْ كَانَ غَدَّارًا ، فَلا تَغْدِرْ بِي يَا قَلْبي ، ولا تَكُنْ مُشْتَاقًا إلَيْه ، ولا مُحِبًّا له . إنْ أحْبَبْتَ الغَدَّارَ يا قَلْبي لَمْ تَكُنْ وَفِيًّا لِي .

١٥ _ المُحِبُّ غَيْرُ المَحْبُوبِ

أنْتَ الحَبِيبُ وَلَكِنِّي أعُوذُ بِهِ مِنْ أنْ أكُونَ مُحِبًّا غَيْرَ مَحْبُوبِ

أنْتَ حَبِيبي، وَلَكِنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ أنْ أكُونَ مُحِبًّا لَكَ ، ولا أكُون مَحْبُوبًا عِنْدَكَ . أنْتَ الحَبِيبُ الذي أَصْفَيْتُهُ غَايَةَ مَوَدَّتي، وَآثَرْتُهُ بِأمَلي ، وَبِهِ أعُوذُ وَبِكَرَمِه، وَبِمَا حَمَّلَنِي مِنْ جَلِيلِ نِعَمِه ، مِنْ أنْ أكُونَ مُحِبًّا لا يُقَابَلُ بِحُبِّهِ ، وَمُخْلِصًا لا يُجَازَى بِحَقِيقَةِ وُدِّهِ . أنْتَ الحَبِيبُ، أُحِبُّكَ وَأعُوذُ بِكَ مِنْ أنْ لا تُحِبَّني.وَأشقَى الشَّقَاوَةِ أنْ تُحِبَّ مَنْ لا يُحِبُّكَ ، وَقِمَّةُ التَّعَاسَةِ أنْ تُحِبَّ ولا يُحِبُّكَ مَنْ تُحِبُّه.

١٦_ المَحَبَّةُ تُؤَدِّي إلى الرِّضَا

رَضِيتُ بِمَا تَرْضَى بِهِ لِي مَحَبَّةً وَقُدْتُ إلَيْكَ النَّفْسَ قَوْدَ المُسَلِّمِ

كُلُّ شَيْءٍ تَرْضَى بِهِ لِي فَإنِّي رَاضٍ بِه ، وَمُؤْثِرٌ هَوَاكَ في كُلِّ شَيْءٍ ، وَقُدْتُ نَفْسِي إلَيْكَ قَوْدَ مَنْ سَلَّمَهَا لَكَ . إنْ كُنْتَ تَرْضَى بِتَأخِيرِ مَا أرْجُوه ، فأنا أرْضَى بِهِ أيْضًا ، مَحَبَّةً لَكَ ، وانجذابًا إلى هَوَاكَ، لأنِّي قُدْتُ نَفْسِي إلَيْكَ قَوْدَ مَنْ يُسَلِّم لَكَ مَا تَفْعَلُه ، وَالمُسَلِّمُ لا يُعَارِضُ بِشَيْءٍ .

١٧ _ نَارُ الحُبِّ

فَفِي فُؤَادِ المُحِبِّ نَارُ جَوًى أَحَرُّ نَارِ الجَحِيمِ أَبْرَدُهَا

إنَّ في قَلْبي نَارًا مِنْ حُبِّي لَهَا ، وَالجَحِيمُ في جَنْبِهَا أبْرَدُهَا ، أي : إنَّ أَبْرَدَ نَارِ الحُبِّ مِثْلُ أَحَرِّ نَارِ الجَحِيمِ ، وَقَصَدَ بذلك تَعْظِيمَ الحُبِّ والهَوَى ، والجَوَى : شِدَّةُ الوَجْدِ مِنَ حُبٍّ أوْ حُزْنٍ . لَقَدْ عَنَى بِالمُحِبِّ نَفْسَه ، وَالجَحِيمُ : النارُ الشَّدِيدَةُ التَّوَقُّد العَظِيمَة . إنَّ أَحَرَّ النارِ العَظِيمَةِ المُتَوَقِّدَةِ أبْرَدُ نارِ الحُبِّ ، أي: إنَّ نَارَ الهَوَى أشَدُّ حَرَارَةً .

جَرَّبْتُ مِنْ نارِ الهَوَى مَا تَنْطَفِي نَارُ الغَضَا وَتَكِلُّ عَمَّا يُحْرِقُ

جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الحُبِّ نَارًا تَكِلُّ نارُ الغَضَا عَمَّا تُحْرِقُه نارُ الحُبِّ ، وَتَنْطَفِئ عَنْه ، ولا تُحْرِقُه ، أي : إنَّ نارَ الحُبِّ أشَدُّ إحراقًا مِنْ نارِ الغَضَا ، وَهُوَ شَجَرٌ مَعْرُوفٌ يُسْتَوْقَد بِه ، ويُوصَف بِقُوَّةِ الاشتعالِ ، فَتَكُون نارُه أبْقَى .

١٨ _ لَوْمُ أهْلِ العِشْقِ

وَعَذَلْتُ أهْلَ العِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَعْشَقُ

كُنْتُ أَلُومُ أهْلَ العِشْقِ ، لِجَهْلي بِه ، حَتَّى دُفِعْتُ إلى العِشْقِ ، فَلَمَّا ذُقْتُهُ عَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لا يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَه ؟! . كَأنَّه يَقُول: إنَّ أقْوَى أسبابِ المَوْتِ العِشْقُ ، وَإنَّ مَنْ بَعُدَ عَنْهُ فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَن المَوْتِ .

١٩ _ كَثْرَةُ العُشَّاقِ

أَتُرَاهَا لِكَثْرَةِ العُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً في المَآقِي

يَقُولُ لِصَاحِبِه: أَتَظُنُّ هَذِه المَرْأةُ أنَّهَا لِكَثْرَةِ مَا تَرَى مِنَ الدُّمُوعِ في عُيونِ عُشَّاقِهَا أنَّه خِلْقَةٌ في عُيُونِهِم فَلِهَذا لا تَرْحَمُهُم ولا تُشْفِق عَلَيْهِم ؟ . هَلْ تَتَوَهَّمُ هَذه المَرْأةُ أنَّ الدُّمُوعَ جُزْءٌ مِنْ عُيونِ عُشَّاقِهَا وَمَخْلُوقٌ فِيهَا فلا تَرْثي لِمَنْ يَبْكِي مِنْهُم ؟ . وَالمَآقِي : مَجَارِي الدُّمُوعِ مِنَ العَيْنِ ، أي : مِنْ طَرَفِهَا مِمَّا يَلِي الأنْفَ .

٢٠_ الجُفُونُ سَبَبُ العِشْقِ

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَهُ وَلَكِنَّ مَنْ يُبْصِرُ جُفُونَكِ يَعْشَقِ

لا أُحِبُّ الغَزَلَ ، ولا أَسعْى إلى العِشْقِ ، وَلَمْ أَكُنْ مِمَّن تَمِيلُ بِهِ أَسْبَابُ الهَوَى ، وَلَكِنِّي لَمَّا أَبْصَرْتُ جُفُونَكِ الرَّائِعَةَ وَغُنْجَ عَيْنَيْكِ، صِرْتُ عَاشِقًا لَكِ ، وَمُتَيَّمًا بِكِ، وَعَاجِزًا عَن الابْتِعَادِ عَنْكِ. وهَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ جُفُونَ حَبِيبَتِهِ فَتَّانَةٌ لِزَائِيهَا ، يَعْشَقُ مَنْ يُبْصِرُهَا كَيْفَمَا كَانَ .

٢١_ لَيْلُ العَاشِقِين

لَيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ طِوَالٌ وَلَيْلُ العَاشِقِينَ طَوِيلُ

لَيَالِيَّ بَعْدَ الأحِبَّاءِ الرَّاحِلِينَ مُتَشَابِهَةٌ في الطُّولِ ، لا تَخْتَلِف كَلَيَالي سَائِرِ الناس ، لأنَّهَا تَقْصُرُ وَتَطُولُ بِحَسَبِ اختلافِ الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ،وَلَيَالِيهِ طِوَالٌ لِبُعْدِ الحَبِيبِ وَامْتِنَاعِ النَّوْمِ . وَلَيْلُ العُشَّاقِ كَذَا يَكُون ، وَكُلُّ عَاشِقٍ يَطُولُ لَيْلُهُ لِسَهَرِهِ فِيه وَعِظَمِ حُزْنِهِ شَوْقًا إلى حَبِيبَتِه . وشُكُول : جَمْعُ شَكْلٍ ، في الكَثِيرِ ، وَشَكْلُ الشَّيْءِ مِثْلُه ، واختارَ الجَمْعَ الكثيرَ في الطُّولِ لليالي ، لِيَكُونَ أبْلَغَ في الشَّكْوَى ، وَأَدَلَّ عَلى عِظَمِ الشَّوْقِ وَالبَلْوَى .

٢٢_ عِشْقُ الوَجْهِ الحَسَنِ

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُمُ هَوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنيا وَمَا فَطِنُوا

إنَّ أَهْلَ العِشْقِ انْخَدَعُوا بِظَوَاهِرِ الدُّنيا وَزِينَتِهَا الفَانِيَةِ وَحُطَامِهَا الزَّائِلِ ، وَاغْتَرُّوا بِهَا ، وَلَمْ يَعْرِفُوا أنَّ الدُّنيا لا تُوَافِقُهُم ، ولا تُسَاعِدُهُم ، ولا تَبْقَى لَهُمْ ، ولا تَدُومُ كَمَا يُرِيدُون ، فَجَهْلُهُمْ بالدُّنيا أَضَرَّ بِهِمْ حَتَّى تَعِبُوا في جَمْعِ مَا لا يَبْقَى ، وَالحِرْصِ عَلى الأشياءِ الزائلة .

تَفْنَى عُيُونُهُمُ دَمْعًا وَأنفُسُهُمْ في إثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

عَشِقُوا بِلا تَجْرِبَةٍ وَرَوِيَّةٍ ، وَيَبْكُونَ حَتَّى تَفْنَى عُيُونُهُمْ بِالبُكَاءِ ، وَأَنْفُسُهُمْ تَسِيلُ حُزْنًا ، عَلى كُلِّ قَبِيحِ الفِعْلِ حَسَنِ الوَجْهِ . إنَّهُمْ يَبْكُونَ وَتَتَقَطَّعُ أنْفُسُهُمْ أَلَمًا وَحَسْرَةً عَلى كُلِّ مُسْتَحْسَنٍ في

الظاهرِ، قَبيحٍ عِنْد الفَحْصِ والاخْتِبَارِ. لَقَد اغْتَرَّ أَهْلُ العِشْقِ بِظَوَاهِرِ الدُّنيا ، فَاغْتَرُّوا بِحُسْنِ الخَلْقِ، وَجَمَالِ الجِسْمِ ، وَبَهَاءِ الصُّورَةِ ، وَأَحَبُّوا مَنْ هُوَ حَسَنُ الوَجْهِ ، وَلَمْ يَعْتَبِرُوا قُبْحَ أَفْعَالِهِ وَسُوءَ أَعْمَالِه ، وَلَمْ يَنْظُرُوا إلى حَوَادِثِ الزَّمَانِ وأَحْوَالِ الدَّهْرِ وَتَغَيُّرَاتِ الحَيَاةِ .

٢٣_ العِشْقُ غَفْلَةٌ وَطَمَعٌ

وَمَا العِشْقُ إلا غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَيُصَابُ

وَمَا العِشْقُ إلا غَفْلَةٌ بِلا تَبَيُّنٍ ، وَطَمَعٌ بِلا تأمُّلٍ ، يُعَرِّضُ القَلْبُ نَفْسَه للعِشْقِ ، فَيُصِيبُه بِرَمْيَةٍ ، وَيُمَكِّنُ القَلْبُ نَفْسَهُ مِنَ العِشْقِ فَيَتَمَلَّكُهُ بِحُكْمِه . وَلَوْ نَظَرَ الإنْسَانُ بِعَيْنِ الحَقِيقَةِ لَمَا عَمِيَ عَنْ رُشْدِه ، وَلَوْ مَلَكَ طَرِيقَ الصَّوَابِ لَمَا غَلَبَتْ أباطيلُ الحُبِّ عَلى نَفْسِه. وَالغِرَّةُ : الغَفْلَة ، والطَّمَاعَةُ : الطَّمَع . إنَّ العِشْقَ اغْتِرَارٌ وَطَمَعٌ، وَهُمَا مَذْمُومَان، وَقَلْبُ العَاشِقِ يُعَرِّضُ نَفْسَه للهَلاكِ فَيَهْلِك. وَعِشْقُ النِّسَاءِ اغْتِرَارٌ وَانْخِدَاعٌ وَطَمَعٌ في وَصْلِهِنَّ،وذلك مِنْ تَعْرِيضِ القَلْبِ نَفْسَ صَاحِبِهِ لِعِشْقِهِنَّ، فَإذَا عَرَّضَ القَلْبُ النَّفْسَ أُصِيبَت النَّفْسُ بِالعِشْقِ ، أي: إنَّ القَلْبَ يَشْتَهِي أوَّلًا ، وَيَدْعُو النَّفْسَ فَتَتْبَعُه ، هَذا إذا جَعَلْتَ النَّفْسَ غَيْرَ القَلْبِ، وإذا أَرَدْتَ بالنَّفْسِ نَفْسَ القَلْبِ وَعَيْنَه وَذَاتَه، فَالقَلْبُ يُوقِع نَفْسَه في العِشْقِ بِتَعَرُّضِهِ لذلك .

٢٤ _ البَحْثُ عَنْ مِثْلِ الحَبِيبِ

تَقُولِينَ مَا في الناسِ مِثْلَكَ عَاشِقٌ جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ تَجِدِي مِثْلِي

يَقُولُ مُخَاطِبًا لِعَاذِلَتِه ، وَمُشِيرًا إلى لائِمَتِه: تَقُولين لِي مَا في الناسِ عَاشِق عَلى مِثْلِ بَصِيرَتِكَ ، ولا مُحِب يَسِيرُ عَلى طَرِيقَتِكَ ، وَقَوْلُكِ في ذلك حَقٌّ وَصِدْقٌ ، فَجِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ في جَلالَةِ القَدْرِ ، تَجِدِي مِثْلِي فِيمَا بَلَغْتُهُ مِنَ الحُبِّ . إنَّكِ تَقُولين لِي إنَّهُ لَيْسَ لَكَ في العُشَّاقِ نَظِيرٌ ، فَقَدْ صَدَقْتِ، وإنَّما كُنْتُ كَذلك لأنَّ مَنْ أُحِبُّهُ لا نَظِيرَ لَه ، فَأَوْجِدِي مِثْلَ مَنْ أُحِبُّهُ حَتَّى تَجِدِي عَاشِقًا مِثْلِي. إنْ وَجَدْتِ لِمَحْبُوبِي مِثْلًا في الحُسْنِ وَالجَمَالِ وَالبَهَاءِ ، وَجَدْتِ لِي مِثْلًا في العِشْقِ ، يَعْنِي: كَمَا أنَّهُ بِغَيْرِ مِثْلٍ كذلك أنا .

٢٥ _ زِيَادَةُ أذَى المُهْجَةِ

زِيدِي أذَى مُهْجَتي أزِدْكِ هَوًى فَأجْهَلُ الناسِ عَاشِقٌ حَاقِدُ

زِيدِي في أذَاكِ لِي ، وَتَعْذِيبِكِ إيَّايَ ، فأذاكِ جَمِيلٌ وَمُسْتَحْلى ، لأنَّ المَحْبُوبَ يُسْتَحْلَى مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ ، أَزِدْكِ هَوًى وَحُبًّا وَعِشْقًا . كُلَّمَا زِدْتِني أذًى ، زِدْتُكِ هَوًى ، وَازْدَدْتُ لَكِ حُبًّا وَعِشْقًا ، لأنَّ العَاشِقَ لا يَحْقِدُ عَلى حَبِيبِه ، فَإنْ حَقَدَ عَلَيْهِ شَيْئًا كانَ ذَلِكَ مِنْهُ جَهْلًا ، وَأجْهَلُ الناسِ هُوَ العَاشِقُ الحَاقِدُ .

٢٦_ مُنْتَهَى حُسْنِ الحَبِيبِ

لَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ في مُنْتَهَى حُسْنِ الذي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

لَوْ تَفَكَّرَ العَاشِقُ في مَآلِ الذي يَسْبِيهِ بِحُسْنِه ، وَيَأسِرُه بِدَلالِهِ ، وَيَفْتِنُهُ بِجَمَالِ خَلْقِهِ وَبَهَاءِ صُورَتِهِ، مِنَ المَوْتِ الذي يُعْدِمُه ، وَيُفْنِيه وَيُغَيِّرُه ، وَيَجْعَلُهُ أثَرًا إثْرَ عَيْنٍ ، لَخَفَّفَ ذلك مَا اسْتَقَرَّ لَهُ بِقَلْبِه،وَلَحَسُنَ لَهُ نِسْيَانُ حُبِّهِ . لَوْ تَفَكَّرَ العَاشِقُ لَعَلِمَ أنَّ مُنْتَهَى حُسْنِ المَعْشُوقِ إلى الزَّوَالِ وَالفَنَاءِ وَالعَدَمِ ، فَلَمْ يَعْشَقْهُ ، وَلَمْ يَمْلِك المَعْشُوقُ قَلْبَه. لَوْ تَفَكَّرَ العَاشِقُ في عَاقِبَةِ حُسْنِ حَبِيبِهِ الذي يَسْبي قَلْبَه، ويَمْتَلِك مَشَاعِرَه وَأحَاسِيسَه، وَيُسَيْطِر عَلى حَوَاسِّهِ ، فَيَعْلَم أنَّه سَوْفَ يَمُوتُ ، وَيَأكُل الدُّودُ جِسْمَه ، وَيَصِير إلى التُّرَابِ ، وَيُنْسَى كَأنَّهُ لَمْ يَكُنْ ، لَنَفَرَتْ نَفْسُه ، وَلَمْ يَسْبِ قَلْبَه . وَالنَّظَرُ في عَوَاقِبِ الأشياءِ يُزَهِّد في حَقَائِقِهَا ، وَالعِشْقُ يُعْمِي النَّفْسَ عَن رُؤيةِ المَعْشُوقِ عَلى الحَقِيقَةِ .

٢٧ _ مَسْحُ المَدَامِعِ

وَحَتَّى تَكَادِي تَمْسَحِينَ مَدَامِعِي وَيَعْبَقُ في ثَوْبِي مِنْ رِيحِكِ النَّدُّ

يَكَادُ قُرْبُ صُورَتِكِ يَمْسَحُ مَدَامِعِي الجَارِيَةَ عَلى خَدِّي ، وَيُلْزِمُ ثَوْبي رَائِحَتَكِ الطَّيبةَ ، أي : إنَّ قُوَّةَ فِكْرِه تَجْعَلُهَا مَوْجُودَةً في نَاظِرِهِ وَخَاطِرِه ، فَتُشِمُّهُ رَائِحَتَهَا ، وتُلْزِمُهَا ثَوْبَه . مِنْ قُوَّةِ تَمَثُّلِكِ في قَلْبي وإحْسَاسِي وَوِجْدَاني، أَظُنُّ أنَّكِ عِنْدِي تَمْسَحِينَ مَدَامِعِي ، وَتُعَانِقِيني فَأجِدُ فِي ثَوْبي رَائِحَةَ النَّدِّ مِنْ رِيحِ ثَوْبِكِ. والنَّدُّ : نَبَاتٌ يُتَبَخَّرُ بِعُودِهِ لِرَائِحَتِهِ الطَّيبة .

٢٨ _ الوَجْدُ المُتَبَادَلُ بَيْنَ الحَبِيبَيْن

أرَاقَتْ دَمِي مَنْ بِي مِنَ الوَجْدِ مَا بِهَا مِنَ الوَجْدِ بِي وَالشَّوْقُ لِي وَلَهَا حِلْفُ

سَفَكَتْ دَمِي المَرْأةُ التي تُحِبُّني كَمَا أُحِبُّهَا ، وَبِهَا مِنَ الوَجْدِ مَا بِي ، وَأَجِدُ بِهَا مِنَ الحُبِّ مَا تَجِدُ بِي،وَالشَّوْقُ لِي،وَلَهَا مُلازِمٌ وَمُصَاحِبٌ،أي:أنا أُحِبُّهَا كَمَا تُحِبُّني،وأشتاقُ إلَيْهَا كَمَا تَشْتَاقُ إلَيَّ.

يَجِدُ الحَمَامُ وَلَوْ كَوَجْدِي لانْبَرَى شَجَرُ الأرَاكِ مَعَ الحَمَامِ يَنُوحُ

الحَمَامُ يَحْزَنُ عَلى فِرَاقِ إلْفِهِ وَحَبِيبِهِ ، وَلَوْ كَانَ وَجْدُهُ كَوَجْدِي لَسَاعَدَهُ شَجَرُ الأرَاكِ عَلى النَّوْحِ وَالبُكَاءِ رَحْمَةً وَرِقَّةً . لَوْ حَزِنَ الحَمَامُ مِثْلَ حُزْني لَنَاحَ شَجَرُ الأرَاكِ مَعَ الحَمَامِ عِنْدَ نَوْحِه . وَانْبَرَى: انْبَعَثَ وَأَخَذَ . والأراكُ : شَجَرُ السِّوَاك .

٢٩ _ شِدَّةُ الهَوَى

أبْلَى الهَوَى أسَفًا يَوْمَ النَّوَى بَدَني وَفَرَّقَ الهَجْرُ بَيْنَ الجَفْنِ وَالوَسَنِ

أَهْلَكَ الهَوَى بَدَني وَأتْلَفَهُ وَأفْنَاهُ يَوْمَ الفِرَاقِ حُزْنًا وَأَلَمًا ، والأسَفُ : شِدَّةُ الحُزْنِ . لَقَدْ قَادَ الهَوَى بَدَنَهُ إلى الأسَفِ وَالهُزَالِ يَوْمَ الفِرَاقِ . وَمَعْنَى إبلاءِ الهَوَى البَدَنَ : إضْعَافُهُ وَتَحْطِيمُهُ بِمَا يُورِدُ عَلَيْهِ مِنَ المَصَائِبِ والشَّدَائِدِ ، وَخُصَّ يَوْمَ النَّوَى (الفِرَاق) ، لأنَّ لَوْعَةَ الهَوَى تَشْتَدُّ عِنْدَ الفِرَاقِ ، وَالهَوَى عَذْبٌ مَعَ الوِصَالِ ، سُمٌّ مَعَ الفِرَاقِ . وَبَاعَدَ هَجْرُ الحَبِيبِ بَيْنَ جَفْنِي وَالنَّوْمِ ، فَلَمْ أَعُدْ قَادِرًا عَلى النَّوْمِ ، أي : لَمْ أَجِدْ بَعْدَ الحَبِيبِ نَوْمًا .

ضَنًى في الهَوَى كَالسُّمِّ في الشَّهْدِ كَامِنًا لَذِذْتُ بِهِ جَهْلًا وفي اللَّذَّةِ الحَتْفُ

الألَمُ كَامِنٌ في الهَوَى ، كَالسُّمِّ إذا كَمَنَ في العَسَلِ ، فَيَلْتَذُّ العَاشِقُ بالهَوَى كَالعَسَلِ المَمْزُوجِ بالسُّمِّ ، يَجِدُ الإنسانُ حَلاوَتَه ، وفِيه هَلاكُه . اسْتَلْذَذْتُ الهَوَى جَهْلًا بذلك الضَّنَى (المَرَض أو الهُزَال الشَّدِيد) ، وَحَتْفِي في تِلْك اللَّذَّة ، والحَتْفُ : الهَلاك .

وَإذا خَامَرَ الهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

وإذا خَالَطَ الهَوَى قَلْبَ عَاشِقٍ مُشْتَاقٍ، ظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلامَاتُه،فَكُلُّ عَيْنٍ رَأَتْهُ ، اسْتَدَلَّتْ بِهَذِهِ العَلامَاتِ عَلى مَا في قَلْبِهِ مِنَ لَوْعَةِ العِشْقِ وَأَلَمِ الشَّوْقِ . إذا خَالَطَ قَلْبَ مُحِبٍّ هَوى مَنْ يُحِبُّه ، فَمَلَكَهُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْه ، وَغَلَبَه ، فَفِيمَا يَظْهَر مِنْ تَغيُّرِ حَالِه، وَيَبِين مِنْ تَشَتُّتِ بَالِه ، دَلِيلٌ لِكُلِّ عَيْنٍ عَلى مَا يُضْمِرُه ، وَمُخْبِرٌ عَلى مَا يَسْتُرُه .

زَوِّدِينَا مِنْ حُسْنِ وَجْهِكِ مَا دَامَ فَحُسْنُ الوُجُوهُ حَالٌ تَحُولُ

يَقُولُ لِمَحْبُوبَتِه: مَتِّعِينَا بِالنَّظَرِ إلى حُسْنِ وَجْهِكِ مَا دَامَ الحُسْنُ مَعَكِ ، فَإِنَّهُ يَزُولُ ، ولا يَدُوم . زَوِّدِينَا مِنْ جَمَالِ وَجْهِكِ غَيْرَ مُعْرِضَةٍ، وَمَتِّعِينَا بِالنَّظَرِ إلَيْهِ غَيْرَ مُخَيِّبَةٍ ، فَجَمَالُ الوُجُوهِ حَالٌ تَذْهَبُ وَتَفْنَى وَتَحُول ، وَيَتَبَدَّلُ جَمَالُهَا وَيَزُول ، لأنَّ الشَّبَابَ يَتْلُوهُ الكِبَرُ ، واللَّمَعَان يَعْقُبُهُ الانطِفَاءُ .

وَصِلِينَا نَصِلْكِ في هَذِهِ الدُّنيا فَإنَّ المُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

يَقُولُ لِمَحْبُوبَتِه : أوْجِدِي السَّبِيلَ إلى وَصْلِكِ، نَصِلْكِ مُعْجَبِينَ بِكِ ، وَصِلِينَا في هَذه الدُّنيا نُسَر بِذلك وَنَفْرَح بِه ، وَنَعْتَرِف لَكِ ، وَالإقَامَةُ في الدُّنيا قَلِيلَةٌ ، والرِّحْلَةُ عَنْهَا قَرِيبَةٌ سَرِيعَةٌ . صِلِينَا مَا دُمْنَا في الدُّنيا ، فَإنَّهَا دَارٌ فَانِيَةٌ زائلة ، والإقَامَةُ فِيهَا مُؤَقَّتَةٌ ، فَفِي قَرِيبٍ تَزُولُ وَتَخْتَفِي .

٣٠_ غَدْرُ الحَسْنَاءِ وَبُغْضُهَا وَحِقْدُهَا

إذا غَدَرَتْ حَسنَاءُ وَفَّتْ بِعَهْدِهَا فَمِنْ عَهْدِهَا أنْ لا يَدُومَ لَهَا عَهْدُ

المَرْأةُ الجَمِيلَةُ إذا غَدَرَتْ وَخَانَتْ في المَوَدَّةِ ، فَقَدْ وَفَّتْ بِالعَهْدِ ، لأنَّ عَهْدَهَا أنَّهَا لا تَبْقَى عَلى العَهْدِ ، أي: إنَّ وَفَاءَهَا غَدْرٌ. الحَسْنَاءُ تَفِي بِعَهْدِهَا، وَعَهْدُهَا ألا يَكُونَ لَهَا عَهْدٌ، أي: لا يَكُونُ لَهَا لِقَاء ، فَغَدْرُهَا إذًا يَكُونُ وَفَاءً بِعَهْدِهَا . وَالمَرْأةُ عُهِدَتْ عَلى الغَدْرِ ، وَبِهِ جَرَتْ عَادَتُهَا ، فَقَدْ فَعَلَتْ هِيَ إذا غَدَرَتْ بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَتُهَا ، فَإذَا أَوْفَتْ بِعَهْدِهَا غَدَرَتْ وَوَفَّتْ بِعَهْدِهَا ، لأنَّ عَهْدَهَا ألا يَدُومَ لَهَا عَهْدٌ ولا وُد .

وَإنْ عَشِقَتْ كَانَتْ أشَدَّ صَبَابَةً وَإنْ فَرِكَتْ فَاذْهَبْ فَمَا فِرْكُهَا قَصْدُ

إذا عَشِقَتِ المَرْأةُ كَانَ عِشْقُهَا أشَدَّ مِنْ عِشْقِ الرِّجَالِ ، لأنَّهُنَّ أرَقُّ طَبْعًا، وَأقَلُّ صَبْرًا ، وإذا أبْغَضَتِ المَرْأةُ جَاوَزَت الحَدَّ أيضًا في البُغْضِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ اقْتِصَادًا ولا اعْتِدَالًا. إنَّ المَرْأةَ إذا عَشِقَتْ، أوْ أبْغَضَتْ، أفْرَطَتْ في الحَالَيْنِ، فَعِشْقُهَا بِمَنْ يَعْشَقُهَا أشَدُّ، وَبُغْضُهَا إذا أبْغَضَتْ أشَدُّ ، لا اقتصاد لَهَا في ذلك ولا اعتدال . وَمَعْنى " فَاذْهَبْ " : لا تَطْمَعْ في حُبِّهَا إذا فَرِكَتْ ، وَاذْهَبْ لِشَأنِكَ ، وفي هَذا إشارةٌ إلى عدم الاعتماد عليهن في حال مِن الأحوال . وَالصَّبَابَةُ : الشَّوْقُ وَرِقَّةُ الهَوَى ، وَالفِرْكُ : بُغْضُ المَرْأةِ الرَّجُلَ . وَمَعْنَى " فَمَا فِرْكُهَا قَصْدُ "، أي: إنَّهَا لا تَقْصِدُ في الأُمُورِ، أي : لا تَفْعَل فِعْلًا مُتَوَسِّطًا مَأخُوذًا مِنَ الاقْتِصَادِ ، والمَعْنَى : إنَّ فِرْكَهَا مُتَجَاوِزٌ حَدَّ القَصْدِ .

وَإنْ حَقَدَتْ لَمْ يَبْقَ في قَلْبِهَا رِضًى وَإنْ رَضِيَتْ لَمْ يَبْقَ في قَلْبِهَا حِقْدُ

هَذ تأكيدٌ لِنَفْيِ الاقْتِصَادِ وَالاعْتِدَالِ عَن المَرْأةِ ، فَهِيَ مُتَطَرِّفَةٌ في حَالَتَيْهَا : الحِقْدُ وَالرِّضَا ، فَإنْ حَقَدَتْ صَارَ قَلْبُهَا خَالِيًا مِنَ الرِّضَا ، وَإنْ رَضِيَتْ صَارَ قَلْبُهَا خَالِيًا مِنَ الحِقْدِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلى أنَّهَا كَائِنٌ عَاطِفِيٌّ طُفُولِيٌّ ، تَغْرَقُ في المَشَاعِرِ والأحَاسِيسِ، وَتَبْتَعِد عَن التَّفْكِيرِ المَنْطِقِيِّ العَقْلانِيِّ .

كَذَلِكَ أخْلاقُ النِّسَاءِ وَرُبَّمَا يَضِلُّ بِهَا الهَادِي وَيَخْفَى بِهَا الرُّشْدُ

إنَّ أخْلاقَ النِّسَاءِ عَلى مَا وَصَفْتُهُ لَكَ ، وَلَكِنَّ العَاقِلَ رُبَّمَا ضَلَّ عَقْلُهُ بِحُبِّهِنَّ ، وَخَفِيَ عَلَيْهِ رُشْدُه ، فَيَغْلِب هَوَاهُنَّ رَأيَه . أخْلاقُ النِّسَاءِ كَمَا ذَكَرْتُهُ ، والذي يَهْدِي غَيْرَه رُبَّمَا يَضِلُّ بِهِنَّ ، وَيَخْفَى عَلَيْهِ الرُّشْدُ ، حَتَّى يُبْتَلَى بِهِنَّ . والكِنَايَةُ في (بِهَا) تَعُود إلى الأخلاق ، لأنَّ ضَلالَ الهَادِي بِأخْلاقِهِنَّ، إذا اغْتَرَّ بِشِدَّةِ صَبَابَتِهِنَّ ، وَيَخْفَى عَلَيْهِ الرُّشْدُ أيضًا بِأخْلاقِهِنَّ .

وَلَكِنَّ حُبًّا خَامَرَ القَلْبَ في الصِّبَا يَزِيدُ عَلى مَرِّ الزَّمَانِ وَيَشْتَدُّ

هَذا كَالاعْتِذَارِ مِنْ حُبِّ النِّسَاءِ بَعْدَمَا ذَكَرَ مِنْ غَدْرِهِنَّ وَمَسَاوِئِ أخْلاقِهِنَّ ، وَاسْتَدْرَكَ عَلى نَفْسِهِ بِأنَّهُ لا يَقْدِر عَلى مُفَارَقَةِ هَوى نَشَأ عَلَيْهِ صَبِيًّا ، فَهُوَ يَزْدَادُ عَلى مُرورِ الزَّمَانِ شِدَّةً . إنَّ الحُبَّ إذا خَالَطَ القَلْبَ في الصِّبَا ، لا يَزَالُ يَزِيدُ عَلى مُرُورِ الأيَّامِ وَيَشْتَدُّ .

٣١_ الحَضَرِيَّاتُ وَالبَدَوِيَّاتُ

مَا أَوْجُهُ الحَضَرِ المُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَأَوْجُهِ البَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيبِ

الأَوْجُهُ المُسْتَحْسَنَاتُ في الحَضَرِ لَيْسَتْ كَأَوْجُهِ نِسَاءِ البَدْوِ . يُفَضِّلُ نِسَاءَ البَدْوِ عَلى نِسَاءِ الحَضَرِ . وَالرَّعَابِيبُ : جَمْعُ رُعْبُوبَة ، وَهِيَ المَرْأَةُ البَيْضَاءُ المُمْتَلِئَةُ الجِسْم . والهَاءُ في (بِهِ) للحَضَرِ، وَهُوَ خِلاف البَدْوِ .

حُسْنُ الحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وفي البَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ

حُسْنُ الحَضَرِيَّاتِ مَصْنُوعٌ بِالتَّطْرِيَةِ ، وَحُسْنُ البَدَوِيَّاتِ مَطْبُوعٌ ، وَالمَطْبُوعُ خَيْرٌ مِنَ المَصْنُوعِ . إنَّ حُسْنَ الحَضَرِيَّاتِ مُتَكَلِّفٌ مَجْلُوبٌ بالاحْتِيَالِ ، وَحُسْنُ البَدَوِيَّاتِ طَبْعٌ طُبِعْنَ عَلَيْهِ . وَالحَضَارَةُ : الوُجُودُ في الحَضَرِ ، وَالبَدَاوَةُ : الوُجُودُ في البَدْوِ .

أيْنَ المَعِيزُ مِنَ الآرَامِ نَاظِرَةً وَغَيْرَ نَاظِرَةٍ في الحُسْنِ وَالطِّيبِ

أيْنَ يَقَعُ المَعِيزُ مِنَ الظِّبَاءِ في الحُسْنِ وَالطِّيبِ نَاظِرَاتٍ وَغَيْرَ نَاظِرَاتٍ ؟ ، أي : الظِّبَاءُ أَحْسَنُ مِنْهَا عُيونًا وَغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الأَعْضَاءِ. أَقَامَ الحَضَرِيَّاتِ مَقَامَ المَعِيزِ ، لأنَّ المَعِيزَ حَضَرِيَّات ، وَأَقَامَ البَدَوِيَّاتِ مَقَامَ الظِّبَاءِ، لأنَّ الظِّبَاءَ في الفَلَوَاتِ (جَمْع فَلاة، وَهِيَ الأرض الواسعة المُقْفِرَة) . أيْنَ المَعِيزُ مِنَ الظِّبَاءِ في حُسْنِهَا وَطِيبِهَا ، وفي حَالِ كَوْنِهَا نَاظِرَةً ، وفي غَيْرِ حَالِ نَظَرِهَا ؟ . كَمَا أنَّ الظِّبَاءَ أَحْسَنُ مِنَ المَعِيزِ في كُلِّ حَالٍ، كذلك البَدَوِيَّات أحْسَنُ مِنَ الحَضَرِيَّاتِ . وَقِيل: مَعْنَى قَوْلِه: (ناظرة وغير ناظرة) ، أي : إنَّ الظِّبَاءَ أحْسَنُ مِنَ المَعِيزِ ، حَيَّةً وَمَيْتَةً ، فَهِيَ أحْسَنُ مِنْهَا مَنْظَرًا حَيَّةً ، وَلَحْمًا مَيْتَةً .

أفْدِي ظِبَاءَ فَلاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الكَلامِ وَلا صَبْغَ الحَوَاجِيبِ

إنَّهُ يَفْدِي الحَسْنَاوَاتِ البَدَوِيَّاتِ الفَصِيحَاتِ في كَلامِهِنَّ ، الجَمِيلاتِ بِالفِطْرَةِ ، فلا يَحْتَجْنَ إلى مَضْغِ الكَلامِ دَلَعًا وَدَلالًا وَتَغَنُّجًا، ولا يَحْتَجْنَ إلى الأَصْبَاغِ التَّجْمِيلِيَّةِ ، وَمِنْهَا صَبْغ الحَوَاجِب ، كَعَادَةِ الحَضَرِيَّاتِ . إنَّ البَدَوِيَّاتِ مَطْبُوعَاتٌ عَلى حُسْنِ الكَلامِ ، وَحُسْنِ الحَوَاجِبِ ، فَلا يَصْبُغْنَ حَوَاجِبَهُنَّ بالسَّوَادِ ، ولا يَمْضُغْنَ الكَلامَ ، لأنَّ كَلامَهُنَّ فِيهِ غُنَّة ، فَلا يَحْتَجْنَ إلى تَكَلُّفِهَا .

ولا بَرَزْنَ مِنَ الحَمَّامِ مَائِلَةً أوْرَاكُهُنَّ صَقِيلاتِ العَرَاقِيبِ

إنَّ حُسْنَ البَدَوِيَّاتِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ ولا تَطْرِيَةٍ بِدُخُولِ الحَمَّامِ ، ولا تَتَمَايَل أوْرَاكُهُنَّ تَصَنُّعًا ، ولا يَصْقُلْنَ عَرَاقِيبَهُنَّ ، كَمَا تَفْعَلُهُ الحَضَرِيَّاتُ . والعَرَاقِيبُ : جَمْعُ عُرْقُوب ، وَهُوَ العَصَبُ الغَلِيظُ فَوْقَ عَقِبِ الإنسان .

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوِّهَةً تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبِي غَيْرَ مَخْضُوبِ

لَمَّا كُنْتُ أُحِبُّ كُلَّ امْرَأةٍ مَطْبُوعَةٍ ، وَأُبْغِضُ كُلَّ مَصْنُوعَةٍ ، تَرَكْتُ لَوْنَ شَيْبِي ظَاهِرًا مَطْبُوعًا ، لَمْ أُمَوِّهْهُ بالخِضَابِ (مَا يُلَوَّنُ بِهِ الشَّعْرُ وَغَيْرُهُ مِنْ حِنَّاءٍ وَنَحْوِهَا) . لأنِّي أُحِبُّ كُلَّ امْرَأةٍ لا تُمَوِّهُ حُسْنَهَا بِتَكَلُّفٍ وَتَصَنُّعٍ، لَمْ أُغَيِّرْ لَوْنَ شَيْبِي ، أي: إنَّهُنَّ مَا مَوَّهْنَ حُسْنَهُنَّ ، فَلَمْ أُمَوِّهْ أيضًا شَيْبِي . وَالمُمَوِّهَةُ : المُحْتَالَةُ المُزَوِّرَةُ التي تُقَدِّمُ الأشياءَ عَلى غَيْرِ حَقِيقَتِهَا ، أي إنَّهَا تَتَكَلَّفُ الحُسْنَ ، وَتَتَصَنَّعُ الجَمَالَ .

*

الفصل الحادي عَشَر

المَدِيحُ

١ــ المُرَادُ بِالمَدْحِ

وَظَنُّوني مَدَحْتُهُمُ قَدِيمًا وَأنْتَ بِمَا مَدَحْتُهُمُ مُرَادِي

ظَنُّوا أنَّ مَدْحِي لَهُمْ وَثَنَائي عَلَيْهِم ، وَمَا عَلِمُوا أنَّكَ كُنْتَ أنْتَ المَقْصُودَ بذلك المَدْحِ وَالثَّنَاءِ .

٢ ــ مَنْطِقُ القُوَّةِ وَقُوَّةُ المَنْطِقِ

إنْ بَرَقُوا فَالحُتُوفُ حَاضِرَةٌ أوْ نَطَقُوا فَالصَّوَابُ وَالحِكَمُ

إذا هَدَّدُوا أعْدَاءَهُمْ حَضَرَ هَلاكُهُمْ ، وَإنْ نَطَقُوا تَكَلَّمُوا بِمَا هُوَ الصَّوَاب والحِكْمَة . إنْ أَوْعَدُوا أعْدَاءَهُمْ فَهَلاكُهُمْ حَاضِرٌ مَقْرُونٌ بِه، وإنْ نَطَقُوا فَجَمِيعُ كَلامِهِمْ صَوَابٌ وَحِكَم .

٣ــ رُكُوبُ الخَيْل

أوْ رَكِبُوا الخَيْلَ غَيْرَ مُسْرَجَةٍ فَإنَّ أفْخَاذَهُمْ لَهَا حُزُمُ

إذا رَكِبُوا الخَيْلَ غَيْرَ مُسْرَجَةٍ ، شَدُّوا أفْخَاذَهُمْ عَلَيْهَا ، فَتَجْرِي أفْخَاذُهُمْ مَجْرَى الحُزُمِ ، لِثَبَاتِهِمْ في الفُرُوسِيَّةِ وَاعْتِيَادِهِمْ رُكُوب الخَيْل .

٤ــ الإشرَاقُ

تُشْرِقُ أعْرَاضُهُمْ وَأوْجُهُهُمْ كَأنَّهَا في نُفُوسِهِمْ شِيَمُ

أجْسَامُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ مُضِيئَةٌ كَشِيَمِ نُفُوسِهِمْ ، كَأنَّهَا أخلاقُ أنْفُسِهِم في الإضَاءَةِ وَالخُلُوصِ مِنَ الشَّوَائِبِ . يَصِفُهُمْ بِنَقَاءِ الأعْرَاضِ وَالوُجُوهِ . وَالأعْرَاض : الأجْسَامُ ، وَمَا يُذْكَر بِهِ الرَّجُلُ مِنْ مَدْحٍ أوْ ذَمٍّ .

٥ _ الهَيْبَة

إذا بَدَا حَجَبَتْ عَيْنَيْكَ هَيْبَتُهُ وَلَيْسَ يَحْجُبُهُ سِتْرٌ إذا احْتَجَبَا

إنَّهُ شَدِيدُ الهَيْبَةِ، إذا ظَهَرَ للرَّائِينِ حَجَبَتْ هَيْبَتُهُ عُيُونَهُم عَن النَّظَرِ إلَيْهِ . إذا ظَهَرَ للنَّاسِ مِنَ الحِجَابِ، حَجَبَتْ هَيْبَتُهُ عَيْنَيْكَ ، فَلا تَقْدِر أنْ تَنْظُرَ إلَيْهِ لِجَلالَتِه ، فَكَأنَّهُ مُحْتَجِبٌ . وَنُورُ وَجْهِهِ يَغْلِبُ السُّتُورَ، فَيَلُوح مِنْ وَرَائِهَا . أوْ : إنَّ حِجَابَهُ قَرِيبٌ مِنَ الناسِ لِمَا فِيه مِنَ التَّوَاضُعِ ، وكُلُّ مَنْ يُرِيدُهُ يَسْتَطِيع الوُصُولَ إلَيْه وإنْ كَانَ مُحْتَجِبًا . أوْ : إنَّهُ وإنِ احْتَجَبَ فَهُوَ كَغَيْرِ المُحْتَجِبِ ، لِقُوَّةِ انْتِبَاهِه ، وَشِدَّةِ تَيَقُّظِه ، ومُرَاعَاتِه للأُمُورِ ، وَسَيْطَرَتِهِ عَلى الأحْدَاثِ .

٦ _ الأخْبَارُ عَنِ المَكْرُمَاتِ

وَمِنْ كَثْرَةِ الأخبارِ عَنْ مَكْرُمَاتِهِ يَمُرُّ لَهُ صِنْفٌ ويَأتي لَهُ صِنْفُ

مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِ المَمْدُوحِ في الآفَاقِ ، يَمُرُّ صِنْفٌ قَدْ صَدَرُوا عَنْه ، وَيَأتي صِنْفٌ يَقْصِدُونَه ، أي إنَّ الصِّنْفَ مِنَ القَاصِدِينَ الذينَ يَقْصِدُونَه وَيَأتُونَه لِكَثْرَةِ مَا يَسْمَعُون مِنْ تِلْك الأخبار. أوْ : مِنْ كَثْرَةِ مَا يُخْبَرُ عَنْ مَكَارِمِه ، وَيُحَدَّثُ عَنْهَا ،كُلَّمَا مَرَّ مِنْهَا نَوْعٌ أتَى نَوْعٌ آخَر ، فالصِّنْفُ عَلى هَذا صِنْفٌ مِنْ أخبارِ مَكْرُمَاتِه .

٧ _ التَّشْبِيهُ بِالبَدْرِ

كَالبَدْرِ مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ رَأيْتَهُ يُهْدِي إلى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبَا

إنَّكَ تَرَى عَطَاءَهُ كَمَا تَرَى ضَوْءَ البَدْرِ حَيْثُمَا كُنْتَ مِنَ البِلادِ . هُوَ كَالبَدْرِ ، مَتَى الْتَفَتَّ إلَيْهِ رَأيْتَ نُورًا مُضِيئًا مِنْه، أي: إنَّ عَطَاءَهُ يَصِلُ إلى الحَاضِرِ وَالغَائِبِ، وكذلك بَهَاؤُهُ واشتهارُهُ ظَاهِرٌ للجَمِيعِ ، وَلا يَخْفَى عَلى أَحَدٍ .

٨_ التَّشْبِيهُ بِالبَحْرِ

كَالبَحْرِ يَقْذِفُ للقَرِيبِ جَوَاهِرًا جُودًا وَيَبْعَثُ للبَعِيدِ سَحَائِبَا

هُوَ كَالبَحْرِ مِنْ حَيْثُ يَنْتَفِعُ بِهِ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ ، فالقَرِيبُ يَنْتَفِع بِجَوَاهِرِه ، وَالبَعِيدُ يَنْتَفِع بالسَّحَائِبِ التي تَنْشَأ مِنَ البُخَارِ ، فَتَحْمِلُهُ الرِّيحُ إلى البِلادِ البَعِيدَةِ . شَبَّهَهُ بِالبَحْرِ ، لِعُمُومِ عَطَايَاه، وَشُمُولِهَا القَرِيب والبَعِيد .

هُوَ البَحْرُ غُصْ فِيهِ إذا كَانَ سَاكِنًا عَلى الدُّرِّ وَاحْذَرْهُ إذا كَانَ مُزْبِدَا

هُوَ البَحْرُ في جَلالَةِ قَدْرِه ، وَرِفْعَةِ شَأنِه ، وَكَرَمِهِ وَفَضْلِه ، فَإذا أطَعْتَهُ أَصَبْتَ مِنْهُ غَايَةَ الفَضْلِ ، كَمَا أنَّ الذي يَغُوصُ في البَحْرِ عِنْدَ سُكُونِه ، قَدْ يَظْفَرُ مِنْهُ بِأنْفَسِ الدُّرِّ ، وَاحْذَرْهُ عِنْدَ غَضَبِهِ ، كَمَا يُحْذَرُ البَحْرُ عِنْدَ تَهَيُّجِهِ وَرَمْيِهِ بِزَبَدِه . هُوَ البَحْرُ ، فإذا كانَ سَاكِنًا فَغُصْ فِيه، وَاسْتَخْرِجْ مِنْهُ الدُّرَّ ، وإذا كانَ هَائِجًا مُزْبِدًا ، فَاحْذَرْهُ ولا تَقْرَبْهُ ، فَتَغْرَق فِيه . اسْتَمْنِحْ مِنْهُ الرَّغَائِبَ في حَالِ السَّلامِ ، وَاحْذَرْ مِنْ أنْ تَلْقَاهُ مُحَارِبًا ، فَإنَّهُ يُهْلِكُكَ . لَقَدْ ضَرَبَ لَهُ المَثَلَ بِالبَحْرِ ، والبَحْرُ إنَّمَا يَسْلَمُ رَاكِبُهُ إذا كانَ سَاكِنًا ، وإذا مَاجَ وَتَحَرَّكَ كَانَ مُخِيفًا ، والمَعْنَى : ائْتِهِ مُسَالِمًا، ولا تَأتِهِ وَهُوَ غَضْبَان .

٩_ التَّشْبِيهُ بِالشَّمْسِ

كَالشَّمْسِ في كَبِدِ السَّمَاءِ وَضَوْؤُهَا يَغْشَى البِلادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا

إنَّ عَطَايَاهُ وَبَهَاءَهُ وَذِكْرَهُ بَلَغَ القَاصِي والدَّاني ، كَالشَّمْسِ فَإنَّهَا تَكُونُ في وَسَطِ السَّمَاءِ ، وَشُعَاعُهَا يَعُمُّ الأرْضَ شَرْقًا وَغَرْبًا .

١٠ _ التَّفَوُّقُ عَلى الكُرَمَاءِ

أَمُهَجِّنَ الكُرَمَاءِ وَالمُزْرِي بِهِمْ وَتَرُوكَ كُلِّ كَرِيمِ قَوْمٍ عَاتِبَا

تُهَجِّنُ الكُرَمَاءَ ، وَتَنْسُبُهُمْ إلى العَيْبِ ، وَتُشْعِرُهُمْ بالنَّقْصِ ، لِعَجْزِهِمْ عَنْ بُلُوغِ كَرَمِكَ ، وَتَتْرُكُهُمْ عَاتِبِين عَلَيْكَ لِمَا يَظْهَر مِنْ كَرَمِكَ المُزْرِي بِهِم، أوْ عَاتِبين عَلى أنْفُسِهِمْ ، حَيْثُ لَمْ يَفْعَلُوا مَا فَعَلْتَ ، وَلَمْ يَكُونُوا مِثْلَكَ . إنَّهُم عَاجِزُونَ مُقَصِّرُونَ بِمَا يَظْهَر مِنْ كَرَمِكَ ، وَتَقَدُّمِكَ في خِصَالِكَ الحَمِيدَةِ ، وَصِفَاتِكَ الحَسَنَةِ . وَتَتْرُكُ كُلَّ كَرِيمِ قَوْمٍ عَاتِبًا عَلَيْكَ، لأنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ بُلُوغِ مَنْزِلَتِكَ الرَّفِيعَةِ وَمَكَانَتِكَ العَظِيمَةِ .

شَادُوا مَنَاقِبَهُمْ وَشِدْتَ مَنَاقِبًا وُجِدَتْ مَنَاقِبُهُمْ بِهِنَّ مَثَالِبَا

لِفَضْلِ مَنَاقِبِكَ عَلى مَنَاقِبِهِمْ صَارَتْ مَنَاقِبُهُمْ كَالمَثَالِبِ . أي: إنَّ مَنَاقِبَ الناسِ ، إذا قِيسَتْ إلى مَنَاقِبِكَ ، كانتْ تِلْك المَنَاقِبُ كَالمَخَازِي لَهُمْ . وَمَعْنَى شَادُوا : رَفَعُوا ، والمَنَاقِبُ : الأفْعَالُ الكَرِيمَةُ ، وَالمَثَالِبُ : الأفْعَالُ الذَّمِيمَةُ .

١١_ المَحَالُ المَقْصُودُ

مَحَلُّكَ مَقْصُودٌ وَشَانِيكَ مُفْحَمٌ وَمِثْلُكَ مَفْقُودٌ وَنَيْلُكَ خِضْرِمُ

مَحَلُّكَ عَامِرٌ بالقَاصِدِين، وَعَدُوُّكَ سَاكِتٌ، لا يَقْدِرُ عَلى النُّطْقِ، أي: إنَّهُ لا يَنْطِقُ فِيكَ بِالعَيْبِ، لأنَّهُ لا يَجِدُ لَكَ عَيْبًا يَعِيبُكَ بِه ، وَنَظِيرُكَ مَفْقُودٌ ، وَعَطَاؤُكَ كَثِيرٌ لا يُحْصَى . والخِضْرِمُ : الكَثِير .

١٢ _ مَجْمَعُ الصِّفَاتِ الحَسَنَةِ

فِيهِ السَّمَاحَةُ والفَصَاحَةُ وَالتُّقَى وَالبَأسُ أجْمَعُ وَالحِجَى وَالخِيرُ

في ذَلِكَ الكَفَنِ أو القَبْرِ أو المَرْثِيِّ ، هَذِهِ الأوْصَافُ ، وَهَذِهِ الأخْلاقُ التي ذَكَرَهَا . والحِجَى : العَقْلُ ، وَالخِيرُ (بِكَسْرِ الخَاءِ) : الكَرَمُ ، كَأنَّهُ يَقُول : إنَّ هَذِهِ المَعَاني دُفِنَتْ بِدَفْنِه .

١٣_ السَّبْقُ

سَبَقْتَ السَّابِقِينَ فَمَا تُجَارَى وَجَاوَزْتَ العُلُوَّ فَمَا تُعَالَى

سَبَقْتَ بِالفَضْلِ كُلَّ سَابِقٍ ، فَمَا يُجَارِيكَ أَحَدٌ ، لِعِلْمِهِ بِالقُصُورِ عَنْكَ ، وَجَاوَزْتَ في العُلُوِّ وَالقَدْرِ غَايَةً لا يُمْكِن لأحَدٍ أنْ يُبَارِيكَ في العُلُوِّ والارتفاعِ ، وَيَغْلِبُكَ فِيه .

١٤_ فَارِجُ الكُرَبِ

الفَارِجُ الكُرَبَ العِظَامَ بِمِثْلِهَا والتَّارِكُ المَلِكَ العَزِيزَ ذَلِيلا

هُوَ يَكْشِفُ الأُمُورَ العَظِيمَةَ ، وَيَدْفَعُهَا بِمِثْلِهَا مِنَ الأُمُورِ العَظِيمَةِ ، لأَنَّهُ لا يُزِيلُ الكُرْبَةَ عَن الصَّدِيقِ إلا بِإلحاقِ كُرْبَةٍ مِثْلِهَا بِعَدُوِّهِ . يُفَرِّجُ الكُرَبَ عَنْ أوليائِهِ بِمِثْلِ مَا يُنْزِلُهُ بأعدائِهِ ، أي : إنَّهُ يَقْتُلُ الأعْدَاءَ لِيَدْفَعَهُمْ عَنْ أوليائِه ، وَيُفْقِرُهُمْ لِيُغْنِيَ أولياءَهُ فَيُزِيلُ عَنْهُمُ الفَقْرَ ، وكذلك يَتْرُكُ المَلِكَ العَزِيزَ ذَلِيلًا مُجَلَّلًا بِالخِزْيِ وَالعَارِ ، لا يُمْكِنُهُ دَفْع ذلك عَنْ نَفْسِه .

١٥_ البَدِيعُ الفَرْدُ

ذُكِرَ الأنامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ البَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أبْيَاتِهَا

الناسُ بِمَنْزِلَةِ القَصِيدَةِ ، وَالمَمْدُوحُ بِمَنْزِلَةِ البَيْتِ البَدِيعِ الفَرْدِ مِنْ أبْيَاتِ تِلْك القَصِيدَةِ ، أي : إنَّكَ سَيِّدُ الناسِ ، وأفْضَلُ مِنْهُمْ، وَأرْفَعُ قَدْرًا ، وأعْلَى مَنْزِلَةً .

١٦ _ الأعْضَاءُ الحَسَنَةُ

لَهُمْ أَوْجُهٌ غُرٌّ وَأيْدٍ كَرِيمَةٌ وَمَعْرِفَةٌ عِدٌّ وَأَلْسِنَةٌ لُدُّ

لَهُمْ وُجُوهٌ بَيْضَاءُ ، وَالغُرُّ جَمْعُ أَغَرَّ ، وَالعَرَبُ تَمْدَحُ بِبَيَاضِ الوَجْهِ ، وإنَّما يُرِيدُونَ بذلك النَّقَاءَ والطَّهَارَةَ ، كَمَا أنَّهُمْ يَكْنُونَ عَن العَيْبِ وَالفَضِيحَةِ بِسَوَادِ الوَجْهِ . وَلَهُمْ أيْدٍ سَخِيَّةٌ كَرِيمَةٌ بِالعَطَاءِ ، وَنِعَمٌ خَالِصَةٌ مِنَ المَنِّ، وَمَعْرِفَةٌ قَدِيمَةٌ كَثِيرَةٌ لا تَنْقَطِع ، وَأَلْسِنَةٌ فَصِيحَةٌ شَدِيدَةُ الخُصُومَةِ مَاهِرَةٌ بِالجِدَالِ . واللُّدُّ جَمْعُ أَلَدَّ .

١٧ _ بُلُوغُ المُرَادِ

أَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ المُرَادَا وفي كُلِّ شَأوٍ شَأَوْتَ العِبَادَا

قَدْ نِلْتَ مُرَادَكَ مِنْ كُلِّ مَا طَلَبْتَ ، وَسَبَقْتَ الخَلائِقَ في كُلِّ غَايَةٍ أَرَدْتَ ، فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِنَ الفَضَائِلِ إلا حُزْتَهُ ، وَحَصَلْتَ عَلَيْهِ. والشَّأو : الغَايَة ، وَشَأَوْتَ : سَبَقْتَ .

فَمَاذَا تَرَكْتَ لِمَنْ لَمْ يَسُدْ وَمَاذَا تَرَكْتَ لِمَنْ كَانَ سَادَا

لَمْ تَتْرُكْ لِمَنْ طَلَبَ السِّيَادَةَ فِعْلًا يَسُودُ بِه ، وَلَمْ تُبْقِ لِمَنْ سَادَ فِعْلًا يَتَوَصَّلُ بِهِ إلى السِّيَادَةِ ، أي: لَمْ تُبْقِ شَيْئًا مِنْ أسبابِ السِّيَادَةِ إلا وَقَدْ جَمَعْتَهَا، فَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا يَخْتَصُّ بِهِ مَنْ لَمْ يَسُدْ، أوْ سَادَ مِنْ قَبْل .

١٨ _ السَّجَايَا المَادِحَاتُ

وَسَجَايَاكَ مَادِحَاتُكَ لا لَفْظِي وَجُودٌ عَلى كَلامِي يُغِيرُ

مَا فِيكَ مِنْ الصِّفَاتِ الحَسَنَةِ وَالأخلاقِ الحَمِيدَةِ ، يَقُومُ مَقَامَ شِعْرِي ، لأنَّ جُودَكَ يُغِيرُ عَلى كَلامِي، فَلَيْسَ يُمْكِنُنِي أنْ أُحِيطَ بِجُودِكَ ، فَكُلَّمَا قُلْتُ شَيْئًا غَلَبَ عَلَيْهِ جُودُكَ ، فأغارَ عَلَيْه . إنَّمَا يَمْدَحُكَ مَا فِيكَ مِنَ الأخلاقِ الحَمِيدَةِ، وَجُودٌ أكْثَرُ مِنْ شِعْرِي، فَهُوَ لا يَتْرُكُ لِي قَوْلًا إلا اسْتَغْرَقَه.

١٩ _ المَدِيحُ الحَقِيقِيُّ

لَمْ تَزَلْ تَسْمَعُ المَدِيحَ وَلَكِنَّ صَهِيلَ الجِيَادِ غَيْرُ النُّهَاقِ

كُنْتَ أبَدًا تَسْمَعُ المَدِيحَ ، وَلَكِنْ لَمْ يَمْدَحْكَ أَحَدٌ مِثْلِي ، فَشِعْرِي كَصَهِيلِ الفَرَسِ الجَوَادِ ، وَشِعْرُ غَيْرِي كَنَهِيقِ الحِمَارِ . لَمْ تَزَلْ تُمْدَحُ وَتَسْمَعُ الأشعارَ في مَدِيحِكَ ، وَلَكِنَّ شِعْرِي يَفْضُلُ مَا سَمِعْتَهُ ، كَمَا يَفْضُلُ صَهِيلُ الجِيَادِ نَهِيقَ الحَمِيرِ .

٢٠_ مَعْنَى الدَّهْرِ

الناسُ مَا لَمْ يَرَوْكَ أشبَاهُ وَالدَّهْرُ لَفْظٌ وَأنْتَ مَعْنَاهُ

إنَّ الناسَ إذا لَمْ تَكُنْ فِيهِم مُتَسَاوُون، لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ عَلى صَاحِبِه ، فَإذَا حَضَرْتَهُمْ جَعَلْتَهُمْ مُتَفَاضِلِين ، فَتَفَاوَتُوا بِكَ ، فَصَارُوا المَفْضُولين ، وَأنْتَ الأفضل . أوْ : إنَّ الناسَ مَا لَمْ يَرَوْكَ فَهُمْ سَوَاء ، فَإذَا رَأَوْكَ تَفَاضَلُوا في أقْدَارِهِمْ ، فَكُلُّ مَنْ رَآكَ أكْثَرَ فَهُوَ أشْرَفُ ، وَكُلُّ مَنْ قَرُبَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْكَ فَهُوْ أفْضَلُ . أي : إنَّ الناسَ إذا رَأَوْهُ تَعَلَّمُوا أسبابَ الرِّيَاسَةِ مِنْه ، وَاهْتَدَوْا بِأفْعَالِهِ إلى المَكَارِمِ ، فَمَنْ صَحِبَهُ أكْثَرَ كَانَ إلى السِّيَادَةِ أقْرَبَ . وَالأفْعَالُ التي تُنْسَبُ إلى الدَّهْرِ مِنْ إعْزَازٍ وإذلالٍ ، وَإحْسَانٍ وَإسَاءَةٍ ، إنَّما هِيَ عِبَارَةٌ عَنْهُ ، وَإنَّهَا تُنْسَبُ إلَيْهِ بِالقَوْلِ ، وَإلا في الحَقِيقَةِ فأنْتَ فَاعِلُهَا ، وَالمَعْنِيُّ بِهَا ، لأنَّكَ تَفْعَلُ ذلك دُون الدَّهْرِ .

٢١_ الاعْتِمَادُ عَلى الرُّؤيَةِ لا السَّمْعِ

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ في طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

امْدَحْهُ بِمَا تُشَاهِدُه ، وَاتْرُكْ مَا سَمِعْتَ بِه ، فَإنَّ الشَّمْسِ تُغْنِيكَ عَنْ زُحَل . وَالمَعْنَى : فِيمَا قَرُبَ مِنْكَ عَمَّا بَعُدَ عَنْكَ، لا سِيَّمَا إذا كَانَ القَرِيبُ أفْضَلَ مِنَ البَعِيدِ . خُذْ مَا قَرُبَ مِنْكَ ، وَدَعْ ذِكْرَ مَنْ غَابَ عَنْكَ ، ولا سِيَّمَا القَرِيب مِنْكَ الذي تُشَاهِدُهُ أكْثَرُ مَنَاقِب مِنَ البَعِيدِ الذي سَمِعْتَ بِذِكْرِه . وَالشَّمْسُ أقْرَبُ إلَيْنَا مِنْ زُحَل ، وَأَبْيَنُ مِنْهُ نُورًا ، وَأكْثَرُ مِنْهُ فَضْلًا . خُذْ مَا تَرَاهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَصِفْ مَا تُشَاهِدُهُ مِنْ مَجْدِه ، وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ وَلَمْ تَشْهَدْهُ ، وَأُخْبِرْتَ بِهِ عَنْهُ وَلَمْ تُبْصِرْهُ . وَفَضْلُ المَمْدُوحِ (سَيْفِ الدَّوْلَةِ) عَلى المُلُوكِ ، كَفَضْلِ الشَّمْسِ عَلى سَائِرِ النُّجُومِ ، وَفِيه مَا يُغْنِي عَنْهُمْ ، وَهُوَ أعْظَمُ مِنْهُمْ ، وأكْثَرُ فَضْلًا وكَرَمًا ، كَمَا أنَّ الشَّمْسَ تُغْنِي عَنْ زُحَل .

٢٢_ المُسْتَغَاثُ بِه

وَكَيْفَ تَنُوبُكَ الشَّكْوَى بِدَاءٍ وَأنْتَ المُسْتَغَاثُ لِمَا يَنُوبُ

وَكَيْفَ يُصِيبُكَ المَرَضُ بِدَاءٍ،وَبِكَ يُسْتَغَاثُ مِمَّا يَنُوبُ مِنَ الزَّمَان.كَيْفَ تُصِيبُكَ مَا تَشْكُو مِنْهُ ؟، وَمَنْ نَابَتْهُ الشَّكْوَى اسْتَغَاثَ بِكَ فَأجَرْتَهُ . ومَعْنَى تَنُوبُكَ: تُصِيبُكَ ، والشَّكْوَى : المَرَض .

٢٣_ إكْرَامُ الكَرِيمِ

إذا أنْتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإنْ أنْتَ أكْرَمْتَ اللئيمَ تَمَرَّدَا

إذا أكْرَمْتَ الكَرِيمَ وَأحْسَنْتَ إلَيْهِ ، فَقَدْ مَلَكْتَهُ بِإحْسَانِكَ ، وَصَارَ عَبْدَكَ ، وإذا أكْرَمْتَ اللئيمَ كَفَرَ بِنِعْمَتِكَ ، وَجَحَدَهَا ، وَلَمْ يَشْكُرْ إحْسَانَكَ ، وَظَنَّ أنَّكَ أكْرَمْتَهُ خَوْفًا مِنْه ، فَتَمَرَّدَ عِنْدَ الإحْسَانِ لِخُبْثِهِ وَلُؤمِ طَبْعِه . إنَّ الكَرِيمَ يَعْرِفُ قَدْرَ الكِرَامِ ، فَيَصِير كَالمَمْلُوكِ لَكَ إذا أكْرَمْتَه ، واللئيم إذا أكْرَمْتَهُ يَزِيدُ عُتُوًّا وَجُرْأةً عَلَيْكَ. إذا أنْتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ ارْتَهَنْتَ شُكْرَه ، وَاسْتَوْجَبْتَ مِلْكَه ، لأنَّهُ يَعْتَرِف بِفَضْلِكَ ، ولا يَدْفَع وُجُوبَ حَقِّكَ ، وإذا أنْتَ أكْرَمْتَ اللئيمَ زَادَ إكْرَامُكَ لَهُ في تَمَرُّدِه ، وَأطْغَاه مَا تُحَاوِلُه مِنْ تألُّفِه .

٢٤ _ وَضْعُ النَّدَى وَالسَّيْفِ

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

كُلٌّ يُجَازَى وَيُعَامَلُ عَلى مَا يَسْتَحِقُّ ، فَمَن اسْتَحَقَّ العَطَاءَ لَمْ يُسْتَعْمَلْ مَعَهُ السَّيْف ، وَمَن اسْتَحَقَّ القَتْلَ لَمْ يُكْرَمْ بِالعَطَاءِ ، وَمَنْ فَعَلَ ذلك أَضَرَّ بِعُلاه . إنَّ الإحْسَانَ إلى مَنْ يَسْتَحِقُّ السَّيْفَ مِثْلُ الإسَاءَةِ إلى مَنْ يَسْتَحِقُّ الإحْسَانَ ، في أنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَقْدَحُ بِالعُلَا ، وَيَضُرُّ بِالمُلْكِ . وَضْعُ العَفْوِ في مَوْضِعِ العُقُوبَةِ ، وَالنَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ ، مُخِلٌّ بِالسِّيَادَةِ ، وَمُضِرٌّ بِالرِّئَاسَةِ ، كَمَا يُخِلُّ بذلك وَضْعُ العُقُوبَةِ في مَوْضِعِ العَفْوِ ، وَوَضْعُ الكَرَمِ في مَوْضِعِ السَّيْفِ، وإنَّمَا الصَّوَابُ في وَضْعِ الأشياءِ مَوَاضِعَهَا، وَحَمْلِهَا عَلى حَقِيقَةِ مَقَاصِدِهَا ، لِتَحُلَّ الصَّنَائعُ في مَحَلِّهَا ، وَتُوضَع النِّعَمُ عِنْدَ أهْلِهَا، وَيُعْدَل بِهَا عَمَّنْ لا يَقُوم بِشُكْرِهَا . لَقَدْ طَالَبَ أنْ يُعَامَلَ كُلُّ شَخْصٍ بِمَا يُنَاسِبُه ، فالكَرِيمُ يُعَامَلُ بِكَرَمٍ، واللئيمُ يُعَامَلُ بِلُؤمٍ، وفي مُخَالَفَةِ ذلك ضَرَرٌ ، فَمِنَ الحُمْقِ أنْ تَسْتَقْبِلَ عَدُوَّكَ بِالنَّدَى (الكَرَم) ، وَتَسْتَقْبِل ضَيْفَكَ بِالسَّيْفِ . وَهَذا يَعْني أنَّ الأفعالَ لا تُمْدَحُ أوْ تُذَمُّ مُجَرَّدَةً عَنْ ظُرُوفِهَا ومُلابَسَاتِهَا ، فالشِّدَّةُ لَهَا مَوَاطِنُهَا التي لا يَنْفَعُ فِيها الرِّفْقُ واللِّينُ ، وَالعَكْسُ صَحِيحٌ .

٢٥_ قَيْدُ الإحْسَانِ

وَقَيَّدْتُ نَفْسِي في ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الإحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

قَيَّدْتُ نَفْسِي في ذَرَاكَ وَأرْضِكَ ، وَقَصَرْتُهَا عَلى إحْسَانِكَ وَفَضْلِكَ ، وَمَنْ وَجَدَ الإحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَ بِه ، وَألْزَمَ نَفْسَه إيَّاه ، وَلَمْ يَخْتَرْ لَهَا مَقْصُودًا سِوَاه . أحْسَنْتَ إلَيَّ ، فَأقَمْتُ عِنْدَكَ ، وَصَارَ إحْسَانُكَ لِي قَيْدًا يَمْنَعُني مِنَ السَّفَرِ. أقَمْتُ عِنْدَكَ حُبًّا لَكَ ، وَإحْسَانُكَ إلَيَّ سَبَبُ إقَامَتي عِنْدَكَ .

٢٦_ مَوْعِدُ الغِنَى

إذا سَألَ الإنْسَانُ أيَّامَهُ الغِنَى وكُنْتَ عَلى بُعْدٍ جَعَلْنَكَ مَوْعِدَا

إذا سَألَ الإنسانُ أيَّامَهُ الغِنَى وَالسَّعَةَ وَالرَّخَاءَ وَرَغَدَ العَيْشِ ، كُنْتَ أنْتَ المَوْعِدَ الذي تَعِدُ الأيَّامُ بِه ، وَالأمَلَ الذي يُمَثِّلُه لَه ، أي : إنَّ المَمْدُوحَ غَرَضُ القَاصِدِين ، والمُقَدَّمُ في جَمِيعِ المُحْسِنِين .

إذا طَلَبَ أَحَدٌ مِنَ الأيَّامِ أنْ تُعِينَه ، وكُنْتَ بَعِيدًا عَنْه ، قالتْ له الأيَّامُ : إذا بَلَغْتَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ اسْتَغْنَيْتَ . وَقَوْلُه : ((وكُنْتَ عَلى بُعْدٍ)) إشارة إلى أنَّ هَذا الوَعْدَ مِنَ الأيَّامِ إنَّمَا يَكُون لِمَنْ بَعُدَ عَنْكَ، أمَّا القَرِيبُ فَقَدْ أَغْنَيْتَهُ فلا يَحْتَاج إلى السُّؤال .

٢٧_ الحُزْنُ المُخْتَلِفُ

أَجِدُ الحُزْنَ فِيكَ حِفْظًا وَعَقْلا وَأراهُ في الخَلْقِ ذُعْرًا وَجَهْلا

أَجِدُ الحُزْنَ فِيكَ عَلى مَنْ تُصَابُ بِهِ مِنْ أَحِبَّتِكَ ، حِفْظًا لِذِمَّتِهِمْ ، وَرِعَايَةً لِحُرْمَتِهِمْ ، وَإنْصَافًا وَعَقْلًا ، وَوَفَاءً وَكَرَمًا ، وَأرَاهُ في عَامَّةِ الناسِ خَوْفًا وَذُعْرًا وَجَزَعًا وَجَهْلًا. وَجَدْتُ الحُزْنَ فِيكَ عَلى مَنْ تَفْقِدُ ، حِفْظًا مِنْكَ لِحُرْمَتِهِ ، وَرِعَايَةً لِصُحْبَتِهِ ، وفي مَنْ سِوَاكَ ، خَوْفًا مِنْ أحْدَاثِ الدَّهْرِ وَمَصَائِبِ الزَّمَانِ ، وَجَهْلًا بِالسَّبَبِ المُوجِبِ للحُزْنِ ، وإنَّمَا ذَكَرَ العَقْلَ لأنَّهُ يَدْعُو إلى الحِفَاظِ ، وَمُرَاعَاةِ الحُرْمَةِ . وأرادَ بالعَقْلِ العِلْمَ بِأحْوَالِ الدَّهْرِ . أنْتَ إذا حَزِنْتَ عَلى هَالِكٍ ، فَإنَّمَا حَزِنْتَ حِفَاظًا مِنْكَ لِوُدِّهِ وَصُحْبَتِهِ ، وَوَفَاءً لَه . والحِفَاظُ وَالوَفَاءُ مِمَّا يَدْعُو إلَيْهِ العَقْلُ ، وَغَيْرُكَ يَحْزَنُ ذُعْرًا مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ ، وَجُبْنًا مِنْه ، وَجَهْلًا مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِسَبَبِ الحُزْنِ . وأيضًا ، أرادَ بِالعَقْلِ الاعْتِبَارَ بِمَنْ مَضَى ، فَإنَّ العَاقَلَ إنَّمَا يَحْزَنُ عَلى المَيْتِ اعتبارًا به ، وَعِلْمًا أنَّهُ عَنْ قَرِيبٍ سَيَتْبَعُهُ عَلى أَثَرِه ، وَحُزْنُ غَيْرِ العَاقِلِ يَكُونُ ذُعْرًا مِنَ المَوْتِ ، وَهُوَ جَهْلٌ ، لأنَّهُ مَيِّتٌ لا مَحَالَة ، وَإنْ حَزِنَ .

٢٨_ حَيْرَةُ النَّظَرِ واللِّسَانِ

فَإذا رَأيْتُكَ حَارَ دُونَكَ نَاظِرِي وَإذا مَدَحْتُكَ حَارَ فِيكَ لِسَاني

إذا رَأيْتُكَ تَحَيَّرَ نَاظِرِي دُونَكَ ، فَلا يُمْكِنُني أنْ أنْظُرَ إلَيْكَ مِلْءَ عَيْنَيَّ لِهَيْبَتِكَ ، وكَثْرَةِ مَآثِرِكَ ، وإذا أَرَدْتُ مَدْحَكَ حَارَ في وَصْفِكَ لِسَاني ، وَعَجَزَ عَن استيفاءِ مَدْحِكَ عِبَارتي وَبَيَاني .

٢٩_ الارتباطُ مَعَ الزَّمَانِ

وَإذا صَحَّ فَالزَّمَانُ صَحِيحٌ وَإذا اعْتَلَّ فالزَّمَانُ عَلِيلُ

إنَّ المَمْدُوحَ هُوَ الزَّمَانُ ، فَصِحَّتُهُ صِحَّةُ الزَّمَانِ، وَمَرَضُهُ مَرَضُ الزَّمَانِ .

٣٠_ حُضُورُ الوَجْهِ الجَمِيلِ

وَإذا غَابَ وَجْهُهُ عَنْ مَكَانٍ فَبِهِ مِنْ ثَنَاهُ وَجْهٌ جَمِيلُ

إذا غَابَ وَجْهُهُ عَنْ مَكَانٍ ، نَابَ عَنْهُ ذِكْرُهُ الجَمِيلُ فِيهِ مَنَابَ وَجْهِه . بِكُلِّ مَكَانٍ يُسْمَعُ لَهُ خَبَرٌ جَمِيل . إذا غَابَ عَنْ مَكَانٍ وَجْهُه ، وَانْتَقَلَ إلى غَيْرِهِ شَخْصُه ، فَفِي المَكَانِ الذي يُفَارِقُهُ مِنْ طِيبِ خَبَرِه ، وكَرَمِ أثَرِه ، وَجْهٌ جَمِيلٌ لا يُعْدَم ، وَذِكْرٌ كَرِيمٌ لا يُفْقَدُ .

٣١_ المَدْحُ قَبْلَ مَدْحِكَ

وَتَعْذُلُني فِيكَ القَوَافي وَهِمَّتِي كَأنِّي بِمَدْحٍ قَبْلَ مَدْحِكَ مُذْنِبُ

وَتَلُومُني القَوَافي التي أسْتَعْمِلُهَا في غَيْرِكَ ، وَتَلُومُني هِمَّتِي التي أَخَّرْتُ تَصْرِيفَهَا في قَصْدِكَ ، حَتَّى كَأنِّي بِمَدْحِ مَنْ مَدَحْتُهُ قَبْلَكَ مُذْنِبٌ ، لا يُلْتَفَت إلى عُذْرِه ، وَمُقَصِّر لا يُعَرَّج عَلى قَوْلِه . كَأنِّي قَدْ أَتَيْتُ ذَنْبًا بِمَدْحِ غَيْرِكَ ، وَالقَوَافي تَعْذُلُني تَقُول : لِمَ لَمْ تَقْصِرْ شِعْرُكَ عَلَيْهِ ؟ ، وكذلك هِمَّتي تَعْذُلُني في مَدْحِ غَيْرِكَ . لامَتْنِي القَصَائِدُ عَلى مَدْحِ غَيْرِكَ ، فقالتْ : لِمَ وَضَعْتَنِي في غَيْرِ مَوْضِعِي ؟، وكذلك لامَتْنِي هِمَّتِي ، وقالتْ : لِمَ اشْتَغَلْتَ بِخِدْمَةِ غَيْرِه ؟ ، حَتَّى كَأنَّ مَدْحِي لِغَيْرِكَ ذَنْبٌ أَذْنَبْتُه .

٣٢ _ تَجَاوُزُ قَدْرِ المَدْحِ

تَجَاوَزَ قَدْرَ المَدْحِ حَتَّى كَأنَّهُ بِأحْسَنِ مَا يُثْنَى عَلَيْهِ يُعَابُ

هُوَ أَجَلُّ مِنْ كُلِّ مَدْحٍ يُثْنَى عَلَيْهِ بِه، فإذا بَالَغْتَ في حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ اسْتَحَقَّ قَدْرُهُ فَوْقَ ذلك، فَيَصِير ذلك الثَّنَاءُ الحَسَنُ كَأنَّهُ عَيْبٌ لِقُصُورِهِ عَن استحقاقِه . تَجَاوَزَ غَايَةَ المَدْحِ ، وَكُلُّ مَا وَصَفْتُهُ وَأَثْنَيْتُ بِهِ عَلَيْهِ فَهُوَ دُونَه ، وكأنِّي إذا مَدَحْتُهُ أَعِيبُه وَأُنقِصُهُ عَنْ قَدْرِه. تَجَاوَزَ قَدْرَ المَدْحِ بِمَا أَظْهَرَهُ مِنَ الفَضْلِ ، وأعْيَا جُهْدَه بِمَا أبْدَاه مِنَ السَّمَاحَةِ والبَذْلِ ، فَصَارَ المَادِحُ لَهُ بِتَقْصِيرِهِ عَنْ وَصْفِهِ ، وَعَجْزِ مَقْدِرَتِهِ عَمَّا يَلْزَمُه مِنْ مَدْحِه ، كَأنَّهُ يَعِيبُهُ بِأحْسَنِ ذلك غَيْرَ قَاصِدٍ ، وَيَبْخَسُهُ مَا يَجِبُ لَهُ في المَدْحِ غَيْرَ عَامِدٍ .

٣٣ _ مَدْحُكَ حَقٌّ

وَقَدْ تُحْدِثُ الأيَّامُ عِنْدَكَ شِيمَةً وَتَنْعَمِرُ الأوْقَاتُ وَهِيَ يَبَابُ

الأيَّامُ تُغَيِّرُ عَادَتَهَا عِنْدَكَ ، فَتُرْضِي المُعَاتِبَ ، وَتُصَالِحُ ذَوِي الفَضْلِ ، فَلا تَقْصِد مَسَاءَتَهُمْ ، لِوُجُودِهِمْ في ذِمَّتِكَ وَجِوَارِكَ ، والأوقاتُ تَصِيرُ عَامِرَةً لَهُمْ بأنْ يُدْرِكُوا مَطْلُوبَهُم . وَالمَعْنَى : إنْ أظْفَرَتْنِي الأيَّامُ بِمَطْلُوبِي عِنْدَكَ ، فَلا عَجَبَ لَهَا ، فَإنَّهَا تُحْدِثُ شِيمَةً غَيْرَ شِيمَتِهَا ، خَوْفًا مِنْكَ ، وَهَيْبَةً لَكَ . وَاليَبَابُ : الخَرَابُ الذي لا أَحَدَ بِه . قَدْ تُحْدِثُ الأيَّامُ عِنْدَكَ شِيمَةً في الإسْعَافِ مَشْكُورَةً ، وَتَكْتَسِبُهُ حَالًا في الإحْسَانِ مَأمُولَةً ، وَتَنْعَمِر بِسَعَادَتِكَ الأوْقَاتُ بَعْدَ إقْفَارِهَا وَوَحْشَتِهَا ، وَتَأنَسُ بَعْدَ تَبَاعُدِهَا وَتَغَرُّبِهَا . يُرِيدُ أنَّ الزَّمَانَ في جَنْبِ المَمْدُوحِ يَطِيبُ لأهْلِه ، وَيَعُود اللَّهُ فِيه عَلى ذَوِي المَطَالِبِ بِفَضْلِه، وَيُقَرِّب عَلَيْهِم مِنَ الزَّمَانِ مَا بَعُدَ ، وَيُلَيِّن لَهُمْ مِنْ اختلافِه مَا صَعُبَ وَخَشُنَ. إنَّ الأيَّامَ قَدْ تَتْرُكُ عَادَتَهَا عِنْدَكَ مِنْ قَصْدِ ذَوِي الفَضْلِ ، لِحُصُولِهِمْ في ذِمَّتِكَ وَجِوَارِكَ ، وَتَعُود أوْقَاتُهُمْ بِكَ عَامِرَةً ، بِأنْ يُدْرِكُوا مَطْلُوبَهُمْ بَعْدَ أنْ كانتْ خَرَابًا . أوْ : إنَّ الأيَّامَ تُغَيِّرُ كُلَّ إنسانٍ وَتُبَدِّلُ الأحْوَالَ ، فَلا آمَنُ أنْ تَصِلَ إلَيْكَ ، فَتُحْدِث في أخْلاقِكَ تَغْيِيرًا ، كَمَا تَفْعَل في نَفْسِهَا ضِدَّ خَلْقِهَا مِنْ عِمَارَةٍ بَعْد خَرَابٍ. أوْ : إنَّ عَادَةَ الأيَّامِ عِنْدَنَا دَفْعُ حَقِّنَا ، وَعِنْدَكَ إيصالُ حَقِّكَ إلَيْكَ ، وأوْقَاتُهَا عِنْدَنَا خَرَاب، وَعِنْدَكَ عَامِرَة .

وَإنَّ مَدِيحَ الناسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَمَدْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ كِذَابُ

الناسُ يُمْدَحُونَ بِمَا هُوَ حَقٌّ وَبَاطِلٌ ، لأنَّ بَعْضَه يَكُون كَذِبًا ، وَأنْتَ تُمْدَحُ بِمَا هُوَ حَقٌّ . اتَّفَقُوا عَلى أنَّ مَدْحَ غَيْرِكَ فِيه حَقٌّ وَبَاطِل ، وأنَّ مَدْحَكَ حَقٌّ لا كَذِبَ فيه . مَا يُمْدَحُ الناسُ بِهِ يَكُون فِيه الصِّدْقُ وَالكَذِبُ ، وَالحَقُّ وَالبَاطِلُ ، وَمَدْحُكَ وَإنِ اسْتَعْمَلَ فِيهِ المَادِحُ جُهْدَه ، وَاسْتَنْفَذَ وُسْعَه ، صِدْقٌ لا طَرِيقَ للكَذِبِ فِيه ، وحَقٌّ لا سَبِيلَ للبَاطِلِ عَلَيْه .

٣٤ _ عُلُوُّ المَكَانَةِ

بَعْضُ البَرِيَّةِ فَوْقَ بَعْضٍ خَالِيًا فَإذَا حَضَرْتَ فَكُلُّ فَوْقٍ دُونُ

إذا خَلا الناسُ مِنْكَ اخْتَلَفُوا وَتَبَايَنُوا وَتفَاضَلُوا في الشَّرَفِ ، فَإذَا حَضَرْتَ اسْتَوَوْا كُلُّهُمْ في التَّقْصِيرِ عَنْكَ، وَصَارَ أعْلاهُمْ دُونَكَ .

٣٥ _ شَخْصٌ لا يَتَكَرَّرُ

مَضَتِ الدُّهُورُ وَمَا أَتَيْنَ بِمِثْلِهِ وَلَقَدْ أتَى فَعَجَزْنَ عَنْ نُظَرَائِهِ

مَضَت الدُّهُورُ قَبْلَه ، وَلَمْ يَكُنْ فِيها أَحَدٌ مِثْلُهُ في فَضَائِلِه ، وأتى هُوَ الآن ، فَعَجَزَت الدُّهُورُ عَن الإتيانِ بأمثالِه في زَمَانِهِ أيْضًا ، فَلَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فِيما مَضَى مِنَ الزَّمَانِ ولا في زَمَانِه . لَمْ يَأتِ الزَّمَانُ بِمِثْلِهِ فِيما مَضَى ، فَلَمَّا أتى عَجَزَ الزَّمَانُ عَنْ أنْ يَأتيَ لَهُ بِنَظِير . مَضَت الدُّهُورُ السَّالِفَةُ ، والمُدَدُ الخالية، وَمَا أَتَيْنَ بِمِثْلِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ في ظُهُورِ فَضْلِه ، وَإحْرَازِهِ غَايَاتِ الكَمَالِ في جُمْلَةِ أمْرِه، ثُمَّ أتى الزَّمَانُ بِه ، فَعَجَزَت المُدَّةُ المُشْتَمِلَةُ عَلَيْهِ عَنْ أنْ تأتيَ لَهُ بِنَظِيرٍ يُشْبِهُه ، أوْ تعْتَرِضُهُ بِقَرِينٍ يَعْدِلُه .

٣٦ _ مَدْحُ الآبَاءِ

وَبِآبَائِكَ الكِرَامِ التَّأسِّي وَالتَّسَلِّي عَمَّنْ مَضَى وَالتَّعَازِي

إنَّ آبَاءَكَ المَاضِين الكِرَامَ صَارُوا لَنَا أُسْوَةً عَنْ كُلِّ هَالِكَةٍ ، فَنَحْنُ نَتَسَلَّى بِهِمْ عَنْ مَصَائِبِنَا ، إذْ لَوْ بَقِيَ أَحَدٌ لَبَقِيَ آبَاؤُكَ . إنَّمَا نَتَعَزَّى وَنَتَأسَّى عَمَّنْ مَضَى مِنَّا بِذِكْرِ آبائِكَ الكِرَامِ ، فَإذَا ذَكَرْنَا فَقْدَهُمْ هَانَ عَلَيْنَا فَقْدُ مَنْ بَعْدَهُمْ .

٣٧_ الفَرْعُ يَتَفَوَّقُ عَلى الأصْلِ

وَإنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الغَلْبَاءُ عُنْصُرَهَا فَإنَّ في الخَمْرِ مَعْنًى لَيْسَ في العِنَبِ

تَغْلِبُ: قَبِيلَة ، لِهَذا أنَّثَهَا ، فَوَصَفَهَا بِالغَلْبَاءِ ، وَهِيَ تَأنيثُ الأغْلَبِ . وَالغَلْبَاءُ : الغَلِيظَةُ الرَّقَبَة، وَهُوَ نَعْتُ (تَغْلِبُ)، وَجَعَلَهُمْ غِلاظَ الرِّقَابِ ، لأنَّهُم لا يَذِلُّونَ لأحَدٍ ، ولا يَنْقَادُون لَه . وَالعُنْصُرُ : الأصْلُ. وَإنْ تَكُنْ تَغْلِبُ، هَذه القَبِيلَة ، مَعَ جَلالَتِهَا واشتهارِ فَخَامَتِهَا ، أَصْلَ هَذِه المَرْأةِ المُتَوَفَّاةِ،

وكانَ لَهَا مِنْ بَيْنِ نِسَائِهَا الشَّرَفُ الذي لا يُعَادَل ، والفَضْلُ الذي لا يُمَاثَل ، فَهَذَا لَيْسَ عَجِيبًا ولا غَرِيبًا ، فَالعِنَبُ أَصْلُ الخَمْرِ ، وَلَيْسَ فِيه مَا يُوجَد في الخَمْرِ مِنْ تَوْلِيدِ الفَرَحِ ، وإثارةِ الطَّرَبِ . أي إنَّ الفَرْعَ قَدْ يَتَفَوَّقُ عَلى أصْلِه ، والآخِرَ قَدْ يَكُونُ أفْضَلَ مِنْ أوَّلِه . وَهَذَا يُشِيرُ إلى تَفْضِيلِ هَذِهِ المَرْأةِ عَلى آبائِهَا التَّغْلِبِيِّينَ ، كَتَفْضِيلِ الخَمْرِ عَلى العِنَبِ ، وَالعِنَبُ أَصْلُ الخَمْرِ ، وَهِيَ أفْضَلُ مِنَ العِنَبِ.هَذه المَرْأةُ وَإنْ كَانَتْ مِنْ قَبِيلَة تَغْلِب ، فَفِيهَا مِنْ مَعَاني الكَمَالِ وأنواعِ الخِصَالِ مَا لَيْسَ في تَغْلِب، كَمَا أنَّ الخَمْرَ وإنْ كَانَتْ مِنَ العِنَبِ، فَفِيهَا مَعَانٍ لَيْسَتْ فِيه ، مِنَ النَّشْوَةِ وَالفَرَحِ وَالسُّرُورِ .

٣٨ _ مَدْحُ النَّفْسِ

أنا صَخْرَةُ الوَادِي إذا مَا زُوحِمَتْ وإذا نَطَقْتُ فَإنَّني الجَوْزَاءُ

أنا كَصَخْرَةِ الوَادِي في الصَّلابَةِ والثَّبَاتِ ، فإذا زَاحَمَني أَحَدٌ في الفَضْلِ والكَمَالِ ، أوْ في حَالِ القِتَالِ ، لا يَقْدِر عَلى إزالتي عَمَّا أنا عَلَيْهِ مِنَ الحَالِ ، وَمَا أَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الجَلالِ . وَشَبَّهَ نَفْسَهُ بِالجَوْزَاءِ لِعُلُوِّ مَحَلِّهِ عَنْ كُلِّ نَاظِرٍ ، أي : إذا نَطَقْتُ لَمْ يُدْرِكْ غَايَتي أَحَدٌ في البَلاغَةِ وَالفَصَاحَةِ ، كَمَا لا يُدْرِك أَحَدٌ الجَوْزَاءَ ، وَخَصَّهُ بالذِّكْرِ لأنَّهُ يُشْبِهُ صُورةَ الإنسان . أوْ : إنَّهُ أرادَ بِهِ مَا يَقُولُ المُنَجِّمُون مِنْ أنَّ الجَوْزَاءَ بِنْتُ عُطَارِد ، يَدُلَّان عَلى البَلاغَةِ وَالفَصَاحَةِ . أنا كَالجَوْزَاءِ ، يُسْتَفَاد مِنْ عِلْمِي ، وَيُقْتَبَس مِنْ فَوَائِدي ، وَيُسْتَمَد مِنْ فَصَاحَتِي ، كَمَا أنَّ الجَوْزَاءَ يُعْطَى مَنْ وُلِدَ فِيهِ النُّطْقَ وَالبَرَاعَةَ وَالبَلاغَةَ .

إنِّي أنا الذَّهَبُ المَعْرُوفُ مَخْبَرُهُ يَزِيدُ في السَّبْكِ للدِّينَارِ دِينَارا

إذا امْتُحِنْتُ تَضَاعَفَ فَضْلي ، وَارتَفَعَتْ مَنْزِلَتي، وَمَثَلي في ذلك مَثَلُ الذَّهَبِ الإبريزِ الخَالِصِ إذا اخْتُبِرَ بالسَّبْكِ،فَإنَّ مَا كَانَ مِنْهُ يُظَنَّ بَادِئ ذِي بَدْءٍ أنَّهُ يُسَاوي دِينَارًا قَدْ تَزِيدُ قِيمَتُهُ دِينَارًا آخَر . أنا كَالذَّهَبِ الذي يَخْبُرُ الناسُ جَوْهَرَهُ بالسَّبْكِ (الصَّوْغ)، فَتَزِيد قِيمَتُهُ عَلى مَا كَانَتْ قَبْلَ السَّبْكِ. لَقَدْ زِدْتُ أنا عَلى التَّجْرِبَةِ، كَالذَّهَبِ الذي إذا سُبِكَ زَادَ للدِّينارِ دِينارًا، وَلَيْسَ كُلُّ ذَهَبٍ كذلك .

يُقَدِّمُهَا وَقَدْ خُضِبَتْ شَوَاهَا فَتًى تَرْمِي الحُرُوبُ بِهِ الحُرُوبا

يُقَدِّمُ هَذه الخَيْلَ إلى الحُرُوبِ ، وَقَدْ تَلَطَّخَتْ قَوَائِمُهَا بالدِّمَاءِ ، فَتًى قَدْ تَعَوَّدَ الحُرُوبَ ، مَتَى يَخْرُج مِنَ الحَرْبِ يَدْخُل في حَرْبٍ أُخْرَى ، أي : لا تَزَالُ الحَرْبُ تَقْذِفُهُ إلى حَرْبٍ أُخْرَى ، وأرادَ بالفَتَى نَفْسَه. والشَّوَى: الأطْرَافُ والقَوَائِمُ .

وَمِنِّي اسْتَفَادَ الناسُ كُلَّ غَرِيبَةٍ فَجَازُوا بِتَرْكِ الذَّمِّ إنْ لَمْ يَكُنْ حَمْدُ

الناسُ مِنِّي اسْتَفَادُوا كُلَّ شِعْرٍ غَرِيبٍ وَكَلامٍ بَارِعٍ ، فَجَازُوني عَلى فَوَائِدِي بِتَرْكِ الذَّمِّ إنْ لَمْ تَحْمَدُوني عَلَيْهَا . أوْ : إنَّ الناسَ اسْتَفَادُوا مِنِّي الأخلاقَ الغَرِيبَةَ وَالمَعَاني البَدِيعَة ، فَتَكَلَّمُوا مَا لَيْسَ في طِبَاعِهِم ، فَجَازُوا بِتَرْكِ الناسِ ذَمَّهُمْ ، وَإنْ لَمْ يَحْمَدُوهُمْ .

إذا صُلْتُ لَمْ أتْرُكْ مَصَالًا لَفَاتِكٍ وَإنْ قُلْتُ لَمْ أتْرُكْ مَقَالًا لِعَالِمِ

إذا صُلْتُ في الحَرْبِ لَمْ أَتْرُكْ فِيهِ غَايَةً لِشُجَاعٍ ، وإذا قُلْتُ شِعْرًا لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أنْ يَأتيَ بِمِثْلِه. إنَّهُ في غَايَةِ الشَّجَاعَةِ وَالعَمَلِ ، وإذا صَالَ كَفَى غَيْرَهُ الصَّوْلَ ، وَإنْ قَالَ كَفَى غَيْرَهُ القَوْلَ .

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا بأنَّني خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

سَيَعْرِفُ الأشخاصُ المَوْجُودُونَ في هَذا المَجْلِسِ بأنَّني أفْضَلُ شَخْصٍ وَأعْظَمُ إنسانٍ وَسَيِّدُ الرِّجَالِ.

أنا الذي نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبي وَأسْمَعَتْ كَلِمَاتي مَنْ بِهِ صَمَمُ

أنا الذي انْتَشَرَ أدبي، وَاسْتَبَانَ مَوْضِعي فِيه، فَثَبَتَ ذلك في العُقُولِ ، وَتَمَكَّنَ في القُلُوبِ ، وَرَآهُ الأعْمَى وإنْ كانَ لا يُبْصِرُ ، وَأسْمَعَتْ كَلِمَاتي ذَا الصَّمَمِ وإنْ كانَ لا يَسْمَعُ . الأعْمَى عَلى فَسَادِ حَاسَّةِ بَصَرِهِ أبْصَرَ أدَبي ، وكذلك الأصَمُّ سَمِعَ شِعْرِي ، أي إنَّ شِعْرَهُ اشتَهَرَ ، وَسَارَ في البِلادِ حَتَّى تَحَقَّقَ عِنْدَ الأعْمَى والأصَمِّ أدَبُه ، وَكَأنَّ الأعْمَى رَآهُ لِتَحَقُّقِهِ عِنْدَه ، وَكَأنَّ الأصَمَّ سَمِعَه. إذا نَظَرَ الأعْمَى إلى أدَبي يَعْرِفُهُ وَيَرَاه،فَكَيْفَ البَصِيرُ ؟!، وَالأصَمُّ يَسْمَعُ شِعْرِي،فَكَيْفَ السَّمِيعُ ؟!. مَعْنَاهُ أنَّ أدَبي وَشِعْرِي قَد اشْتَهَرَا ، حَتَّى اسْتَوَى في مَعْرِفَتِهِمَا العَالِمُ وَالجَاهِلُ ، فَضَرَبَ الأعْمَى وَالأصَمَّ مَثَلًا للجَاهِلِ الذي لا يَتَفَكَّرُ فَيَعْرِف .

أنَامُ مِلْءَ جُفُوني عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

أنامُ سَاكِنَ النَّفْسِ ، مُتَمَكِّنَ النَّوْمِ ، لا أَعْجَبُ بِشَوَارِدِ مَا أُبْدِعُ ، ولا أحْفِلُ بِنَوَادِرِ مَا أَنْظُمُ ، وَيَسْهَرُ الخَلْقُ في حِفْظِ ذَلِكَ وَتَعَلُّمِه ، وَيَخْتَصِمُونَ في تَعَرُّفِهِ وَتَفَهُّمِه ، فَأَسْتَقِلُّ مِنْهُ مَا يَسْتَكْثِرُونَه ، وَأَغْفُلُ عَمَّا يَغْتَنِمُونَه . والشَّوَارِدُ : الكَلِمَاتُ والأشعارُ . جَرَّاهَا : بِسَبَبِهَا . أقُولُ الشِّعْرَ وَيَنْتَشِرُ ، وَمِنْ شِدَّةِ رِضَايَ عَنْ شِعْرِي أنامُ وَاثِقًا ، والناسُ يَسْهَرُونَ في تَفْسِيرِ مَعَانِيه ، وَيَخْتَصِمُونَ في مَعْرِفَةِ مَرَامِيه، وهَذا لا يَحْدُثُ إلا مَعَ شِعْرٍ فَخْمٍ لا شِعْرٍ تَافِهٍ . أنا أقُولُ القَصَائِدَ الشَّوَارِدَ عَفْوًا ، مِنْ غَيْرِ إتْعَابِ فِكْرٍ ، وَأنَامُ عَنْهَا مِلْءَ جُفُوني ، وَالخَلْقُ كُلُّهُمْ يَسْهَرُونَ مِنْ أَجَلِهَا ، وَيَتَنَازَعُونَ في دَقِيقِ مَعَانِيهَا وَجَوْدَةِ مَبَانِيهَا .

الخَيْلُ واللَّيْلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُني وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالقِرْطَاسُ والقَلَمُ

أنا الجَامِعُ بَيْنَ آدَابِ السَّيْفِ وَالقَلَمِ ، فَالخَيْلُ تَعْرِفُني بِالفُرُوسِيَّةِ لإدْمَاني رُكُوبَهَا ، وَاللَّيْلُ يَعْرِفُني لِدَوَامِ سَيْرِي في ظَلامِه ، وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُني لإدْمَانِ قَطْعِي إيَّاهَا ، وَدَوَامِ سُكْنَايَ فِيهَا ، وَالحَرْبُ تَعْرِفُني لِكَثْرَةِ مُبَاشَرَتِي لَهَا، وَالقِرْطَاسُ (وَرَقُ الكِتَابَةِ) وَالقَلَمُ يَعْرِفَانِي لأنِّي كَاتِبٌ أديبٌ . وَصَفَ نَفْسَهُ بِالشَّجَاعَةِ وَالفَصَاحَةِ ، وَهَذه الأشياءُ لَيْسَتْ تُنْكِرُهُ لِطُولِ صُحْبَتِهِ إيَّاهَا .

مَا أَبْعَدَ العَيْبَ وَالنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفي أنا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ

بُعْدُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ العَيْبِ وَالنُّقْصَانِ كَبُعْدِ الثُّرَيَّا مِنَ الشَّيْبِ وَالهَرَمِ ، فَكَمَا أنَّ الثُّرَيَّا لا تَشِيبُ ولا تَهْرَمُ ، كَذلك شَرَفي لا يَلْحَقُهُ عَيْبٌ ولا نُقْصَان . لَقَدْ فَاخَرَ بِنَفْسِهِ ، وأشارَ إلى سَلامَةِ عِرْضِه . مَا أَبْعَدَ العَيْبَ وَالنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفي وَرِفْعَتِهِ وَعِرْضِي وسَلامَتِه، أنا في ذلك الثُّرَيَّا، وَالعَيْبُ وَالنُّقْصَانُ لا يَعْلَقَان بِي ، كَمَا لا يَعْلَقُ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ بِالثُّرَيَّا .

أنا السَّابِقُ الهادي إلى مَا أَقُولُهُ إذِ القَوْلُ قَبْلَ القَائِلِينَ مَقُولُ

أنا السَّابِقُ إلى مَا أَقُولُهُ مِنَ الشِّعْرِ ، وَالمُبْدِعُ لِمَعَانِيه ، وَغَيْرِي مِنَ الشُّعَرَاءِ يَسْرِقُ مَا يَقُولُهُ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ . أنا السَّابِقُ إلى مَا أُبْدِعُهُ في القَوْلِ ، الهادي إلى غَرِيبِ الشِّعْرِ ، لا أهْتَدِي في ذلك بِمَنْ سَبَقَنِي بِعُمْرِه ، وَفَاتَنِي بِتَقَدُّمِ عَصْرِه ، إذْ كانَ غَيْرِي مِنَ القَائِلِينَ لا يَخْرُجُ عَمَّا قِيلَ قَبْلَه،

ولا يُورِدُ إلا مَا قَدْ قَالَهُ غَيْرُه . أنا الذي أَسْبِقُ وَأَتَقَدَّمُ غَيْرِي إلى مَا أَقُولُه ، أي إنَّهُ يَخْتَرِعُ المَعَاني البِكْرَ التي لَمْ يَسْبِقْهُ إلَيْهَا أَحَدٌ .

وَمَا الدَّهْرُ إلا مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي إذا قُلْتُ شِعْرًا أصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

إنَّ الدَّهْرَ مِنْ جُمْلَةِ رُوَاةِ قَصَائِدِي ، فَإذَا قُلْتُ شِعْرًا سَارَ في الآفَاقِ ، وَبَقِيَ عَلى الأيَّامِ ، فَصَارَ كَأنَّ الدَّهْرَ يَرْوِيه وَيُنْشِدُه . أوْ: إنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَرْوُونَ شِعْرِي وَيُنْشِدُونَه . وَأخْرَجَ الكَلامَ عَلى الدَّهْرِ تَعْظِيمًا لِشِعْرِه ، وَهُوَ يُرِيدَ أهْلَ الدَّهْرِ .

أَجِزْني إذا أُنْشِدْتَ شِعْرًا فَإنَّمَا بِشِعْرِي أتاكَ المَادِحُونَ مُرَدَّدَا

إذا أنْشَدَكَ الشُّعَرَاءُ المَدَائحَ فَأعْطِني الجَائِزَةَ ، فَإنِّي أَحَقُّ مِنْهُمْ بِهَا ، لأنَّهُمْ أَخَذُوا المَعَاني مِنْ شِعْرِي ، وَرَدَّدُوهَا فِيكَ ، فَكَأنَّهُمْ أَتَوْكَ بِشِعْرِي ، وَنَسَبُوهُ إلى أنْفُسِهِم .

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتي فَإنَّني أنا الطائِرُ المَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى

وَدَعْ أصْوَاتَ الناسِ غَيْرَ إنْشَادِي إيَّاكَ ، فَإنِّي فِيهِمْ السَّابِقُ المُتَّبَعُ ، وَشِعْرِي المَحْكِيُّ بِهِ المُمْتَثَلُ ، وَحَالِي فِيهِمْ حَالُ الطائرِ الغَرِدِ ، وَهُمْ كَالصَّدَى الذي يَمْتَثِلُه ، وَيَتْلُوه ، وَيَتْبَعُه ، وَيَقْفُوه. لا تَلْتَفِتْ إلى الشُّعَرَاءِ غَيْرِي، لأنَّهُمْ يَسْرِقُونَ أشْعَارَهُمْ مِنْ أشْعَاري، فأنا الطائرُ المَحْكِيُّ (الأصْل) وَهُمْ كَالصَّدَى(التَّقْلِيد).أوْ:لا تَسْمَعْ إلى قَوْلٍ غَيْرِ قَوْلي،فَإنَّ مَا عَدَاه هَذَيَان، كَالصَّدَى مِنَ التَّغْرِيدِ.

وَلا تُبَالِ بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ قَدْ أُفْسِدَ القَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ

لا تُفَكِّرْ في شِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَعَنَى بِهِ نَفْسَه ، فَإنَّ الشُّعَرَاءَ قَدْ خُتِمُوا بِه ، كَمَا خُتِمَ الكِرَامُ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَهُوَ خَاتَمُ الكِرَامِ ، وأنا خَاتَمُ الشُّعَرَاءِ ، وَقَدْ أُفْسِدَ الشِّعْرُ حَتَّى صَارَ الصَّمَمُ مَحْمُودًا ، لأنَّ الإنسانَ إذا سَمِعَ شِعْرَ أهْلِ هَذا العَصْرِ ، تَمَنَّى أنْ يَكُونَ أَصَمَّ لا يَسْمَعُ لِفَسَادِهِ وَاخْتِلالِه .

وَفُؤادي مِنَ المُلُوكِ وَإنْ كانَ لِسَاني يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ

وَقَلْبي مِنَ المُلُوكِ بِشَرَفِهِ وَنَزَاهَتِه ، وإنْ كانَ لِسَاني مِنَ الشُّعَرَاءِ بِنُطْقِهِ وَصِنَاعَتِه ، فَوَفِّنِي جَزَاءَ هِمَّتِي ، وَتَوَسَّمْنِي بِحَسَبِ حَقِيقَتي ، وَحَمِّلْنِي مِنْ فَضْلِكَ بِمِقْدَارِ مَا أَنْشُرُهُ مِنْ شُكْرِكَ .

وَإنِّي لَنَجْمٌ تَهْتَدِي صُحْبَتِي بِهِ إذا حَالَ مِنْ دُونِ النُّجُومِ سَحَابُ

إذا خَفِيَت النُّجُومُ بِالسَّحَابِ ، فَلَمْ يُهْتَدَ للطريقِ ، اهْتَدَى بِي أصْحَابي ، وكُنْتُ لَهُمْ كَالنَّجْمِ الذي يُهْتَدَى بِهِ ، يُرِيدُ أنَّهُ دَلِيلٌ في الفَلَوَاتِ .

غَنِيٌّ عَنِ الأوْطَانِ لا يَسْتَخِفُّنِي إلى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إيَابُ

أنا مُسْتَغْنٍ عَن الأوطانِ ، فَإذَا سَافَرْتُ عَنْ بَلَدٍ لا يَسْتَخِفُّني الرُّجُوع إلَيْه . لا أعْشَقُ الأوْطانَ ، وَجَمِيعُ البِلادِ عِنْدِي سَوَاءٌ ، فَإذَا سَافَرْتُ عَنْ وَطَنٍ لَمْ أتَشَوَّقْ للعَوْدَةِ إلَيْه ، لأنَّني مُسْتَغْنٍ بِالسَّفَرِ عَنِ الوَطَنِ .

وَأنِّي وَفَيْتُ وَأنِّي أَبَيْتُ وَأنِّي عَتَوْتُ عَلى مَنْ عَتَا

وَلْيَعْلَمُوا أجْمَعُونَ أنِّي وَفَيْتُ شَاكِرًا عَلى النِّعْمَةِ ، وَأَبَيْتُ احْتِمَالَ الذُّلِّ وَالخِزْيِ وَالعَارِ ، وَعَتَوْتُ عَلى مَنْ عَتَا عَلَيَّ وَتَكَبَّرَ ، وَفَارَقْتُ مَن ابْتَعَدَ عَن الإنْصَافِ وَتَنَكَّرَ ، فَجَازَيْتُ المُحْسِنَ بِالاعْتِرَافِ بِفَضْلِه ، وَقَابَلْتُ المُسِيءَ بِمُقَارَضَتِهِ عَلى فِعْلِه .

٣٩_ مَدْحُ المُلُوكِ

خَيْرُ الطُّيُورِ عَلى القُصُورِ وَشَرُّهَا يَأوِي الخَرَابَ وَيَسْكُنُ النَّاوُوسَا

خَيْرُ الشِّعْرِ مَا يُقْصَدُ بِهِ مَدْحُ المُلُوكِ كَالبُزَاةِ التي تَطِيرُ إلى قُصُورِ المُلُوكِ ، وَشَرُّ الشِّعْرِ مَا يُمْدَحُ بِهِ اللِّئَامُ وَالأراذِلُ كَالطُّيُورِ التي تَأوي إلى الخَرَابَاتِ وَالمَقَابِرِ . وَالنَّاوُوسُ : مَقْبَرَةُ النَّصَارَى . أنا خَيْرُ الشُّعَرَاءِ ، فَلا أَمْدَحُ إلا خَيْرَ الناسِ ، وَغَيْرِي مِنَ الشُّعَرَاءِ يَقْصِدُ غَيْرَكَ، فأنا كَالطَّائِرِ الذي سَكَنَ القُصُورَ ، وَأُولئكَ كَالطُّيورِ التي تَأوِي إلى الأمَاكِنِ الخَرِبَةِ المَهْجُورَةِ . وَالمَعْنَى : أنْتَ خَيْرُ الناسِ ، وكَلامِي خَيْرُ الكَلامِ ، فَأنْتَ أَوْلَى بِه . يُعَرِّضُ بالذينَ لَمْ يَمْدَحُهُمْ .

الفصل الثاني عَشَر
البُكَاءُ وَالدَّمْعُ

١_ البُكَاءُ المُؤَثِّرُ

بَكَيْتُ يا رَبْعُ حَتَّى كِدْتُ أُبْكِيكَا وَجُدْتُ بِي وَبِدَمْعِي في مَغَانِيكا

بَكَيْتُ يَا مَنْزِلَ الأَحْبَابِ حَتَّى كِدْتُ أَحْمِلُكَ عَلى البُكَاءِ رِقَّةً لِي ، وَجُدْتُ بِي وَبِدَمْعِي في مَنَازِلِكَ ، أي : هَلَكْتُ وَجُدْتُ بِرُوحِي كَمَا أَفْنَيْتُ دَمْعِي بَعْدَ مُفَارَقَةِ الرَّاحِلِينَ عَنْكَ . بَكَيْتُ في مَغَانِيكَ ، وَكَثُرَ بُكَائي ، حَتَّى لَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يَعْقِلُ لَسَاعَدْتَني عَلى البُكَاءِ ، وَهَلَكْتُ وَفَنِيَ دَمْعِي أسَفًا عَلَيْكَ ، وَتَذَكُّرًا لأَهْلِكَ . وَالمَغَاني : جَمْعُ المَغْنَى ، وَهُوَ المَنْزِلُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : المَنْزِلُ الذي غَنِيَ بِهِ أَهْلُه .

٢_ فَيَضَانُ الدَّمْع

وكُلَّمَا فَاضَ دَمْعِي غَاضَ مُصْطَبَرِي كَأنَّ مَا سَالَ مِنْ جَفْنَيَّ مِنْ جَلَدِي

وكُلَّمَا سَالَ دَمْعِي نَقَصَ اصْطِبَاري ، وَظَهَرَ جَزَعِي ، كَأنَّ الذي سَالَ مِنَ الدَّمْعِ مِنْ عَيْنَيَّ سَائِلٌ مِنْ جَلَدِي ، أي : كَأنَّ دُمُوعي جَارِيَةٌ مِنْ جَلَدِي ، لأنِّي كُلَّمَا بَكَيْتُ نَقَصَ صَبْرِي .

٣_ تأثيرُ الدُّمُوعِ في الخُدُودِ

تُدْمِي خُدُودَهُمُ الدُّمُوعُ وَتَنْقَضِي سَاعَاتُ لَيْلِهِمْ وَهُنَّ دُهُورُ

إنَّهُمْ مِنْ كِثْرَةِ مَا جَرَتْ دُمُوعُهُمْ عَلى خُدُودِهِم ، تَجَرَّحَتْ خُدُودُهُمْ حَتَّى صَارَتْ تُدْمَى ، وَإنَّهُمْ مِنْ كَثْرَةِ سَهَرِهِمْ بالليلِ ، صَارَتْ سَاعَاتُ الليلِ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الدُّهُورِ . أوْ : إنَّهُمْ يَبْكُونَ عَلَيْهِ دَمًا مَكَانَ الدَّمْعِ، وَيَسْهَرُونَ لِفَقْدِهِ، حَتَّى يَطُولَ عَلَيْهِمُ الليلُ ، فَكَأنَّهُ دَهْرٌ لِطُولِه .

٤_ تَقَرُّحُ الأجْفَانِ مِنَ البُكَاءِ

وَقَدْ صَارَتِ الأجْفانُ قَرْحَى مِنَ البُكَا وَصَارَ بَهَارًا في الخُدُودِ الشَّقَائِقُ

وَقَدْ صَارَت الأجْفَانُ قَرِيحَةً مِنَ البُكَاءِ غَدَاةَ التَّوْدِيعِ لِخَوْفِ الفِرَاقِ ، وَصَارَ بَهَارًا أصْفَرَ في الخُدُودِ الشَّقَائِقُ . لَقَدْ تَجَرَّحَت الأجْفَانُ ، وَصَارَتْ حُمْرَةُ الخُدُودِ صُفْرَةً لأجْلِ البَيْنِ .

٥_ جَرَيَانُ الدَّمْعِ

دَمْعٌ جَرَى فَقَضَى في الرَّبْعِ مَا وَجَبَا لأهْلِهِ وَشَفَى أنَّى ولا كَرَبَا

بَكَى في أطلالِ الأحِبَّةِ بِدَمْعٍ قَضَى مَا وَجَبَ لَهُمْ مِنَ الحَقِّ ، وَشَفَاهُ مِنْ وَجْدِهِ بِهِمْ ، كَيْفَ قَضَى ذَلِكَ ولا كَرَبَ ؟ ، أي: ولا قَارَبَ ذلك ولا دَانَاه . إنَّهُ لَمْ يَقْضِ الحَقَّ ولا شَفَى الوَجْدَ . لَقَدْ أكْثَرَ البُكَاءَ ، فَغَلَبَ عَلى ظَنِّهِ أنَّهُ بَلَغَ قَضَاءَ حَقِّهِمْ ، ثُمَّ عَلِمَ أنَّه قَاصِرٌ عَنْ ذَلِك .

٦_ تَشْبِيهُ الدُّمُوعِ بِالمَطَرِ

سَقَيْتُهُ عَبَرَاتٍ ظَنَّهَا مَطَرًا سَوَائِلًا مِنْ جُفُونٍ ظَنَّهَا سُحُبَا

سَقَيْتُ هَذا الرَّبْعَ دُمُوعًا سَائِلاتٍ مِنْ جُفُوني ، حَتَّى ظَنَّ الرَّبْعُ أنَّ هَذه الدُّمُوعَ مَطَرًا ، وَأنَّ جُفُوني سُحُبٌ مَاطِرَةٌ ، وَهِيَ جَمْعُ سَحَابٍ .

٧_ العَلاقَةُ بَيْنَ الحَيَاءِ وَالبُكَاءِ

قَدْ كَانَ يَمْنَعُني الحَيَاءُ مِنَ البُكَا فَاليَوْمَ يَمْنَعُهُ البُكَا أنْ يَمْنَعَا

كانَ الحَيَاءُ غَالِبًا للبُكَاءِ ، واليَوْمَ غَلَبَ البُكَاءُ الحَيَاءَ . كانَ في أوَّلِ أَمْرِي يَمْنَعُني الحَيَاءُ مِنَ البُكَاءِ لِفَقْدِ الأحِبَّاءِ ، فالآنَ تَزَايَدَ الحُبُّ ، وَغَلَبَ البُكَاءُ الحَيَاءَ ، وَمَنَعَهُ مِنْ مَنْعِي عَن البُكَاءِ ، فَصَارَ الحَيَاءُ مَمْنُوعًا بَعْدَ أنْ كانَ مَانِعًا .

٨_ أَثَرُ الدَّمْعِ في العُرُوقِ

حَتَّى كَأنَّ لِكُلِّ عَظْمٍ رَنَّةً في جِلْدِهِ ولِكُلِّ عِرْقٍ مَدْمَعَا

غَلَبَ البُكَاءُ حَتَّى صَارَتْ حَالَتِي بِهَذه الصِّفَةِ ، والرَّنَّةُ فَعْلَةٌ مِنَ الرَّنين ، وَهُوَ صَوْتُ الباكي ، أي : لِكَثْرَةِ رَنيني كَانَ كُلُّ عَظْمٍ مِنِّي يَرِنُّ رَنينًا ، وَلِكَثْرَةِ بُكَائي كَانَ كُلُّ عِرْقٍ لِي يَبْكِي . لَقَدْ بَلَغَ البُكَاءُ إلى حَدٍّ حَتَّى صَارَ يَبْكي جَمِيعُ جَسَدِي ، فَصَارَ كُلُّ عِرْقٍ مِنْهُ يُجْرِي الدَّمْعَ ، وكُلُّ عَظْمٍ أوْ عُضْوٍ يَرِنُّ رَنينًا مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ ، وَشِدَّةِ الاشتياقِ .

٩_ الدَّمْعُ وَالبَصَرُ

قَدْ كُنْتُ أُشْفِقُ مِنْ دَمْعِي عَلى بَصَرِي فَاليَوْمَ كُلُّ عَزِيزٍ بَعْدَكُمْ هَانَا

كُنْتُ قَبْلَ الفِرَاقِ أُمْسِكُ عَن البُكَاءِ، خَوْفًا عَلى بَصَرِي أنْ يُصِيبَهُ دَمْعِي ، فَاليَوْمَ لَمَّا ابْتَعَدْتُمْ طَالَ بُكَائي ، وَهَانَ عَلَيَّ كُلُّ عَزِيزٍ . أي : يَهُونُ عَلَيْهِ فَقْدُ البَصَرِ في البُكَاءِ عَلى فِرَاقِهِم .

١٠_ الدُّمُوعُ وَالجُفُونُ

تَلَجُّ دُمُوعِي بِالجُفُونِ كَأنَّمَا جُفُوني لِعَيْنَيْ كُلِّ بَاكِيَةٍ خَدُّ

لا تَخْلُو جُفُوني مِنَ الدُّمُوعِ ، كَأنَّ جُفُوني خَدٌّ لِعَيْنَيْ كُلِّ بَاكِيَةٍ في الدُّنيا ، وَكَأنَّ كُلَّ دَمْعٍ يَجْرِي مِنْ كُلِّ عَيْنٍ يَجْرِي عَلى جُفُوني.أوْ: إنَّ جُفُوني لا تَنْفَكُّ في حَالٍ مِنَ الدَّمْعِ، كَمَا لا تَنْفَكُّ حَالٌ مِنْ بُكَاءِ بَاكِيَةٍ مَا في العَالَمِ. لَسْتُ أَخْلُو مِنْ بُكَاءٍ وَدُمُوعٍ كَمَا لا تَخْلُو الدُّنيا مِنْ بَاكِيَةٍ تَجْرِي دُمُوعُهَا .

١١ _ مَجَالُ الدَّمْعِ

وَبَيْنَ الرِّضَى وَالسُّخْطِ وَالقُرْبِ وَالنَّوَى مَجَالٌ لِدَمْعِ المُقْلَةِ المُتَرَقْرِقِ

لا أزالُ أبْكِي في حَالِ رِضَى الحَبِيبِ ، خَوْفًا مِنْ سُخْطِه ، وفي حَالِ سُخْطِهِ لِحُصُولِه ، وفي حَالِ القُرْبِ ، خَوْفًا مِنَ الفِرَاقِ ، وفي حَالِ الفِرَاقِ لِحُصُولِه ، فَبَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ هَذه الأحوالِ مَجَالٌ لِدَمْعِي السَّائِلِ . إنَّهُ يَبْكي في كُلِّ حَالٍ ، رِضًى عَن المَحْبُوبِ ، أوْ سُخْطًا عَلَيْه ، قَرُبَ مِنْهُ أوْ بَعُدَ .

١٢ _ الدُّمُوعُ وَالدِّمَاءُ

إنَّ القَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدُمُوعِهِ مِثْلُ القَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

المُضَرَّجُ : المُلَطَّخُ بِالدَّمِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : ضَرَّجْتُ الثَّوْبَ ، إذا صَبَغْتُهُ بِالحُمْرَةِ . جَعَلَ العَاشِقَ كَالمَقْتُولِ تَعْظِيمًا لأمْرِ الهَوَى . إذا دَامَ عَذْلُكَ عَلَيَّ هَلَكْتُ أنا ، فَتَكُون أنْتَ قَدْ قَتَلْتَني ، فَإنَّهُ إذا جَرَتْ دُمُوعي حَتَّى أَمُوتَ ، كُنْتُ مِثْلَ القَتِيلِ الذي يَسِيلُ دَمُه ، فَالمَقْتُولُ بِالعَذْلِ هُوَ كَالمَقْتُولِ بِالسَّيْفِ ، فَهَذا يَسِيلُ دُمُوعُه ، وَذَاكَ يَسِيلُ دَمُه .

١٣_ الدَّمْعُ بَيْنَ الحُزْنِ وَالتَّجَمُّلِ

الحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طَيِّعُ

الحُزْنُ لأجْلِ المُصِيبَةِ يُقْلِقُني ، وَتَكَلُّفُ الصَّبْرِ يَمْنَعُنِي عَن التَّهَالُكِ وَالجَزَعِ ، وَالدَّمْعُ بَيْنَ الحَالَيْنِ عَاصٍ للتَّجَمُّلِ، مُطِيعٌ للقَلَقِ. الحَزْنُ يُقْلِقُ المَحْزُونَ فَيَغْلِبُهُ عَلى الصَّبْرِ، وَيَدْعُوهُ إلى كَشْفِ مَا يُخْفِيهِ مِنَ الأمْرِ ، وَالتَّجَمُّلُ يَكُفُّ ذَلِكَ وَيَرْدَعُه ، ويَصْرِفُ عَنْهُ وَيَمْنَعُه ، وَالدَّمْعُ يُطِيلُ التَّجَمُّلَ ، فَيَتَوَقَّف وَيَذْهَب ، وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ الحُزْنُ ، فَيَفِيض وَيَنْسَكِب . الحَزْنُ يَحْمِلُنِي عَلى الجَزَعِ ، وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُني عَن الجَزَعِ، وَدَمْعي مُتَحَيِّرٌ بَيْنَ التَّجَمُّلِ وَالقَلَقِ ، يَعْصِي التَّجَمُّلَ ، وَيُطِيعُ القَلَقَ.

١٤_ اشتِبَاهُ الدُّمُوع

إذا اشْتَبَهَتْ دُمُوعٌ في خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

إذا اخْتَلَطَت الدُّمُوعُ في الخُدُودِ ، بِحَيْثُ لا يُمْكِنُ تَمْيِيزُ دُمُوعِ البُكَاءِ مِنْ دُمُوعِ التَّصَنُّعِ ، فَعِنْدَ ذلك تَظْهَر الحَقِيقَةُ ، وَيُعْرَف مَنْ بَكَى بِصِدْقٍ مِمَّنْ تَصَنَّعَ البُكَاءَ . وهَذا يُشِيرُ إلى أهمية الصِّدْقِ في المَشَاعِرِ ، وأنَّ التَّصَنُّعَ لا يَدُوم طَوِيلًا . ولا يَخْفَى أنَّ هُناك مِنَ المُنَافِقِين الذينَ يَتَظَاهَرُونَ بِالبُكَاءِ ، وَهُمْ يُظْهِرُونَ مَا لا يُضْمِرُون، ولَكِنَّ دُمُوعَهُمْ تَفْضَحُهُم .

الفصل الثالث عشر
الدِّيَارُ وَالمَنَازِلُ

١ ـ عَدَمُ شَكْوَى الدِّيَارِ

ولا الدِّيَارُ التي كانَ الحَبِيبُ بِهَا تَشْكُو إلَيَّ ولا أشْكُو إلى أحَدِ

إنَّ الدِّيَارَ مَا شَكَتْ ، لأنَّهَا قَد انْدَثَرَتْ فَضَعُفَتْ عَن الشَّكْوَى لانْمِحَاءِ آثارِها ، كَمَا ضَعُفْتُ أنا عَن الشَّكْوَى لِسُقُوطِ القُوَّةِ ، وإنَّ الدِّيَارَ مَا شَكَتْ إلَيَّ لأنَّهَا لَيْسَتْ نَاطِقَةً فَتُعْرِب عَنْ شِكَايَتِهَا. أوْ : إنَّ دَمْعي حَالَ دُون تَأمُّلي آثار البِلَى في الدِّيَارِ ، لِهَذا لَمْ تَشْكُ إلى أَحَدٍ ، وَلَوْ تَأمَّلْتُهَا تَشْكُو إلَيَّ وَحْشَتَهَا ، وَسُوءَ إثَارَةِ الزَّمَانِ عَلَيْهَا، ثُمَّ لا أشكُو إلى أَحَدٍ ، أي : كَانَت الدِّيَارُ خَالِيَةً لَيْسَ فِيهَا مَنْ أشكُو إلَيْه .

٢ ـ دَارُ المُلِمِّ

دَارُ المُلِمِّ لَهَا طَيْفٌ تَهَدَّدَني لَيْلًا فَمَا صَدَقَتْ عَيْنِي ولا كَذَبَا

هَذا الرَّبْعُ، دَارُ المَرْأةِ التي أَلَمَّ بِهَا طَيْفُ خَيَالِهَا، أَلَمَّ بِهَا لَيْلًا ، وَيُهَدِّدُني الطَّيْفُ بِالهِجْرَانِ ، عَلى مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ المَرْأةِ تُعَذِّبُ بالدَّلالِ ، وَتُهَدِّد بالهِجْرَانِ ، فَمَا صَدَقَتْ عَيْنِي في الرُّؤيا ، لأنَّهَا أَرَتْني مَا لا حَقِيقَةَ لَه ، ولا كَذَبَ الطَّيْفُ بِالتَّهَدُّدِ ، فَإنَّهُ قالَ : لَأَهْجُرَنَّكَ ، فَأصْبَحْتُ وَالهِجْرَانُ وَاقِعٌ . دَارُ المَرْأةِ التي زَارَني لَهَا طَيْفٌ أَوْعَدَني لَيْلًا ، فَمَا صَدَقَتْ عَيْنِي فِيمَا رَأَتْ ، لأنَّهَا أَرَتْني مَا لَمْ يَكُنْ حَقِيقَةً ، لأنَّهُ كانَ رُؤْيَا ، ولا كَذَبَ الطَّيْفُ في تَهَدُّدِهِ إيَّاي ، لأنَّهُ وَفَى بِمَا أَوْعَدَ بِهِ مِنَ القَطِيعَةِ ، أي : هَجَرَني خَيَالُهَا . والإلْمَامُ : زِيَارَةُ الطَّيْفِ .

٣ ـ الدِّيَارُ المُشْرِقَاتُ

فَلا زَالَتْ دِيَارُكَ مُشْرِقَاتٍ ولا دَانَيْتَ يا شَمْسُ الغُرُوبَا

لا زَالَتْ دِيَارُكَ مُشْرِقَةً بِنُورِكَ ، فَإِنَّكَ فِيهَا شَمْسٌ ، ولا كَانَ لَكَ غُرُوبًا ، وكَنَّى بِالغُرُوبِ عَنْ مَوْتِهِ لَمَّا جَعَلَهُ شَمْسًا . لا زَالَتْ دِيَارُكَ تُشْبِهُ الشَّمْسَ ، وَجَعَلَهُ شَمْسًا لِعُلُوِّ مَحَلِّهِ وَشُهْرَةِ ذِكْرِه ، وكَنَّى بِالغُرُوبِ عَن المَوْتِ ، وذلك دُعَاء لَهُ بالبَقَاءِ .

٤ _ الدَّارُ العَزِيزَةُ

دِيَارُ اللواتي دَارُهُنَّ عَزِيزَةٌ بِطُولَى القَنَا يُحْفَظْنَ لا بِالتَّمَائِمِ

هَذِهِ الدِّيَارُ دِيَارُ نِسَاءٍ عَزِيزَاتٍ مَنِيعَاتٍ ، لا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلى الوُصُولِ إِلَيْهِنَّ ، وَإِنَّمَا يُحْفَظْنَ بِالرِّماحِ لا بِالتَّعَاوِيذِ (التَّمَائِم) ، وَهَذا يُشِيرُ إلى حُسْنِهِنَّ وَصِغَرِهِنَّ ، لأنَّ التَّمَائِمَ تُعَلَّقُ عَلى مَنْ كَانَ كَذلك .

٥ _ المَنَازِلُ في القُلُوبِ

لَكِ يَا مَنَازِلُ في القُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتِ أنْتِ وَهُنَّ مِنْكِ أوَاهِلُ

يا مَنَازِلَ أَحِبَّائي ، لَكِ مَنَازِلُ في قَلْبِي ، أنْتِ نَازِلَةٌ فِيهَا . أي : إنَّني أَذْكُرُكِ وَأَذْكُرُ أَهْلَكِ ، وَقَدْ أَقْفَرْتِ أنْتَ عَنْ أَهْلِكِ النَّازلينَ بِكِ ، وَالمَنَازِلُ التي في قَلْبِي عَامِرَةٌ بِذِكْرِكِ وَذِكْرِ أَهْلِكِ . يُخَاطِبُ مَنَازِلَ الأحِبَّةِ ، مَنَازِلُكِ في القَلْبِ ذَاتُ أَهْلٍ عَامِرَة ، أي : لَمْ تَنْدَثِرْ مَنَازِلُكِ في القُلُوبِ ، وَإِنْ أَقْفَرْتِ أنْتِ، أي: إنَّ ذِكْرَهَا يَتَجَدَّدَ في قَلْبِه .

٦_ سَاكِنُ الدَّارِ

بِدَارٍ كُلُّ سَاكِنِهَا غَرِيبٌ طَوِيلُ الهَجْرِ مُنْبَتُّ الحِبَالِ

الدَّارُ : القَبْرُ وَالمَقْبَرَةُ. مَنْ سَكَنَهَا فَقَدْ بَعُدَ عَنْ أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِه ، وَطَالَ هَجْرُهُ إيَّاهُمْ ، وَانْقَطَعَ وِصَالُهُ عَنْهُمْ . نَزَلْتُ بِدَارٍ كُلُّ سَاكِنِهَا غَرِيبٌ ، لأنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهَا أَحَدٌ قَط، وَلأنَّهُ مُنْفَرِدٌ لا يَزُورُهُ أَحَدٌ، وَكُلُّ سَاكِنِهَا طَوِيلُ الهَجْرِ ، لا يَرْجِع إلا في يَوْمِ الحَشْرِ ، وَهُوَ مُنْقَطِعُ الأسْبَابِ، إذْ لا وَصْلَ بَيْنَ الأحْيَاءِ والأمْوَاتِ . بِدَارٍ مِنَ القَبْرِ سَاكِنُهَا غَرِيبٌ ، وَقَاطِنُهَا فَقِيرٌ ، مَنْ حَلَّ فِيهَا امْتَنَعَ وِصَالُه ، وَمَنْ صَارَ إلَيْهَا انْبَتَّتْ حِبَالُه (انْقَطَعَتْ) .

٧ _ مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ

وَمَا مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلٍ إذا لَمْ أُبَجَّلْ عِنْدَهُ وَأُكَرَّمِ

لا أُقِيمُ بِمَكَانٍ لِلَذَّةِ العَيْشِ وَطِيبِ الحَيَاةِ إذا لَمْ أَكُنْ مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا . وَمَا مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ وَالسَّعَةِ ، وَمَحَلُّ الرَّفَاهِيَةِ وَالدَّعَةِ ، عِنْدِي بِمَنْزِلٍ يُؤْثَر، وَمَحَلٍّ يُؤْلَف ، إذا لَمْ يَتَّصِلْ لِي بذلك التَّبْجِيل والتَّكْرِيم ، والتَّوْقِير والتَّعْظِيم .

٨ _ البَلَدُ البَعِيدُ

أَلَمْ يَكُ بَيْنَنَا بَلَدٌ بَعِيدٌ فَصَيَّرَ طُولَهُ عَرْضَ النِّجَادِ

كَانَ بَيْني وَبَيْنَ هَذا المَمْدُوحِ بَلَدٌ بَعِيدٌ ، فَصَيَّرَ هّذا المَسِيرَ طُولَه الطويلَ كَعَرْضِ النِّجَادِ (حِمَالَة السَّيْفِ) في القِصَرِ ، وَصَارَ قَرِيبًا . أدْنَاني المَسِيرُ إلَيْهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بَيْني وَبَيْنَهُ إلا مِقْدَار عَرْضِ حِمَالَةِ السَّيْفِ .

وكُنْتُ إذا يَمَّمْتُ أرْضًا بَعِيدَةً سَرَيْتُ فَكُنْتُ السِّرَّ واللَّيْلُ كَاتِمُه

كُنْتُ أَسِيرُ لَيْلًا مُخْفِيًا سَيْرِي ، فَكُنْتُ كَأنِّي سِرٌّ في أعْمَاقِ الليلِ ، وَهُوَ يَكْتُمُني عَنْ كُلِّ أَحَدٍ . كُنْتُ إذا قَصَدْتُ أرْضًا بَعِيدَةً سَرَيْتُ بالليلِ مُشْتَمِلًا بالظلامِ ، كَأنِّي سِرٌّ ، والليلُ يَكْتُمُ ذلك السِّرَّ . إنَّهُ لِنَفَاذِ عَزْمِه ، وَشِدَّةِ جَلَدِه ، إذا قَصَدَ أرْضًا بَعِيدَةً اسْتَتَرَ بالليلِ ، وَوَاصَلَ السُّرَى فِيه ، وكانَ مَوْضِعُهُ مِن اشتمالِ الليلِ عَلَيْه، وَالخَفَاء فِيه، مَوْضِعَ السِّرِّ مِنْ حَامِلِه ، وَالضَّمِيرِ المَصُون مِنْ كَاتِمِه.

وَمَا بَلَدُ الإنْسَانِ غَيْرُ المُوَافِقِ ولا أهْلُهُ الأدْنَوْنَ غَيْرُ الأصَادِقِ

لَيْسَ بَلَدُ الإنسانِ إلا مَا يُوَافِقُه ، فَلا تَلْتَفِتْ إلى وَطَنِكَ إذا لَمْ يُوَافِقْكَ ، وَحَسُنَتْ في غَيْرِهِ حَالُكَ ، وَلَيْسَ أهْلُ الإنسانِ وَأقَارِبُهُ الأدْنَوْنَ إلا كُلَّ مَنْ يُصَادِقُه في المَوَدَّةِ ، فَكُلُّ إنْسَانٍ يُصَادِقُكَ

فَهُوَ قَرِيبُكَ . وَهَذا حَثٌّ عَلى السَّفَرِ وَالتَّغَرُّبِ . لَيْسَ بَلَدُ الإنْسَانِ إلا مَا يُوَافِقُه ، وَلَيْسَ أقَارِبُهُ إلا أصْدِقَاءَه ، أي : إنَّ كُلَّ مَكَانٍ وَافَقَه ، وَطَابَ بِهِ عَيْشُه ، فَهُوَ بَلَدُه ، وكُلُّ قَوْمٍ صَادَقُوهُ ، وَأَخْلَصُوا لَهُ المَحَبَّةَ ، فَهُمْ رَهْطُهُ الأدْنَوْن .

٩_ الأطلال

بَلِيتُ بِلَى الأطلالِ إنْ لَمْ أقِفْ بِهَا وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ في التُّرْبِ خَاتَمُه

يَدْعُو عَلى نَفْسِهِ بِالهَلاكِ ، وَأنْ يَبْلَى كَمَا تَبْلَى الأطْلالُ ، إنْ لَمْ يُطِلْ وُقُوفَهُ عَلى أطْلالِ دَارِ المَحْبُوبَةِ طُولَ وُقُوفِ البَخِيلِ الذي ضَاعَ خَاتَمُهُ في التُّرَابِ . والمَعْنَى : أنا أقِفُ بِهَا وُقُوفًا زَائِدًا عَلى عَادَةِ مَنْ وَقَفَ قَبْلي على أطلالِ دَارِ المَحْبُوبَةِ ، كَمَا أنَّ وُقُوفَ الشَّحِيحِ إذا ضَاعَ خَاتَمُهُ يَكُونُ زَائِدًا عَلى وُقُوفِ غَيْرِه ، وَطَلَبُهُ لَهُ أشد . وَرُبَّمَا خَصَّ الخَاتَمَ لأنَّه كَانَ فِضَّة كَثِيرَة القِيمَة ، جَلِيل الخَطَر ، وَهَذه صِفَتُه ، فَالوُقُوفُ عَلى طَلَبِهِ يَدُوم ، وَالبَحْثُ عَنْهُ يَطُولُ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ ، وَهُوَ مِنَ الشَّحِيحِ أكْثَر ، وَمِنْهُ أطْوَل .

*

الفصل الرابع عَشَر

المال

١ _ هَوَانُ المَالِ

لِهُونِ المَالِ أَفْرَشَهُ أديمًا وَللتَّفْرِيقِ يَكْرَهُ أنْ يَضِيعَا

لِهَوَانِ المَالِ جَعَلَهُ المَمْدُوحُ كَالفِرَاشِ لَه . وَمِنْ شَأنِهِم أنْ يُفْرِغُوا المَالَ عَلى الأدِيمِ (بِسَاط مِنْ جِلْدٍ) ، والكَلامُ تَمَّ عِنْدَ قَوْلِه : " وَللتَّفْرِيقِ " ، وَأَفْرَشَهُ الأدِيمَ كَرَاهَةً لِضَيَاعِه . كَانَ المَالُ المَجْبِيُّ مِنَ الوُجُوهِ المُخْتَلِفَةِ حُمِلَ إلى المَمْدُوحِ ، وَبُسِطَ تَحْتَ المَالِ الأدِيمُ ، لَيْسَ ذلك لِكَرَامَةِ المَالِ عَلى المَمْدُوحِ ، وَلَكِنْ لِيُهِينَه في العَطَاءِ والتَّفْرِيقِ ، وَلَيْسَ يَكْرَهُ ضَيَاعَ المَالِ لِيَدَّخِرَه ، وَإنَّمَا يَكْرَهُ ذلك لِيُفَرِّقَه عَلى الشُّعَرَاءِ والسائلين . لِهُونِ المَالِ عَلَيْهِ فَرَشَ تَحْتَهُ بِسَاطًا مِنْ جِلْدٍ ، وَصَبَّ المَالَ فَوْقَه ، لا لِكَرَامَتِه عَلَيْه ، وَلَوْ أرَادَ إعْزَازَهُ لَجَعَلَهُ في الكِيسِ ، وإنَّمَا يَكْرَهُ أنْ يَضِيعَ المَال ، لأنَّهُ يُرِيدُ تَفْرِيقَهُ وَصَرْفَهُ في مَصَارِفِه .

٢_ جَمْعُ المَالِ

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ في جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالذي فَعَلَ الفَقْرُ

وَمَنْ يُفْنِ عُمْرَه في جَمْعِ المَالِ، خَوْفًا مِنَ الفَقْرِ، فَمَا يَفْعَلُه هُوَ الفَقْرُ، لأنَّهُ أَبَدًا في غَمِّ الفَقْرِ ، وَيَشْقَى بِمَا يَجْمَعُ ، ولا يَنْتَفِع بِه . مَنْ جَمَعَ المَالَ خَوْفَ الفَقْرِ ، كَانَ ذَلِكَ هُوَ الفَقْر ، لأنَّهُ إذا جَمَعَ مَنَعَ ، وَالمَنْعُ فَقْرٌ . والناسُ مِنْ خَوْفِ الفَقْرِ في فَقْرٍ . وَهَذا ذَمٌّ لِمَنْ يُنْفِقُ السَّاعَاتِ مَخَافَةَ الفَقْرِ ، وَإخْبارٌ أنَّ فِعْلَهُ ذَلِكَ هُوَ الفَقْرُ الأعْظَمُ .

٣_ عَدَمُ الإقَامَةِ عَلى المَالِ

وَلا أُقِيمُ عَلى مَالٍ أَذِلُّ بِهِ وَلا أَلَذُّ بِمَا عِرْضِي بِهِ دَرِنُ

لا أخْتَارُ المَالَ مَعَ الذُّلِّ ، ولا أَسْتَلِذُّ بِمَا يُورِثُنِي العَيْبَ ، وَيُؤَدِّي إلى دَنَاءَةِ الطَّبْعِ وَلُؤمِ العِرْضِ. لا آخُذُ المَالَ بِالذُّلِّ ، وكُلُّ مَالٍ يَحْصُلُ لِي بِذُلٍّ تَرَكْتُهُ ، ولا أَسْتَطِيبُ شَيْئًا يُلَطِّخُ عِرْضِي بِأخْذِه ،

والدَّرِنُ : الوَسِخُ . لا أُقِيمُ عَلى مَالٍ أَذِلُّ بِكَسْبِه ، ولا أغْتَبِطُ بِوَفْرَةٍ لا تَقْتَرِنُ بِالكَرَامَةِ ، وَلا أَلَذُّ بِمَا يُدَنِّسُ عِرْضِي وَيُلَوِّثُه، ولا أُسَرُّ بِمَا يَحُطُّ مِنْ قَدْرِي وَيَضَعُه . أشَارَ إلى أنَّ مُفَارَقَتَهُ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ إنَّمَا كَانَتْ لِتَقْصِيرِه بِه . وَزَوَالُهُ عَنْهُ إنَّما أوْجَبَتْهُ قِلَّةُ إكْرَامِهِ لَه .

٤ _ المَالُ هَيِّنٌ مُقَابِل الوُدِّ

إذا نِلْتُ مِنْكَ الوُدَّ فَالمَالُ هَيِّنٌ وَكُلُّ الذي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

إذا حَصَلَ لِي وُدُّكَ ، فَلا أُبَالي بَعْدَه بالمَالِ ، لأنَّ المَالَ لا قَدْرَ لَه ، فَهُوَ تُرَابٌ كَأصْلِهِ الذي تَوَلَّدَ مِنْه . يَقُولُ للمَمْدُوحِ إنَّهُ يَسْعَى لِنَيْلِ وُدِّه ، وَلَيْسَ طَامِعًا بِمَالِه ، وَإنَّ المَالَ لَيْسَ غَرَضَهُ مِنَ المَدِيحِ ، فَالمَالُ شَيْءٌ لا قِيمَةَ لَه ، وَهَيِّنٌ هُنَا بِمَعْنى تَافِه لا قِيمة لَه . إذا كَانَ لِي مِنْكَ المَحَبَّة ، فَالمَالُ هَيِّنٌ لَيْسَ بِشَيْءٍ ، المَحَبَّةُ هِيَ الأصْلُ ، وكُلُّ مَا عَلى وَجْهِ الأرْضِ فَأصْلُهُ مِنْهَا ، أي : مِنَ التُّرَابِ، وَيَصِير إلى التُّرَابِ .

٥ _ عَدَمُ وُجُودِ المَالِ

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَالُ فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لَمْ تُسْعِدِ الحَالُ

يُخَاطِبُ نَفْسَهُ قَائِلًا : لَيْسَ عِنْدَكَ مِنَ الخَيْلِ وَالمَالِ مَا تُهْدِيهِ إلى المَمْدُوحِ جَزَاءً لَهُ عَلى إحْسَانِهِ إلَيْكَ ، فَلْيُسْعِدْكَ النُّطْقُ ، أي : امْدَحْهُ وَجَازِهِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، إنْ لَمْ تُعِنْكَ الحَالُ عَلى مُجَازَاتِهِ بِالمَالِ . لَيْسَ عِنْدَكَ خَيْلٌ ولا غَيْرُهَا مِنَ الأمْوَالِ تُهْدِيهَا إلى المَمْدُوحِ ، مُكَافَأَةً عَلى إحْسَانِه ، فأنتَ قَادِرٌ عَلى مَدْحِه ، فَسَاعِدْهُ بِالقَوْلِ الجَمِيلِ ، إنْ لَمْ تُسَاعِدْكَ الحَالُ عَلى الأجْرِ الجَزِيلِ . والمَعْنَى : مَنْ فَقَدَ المَالَ ، وَعَجَزَ عَنْ مُسَاعَدَةِ الآخَرِين ، فَلْيُهْدِهِم كَلِمَةً حَسَنَةً ، وَمَنْطِقًا عَذْبًا ، في الحَدِّ الأدْنَى .

*

الفصل الخامس عَشَر

السِّيَاسَة

١ــ الناسُ بِالمُلُوكِ

وإنَّما الناسُ بِالمُلُوكِ وَمَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ

الناسُ بِالمُلُوكِ يَرتَفِعُون ، وَبِخِدْمَتِهِم يَنَالُون الدَّرَجَةَ الرَّفيعةَ ، وَالعَرَبُ إذا مَلَكَتْهُم العَجَمُ لا يُفْلِحُون لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَايُنِ وَالتَّنَافُرِ وَاختلافِ الطبائعِ واللغةِ . إنَّ مُلُوكَ القَوْمِ يَنْبَغي أنْ يَكُونوا مِثْلَهُم ، وَمِنْ خِيَارِهِم ، وَعَلى ذَلِكَ مَضَى أكْثَرُ المُلُوكِ . وإنَّمَا كَثُرَ في الإسلامِ أنْ تَكُونَ المُلُوكَ مِنْ غَيْرِ العَرَبِ ، فَأنكَرَ ذلك .

لا أدَبٌ عِنْدَهُمْ ولا حَسَبٌ ولا عُهُودٌ لَهُمْ ولا ذِمَمُ

الحَسَبُ : مَا يَعُدُّهُ الإنسانُ مِنْ مَفَاخِرِ آبائِه ، وَقِيل: الحَسَبُ : الأفْعَالُ الحَسَنَةُ لَهُ ولآبَائِهِ ، مَأخُوذ مِنَ الحِسَابِ ، إذا حَسَبُوا مَنَاقِبَهُم . وَالذِّمَمُ : جَمْعُ ذِمَّة ، وَهِيَ الأمَانُ وَالعَهْدُ وَالحُرْمَةُ ، أي : إنَّ العَجَمَ لَيْسَ لَهُمْ حُرْمَة .

٢ــ مُلُوكٌ أرانِب

أرَانِبُ غَيْرَ أنَّهُمُ مُلُوكٌ مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمُ نِيَامُ

هَؤلاء أرانب في الحَقِيقَةِ ، غَيْرَ أنَّهُم مُلُوك ، فَجَعَلَهُمْ أرانب . واستعارَ لَهُم اسْمَ المُلُوكِ ، وَهُوَ عَكْس مَا يُقَال: هُمْ مُلُوكٌ في صُورةِ الأرانِبِ . وَقَدْ فَتَحُوا عُيُونَهُم ، وَهُمْ مَعَ ذلك كَأنَّهُمْ نِيَامٌ لِجَهْلِهِم . إنَّ المَعْهُودَ أنْ يُقَالَ : هُمْ مُلُوكٌ إلا أنَّهُمْ في طَبْعِ الأرانِبِ، لَكِنَّهُ عَكَسَ الكَلامَ مُبَالَغَةً ، فَجَعَلَ الأرانِبَ حَقِيقَةً لَهُمْ ، وَالمُلْكُ مُسْتَعَارٌ فِيهِمْ . هُمْ وَإن انْفَتَحَتْ عُيُونُهُمْ نِيَامٌ ، مِنْ حَيْث الغَفْلَة، كالأرانبِ تَنَامُ مُنْفَتِحَةَ العَيْنَيْن . لَقَدْ شَبَّهَهُمْ بالأرانِبِ ، لأنَّهَا إذا نَامَتْ لا تُطْبِقُ أجْفَانَهَا ، فَشَبَّهَهُمْ بِها لِهَذه العِلَّةِ، وَمَا لَهَا مِنَ الضَّعْفِ وَالخِسَّةِ وَدَنَاءَةِ الأصْلِ وَالقَدْرِ . وقَوْلُه : (غَيْرَ أنَّهُمُ مُلُوكٌ) أي : رَفَعَ زَمَنُهُمْ قَدْرَهُمْ ، وَدَانَتْ لَهُمُ الدُّنيا، والمُرَادُ بِهِ ذَمُّ الزَّمَانِ وأهْلِه .

بِأجْسَامٍ يَحَرُّ القَتْلُ فِيهَا وَمَا أقْرَانُهَا إلا الطَّعَامُ

مَعَ أجْسَامٍ يَشْتَدُّ القَتْلُ فِيهَا ، أي : يَقْتُلُهُمُ الطَّعَامُ فَيَمُوتُون بِالتُّخَمَةِ مِنْ كَثْرَةِ الأكْلِ . وَيَحَرُّ ، مِنَ الحَرَارَةِ، أي: يُسْرِعُ وَيَشْتَدُّ ، لِجُبْنِهِمْ وَخِسَّتِهِمْ . إنَّ أهْلَ هَذا الدَّهْرِ لِشَرَهِهِمْ بالطَّعَامِ لا يَمُوتُ أكثرُهُمْ إلا عَن التُّخَمَةِ،فَكَأنَّ الذينَ يُقَاتِلُونَهُم بالفَرَاغِ مِنَ الطَّعَامِ،لأنَّهُمْ لا يَمُوتُ أكثرُهُم إلا بِأكْلِه، فالطَّعَامُ أقْرَانُهُمْ دُون الرِّجَالِ.والأقْرَانُ جَمْعُ قِرْن ، وَهُوَ الكُفْءُ والنَّظِيرُ في الشَّجَاعَةِ والحَرْبِ .

٣ _ يَجِبُ أنْ يَكُونَ بَعْضُ الحُكَّامِ مَحْكُومًا

وَلَوْ لَمْ يَرْعَ إلا مُسْتَحِقٌّ لِرُتْبَتِهِ أَسَامَهُمُ المُسَامُ

لَوْ لَمْ يَقُمْ بِرِعَايَةِ الناسِ إلا مَنْ هُوَ مُسْتَحِقٌّ لِذلك ، لَوَجَبَ أنْ يَكُونَ بَعْضُ الرُّعَاةِ مَرْعِيًّا ، أي : تَكُون الرَّعِيَّةُ هِيَ الرَّاعِي ، والأمِيرُ هُوَ المَرْعِيَّ ، لأنَّ في الرَّعِيَّةِ مَنْ هُوَ أشرفُ مِنْ هَؤلاء الرُّعَاةِ . وَالمَعْنَى : إنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَلِي الجَمَاعَةَ الكَثِيرَةَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أحَقُّ مِنْهُ بالولايَةِ . والرَّعْيُ هُنَا : السِّيَاسَة . وَيُقَال : سَامَت المَاشِيَةُ ، إذا رَعَتْ ، وَهِيَ سائحة ، وأَسَامَهَا صَاحِبُهَا ، والمُسَامُ هُنَا : الرَّعِيَّةُ . لَوْ كَانَت الإمَارَةُ بالاستحقاقِ لَوَجَبَ أنْ يَكُونَ أُولئكَ المُلُوكُ رَعِيَّةً ، وَرَعِيَّتُهُمْ مُلُوكًا يَسُوسُونَهُمْ، لأنَّهُمْ أَحَقُّ مِنْهُمْ بِالمُلْكِ .

٤ _ اسْتِقَامَةُ المَلِكِ

رَأيْتُكَ في الذينَ أرى مُلُوكًا كَأنَّكَ مُسْتَقِيمٌ في مُحَالِ

أنتَ بَيْنَ المُلُوكِ كَالمُسْتَقِيمِ في المُحَالِ ، أي : تَفْضُلُهُمْ فَضْلَ المُسْتَقِيمِ عَلى المُعْوَجِّ . أراكَ بَيْنَ المُلُوكِ كَالمَعْنَى المُسْتَقِيمِ ، والكَلامِ المُسْتَقِيمِ ، وَالأمْرِ المُسْتَقِيمِ ، الظاهرِ إلى جَنْبِ المُسْتَحِيلِ الفَاسِدِ ، أي : إنَّكَ المَلِكُ عَلى الحَقِيقَةِ ، وَغَيْرُكَ مِنَ المُلُوكِ اسْمٌ بِلا جِسْمٍ . وَهَذا يُبَيِّنُ أنَّ فَضْلَهُ عَلى المُلُوكِ كَفَضْلِ الاستقامةِ عَلى المُحَالِ ، وَالحَقِّ عَلى البَاطِلِ .

٥ _ مُوَاجَهَةُ المُلُوكِ

يَلْقَى المُلُوكَ فَلا يَلْقَى سِوَى جَزَرٍ وَمَا أَعَدُّوا فَلا يَلْقَى سِوَى نَفَلِ

جَزَرُ السِّبَاعِ : اللَّحْمُ الذي تَأكُلُه ، وَيُقَال : تَرَكُوهُمْ جَزَرًا ، إذا قَتَلُوهُمْ . وَمَا أَعَدُّوا : عَطْفُ عَلى المُلُوكِ . والنَّفَلُ : الغَنِيمَة . إنَّهُ يَلْقَى المُلُوكَ الذينَ يُخَالِفُونَهُ فَيُوقِع بِهِمْ وَبِجُيُوشِهِمْ ، فَلا يَكُونُون إلا مَأكَلًا للسِّبَاعِ ، ولا تَكُون أسْلابُهُمْ إلا غَنِيمَةً لأصحابِه. كُلَّمَا لَقِيَ مَلِكًا في حَرْبٍ قَتَلَه، وَغَنِمَ أموالَه ، فَهُوَ جَزَرٌ لِسُيُوفِه ، وَمَالُهُ غَنِيمَةٌ لَه وَلِعَسْكَرِه. إنَّهُ يَلْقَى المُلُوكَ إذا خَالَفَتْهُ ، فَلا يَلْقَى مِنْهَا إلا جَزَرَ سُيُوفِه ، وَمَا أَعَدُّوهُ مِنْ سِلاحِهِمْ وآلاتِهِمْ ، فلا يَلْقَى إلا غَنَائِمَ جُيُوشِه، لِمَا عَوَّدَهُ اللَّهُ مِنَ الظُّهُورِ عَلَيْهِمْ ، والنِّكَايَةِ فِيهِم . المُلُوكُ كُلُّهُمْ جَزَرُ سُيُوفِه ، وأموالُهُم نَفَلٌ وَغَنِيمَةٌ لِخَيْلِه .

٦ _ المَنُّ عَلى المُلُوكِ بِالعَفْوِ

أعْطَى وَمَنَّ عَلى المُلُوكِ بِعَفْوِهِ حَتَّى تَسَاوَى الناسُ في إفْضَالِهِ

لَمْ يَخْلُ أَحَدٌ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِ وإحْسَانِهِ إلَيْه ، فَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ ، وَمَنْ دُون المُلُوكِ يُعْطِيهِم ، وَالمُلُوكُ تَحْتَ مِنَّتِهِ وَعَفْوِهِ عَنْهُمْ . نِعَمُهُ قَدْ عَمَّت الناسَ كُلَّهُمْ ، فَأعْطَاهُمْ مِنْ مَالِه ، وَعَفَا عَن المُلُوكِ، بِأنْ أَسَرَهُمْ ثُمَّ أَطْلَقَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ،أَوْ تَرَكَ قَتْلَهُمْ وَالتَّعَرُّضَ لَهُمْ،فَكُلُّهُمْ تَسَاوَوْا في فَضْلِه .

٧_ عَطَايَا المُلُوكِ

لَيْتَ المُلُوكَ عَلى الأقْدَارِ مُعْطِيَةٌ فَلَمْ يَكُنْ لِدَنِيءٍ عِنْدَهَا طَمَعُ

لَيْتَ المُلُوكَ يُعْطُونَ الناسَ عَلى قَدْرِ فَضْلِهِمْ وَنُبْلِ أنْفُسِهِمْ ، فَلا يَطْمَعُ خَسِيسٌ في عَطَائِهِم . لَيْتَهُمْ يُعْطُونَ الشُّعَرَاءَ عَلى أقْدَارِهِمْ في الاستحقاقِ بِفَضْلِهِمْ وَعِلْمِهِمْ ، فَلا يَطْمَع خَبِيثٌ حَقِيرٌ في عَطَائِهِمْ . وَهَذا تَعْرِيضٌ بِأنَّهُ يُسَوَّى مَعَ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَتَهُ في الفَضْلِ وَالعِلْمِ .

٨ _ خُضُوعُ المُلُوكِ

تَظَلُّ مُلُوكُ الأرْضِ خَاشِعَةً لَهُ تُفَارِقُهُ هَلْكَى وَتَلْقَاهُ سُجَّدَا

مَنْ خَالَفَهُ وَفَارَقَهُ مِنَ المُلُوكِ هَلَكَ ، وَإذا أَتَتْهُ المُلُوكُ خَضَعَتْ لَهُ وَسَجَدَتْ . تَظَلُّ مُلُوكُ الأرْضِ خَاشِعَةً لَه، تُفَارِقُه هَلْكَى مِنْ مَخَافَتِه، وَتَلْقَاهُ بِالسُّجُودِ خَاضِعَةً لِمَهَابَتِه.إنَّ المُلُوكَ تَخْشَعُ له، فَإذَا لَقِيَتْهُ سَجَدَتْ لَه، وإذا خَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ فَفِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الخَوْفِ وَالهَيْبَةِ مَا يَقُومُ لَهُمْ مَقَامَ الهَلاكِ. أوْ : إنَّهُ أرادَ بِهِ حَقِيقَةَ الهَلاك ، إذا فَارَقُوهُ عَلى سَبِيلِ العِصْيَانِ أَهْلَكَهُم .

٩_ مَصِيرُ المُلُوكِ

أرى كُلَّ ذِي مُلْكٍ إلَيْكَ مَصِيرُهُ كَأنَّكَ بَحْرٌ وَالمُلُوكُ جَدَاوِلُ

كُلُّ مَلِكٍ يَصِيرُ إلى حَضْرَتِكَ ، وَيَنْضَاف مُلْكُهُ إلى مَمْلَكَتِكَ ، كَأنَّكَ بَحْرٌ ، وَهُمْ جَدَاوِل تَنْصَبُّ إلى البَحْرِ . أرى كُلَّ ذِي مُلْكٍ مَصِيرُه إلى الخُضُوعِ لَكَ ، وَغَايَةُ أَمَلِهِ أنْ يَرتَبِطَ بِكَ ، فَلا مَلِك إلا وَهُوَ وَاقِعٌ تَحْتَ مُلْكِكَ، ولا رَئيس إلا وَهُوَ مُتَصَرِّف عَلى حَسَبِ أَمْرِكَ ، كَأنَّ مَصِيرَ المَمَالِكِ إلَيْكَ ، والمُلُوكُ يَتَزَاحَمُونَ عَلَيْكَ ، وكَأنَّكَ البَحْرُ الذي إلَيْهِ مَآلُ الجَدَاوِلِ الجَارِيَةِ ، وَفِيه مُسْتَقَرُّ جَمِيعِ الأنهارِ السائلةِ .

١٠_ الاخْتِيَارُ مِنْ بَيْنِ المُلُوكِ

قَدِ اخْتَرْتُكَ الأمْلاكَ فَاخْتَرْ لَهُمْ بِنَا حَدِيثًا وَقَدْ حَكَّمْتُ رَأيَكَ فَاحْكُمِ

قَد اخْتَرْتُكَ مِنْ بَيْنِ المُلُوكِ ، وَرَجَوْتُكَ لِهِمَّتِي وَمَطْلَبِي ، فَاخْتَرْ أنْتَ حَدِيثًا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ عَنِّي وَعَنْكَ، فَإنَّكَ إذا فَعَلْتَ ذَلِكَ تَحَدَّثُوا عَنْكَ بالإحسانِ، وَتَحَدَّثُوا عَنِّي بأنِّي اسْتَأهَلْتُ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، وَقَدْ جَعَلْتُكَ حَاكِمًا ، فَافْعَلْ بِي فِعْلًا إذا سَمِعُوهُ كَانَ مُخْتَارًا عِنْدَهُمْ . لَقَدْ حَكَّمْتُ رَأيَكَ ، أي : سَلَّمْتُ أمْرِي إلَيْكَ ، فَافْعَلْ مَا تَشَاء، فَإنَّ طَبِيعَتَكَ لا تَحْمِلُكَ إلا عَلى الجَمِيلِ وَالحَسَنِ .

١١_ غَضَبُ مُلُوكِ الأرْضِ

وَأَنْفَذُ مَا تَلْقَاهُ حُكْمًا إذا قَضَى قَضَاءً مُلُوكُ الأرْضِ مِنْهُ غِضَابُ

إذا أرادَ أَمْرًا يَغْضَبُ مِنْهُ جَمِيعُ مُلُوكِ الأرْضِ ، فذلك الأمْرُ أَنْفَذُ مَا يَكُون مِنْ أوَامِرِه ، لأنَّهُمْ لا يُمْكِنُهُمْ أنْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ أمْرَه.إذا حَكَمَ حُكْمًا عَلى خِلافِ جَمِيعِ المُلُوكِ،نَفَذَ حُكْمُهُ لِطَاعَتِهِمْ لَه ، وَالمَعْنَى أنَّهُ سَيِّدُهُمْ ، فَلا يَمْنَعُ حُكْمَه مِنَ النَّفَاذِ غَضَبُهُمْ ، وَهُمْ لا يَقْدِرُون عَلى إظهارِ خِلافِه ، فَأنْفَذُ حُكْمِهِ مَا خَالَفَ بِهِ المُلُوكَ وَغَاضَبَهُمْ . إنَّ أنْفَذَ مَا تَلْقَى حُكْمَه ، وَأمْضَى مَا تُشَاهِد أَمْرَه ، إذا قَضَى قَضَاءً يَقْهَرُ بِهِ مُلُوكَ الأرضِ ، وَيَضْطَرُّهُمْ إلى التَّسْلِيمِ لَه ، وَيُغْضِبُهُم ، فذلك القَضَاءُ أمْضَى أَقْضِيَتِه ، لِمَا صَرَفَ إلَيْهِ مِنْ هِمَّتِه ، وذلك الأمْرُ أَنْفَذُ أوَامِرِه ، لِمَا يَسْتَعْمِل فِيه مِنْ قُوَّتِه .

١٢ _ أعْلَى المَمَالِكِ

أعْلَى المَمَالِكِ مَا يُبْنَى على الأَسَلِ والطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَّ كَالقُبَلِ

أعْلَى المَمَالِكِ رُتْبَةً ، وَأطْهَرُهَا رِفْعَةً ، مَا بُنِيَ عَلى الحَرْبِ ، وَدُفِعَ عَنْهُ بِالطَّعْنِ والضَّرْبِ ، فَالمَمْلَكَةُ إذا بُنِيَتْ عَلى الرِّماحِ بأنْ أُخِذَتْ بِهَا ، وَحُفِظَتْ بِهَا ، فَهِيَ أعْظَمُ المَمَالِكِ وَأعْلاهَا . وَمَنْ أَحَبَّ المَمَالِكَ كَانَ الطَّعْنُ عِنْدَهُ كَالقُبَلِ المُسْتَعْذَبَةِ ، واللَّذَّاتِ المُغْتَنَمَةِ ، أي : إنَّهُ يَسْتَلِذُّ الطَّعْنَ اسْتِلْذَاذَ القُبَلِ . وَالمَمَالِكُ : جَمْعُ المَمْلَكَةِ ، وَهِيَ سُلْطَانُ المَلِكِ في رَعِيَّتِه ، وَالأَسَلُ : الرِّمَاح ، والقُبَلُ : جَمْعُ قُبْلَةٍ. إنَّ أشرَفَ المَمَالِكِ قَدْرًا ، مَا مُلِكَ عَنْوَةً ، وَفُتِحَ بِأطْرَافِ الأَسِنَّةِ ، وكانَ الطَّعْنُ عِنْدَ مَنْ أَحَبَّ هَذِه المَمَالِكَ أحْلَى وأشهَى مِنْ قُبَلِ الأحبابِ .

ومَا تَقَرُّ سُيُوفٌ في مَمَالِكِهَا حَتَّى تَقَلْقَلَ دَهْرًا قَبْلُ في القُلَلِ

السُّيُوفُ لا تَقَرُّ في المَمَالِكِ حَتَّى تَتَحَرَّكَ زَمَانًا في رُؤوسِ الأعداءِ ، أي : مَا لَمْ تَقْطَعْ رُؤوسَ أعْدَائِكَ لَمْ تَثْبُتْ لَكَ المَمْلَكَة . والتَّقَلْقُل:دَوَامُ الحَرَكَةِ ، والقُلَل : الرُّؤُوس . مَا تَقَرُّ سُيُوفٌ في دُوَلِهَا ، وَتَسْكُنُ في مَمَالِكِهَا ، حَتَّى تَطُولَ حَرَكَتُهَا في ضَرْبِ رُؤوسِ الأعداءِ والمُخَالِفِين ، وَتُشْهَر آثارُها في قَمْعِ المُعَارِضِين ، فَحِينَئِذٍ تَنُوبُ رَهْبَتُهَا عَن استلالِها ، وَتُغْنِي هَيْبَتُهَا عَن استعمالِها . مَا تَسْتَقِرُّ مَمْلَكَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، ولا تَسْتَقِرُّ سُيُوفٌ في مَمْلَكَتِه، حَتَّى يُقَلْقِلَ أعْدَاءَه ، وَتَتَحَرَّكَ سُيُوفُهُ دَهْرًا في رُؤُوسِ الأعداءِ .

١٣_ سَادَاتُ الناسِ

سَادَاتُ كُلِّ أُنَاسٍ مِنْ نُفُوسِهِمِ وَسَادَةُ المُسْلِمِينَ الأَعْبُدُ القَزَمُ

سَيِّدُ كُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ ، وَمِنْ أَعَزِّهِمْ ، إلا المُسْلِمِين ، فَإنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِسِيَادَةِ العَبِيدِ . وَهَذا إغْرَاءٌ لأهْلِ مَمْلَكَةٍ كَافُور بِه . كُلُّ جِيلٍ وَأُمَّةٍ يَمْلِكُهُمْ مَنْ هُوَ مِنْ جِنْسِهِمْ ، فَكَيْفَ سَادَ المُسْلِمِينَ عَبِيدٌ أراذِل لِئَام ؟! . وَالقَزَمُ: أراذلُ الناسِ ، لا وَاحِد لَهُ مِنْ لَفْظِه .

١٤ _ قُرْبُ السَّلاطِين

وَجَنَّبَني قُرْبَ السَّلاطينِ مَقْتُهَا وَمَا يَقْتَضِيني مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ

أَبْعَدَني مِنْ قُرْبِ السَّلاطِينِ بُغْضِي لَهُمْ ، وَحِقْدِي عَلَيْهِم ، وكذلك أَبْعَدَني عَنْهُمْ مُقَاضَاةُ النَّسْرِ بِجَمَاجِمِهِم . بُغْضِي السَّلاطِينِ نَهَاني عَنْ قُرْبِهِم ، وأنِّي قَاتِلٌ لَهُمْ ، فَإِنَّ النَّسْرَ كَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ أَكْلَ لُحُومِهِمْ ، فَهُوَ يُطَالِبُني بِجَمَاجِمِهِم .

١٥_ الإمَارَةُ وَالأمِيرُ

فَمَا تَرَكُوا الإمَارَةَ لاخْتِيَارٍ ولا انْتَحَلُوا وِدَادَكَ مِنْ وِدَادِ

مَا تَرَكُوا الإمَارَةَ اخْتِيَارًا ، بَلْ غَصَبْتَهُمْ عَلَيْهَا، وَمَا ادَّعَوْا وُدَّكَ مِن اعتقادِ قُلُوبِهِم ، بَلْ نِفَاقًا في حُبِّكَ . لَقَد اضْطَرَرْتَهُمْ إلى تَرْكِ الإمَارَةِ ، فَتَرَكُوهَا خَوْفًا ، وَأظْهَرُوا حُبَّكَ كَذِبًا لا حَقِيقَةً .

وَلا تَغُرَّنَّكَ الإمَارَةُ في غَيْرِ أمِيرٍ وَإنْ بِهَا بَاهَى

دَعِ السَّلاطِينَ ، ولا تَغْتَر بِمَا تَرَاه مِنْ مُبَاهَاتِهِم بالإمَارَةِ . إنْ رَأَيْتَ إنْسَانًا يُعْرَفُ بالأمِيرِ فَلا تَغُرَّنَّكَ هَذِه الصِّفَةُ ، فَإنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ أنْ يَكُونَ أمِيرًا ، وإنِ افْتَخَرَ بذلك ، وَتَجَمَّلَ بِهِ عِند الناسِ . لا تَغُرَّنَّكَ الإمَارَةُ مِمَّنْ يَنْتَحِلُهَا ، وَلَيْسَ بِاسْمٍ لَهَا، وَيَتَقَلَّد اسْمَهَا دُون أنْ يَتَحَقَّقَ بِهَا ، مُبَاهِيًا في ذَلِكَ غَيْرَ مُنْصِفٍ ، وَمُغَالِطًا بِبَاطِلِهِ غَيْرَ مُعْتَرِفٍ .

١٦_ الأحْوَالُ السِّياسِيَّةُ في مِصْر

أَكُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ أوْ خَانَهُ فَلَهُ في مِصْرَ تَمْهِيدُ

أَكُلَّمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ ، بِخِيَانَةٍ وَجِنَايَةٍ يَتَقَلَّدُهَا ، كانَ لَهُ في مِصْرَ عِند كَافُور تَمْهِيدٌ يَفْزَعُ إلَيْه ، وَسَنَدٌ يُعَوِّل عَلَيْه ، يُرِيدُ أنَّ لُؤمَ العُبُودِيَّةِ نَسَبٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شِرَارِ العَبِيدِ ، فَهُمْ يَقْصِدُونَه فَيَأمَنُون بِه ، وَيَقْتَحِمُونَ جِنَايَاتِهِم عَلى طَرِيقِ التأميلِ لَه . أَكُلَّمَا أَهْلَكَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَهُ مُهِّدَ أَمْرُهُ في مِصْر ، وَمَلَكَ عَلى الناسِ ، يَعْني أنَّ العَبْدَ الأَسْوَدَ (كَافُور) قَتَلَ سَيِّدَه ، ثُمَّ تَمَلَّكَ عَلى أَهْلِ

مِصْر، فَقَبِلُوه، وَانْقَادُوا لَه ، وهذا استفهامُ إنكارٍ، أي: لا يَجِبُ أنْ يَكُونَ الأمْرُ عَلى هَذا النَّحْوِ . لَقَدْ اغتالَ كَافُورُ سَيِّدَه، أي : قَتَلَهُ غِيلَةً ، وَجَلَسَ مَكَانَه ، وَهَكَذا كُلُّ عَبْدٍ في مِصْرَ إذا خَانَ مَوْلاه، أوْ قَتَلَه ، ارتفعَ شَأنُهُ عِنْدَ الأَسْوَد كَافُور .

صَارَ الخَصِيُّ إمَامَ الآبِقِينَ بِهَا فَالحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ وَالعَبْدُ مَعْبُودُ

صَارَ الخَصِيُّ كَافُورُ إمَامَ الآبِقِينَ ومَلْجَأ المُذْنِبِين في مِصْرَ ، يُرِيدُ أنَّ كُلَّ عَبْدٍ آبِقٍ إلَيْهِ أَمْسَكَهُ عِنْدَه ، وَأَحْسَنَ إلَيْه ، فَهُوَ إمَامُ الآبِقِين . والعَبْدُ الآبِقُ : المَمْلُوكُ الذي فَرَّ مِنْ مَالِكِهِ وَهَرَبَ مِنْ سَيِّدِه . فَالحُرُّ مُسْتَعْبَدٌ بِحُرِّيته ، وَالعَبْدُ كَالمَعْبُودِ لِجَلالَةِ قَدْرِه وَتَعْظِيمِ حَقِّه . لَمَّا مَلَكَ العَبْدُ الأسْوَدُ كَافُورُ مِصْرَ هَرَبَ كُلُّ عَبْدٍ مِنْ مَوْلاه ، وَانْضَمَّ إلَيْه ، فَالحُرُّ ذَلِيلٌ كَأنَّهُ عَبْدٌ ، وَالعَبْدُ مَخْدُومٌ مُعَظَّمٌ .

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِبِهَا فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفْنَى العَنَاقِيدُ

غَفَلَ المُلُوكُ عَنْ مِصْرٍ وَأَهْمَلُوهَا ، فَتَمَكَّنَ مِنها العَبِيدُ والأرَاذِلُ، فَجَمَعُوا الأمْوَالَ ، وَأُتْخِمُوا مِنْ كَثْرَتِهَا. شَبَّهَ مِصْرَ بِالبُسْتَانِ ، وأرادَ بِالنَّوَاطِيرِ (جَمْع النَّاطُور ، وَهُوَ حَافِظُ الزَّرْعِ) الكِبَارَ والسَّادَةَ، وَبِالثَّعَالِبِ العَبِيدَ والأرَاذِلَ. إنَّ السَّادَةَ غَفَلُوا عَن الأرَاذِلِ ، وَقَدْ أَكَلُوا فَوْقَ الشِّبَعِ ، وَعَاثُوا في أمْوَالِ الناسِ فَسَادًا. وَجَعَلَ العَنَاقِيدَ مَثَلًا للأمْوَالِ . لَقَدْ أَبْشَمَ (أَتْخَمَ) تِلْكَ الثَّعَالِبَ كَثْرَةُ الأكْلِ ، وفوائدُ مِصْرٍ لا تَنْفَد ، وَخَيْرَاتُهَا لا تَنْتَهِي .

العَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأخٍ لَوْ أنَّهُ في ثِيَابِ الحُرِّ مَوْلُودُ

العَبْدُ لا يُوَاخِي الحُرَّ الصالحَ لِمُخَالَفَتِهِ لَهُ بِطَبْعِه ، وَمُبَايَنَتِهِ إيَّاهُ بِجِنْسِهِ ، وَلِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَاعُدِ في الأخلاقِ ، فَهُوَ لا يَأْلَفُهُ ، ولا يُحِبُّه ، ولا يُصَافِيه ، وَإنْ وُلِدَ العَبْدُ في ثِيَابِ الحُرِّ . أي: إنَّ العَبْدَ لَوْ وُلِدَ في ثِيَابِ الحُرِّ لَمَا كَانَ يَصْلُحُ أنْ يَكُونَ أَخًا للحُرِّ، لأنَّ العَبْدَ يَنْزِعُ إلى أصْلِه. أوْ : إنَّ الحَرَّ لا يَصْلُحُ أنْ يَكُونَ العَبْدُ أَخاه ، لَوْ كانَ حُرًّا وُلِدَ في ثِيَابِ الأحْرَارِ . يَعْني : لَوْ كُنْتَ وُلِدْتَ في ثِيَابِ حُرٍّ لَمَا اتَّخَذْتَ العَبْدَ أخَاكَ .

لا تَشْتَرِ العَبْدَ إلا وَالعَصَا مَعَهُ إنَّ العَبِيدَ لَأنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

لا تَشْتَرِ العَبْدِ إلا وأنتَ مُشْتَرٍ للعَصَا مَعَه ، لِتُدْخِلَهُ تَحْتَ المَخَافَةِ ، وَتَحْمِلُهُ عَلى أشَدِّ الإهَانَةِ، وإلا فَإنَّكَ لا تَسْتَخْلِص وُدَّه، ولا تَنْتَفِع بِمَا عِنْدَه، فَالعِبيدُ أنْجَاسٌ لا يُعْدَمُ نَكَدُهُمْ ، شِرَارٌ لا يُؤْمَنُ تَمَرُّدُهُم . وَالمَنَاكِيدُ : جَمْعُ المَنْكُودِ ، وَهُوَ الذي فِيه نَكَدٌ وَقِلَّةُ خَيْرٍ . إنَّ العَبْدَ نَجِسٌ نَكِدٌ ، لا يَسْتَقِيمُ إلا بِالضَّرْبِ، يُرِيدُ سُوءَ أخلاقِ العَبْدِ ، وَأنَّهُ لا يَصْلُحُ إلا عَلى الضَّرْبِ والذُّلِّ وَالهَوَانِ .

مَا كُنْتُ أحْسَبُني أحْيَا إلى زَمَنٍ يُسِيءُ بِي فِيهِ عَبْدٌ وَهْوَ مَحْمُودُ

مَا ظَنَنْتُ أنِّي أَبْقَى إلى زَمَنٍ يُسِيءُ بِي في ذلك الزَّمَنِ شَرُّ الخَلِيقَةِ (كَافُور) ، وَهُوَ مَحْمُودٌ عَلى إسَاءَتِهِ لِي ، وَأحْتَاجُ إلى مَدْحِهِ وَحَمْدِهِ مَعَ ذلك ، وَلا يُمْكِنُني أنْ أُظْهِرَ الشَّكْوَى . مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَسْتَدِيمُ العُمْرَ ، وَأَصْحَبُ الدَّهْرَ ، إلى زَمَنٍ يُسِيءُ بِي فِيه مِثْل كَافُور ، وَهُوَ العَبْدُ لُؤمًا وَسُقُوطًا وَدَنَاءَةً . وَمَا اتَّفَقَ لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ ، وَاقْتَرَنَ بِهِ مِنْ إسْعَادِ الزَّمَانِ ، يُوجِبَان مُظَاهَرَتَهُ بِالحَمْدِ عَلى سُوءِ فِعْلِه، وَالمُسَاعَدَةَ لَهُ فِيمَا يُكْرَهُ مِنْ أَمْرِه .

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكَاتِ وَلَكِنَّهُ ضَحِكٌ كَالبُكَا

وَمَاذَا في مِصْر مِنْ أحْوَالٍ عَجِيبَةٍ مُضْحِكَةٍ ؟!، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ يَضْحَكُ مِنْهَا ضَحِكَ فَرَحٍ ، وَلَكِنَّهُ يَضْحَكُ تَعَجُّبًا، وَهَذا الضَّحِكُ كَالبُكَاءِ. وَمَاذَا بِمِصْر مِنَ الأمُورِ المُضْحِكَةِ وَالأعَاجِيبِ المُسْتَغْرَبَةِ، وَإنْ كانَ ذلك الضَّحِكُ كَالبُكَاءِ عِنْدَ النَّظَرِ وَالتَّبَيُّنِ وَالتَّأمُّلِ . إنَّهُ يَتَعَجَّبُ مِمَّا رَأى بِمِصْر مِمَّا يُضْحِكُ الناسَ وَالعُقَلاءَ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ ضَحِكٌ كَالبُكَاءِ ، وَشَرُّ البَلِيَّةِ مَا يُضْحِكُ .

*

الفصلُ السادسُ عَشَر

الحَرْبُ

١ــ الحَرْبُ قَائِمَةٌ

لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الخَيْلِ سَاهِمَةً وَالحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلى قَدَمِ

لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الخَيْلِ مُتَغَيِّرَةَ الأَلْوَانِ بِسَبَبِ غُبارِ الحَرْبِ وَشَدَائِدِهَا وَشِدَّةِ التَّعَبِ وَأَلَمِ الجِرَاحَةِ وَالخَوْفِ ، في حَالٍ تَكُونُ الحَرْبُ فِيهَا أَقْوَمَ مِنْ سَاقٍ عَلى قَدَمٍ ، أي : لَأَتْرُكَنَّ الحَرْبَ قَائِمَةً كَانْتِصَابِ السَّاقِ عَلى القَدَمِ .

٢ــ الإِقْدَامُ في الحَرْبِ

وفي الحَرْبِ حَتَّى لَوْ أرادَ تَأَخُّرًا لَأَخَّرَهُ الطَّبْعُ الكَرِيمُ إلى القُدْمِ

هُوَ صَاحِبُ الحَرْبِ ، وفي الحَرْبِ أبَدًا ، حَتَّى لَوْ أَرَادَ تَأَخُّرًا لَكَانَ تَأَخُّرُهُ تَقَدُّمًا ، إِذْ لَيْسَ عِنْدَهُ إلا التَّقَدُّم ، أي : لَأَخَّرَهُ الطَّبْعُ الكَرِيمُ عَن التَّأَخُّرِ إلى التَّقَدُّمِ . إنَّهُ مَعَ الحَزْمِ في اقْتِنَاءِ المَعَالي، لَوْ أرادَ أنْ يَتَأَخَّرَ عَن الحَرْبِ لَأَخَّرَهُ طَبْعُهُ الأَصِيلُ الطَّيِّبُ إلى التَّقَدُّمِ ، أي : إنَّهُ إذا نَوَى أنْ يَتَأَخَّرَ عَن المُحَارَبَةِ قَدَّمَهُ إِلَيْهَا طَبْعُهُ الكَرِيمُ .

٣ــ الخَيْلُ

أُفَكِّرُ في مُعَاقَرَةِ المَنَايَا وَقَوْدِ الخَيْلِ مُشْرِفَةَ الهَوَادِي

أُفَكِّرُ في مُلازَمَةِ المَنَايَا وَمُمَارَسَتِهَا في الحُرُوبِ ، والإِقْدَامِ عَلى القِتَالِ ، وَقِيَادَةِ الخَيْلِ إلى الحَرْبِ مُشْرِفَةَ الأَعْنَاقِ . وَمُعَاقَرَةُ المَنَايَا : مُلازَمَتُهَا ، وَأَنْ يَكُونَ مَعَهَا في عُقْرِ دَارِهَا ، وَهُوَ المُعْتَرَكُ (مَوْضِعِ القِتَالِ) ، وَالمَنَايَا : جَمْعُ المَنِيَّةِ ، وَهِيَ المَوْتُ . وَالهَوَادِي : الأعناقُ .

وَيَطْعَنُ الخَيْلَ كُلَّ نَافِذَةٍ لَيْسَ لَهَا مِنْ وَحَائِهَا أَلَمُ

وَيَطْعَنُ فُرْسَانَ الخَيْلِ كُلَّ طَعْنَةٍ نَافِذَةٍ ، أي : تَنْفُذُ في المَطْعُونِ إلى الجَانِبِ الآخَرِ . وَالوَحَاءُ : السُّرْعَة. إنَّ مَطْعُونَهُ لا يَحُسُّ بِأَلَمِ الطَّعْنَةِ ، لأَنَّهَا ــ لِسُرْعَتِهَا ــ تَقْتُلُهُ قَبْلَ أنْ يُدْرِكَ أَلَمَهَا . وَلَمْ

تُوصَف الطَّعْنَةُ بِوَحَاء أسْرَع مِنْ هَذا . إنَّ كُلَّ جِرَاحَةٍ نَافِذَةٍ تَنْفُذُ في المَطْعُونِ إلى الجَانِبِ الآخَرِ ، ولا يَتَألَّمُ بِهَا لِسُرْعَتِهَا حَتَّى يَمُوت ، ولا أَلَمَ بَعْدَ المَوْتِ .

فَإنْ حَلُمُوا فَإنَّ الخَيْلَ فِيهِمْ خِفَافٌ وَالرِّمَاحُ بِهَا عُرَامُ

إنْ كانوا حُلَمَاءَ ذَوِي وَقَارٍ ، فَإنَّ خَيْلَهُمْ خِفَافٌ في الجَرْيِ ، وَرِمَاحُهُمْ شَرِسَةٌ عَارِمَةٌ عَلى الأعْدَاءِ . وَالحِلْمُ : الأنَاةُ وَالعَقْلُ. وَالعُرَامُ : الشَّرَاسَةُ والأذى . إنْ كَانُوا يَتَّصِفُونَ بِالحِلْمِ وَالرَّزَانَةِ وَالسُّكُونِ، فَخَيْلُهُمْ تَخِفُّ ولا تَحْلُمُ ، وَتُسْرِعُ في الجَرْيِ، وفي رِمَاحِهِمْ خِفَّةٌ وَنَزَقٌ وَطَيْشٌ وَنَشَاطٌ، أي : هُمْ قُسَاةٌ مُتَوَحِّشُونَ في الحُرُوبِ .

وَمَا الخَيْلُ إلا كَالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ وَإنْ كَثُرَتْ في عَيْنِ مَنْ لا يُجَرِّبُ

الخَيْلُ قَلِيلَةٌ كَقِلَّةِ الصَّدِيقِ ، وَإنْ كَانَتْ كَثِيرَةً في العَدَدِ ، وكَذلك الصَّدِيق كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ عِنْدَ التَّحْصِيلِ وَالتَّحْقِيقِ قَلِيلُون ، لأنَّ الصَّدِيقَ الذي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ في الشَّدَائِدِ قَلِيلٌ ، وكَذلك الخَيْلُ التي تَلْحَقُ فُرْسَانَهَا بِالطَّلِبَاتِ قليلة ، وَمَنْ لَمْ يُجَرِّب الخَيْلَ وَيَعْرِفْهَا يَرَاهَا في الدُّنيا كَثِيرَةً ، وكَذلك مَنْ لَمْ يُجَرِّب الأصْدِقَاءَ وَيَخْتَبِرْهُمْ عِنْدَ شِدَّتِهِ يَرَاهُمْ كَثِيرين . إنَّ الخَيْلَ الأصِيلَةَ المُجَرَّبَةَ قَلِيلَةٌ ، وَالصَّدِيقُ الذي يَصْلُحُ لِصَدِيقِهِ في شِدَّتِهِ قَلِيلٌ ، وَلِهَذا قِيل : لا يُعْرَفُ الأخُ إلا عِنْدَ الحَاجَةِ . إنَّ مَنْزِلَةَ الخَيْلِ مِنَ الإنسانِ كَمَنْزِلَةِ الصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ ، وَإنْ كَثُرَتْ في العَدَدِ عِنْدَ مَنْ لَمْ يُجَرِّبْهَا ، يَعْني أنَّهَا بِالتَّجْرِبَةِ تُعْرَفُ فَتَبِينُ البِغَالُ الهَجِينَةُ مِنَ الخُيُولِ الأصِيلَةِ السَّوَابِقِ ، التي لَهَا جَوْهَرٌ في السَّبْقِ وَالجَرْيِ ، كَمَا أنَّ الصَّدِيقَ يُعْرَفُ بِالتَّجْرِبَةِ مَا عِنْدَهُ مِنْ صِدْقِ الوِدَادِ أوْ كَذِبِهِ . وَسَوْفَ تَظَلُّ الخَيْلُ الأصِيلَةُ قَلِيلَةً كَالأصْدِقَاءِ، حَتَّى وَإنَّ ظَنَّهَا قَلِيلُ التَّجْرِبَةِ كَثِيرَةً .

فَكَانَ الغَرْبُ بَحْرًا مِنْ مِيَاهٍ وكانَ الشَّرْقُ بَحْرًا مِنْ جِيَادِ

كَانَ الأعْدَاءُ بَيْنَ البَحْرَيْنِ ، غَرْبِيُّهَا بَحْرُ الشَّامِ ، وَشَرْقِيُّهَا بَحْرٌ مِنْ خُيُولٍ ، وَهُوَ جَيْشُ المَمْدُوحِ ، شَبَّهَهُ بِالبَيَاضِ لِكَثْرَتِه ، وَلِبَيَاضِ الحَدِيدِ وَبَرِيقِهِ فِيهِمْ . وإنَّمَا قالَ هَذا لأنَّ اللاذِقِية عَلى سَاحِلِ البَحْرِ . كانَ جَانِبُهَا الغَرْبِيُّ بَحْرَ المَاءِ ، والشَّرْقِيُّ بَحْرًا مِنَ الخُيُولِ . وَشَبَّهَهَا بِالبَحْرِ لِكَثْرَتِهَا وَلِمَا فِيهَا مِنْ بَرِيقِ الأسْلِحَةِ ، وَالمَعْنى أنَّهُمْ وَقَعُوا بَيْنَ بَحْرَيْن . وَقِيل: أرادَ بِالبَحْرِ مِنَ المِيَاهِ دِمَاءَ القَتْلَى ، فَبَيَّنَ أنَّهَا لِكَثْرَتِهَا كَبَحْرِ المَاءِ ، وَالجَانِب الشَّرقي مِنْ عِتَاقِ الخَيْلِ (كَرَائِمِهَا) .

٤ _ السَّرَايَا

بَعِيدُ الصِّيتِ مُنْبَثُّ السَّرَايَا يُشَيِّبُ ذِكْرُهُ الطِّفْلَ الرَّضِيعَا

إنَّهُ رَفِيعُ الشَّأنِ ، مُتَفَرِّقُ العَسَاكِرِ في البُلْدَانِ ، لِكَوْنِ البِلادِ كُلِّهَا مِنْ مَمَالِكِه ، أوْ للإغارةِ عَلى أعْدَائِه ، وَيُشَيِّب ذِكْرُ شَجَاعَتِهِ الطِّفْلَ الرَّضِيعِ ، لِخَوْفِهِ مِنْه ، وَخُصَّ الطِّفْلُ لِبُعْدِهِ عَن الشَّيْبِ . وَالصِّيتُ: ذَهَابُ الذِّكْرِ الحَسَنِ بَيْنَ الناسِ . وَعِبَارَةُ : " يُشَيِّبُ ذِكْرُهُ الطِّفْلَ الرَّضِيعَا " كَلامٌ قَد اصْطَلَحَ عَلَيْهِ الناسُ ، وإنَّما يُريدون بِهِ المُبَالَغَةَ في الأمْرِ ، أي : إنَّ هَذا المَمْدُوحَ يَشِيبُ مِنْ خَوْفِهِ الطِّفْلُ ، وَهَذا شَيْءٌ لا يَجُوزُ أنْ يَكُون في الدُّنيا (الدَّار العَاجِلَة) .

٥_ شُهُودُ الحَرْبِ

أَوْ شَهِدُوا الحَرْبَ لاقِحًا أَخَذُوا مِنْ مُهَجِ الدَّارِعِينَ مَا احْتَكَمُوا

إذا حَضَرُوا الحَرْبَ في حَالِ شِدَّتِهَا ، أَخَذُوا مِنْ نُفُوسِ لابِسِي الدُّرُوعِ مَا أرادوا . وَالحَرْبُ اللاقِحُ : الشَّدِيدَةُ العَظِيمَةُ ، وَهُوَ عَلى تَشْبِيهِ الحَرْبِ بِالأُنثى الحَامِلِ التي لا يُعْرَفُ مَا تَلِدُ . والدَّارِعُون: لابِسُو الدُّرُوعِ ، والدُّرُوعُ جَمْعُ الدِّرْعِ ، وَهُوَ قَمِيصٌ مِنْ حَدِيدٍ يُلْبَسُ وِقَايَةً مِنَ السِّلاحِ.

٦_ حَوْمَةُ الوَغَى

أنْتَ لَعَمْرِي البَدْرُ المُنِيرُ وَلَكِنَّكَ في حَوْمَةِ الوَغَى زُحَلُ

إنَّكَ بَدْرٌ تُضِيءُ الدُّنيا ، وَلَكِنَّكَ في الحَرْبِ تَسْتَحِيلُ زُحَلًا عَلى أعْدَائِكَ ، وَتَصِيرُ ظَلامًا عَلَيْهِمْ ، وَنَحْسًا لَهُمْ مِثْلَ زُحَل. إنَّ القَمَرَ سَعْدٌ ، وَزُحَلٌ نَحْسٌ ، يُرِيدُ أنَّكَ في الحَرْبِ نَحْسٌ عَلى أعْدَائِكَ. وَحَوْمَةُ كُلِّ شَيْءٍ : مُعْظَمُه ، والوَغَى : الحَرْبُ ، وَزُحَل : مِنْ كَوَاكِب النَّحْسِ ، والقَمَرُ : سَعْدٌ . أَنْتَ رَجُلٌ نَقِيضُ اسْمِهِ في الحَرْبِ ، لأنَّ البَدْرَ الذي هُوَ اسْمُكَ مِنْ كَوَاكِبِ السَّعْدِ ، وَلَكِنَّكَ في الحَرْبِ نَحْسٌ عَلى أعْدَائِكَ ، لأنَّكَ هَلاكٌ لَهُمْ . أوْ : إنَّ البَدْرَ مُنِيرٌ فَيُهْتَدَى بِهِ في الأسفارِ ، وَأنْتَ في الحَرْبِ نَقِيضُ اسْمِكَ، إذْ تَقْتُلُ الناسَ، وَتُثِيرُ الغُبارَ بِالخَيْلِ ، فَتُظْلِمُ الأرْضُ، فَفِعْلُكَ في الحَرْبِ نَقِيضُ فِعْلِكَ في السِّلْمِ .

٧ _ التَّقَدُّمُ في الحَرْبِ

فَلا أُحَارِبُ مَدْفُوعًا إلى جُدُرٍ ولا أُصَالِحُ مَغْرُورًا عَلى دَخَنِ

لَسْتُ مِمَّنْ يَعْتَصِمُ في الحَرْبِ بالأَبْنِيَةِ وَالجُدُرِ، ولا أُصَالِحُ أعْدَائي إذا خَدَعُوني وَنَافَقُوني . وَالدَّخَنُ : الغِشُّ وَالفَسَادُ. لا أُحَارِبُ مِنْهُمْ ، وأنا مَدْفُوعٍ إلى حِصْنٍ ، وَمُلْتَجِئٌ بِدَارٍ ، بَلْ أُحَارِبُهُ في الفَضَاءِ ، وَإنْ صَالَحْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ لا أُصَالِحُهُ إلا بَعْدَ الثِّقَةِ ، فَلا أُصَالِحُهُ وأنا مَغْرُورٌ بِظَاهِرِهِ حَتَّى أَعْلَمَ حَقِيقَةَ أَمْرِه، وَأنَّ بَاطِنَهُ كَظَاهِرِه .

٨_ المُهْجَةُ في الحَرْبِ

ولا يَتَلَقَّى الحَرْبَ إلا بِمُهْجَةٍ مُعَظَّمَةٍ مَذْخُورَةٍ للعَظَائِمِ

ولا يَسْتَقْبِلُ الحَرْبَ إلا بِمُهْجَةٍ مَرْفُوعَةٍ عَن الدَّنَايَا ، لا تَخْضَعُ لأمْرٍ تَافِهٍ ، وَهِيَ مُدَّخَرَةٌ لِكِفَايَةِ الأمُورِ العَظِيمَةِ ، وَمُعَدَّةٌ لِدَفْعِ الأهْوَالِ الشَّدِيدَةِ . وَمُهْجَتُهُ : نَفْسُه ، لأنَّ نَفْسَهُ لا تَقُومُ دُونَهَا . إنَّهُ لا يُبَاشِرُ الحَرْبَ والشَّدَائِدَ الجِسَامَ إلا بِنَفْسِه .

٩ _ الإقَامَةُ مِنَ الهَيْجَاءِ

مُقِيمٌ مِنَ الهَيْجَاءِ في كُلِّ مَنْزِلٍ كَأنَّكَ مِنْ كُلِّ الصَّوَارِمِ في أهْلِ

أنْتَ مُقِيمٌ مِنَ الحَرْبِ في مَنْزِلِكَ ، لأنَّكَ لا تَنْفَكُّ مِنْهَا ، فَكَأنَّكَ إذا كُنْتَ بَيْنَ السُّيُوفِ كُنْتَ في أَهْلِكَ . إنَّكَ مُقِيمٌ في حُرُوبٍ ، في كُلِّ مَنْزِلٍ ، فَكُلُّ حَرْبٍ كَأنَّهَا مَنْزِلُكَ ، وَكَأنَّهَا عَشَائِرُكَ وَأَهْلُكَ ، لأنَّكَ سَيْفٌ ، والسُّيُوفُ مَنَازِلُهَا الحُرُوبُ، وَعَشَائِرُهَا السُّيُوفُ ، فأنْتَ أبَدًا في دَارِكَ ، وَبَيْنَ قَوْمِكَ . أوْ : إنَّكَ مِنْ قِلَّةِ مُبَالاتِكَ بِالحُرُوبِ كَأنَّهَا مَنْزِلُكَ ، وكَأنَّ السُّيُوفَ أَهْلُكَ ، حَيْثُ تَسْكُنُ إلَيْهَا سُكُونَ الرَّجُلِ إلى أهْلِه ، لأنَّهَا تَحِيدُ عَنْكَ ، ولا تَعْمَلُ فِيكَ ، بَلْ تَعْمَلُ في أعْدَائِكَ .

١٠ _ جَبِينُ فَتَى الحَرْبِ

وكُلُّ فَتًى لِلْحَرْبِ فَوْقَ جَبِينِهِ مِنَ الضَّرْبِ سَطْرٌ بالأَسِنَّةِ مُعْجَمُ

وكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذا الجَيْشِ فَوْقَ جَبِينِهِ أَثَرُ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ ، لِشَجَاعَتِهِ وَتَعَوُّدِهِ الحَرْب . شَبَّهَ أَثَرَ الضَّرْبِ بِالسَّطْرِ لاسْتِطَالَتِهِ كَالسَّطْرِ ، وَأَثَرَ الطَّعْنِ بِالمُعْجَمِ ، لاسْتِدَارَتِهِ كَالنُّقَطِ . كُلُّ فَتًى قَدْ جَرَحَتْهُ الحَرْبُ ، وَوَسَمَهُ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ ، فَفِي جَبِينِهِ للسُّيُوفِ آثَارٌ مُسْتَطِيلَةٌ تُشْبِهُ السَّطْرَ ، وَللأَسِنَّةِ فِيهِ نُكَتٌ مُجْتَمِعَةٌ تُشْبِهُ المُعْجَمَ . وَالأَسِنَّةُ جَمْعُ السِّنَانِ ، وَهُوَ نَصْلُ الرُّمْحِ . وَأشارَ بِاعْتِمَادِ الجِرَاحِ لِوُجُوهِهِم إلى شَجَاعَتِهِمْ وَبَأسِهِمْ وَإِقْدَامِهِمْ وَصَبْرِهِم . لَقَدْ جَعَلَ أَثَرَ الضَّرْبِ كَالسَّطْرِ لِطُولِه ، وَأَثَرَ الطَّعْنِ إعْجَامًا لذلك السَّطْرِ ، لِتَدُّورِ جِرَاحَتِه ، فَهِيَ كَالنُّقْطَةِ ، يُرِيدُ أَنَّهُمْ رِجَالُ حَرْبٍ عَلى وُجُوهِهِمْ آثَارُ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ . إنَّ الضَّرْبَةَ كَأَنَّهَا سَطْرٌ في الجَبِينِ ، وَكَأَنَّ آثارَ الأَسِنَّةِ في هَذا السَّطَرِ نُقَطٌ فِيه ، مِنْ قَوْلِهِمْ: عَجَمْتُ الكِتَابَ ، إذا نَقَّطْتُه .

١١ــ حِرْصُ الشُّجَاعِ عَلى الحَرْبِ

فَحُبُّ الجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التُّقَى وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الحَرْبَا

حُبُّ الجَبَانِ لِنَفْسِهِ زَيَّنَ لَهُ التَّقِيَّةَ والإحْجَامَ ، وَحُبُّ الشُّجَاعِ لِنَفْسِهِ زَيَّنَ لَهُ التَّجَلُّدَ وَالإقْدَامَ ، وكِلاهُمَا مَعَ اخْتِلافِ تَنَاوُلِهِمَا ، رَأى أَنَّهُ مُصِيبٌ في فِعْلِه ، مُحْتَاطٌ عَلى الحَيَاةِ بِسَعْيِه . وَالجَبَانُ إنَّمَا اتَّقَى الحَرْبَ، فَتَرَكَ القِتَالَ حُبًّا لِنَفْسِه ، وَخَوْفًا عَلى رُوحِه ، والشُّجَاعُ إنَّمَا وَرَدَ الحَرْبَ دَفْعًا عَنْ مُهْجَتِه ، وَمُحَامَاةً عَلى نَفْسِه، لأَنَّهُ يَخَافُ عَلى نَفْسِهِ العَدُوَّ إنْ قَعَدَ عَن الحَرْبِ، أَوْ لأَنَّهُ إذا أرى مِنْ نَفْسِهِ الشَّجَاعَةَ وَالإقْدَامَ،كانَ في ذَلِكَ بَقَاءُ نَفْسِهِ وَذُيُوعُ صِيتِهِ وَخُلُودُ ذِكْرِه . كُلُّ أَحَدٍ يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ البَقَاءَ ، فَالجَبَانُ يَحْذَرُ لِقَاءَ الأَقْرَانِ ، وَيَسْتَعْمِلُ الخَوْفَ إبْقَاءً عَلى نَفْسِه ، وَطَلَبًا لِنَجَاتِه، وَالشُّجَاعُ يَطْرَحُ نَفْسَهُ في المَهَالِك، وَيُبَاشِرُ القِتَالَ طَلَبًا لاسْتِبْقَاءِ النَّفْسِ ، بِدَفْعِ الشَّرِّ وَالأَعْدَاءِ عَنْ نَفْسِه ، وَإبْقَاءِ الذِّكْرِ الجَمِيلِ بَعْدَه ، وَالقَصْدُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ ، وَهُوَ طَلَبُ الحَيَاةِ ، وَالسَّعْيُ مُخْتَلِفٌ . حُبُّ النَّفْسِ هُوَ الحَامِلُ الشُّجَاعَ عَلى شَجَاعَتِه ، وَحُبُّ النَّفْسِ هُوَ الحَامِلُ الجَبَانَ عَلى جُبْنِه ، وَلَكِنْ مَا أَبْعَدَ الفَارِقَ بَيْنَ النَّفْسَيْن ، وَمَا أَكْبَرَ المَسَافَةَ بَيْنَ الغَايَتَيْن ، وَمَا أَعْظَمَ الاخْتِلافَ بَيْنَ مَا يُحِبُّه هَذا ، وَمَا يُحِبُّهُ ذلك .

١٢ ــ الحُرُوبُ شَافِيَةٌ

وَأَنْتَ المَرْءُ تُمْرِضُهُ الحَشَايَا لِهِمَّتِهِ وَتَشْفِيهِ الحُرُوبُ

وَأنْتَ إنْسَانٌ كَرِيمٌ وَمَلِكٌ عَظِيمُ الهِمَّةِ ، لا تَلْتَذُّ بِالتَّنَعُّمِ وَالرَّاحَةِ ، فَالنَّوْمُ عَلى الحَشَايَا يُمْرِضُكَ وَيُتْعِبُكَ ، وَالحُرُوبُ تَشْفِيكَ وَتُرِيحُكَ ، إذْ إنَّ تَرْكَ العَادَةِ يُمْرِضُ الإنسانَ . وَالحَشَايَا : جَمْعُ الحَشِيَّةِ، وَهِيَ فِرَاشٌ يُتَّكَأ أوْ يُنَام عَلَيْهِ مَحْشُوٌّ بِالرِّيشِ أوْ بِالقُطْنِ أوْ بِنَحْوِهِمَا ، وَيُقَالُ : حَشَايَا المُلُوكِ وَالسَّلاطِين . هَذا القَائِدُ الكَبِيرُ يَمَلُّ أنْ يُقِيمَ يَوْمًا مِنْ غَيْرِ طَعْنٍ ، وَلا صَبِّ دَمٍ ، وإنَّ الحَشَايَا تُمْرِضُهُ ، وإنَّ شِفَاءَهُ الحُرُوب .

١٣ _ عُقْبَى الوَغَى

عُقْبَى اليَمِينِ عَلى عُقْبَى الوَغَى نَدَمُ مَاذَا يَزِيدُكَ في إقْدَامِكَ القَسَمُ

مَنْ حَلَفَ عَلى أنَّ عَاقِبَةَ الحَرْبِ لَه ، أي إنَّهُ ظَافِرٌ لا مَحَالَة ، كَانَت العَاقِبَةُ النَّدَمَ ، لأنَّهُ رُبَّمَا لا يَظْفَرُ ولا يَنْتَصِر ، وَالقَسَمُ لا يَزِيدُ في الإقْدَامِ ، لأنَّ الجَبَانَ لا يُقْدِمُ وَإنْ حَلَفَ . عَاقِبَةُ اليَمِينِ عَلى عَاقِبَةِ الحَرْبِ نَدَامَةٌ ، لأنَّهُ إذا حَلَفَ عَلى لِقَاءِ مَنْ لا يُقَاوِمُهُ انْهَزَمَ ، وكانَ انْهِزَامُهُ أَشْنَعَ ، وَالمَلامَةُ فِيهِ أوْقَعَ ، فَيَكُون عَاقِبَةُ اليَمِينِ الحِنْثَ وَاللَّوْمَ ، وَعَاقِبَةُ الحَرْبِ الانْهِزَامَ ، وَهَذا أشَدُّ مِنَ الانْهِزَامِ بِلا يَمِينٍ ، وَالقَسَمُ لا يَزِيدُ شَجَاعَةَ الإنسانِ إذا لَمْ يَكُنْ في نَفْسِهِ شَجَاعَةٌ ، يُمْكِنُهُ بِهَا مُقَاوَمَة خَصْمِه. وَالعُقْبَى: العَاقِبَةُ . و " عَلى " في قَوْلِه : (عَلى عُقْبَى الوَغَى) مُتَعَلِّقٌ بِلَفْظِ اليَمِينِ.

١٤_ السُّقُوطُ وَالانْهِزَامُ

فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمُ يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَالأرْوَاحُ تَنْهَزِمُ

كانتْ أجْسَامُهُمْ أثْبَتَ شَيْءٍ مِنْهُم، لأنَّهَا إذا سَقَطَتْ عَن الدَّوَابِّ ثَبَتَتْ مَكَانَهَا ، وَالأرْوَاحُ كَانَتْ تَطِيرُ وَلا تَسْتَقِرُّ . لَقَدْ ثَبَتَتْ أجْسَامُهُمْ أَمَامَكَ ، لأنَّكَ لَمْ تَتْرُكْ لَهُمْ سَبِيلًا إلى الهَزِيمَةِ ، فَسَقَطَتْ حَوْلَكَ ، وَانْهَزَمَتْ أرْوَاحُهُم .

١٥ _ عَسَلُ المَوْتِ في الهَيْجَا

فَثِبْ وَاثِقًا باللَّهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَى المَوْتَ في الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِ

بَادِرْ إلى الحَرْبِ بِدَارَ رَجُلٍ شَرِيفٍ يَسْتَحْلِي المَوْتَ كَمَا يَسْتَحْلِي العَسَلَ . ثِبْ إلى طَلَبِ المَعَالي وَاثِقًا باللَّهِ تَعَالى ، وِثْبَةَ رَجُلٍ مَاجِدٍ ، يَرَى لِلْمَوْتِ في الحَرْبِ حَلاوَةً كَالعَسَلِ في الفَمِ . وَالمَاجِدُ : الشَّرِيفُ ، وَالهَيْجَا : الحَرْب ، وَجَنَى النَّحْلِ : العَسَلُ المُجْتَنَى مِنَ النَّحْلِ .

١٦_ المَوْتُ في الوَغَى عَيْشٌ

فَمَوْتي في الوَغَى عَيْشِي لأنِّي رَأَيْتُ العَيْشَ في أَرَبِ النُّفُوسِ

إذا قُتِلْتُ في الحَرْبِ فَكَأنِّي قَدْ عِشْتُ ، لأنَّ حَقِيقَةَ العَيْشِ يَكُونُ فِيمَا تَشْتَهِي النَّفْسُ ، وَحَاجَتي أَنْ أُقْتَلَ في الحَرْبِ ، وإذا أَدْرَكْتُ حَاجَتي فَكَأنِّي قَدْ عِشْتُ . إنَّ مَوْتي في الحَرْبِ عَيْشٌ في الحَقِيقَةِ لِبَقَاءِ الذِّكْرِ الجَمِيلِ ، لأنَّني رَأَيْتُ العَيْشَ وَكَمَالَهُ في حَاجَاتِ النُّفُوسِ ، وَحَاجَتي حُصُولُ عَيْشِ الأَبَدِ ، وذلك في المَوْتِ، لِبَقَاءِ الذِّكْرِ الجَمِيلِ بَعْدِي. أوْ : إنَّ الحَرْبَ في سَبِيلِ اللَّهِ حَيَاةٌ لِي، لِكَوْنِي مِنَ الشُّهَدَاءِ الذينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ، فَكُنْتُ حَيًّا بِمَا أنا فِيهِ مِنَ الأجْرِ والثَّوَابِ.

١٧_ المَوْتُ في الحَرْبِ خُلُودٌ

كَأنَّكَ بِالفَقْرِ تَبْغِي الغِنَى وَبِالمَوْتِ في الحَرْبِ تَبْغِي الخُلُودَا

لإفْرَاطِ سُرُورِكَ بِبَذْلِ المَالِ كَأنَّكَ تُرِيدُ بِذَلِكَ الغِنَى ، لأنَّكَ تُسَرُّ بِمَا تُعْطِيهِ سُرُورَ غَيْرِكَ بِمَا يَأخُذُه ، فَكَانَ عِنْدَكَ أنَّ الفَقْرَ هُوَ الغِنَى ، وَكَأنَّكَ إذا مُتَّ في الحَرْبِ تَرَى أنَّكَ خَالِدٌ مُخَلَّدٌ . إنَّكَ تَحْرِصُ عَلى إتلافِ مَالِكَ في الجُودِ وَالكَرَمِ ، وإتلافِ نَفْسِكَ في الحَرْبِ ، فَكَأنَّكَ تَرَى غِنَاكَ في الفَقْرِ، وَتَرَى خُلُودَكَ في المَوْتِ. أنْتَ تُرِيدُ الغِنَى بِالفَقْرِ، وَتُرِيدُ البَقَاءَ وَالخُلُودَ بِالمَوْتِ في الحَرْبِ.

١٨_ الهُرُوبُ مِنَ العَارِ

لَقِيتَ القَنَا عَنْهُ بِنَفْسٍ كَرِيمَةٍ إلى المَوْتِ في الهَيْجَا مِنَ العَارِ تَهْرُبُ

حَامَيْتَ عَلى المَلِكِ ، وَدَافَعْتَ عَنْهُ بِنَفْسِكَ ، هَارِبًا مِنَ العَارِ إلى المَوْتِ ، أي : تَخْتَارُ المَوْتَ عَلى العَارِ . بَاشَرْتَ القِتَالَ عَن المَلِكِ بِنَفْسِكَ الكَرِيمَةِ التي تَهْرُبُ إلى المَوْتِ خَوْفًا مِنَ العَارِ ،

ولا تَهْرُبُ مِنَ المَوْتِ . ذُدْتَ عَن المَلِكِ الرِّمَاحَ ، وَلَقِيتَهَا بِنَفْسِكَ دُونَه ، حَمِيَّةً لَهُ وَحِفَاظًا وكَرَمًا ، لأنَّكَ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالإبَاءِ بِحَيْثُ تَهْرُبُ في الحَرْبِ مِنَ العَارِ إلى المَوْتِ، أي : تُلْقِي بِنَفْسِكَ إلى الهَلاكِ ، وَتَخْتَارُ ذلك عَلى الهَزِيمَةِ . وَالقَنَا : الرِّماحُ ، وَالهَيْجَا : الحَرْبُ . يَقُولُ لِكَافُور : لَقِيتَ القَنَا عَنْ ذلك المَلِكِ بِنَفْسٍ مُقْدِمَةٍ كَرِيمَةٍ ، جَرِيئَةٍ عَلى الأهْوَالِ أَبِيَّةٍ ، تَهْرُبُ في الحَرْبِ إلى المَوْتِ مِنَ العَارِ ، وَتُؤْثِرُهُ عَلى قُبْحِ الفِرَارِ .

١٩_ للنَّفْسِ حَالَتَانِ في الحَرْبِ

وَقَدْ يَتْرُكُ النَّفْسَ التي لا تَهَابُهُ وَيَخْتَرِمُ النَّفْسَ التي تَتَهَيَّبُ

قَدْ يَنْجُو مِنَ المَوْتِ مَنْ لا يَخَافُ مِنْه ، وَقَدْ يُصِيبُ المَوْتُ مَنْ يَحْذَرُ مِنْهُ وَيَخَافُه . وَيَخْتَرِمُ : يَأخُذُ وَيُهْلِكُ.وَفَاعِلُ (يَتْرُكُ وَيَخْتَرِمُ) ضَمِيرُ المَوْتِ. قَدْ يَتْرُكُ المَوْتُ النَّفْسَ التي لا تَهَابُهُ، وَتُقْدِمُ عَلَيْه،ولا تَحْذَرُهُ، وَتُسْرِع إلَيْه، وَيُهْلِكُ النَّفْسَ التي تَتَهَيَّبُهُ بِغَايَةِ جُهْدِهَا ، وَتَتَحَرَّزُ مِنْهُ بِأبْلَغِ وُسْعِهَا. أشارَ إلى أنَّ المَوْتَ لا يُسْتَدْفَعُ بِالحَذَرِ ، ولا يُفْضَى إلَيْهِ بالإقْدَامِ عَلى الغَرَرِ (التَّعْرِيض للهَلاكِ) .

٢٠_ خَوْضُ المَوْتِ

وَأَنْتَ تُعَلِّمُ الناسَ التَّعَزِّي وَخَوْضَ المَوْتِ في الحَرْبِ السِّجَالِ

لا تَحْتَاجُ إلى أنْ تَصْبِرَ ، فَإنَّكَ تُعَلِّمُ الناسَ التَّصَبُّرَ ، وَخَوْضَ المَهَالِكِ في الحَرْبِ . لَقَدْ مَرَّتْ عَلَيْكَ مِنْ شَدَائِدِ الدَّهْرِ مَا مَرَّنَتْكَ ، وَعَوَّدَتْكَ الصَّبْرَ . وَالحَرْبُ السِّجَالُ : أنْ تَكُونَ مَرَّةً عَلى هَؤلاء ، وَمَرَّةً عَلى هَؤلاء ، مَأخُوذ مِنَ المُسَاجَلَةِ ، وَهِيَ المُغَالَبَةُ في جَذْبِ الدَّلْوِ ، وَالسَّجْلُ : الدَّلْوُ العَظِيمُ . أنْتَ لا تَحْتَاجُ أنْ نُعَزِّيَكَ عَلى مَصَائِبِكَ ، لأنَّكَ تُعَلِّمُ الناسَ التَّصَبُّرَ ، وَتُعَلِّمُهُم اقْتِحَامَ المَنَايَا في الحُرُوبِ العَظِيمَةِ .

٢١_ السَّبْي

فَكُلَّمَا حَلَمَتْ عَذْرَاءُ عِنْدَهُمُ فَإنَّمَا حَلَمَتْ بِالسَّبْيِ وَالجَمَلِ

لِشِدَّةِ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الخَوْفِ، وكَثْرَةِ مَا رَأَوْا مِنَ السَّبْيِ والغَارَةِ ، إذا نَامَت المَرْأةُ عِنْدَهُمْ رَأَتْ في نَوْمِهَا السَّبْيَ وَالجَمَلَ ، وذلك أنَّهُنَّ إذا سُبِينَ حُمِلْنَ عَلى الإبِلِ . وَهَذا يَعْني أنَّ مَا اسْتَقَرَّ في قُلُوبِهِنَّ مِنَ الخَوْفِ لا يُفَارِقُهُنَّ في النَّوْمِ أيْضًا . لَقَدْ تَمَكَّنَ رُعْبُكَ في قُلُوبِ الأعْدَاءِ ، فَالْبِكْرُ مِنْهُمْ تَرَى في نَوْمِهَا أنَّهَا تُسْبَى ، لِتَمَكُّنِ ذَلِكَ في نَفْسِهَا في حَالِ اليَقَظَةِ ، فَهِيَ تَرَاهُ في المَنَامِ ، أوْ تَرَى الجَمَلَ ، لأنَّهُ لا يَكُونُ في بِلادِ الرُّومِ، فَالنَّفْسُ لَهُ أنكَرُ، وَالطِّبَاعُ مِنْهُ أنفَرُ. إذا نَامَت العَذْرَاءُ رَأَتْ في مَنَامِهَا كَابُوسًا، وَهُوَ أنَّهَا تُسْبَى وَتُحْمَلُ عَلى الجَمَلِ ، كِنَايَةً عَن العَرَبِ أَهْلِ الجِمَالِ الذينَ يَغْزُونَهُمْ . وَهَذا يُوَضِّح سَبَبَ عُقْدَةِ العَجَمِ وَالمَوَالي مِنَ البَعِيرِ ، وَشَخْصَنَةِ المَوْضُوعِ مَعَهُ وَكَرَاهِيَتِه ، وَهُوَ مُجَرَّد حَيَوَان اسْتَخْدَمَهُ العَرَبُ قَدِيمًا. وَلَكِنْ لَهُ دَلالةٌ في السَّبْي،وكانَ يُسَبِّب لَهُمْ كَوَابيس .

٢٢_ سَفْكُ الدِّمَاءِ

زَعِيمًا لِلْقَنَا الخَطِّيِّ عَزْمِي بِسَفْكِ دَمِ الحَوَاضِرِ وَالبَوَادِي

أُفَكِّرُ في حَالِ كَوْني زَعِيمًا للرِّماحِ بأنْ تَسْفِكَ دِمَاءَ الناسِ كُلِّهِمْ ، أَهْلِ الحَضَرِ وَأَهْلِ البَدْوِ . وَالزَّعِيمُ : الكَفِيلُ . وَيُقَال لِرَئيسِ القَوْمِ : زَعِيمُهُمْ ، لأنَّهُ يَكْفُلُ أُمُورَهُمْ .

٢٣_ لُبْسُ الدُّرُوعِ

مُتَعَوِّدًا لُبْسَ الدُّرُوعِ يَخَالُهَا في البَرْدِ خَزًّا وَالهَوَاجِرِ لاذَا

لا يُوجَدُ قَبْلَكَ إنْسَانٌ تَعَوَّدَ لُبْسَ الدُّرُوعِ ، يَظُنُّهَا في شِدَّةِ البَرْدِ خَزًّا يَقِيهِ البَرْدَ ، وفي شِدَّةِ الحَرِّ لاذًا يَقِيهِ الحَرَّ. فَبِسَبَبِ تَعَوُّدِكَ لُبْسَ الدُّرُوعِ صَارَتْ عِنْدَكَ كَلُبْسِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ الثِّيَابِ. مَا لَقِيَ أَحَدٌ قَبْلَكَ مُتَعَوِّدًا لُبْسَ الدُّرُوعِ في الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ حَتَّى يَخَالَهَا الْتِذَاذًا بِهَا ، وَاعْتِيَادًا لِلُبْسِهَا، أنَّهَا في البَرْدِ خَزٌّ،وفي الصَّيْفِ كَتَّانٌ. والخَزُّ : ثِيَابٌ غَلِيظَةٌ مِنَ الحَرِيرِ. وَاللَّاذُ : ثَوْبٌ رَقِيقٌ مِنَ الكَتَّانِ يُلاذُ بِهِ مِنَ الحَرِّ . والهَوَاجِرُ جَمْعُ الهَاجِرَةِ ، وَهِي وَقْتُ شِدَّةِ الحَرِّ في نَهَارِ الصَّيْفِ .

٢٤ _ تَأَمُّلُ الدِّرْعِ

وَأَرْهَبَ حَتَّى لَوْ تَأَمَّلَ دِرْعَهُ جَرَتْ جَزَعًا مِنْ غَيْرِ نارٍ ولا فَحْمِ

وَأَخَافَ كُلَّ شَخْصٍ ، حَتَّى لَوْ نَظَرَ بِهَيْبَتِهِ إلى دِرْعِهِ ، وَهِيَ حَدِيدٌ ، لَذَابَتْ جَزَعًا مِنْ خَوْفِه ، وَجَرَتْ جَرْيَ المَاءِ. قَدْ أَخَافَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الجَمَادَاتِ ، فَلَوْ أَنَّهُ نَظَرَ إلى دِرْعِهِ لَذَابَتْ خَوْفًا مِنْه ، مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَفَحْمٍ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا تَمْيِيزٌ وَعَقْلٌ .

٢٥_ صِيَاغَةُ الأَسِنَّةِ

وَقَدْ صُغْتَ الأَسِنَّةَ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطُرْنَ إلا في الفُؤَادِ

إنَّ أَسِنَّتَكَ (نِصَالَ رِمَاحِكَ) لا تَقَعُ إلا في قُلُوبِ أعْدَائِكَ كَأَنَّهَا الهُمُومُ ، لا مَحَلَّ لَهَا غَيْرُ القُلُوبِ . كَأَنَّكَ قَدْ ضَرَبْتَ أَسِنَّةَ رِمَاحِكَ مِنَ الهُمُومِ ، لأَنَّ مَحَلَّهَا القُلُوب ، كَمَا أَنَّ مَحَلَّ الهُمُومِ القُلُوب.وَالمَعْنى:إنَّ قُلُوبَ الأعْدَاءِ لا تَخْلُو مِنْ أَسِنَّة رِمَاحِكَ ، كَمَا لا تَخْلُو مِنَ الأَحْزَانِ والهُمُومِ .

٢٦ _ الهَمُّ في ذَوِي الأَسِنَّةِ

هَمُّهُ في ذَوِي الأسِنَّةِ لا فِيهَا وَأَطْرَافُهَا لَهُ كَالنِّطَاقِ

هَذا الفَارِسُ هَمُّهُ في قَتْلِ ذَوِي الأَسِنَّةِ ، ولا يَحْفِلُ بِأَنَّ أَطْرَافَهَا مُطِيفَةٌ بِخَصْرِه ، فَقَدَ صَارَتْ كَالنِّطَاقِ . إذا أَحَاطَتْ بِهِ الأَسِنَّةُ حَتَّى صَارَتْ كَالنِّطَاقِ حَوْلَه ، فَحِينَئِذٍ هِمَّتُهُ في الأبطال لا في أَسِنَّتِهِمْ لِيَتَحَرَّزَ مِنْهَا. يُشِيرُ إلى قِلَّةِ فِكْرِهِ في الأَسِنَّةِ المُحِيطَةِ بِه ، وَأَنَّهَا لا تَثْنِيهِ عَنْهُمْ. إنَّهُ لا يُبَالي بالأَسِنَّةِ التي تُحِيطُ بِهِ مِنْ جَوَانِبِهِ كَالنِّطَاقِ ، ولا يَكُونُ لَهُ بِهَا هِمَّة ، ولا يَحْذَر مِنْهَا ، بَلْ يَكُونُ هَمُّهُ مَصْرُوفًا إلى أصْحَابِ الأَسِنَّةِ لِيَطْعَنَهُمْ وَيَأسِرَهُمْ .

٢٧_ خِفَّةُ الحَدِيدِ وَلُيُونَتُه

يَجِدُ الحَدِيدَ عَلى بَضَاضَةِ جِلْدِهِ ثَوْبًا أَخَفَّ مِنَ الحَرِيرِ وَأَلْيَنَا

إنَّهُ مَعَ نُعُومَةِ جِسْمِهِ وَلِينِ جِلْدِه ، يَجِدُ الحَدِيدَ والسِّلاحَ عَلى بَدَنِهِ أَخَفَّ مِنَ الحَرِيرِ وَأَلْيَنَ ، وَإِنْ كَانَ الحَرِيرُ هُوَ النِّهَايَةَ في الخِفَّةِ واللِّينِ ، وذلك لِتَعَوُّدِهِ لُبْس السِّلاح وَإِلْفِهِ لَه . هَذا المَمْدُوحُ إذا لَبِسَ الدِّرْعَ فَهُوَ أَخَفُّ عَلَيْهِ مِنَ الحَرِيرِ وَأَلْيَنُ مِنْه . وَالبَضَاضَةُ : رِقَّةُ الجِلْدِ وَنُعُومَتُهُ مَعَ بَيَاضٍ .

٢٨_ طَعْنُ النُّحُورِ

قَوْمٌ بُلُوغُ الغُلامِ عِنْدَهُمُ طَعْنُ نُحُورِ الكُمَاةِ لا الحُلُمُ

هَؤلاء القَوْمُ إذا طَعَنَ الغُلامُ مِنْهُمْ نُحُورَ الكُمَاةِ (صُدُورَ الأبطالِ الشُّجْعَانِ) فَقَدْ بَلَغْ مَبْلَغَ الرِّجَالِ ، وَلَيْسَ البُلُوغُ عِنْدَهُم إدْرَاكَ الحُلُمِ ، وإنَّمَا هُوَ الطَّعْنُ . إنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعُدُّونَ فِيهِمْ بَالِغًا ، إلا إذا طَعَنَ نُحُورَ الشُّجْعَانِ ، أمَّا مُجَرَّد الاحتلام في مُلابَسَةِ الحُرُوبِ فَلا يَعُدُّونَهُ بُلُوغًا .

٢٩_ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ

وَطَعْنٍ كَأنَّ الطَّعْنَ لا طَعْنَ عِنْدَهُ وَضَرْبٍ كَأنَّ النارَ مِنْ حَرِّهِ بَرْدُ

كَأنَّ طَعْنَ الناسِ عِنْدَ ذَلِكَ الطَّعْنِ غَيْرُ طَعْنٍ ، لِشِدَّتِهِ ، وَقُصُورِ طَعْنِ الناسِ عَنْه ، فَكُلُّ طَعْنٍ بِالإضَافَةِ إلَيْهِ غَيْرُ طَعْنٍ ، وَأيْضًا ، ضَرْبٌ حَارٌّ كَأنَّ النارَ بالإضَافَةِ إلَيْهِ بَرْدٌ . وَطَعْنٍ كَأنَّ طَعْنَ الناسِ إذا قِيسَ إلَيْهِ لَيْسَ بِطَعْنٍ ، أَوْ بِضَرْبٍ بِالسَّيْفِ ، كَأنَّ النارَ إذا قِيسَتْ إلَيْهِ فَحَرُّهَا بَرْدٌ . والهاءُ في (عِنْدَهُ) للطَّعْنِ الأوَّلِ .

٣٠_ طَاعِنُ الطَّعْنَةِ

طَاعِنُ الطَّعْنةِ التي تَطْعَنُ الفَيْلَقَ بالذُّعْرِ وَالدَّمِ المُهَرَاقِ

إنَّهُ يَطْعَنُ الطَّعْنَةَ فَتَمْلَأ هَذه الطَّعْنَةُ قُلُوبَ الجَيْشِ خَوْفًا وَرُعْبًا ، فَكَأنَّهُ طَعَنَ الفَيْلَقَ ، وَأرَاقَ دِمَاءَهُمْ. وَالفَيْلَقُ : الكَتِيبَةُ العَظِيمَة . إنَّ طَعْنَتَهُ شَدِيدَةٌ عَمِيقَةٌ تَطْعَنُ الجَيْشَ كُلَّهُمْ ، لأنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنَ الدَّمِ ، فَيَخَافُونَ لذلك خَوْفًا شَدِيدًا ، فَكَأنَّ تِلْكَ الطَّعْنَةَ طَعَنَتْهُمْ ، وكَأنَّهُ طَعَنَهُمْ جَمِيعًا بِهَذه الطَّعْنَةِ الوَاحِدَةِ .

٣١_ الطِّعَانُ المُرُّ

تَرِدُ الطِّعَانَ المُرَّ عَنْ فُرْسَانِهِ وَتُنَازِلُ الأبطالَ عَنْ أبْطَالِهِ

إنَّكَ تُبَاشِرُ الطِّعَانَ الصَّعْبَ عَنْ فُرْسَانِ جَيْشِكَ ، وَتُقَاتِلُ شُجْعَانَ العَدُوِّ عَنْ شُجْعَانِ جَيْشِكَ . إنَّكَ تُقَاتِلُ عَنْ فُرْسَانِ جَيْشِكَ ، فَيَقَع عَلَيْكَ الطِّعَانُ المُرُّ دُونَهُمْ ، وَتُقَاتِل أبْطَالَ أعْدَائِكَ عَنْ أبْطَالِ جَيْشِكَ، فَتَكْفِيهِم القِتَالَ ، وَمُقَاسَاةَ الطِّعَانِ .

٣٢_ التَّضْحِيَةُ بِالحَيَاةِ

كُلٌّ يُرِيدُ رِجَالَهُ لِحَيَاتِهِ يا مَنْ يُرِيدُ حَيَاتَهُ لِرِجَالِهِ

كُلُّ المُلُوكِ إنَّمَا يُرِيدُونَ الجُنُودَ لِحَيَاةِ نُفُوسِهِم ، حَتَّى يَدْفَعُوا عَنْهَا الأعداءَ ، وَهُوَ يُرِيدُ الحَيَاةَ، لِيَدْفَعَ عَنْ جَيْشِهِ وَيَصُونُهُم. كُلُّ المُلُوكِ يُرِيدُونَ رِجَالَهُمْ لِيَدْفَعُوا عَنْهُمْ ، وَيَحْمُوهُمْ مِنْ أعْدَائِهِم ، لِيَبْقَوْا وَيَسْلَمُوا ، وَأنْتَ تُرِيدُ أنْ تَبْقَى وَتَسْلَمَ لِتُدَافِعَ عَنْ رِجَالِكَ ، وَتَحْمِيَهُمْ مِنْ كُلِّ أذى ، وَهَذا غَايَةُ الكَرَمِ وَالشَّرَفِ وَالشَّجَاعَةِ .

٣٣_ السِّلاحُ

إنَّ السِّلاحَ جَمِيعُ الناسِ تَحْمِلُهُ وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ

هَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ . لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَحْمِلُ السِّلاحَ شُجَاعًا ، كَمَا أنَّ لَيْسَ كُلُّ ذِي مِخْلَبٍ أَسَدًا ، وَيُرِيدُ بِالسَّبُعِ الأَسَدَ . وَقَدْ يَحْمِلُ الجَبَانُ السِّلاحَ كَمَا يَحْمِلُهُ الشُّجَاعُ ، وَقَدْ يَكُونُ لِغَيْرِ الأَسَدِ مِخْلَب ، كَالكَلْبِ والذِّئْبِ وَالضَّبُعِ ، كَمَا يَكُونُ للأَسَدِ .

٣٤ _ الطِّعَانُ وَالدَّمُ

مَلِلْتَ مُقَامَ يَوْمٍ لَيْسَ فِيهِ طِعَانٌ صَادِقٌ وَدَمٌ صَبِيبُ

إذا أَقَمْتَ يَوْمًا ، وَلَمْ تَخْرُجْ إلى الغَزْوِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ طِعَانٌ ، وَلا دَمٌ مَصْبُوبٌ ، مَلِلْتَ ذلك، وَسَئِمْتَ مِنْه ، أي : إنَّكَ تَعَوَّدْتَ الطِّعَانَ ، وَسَفْكَ دِمَاءِ الأعْدَاءِ ، فَإذَا أَقَمْتَ يَوْمًا وَاحِدًا مَلِلْتَ . وَالمُقَامُ : الإقَامَة ، والصَّادِق : الذي يُصِيبُ ولا يُخْطِئ ، وَالصَّبِيبُ : المَصْبُوبُ . لَقَدْ تَعَوَّدْتَ الحَرْبَ ، وَتَرَكْتَ الإقَامَةَ، فَمَتَى فَقَدْتَ ذَلِكَ يَوْمًا وَاحِدًا ، تَأَلَّمْتَ مِنْ ذلك ، وَمَلِلْتَ مِنْ طُولِ الإقَامَةِ ، فَأَلَمُكَ هُوَ الجُلُوسُ في الرَّاحَةِ والاسْتِرْخَاءِ ، وَتَرْكُ الحَرْبِ .

٣٥ _ أَطْرَافُ القَنَا

تَرَكْنَا لأطْرَافِ القَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ فَلَيْسَ لَنَا إلا بِهِنَّ لِعَابُ

تَرَكْنَا كُلَّ شَهْوَةٍ وَلَذَّةَ مُلاعَبَةٍ إلا بالرِّماحِ وَالسُّيُوفِ . تَرَكْنَا مَا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ مِنَ المَلاهِي ، فَلَهْوُنَا الطِّعَانُ بِالرِّماحِ . تَرَكْنَا شَهَوَاتِنَا للرِّماحِ ، فَلا لَذَّةَ لَنَا إلا فِيهَا. إنَّهُ فَطَمَ نَفْسَهُ عَن المَلاهِي ، وَقَصَرَهَا عَلى الجِدِّ في طِعَانِ الأعْدَاءِ . تَرَكْنَا لأطْرَافِ الرِّمَاحِ وَتَصْرِيفِهَا عِنْدَ مُطَارَدَةِ الفُرْسَانِ ، وَإعْمَالِهَا عِنْدَ مُجَاوَزَةِ الأقْرَانِ ، كُلَّ رَاحَةٍ وَشَهْوَةٍ ، وكُلَّ إرَادَةٍ وَلَذَّةٍ ، فَلَيْسَ لَنَا إلا بِهِنَّ لَعِبٌ نَسْتَعْمِلُه،ولا عَمَلَ بِغَيْرِهِنَّ نُقْبِلُ عَلَيْهِ وَنُحَاوِلُه .

نُصَرِّفُهُ للطَّعْنِ فَوْقَ حَوَادِرٍ قَدِ انْقَصَفَتْ فِيهِنَّ مِنْهُ كِعَابُ

نُصَرِّفُ القَنَا (الرِّماحَ) فَوْقَ خَيْلٍ غِلاظٍ سِمَانٍ ، قَد انكَسَرَتْ في هَذَهِ الخَيْلِ كُعُوبُ الرِّماحِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى . نُصَرِّفُ الرِّماحَ ، وَنَنْقُلُهَا مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ فَوْقَ خَيْلٍ غِلاظٍ سِمَانٍ قَدْ أَلِفَت الطَّعْنَ ، وَانكَسَرَتْ فِيهَا كِعَابٌ مِنَ القَنَا . وكِعَابُ الرِّماحِ: العُقَدُ النَّوَاشِزُ في أطْرَافِ الأنابيبِ .

٣٦_ الرِّمَاحُ

يَرَى في النَّوْمِ رُمْحَكَ في كُلاهُ وَيَخْشَى أنْ يَرَاهُ في السُّهَادِ

لِخَوْفِهِ إيَّاكَ ، إذا نَامَ رَأى كَأنَّكَ طَعَنْتَ في كُلْيَتَيْهِ بِرُمْحِكَ ، فَهُوَ يَخْشَى أنْ يَرَى ذَلِكَ في اليَقَظَةِ . يَرَى هَذا الجَبَانُ رُمْحَكَ أَصَابَتْ كُلاهُ في نَوْمِه ، فَخَافَ أنْ يَرَى في اليَقَظَةِ مَا يَرَاهُ في النَّوْمِ ، فَلا يَلَذُّ لَهُ نَوْمٌ أَبَدًا بِسَبَبِ ذَلِك .

فَرُؤُوسُ الرِّماحِ أذْهَبُ لِلْغَيْظِ وَأشْفَى لِغِلِّ صَدْرِ الحَقُودِ

طَعْنُ القَنَا مِنَ الأشياءِ التي تَشْفِي الصُّدُورَ مِنَ الحِقْدِ ، أوْ تُقْتَلُ فَتَسْتَرِيح مِمَّا كُنْتَ فِيهِ مِنَ الغَيْظِ وَالحِقْدِ. إذْهَابُ الغَيْظِ بِرُؤُوسِ الرِّمَاحِ أَكْبَرُ مِنْ إذْهَابِهِ بِالسِّلْمِ ، وَأشْفَى لِغِلِّ الحَقُودِ عَلى أعْدَائِه .

أُعَرِّضُ للرِّماحِ الصُّمِّ نَحْرِي وَأَنْصِبُ حُرَّ وَجْهِي للهَجِيرِ

أُحَارِبُ مَرَّةً فَأَلْقَى الرِّماحَ بِصَدْرِي ، وَمَرَّةً أَسِيرُ مُقَابِلًا شِدَّةَ الحَرِّ بِوَجْهِي وَقْتَ الهَاجِرَةِ ، كَيْ أُدْرِكَ مَعَالي الأُمُورِ . والصُّمُّ : الصِّلابُ ، والنَّحْرُ : الصَّدْرُ ، وَحُرُّ الوَجْهِ : خَالِصُهُ وَمَا بَدَا مِنْه ، والهَجِيرُ : شِدَّةُ الحَرِّ وَقْتَ الهَاجِرَةِ ، وَهِيَ نِصْفُ النَّهَارِ .

يُدِيرُ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمِ كُؤُوسَ المَنَايا حَيْثُ لا تُشْتَهَى الخَمْرُ

يُدِيرُ عَلى أَهْلِ الجَوْرِ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ كُؤُوسَ المَوْتِ في مَضَايِقِ الحَرْبِ ، التي لا يُشْتَهَى فِيهَا شُرْبُ الخَمْرِ .

وإذا الرِّمَاحُ شَغَلْنَ مُهْجَةَ ثائرٍ شَغَلَتْهُ مُهْجَتُهُ عَنِ الإِخْوَانِ

إذا تَنَاوَشَت الرِّماحُ طَالِبَ ثَأرٍ ، شَغَلَتْهُ صِيَانَةُ رُوحِهِ عَنْ إِدْرَاكِ ثَأرِ إِخْوَانِه ، أي : إنَّ الأَعْدَاءَ شُغِلُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِهِم ثَأر قَتْلاهُم . إنَّهُمْ جَاؤُوا يَطْلُبُونَ ثَأرَ مَنْ قَتَلْتَ مِنْهُمْ ، فَلَمَّا وَقَعَت الرِّماحُ في قُلُوبِهِم ، اشْتَغَلُوا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَنَسُوا إِخْوَانَهُم الذينَ يَطْلُبُونَ ثَأرَهُم . وَهَذا ذَمٌّ شَدِيدٌ لَهُمْ.

فَلَمَّا أَنَخْنَا رَكَزْنَا الرِّمَاحَ فَوْقَ مَكَارِمِنَا وَالعُلَا

فَلَمَّا أَنَخْنَا رَوَاحِلَنَا ، وَأَرَحْنَا رِكَائِبَنَا ، وَتَرَكْنَا الرِّمَاحَ اسْتِغْنَاءً عَن احْتِمَالِهَا ، وَفَارَقْنَاهَا غَيْرَ مُحْتَاجِينَ إلى اعْتِقَالِهَا ، فَرَكَزْنَاهَا فَوْقَ مَا خَلَّدْنَاهُ مِنْ مَكَارِمِنَا ، وَأَثْبَتْنَاهَا فِيمَا اخْتَرْنَاهُ مِنَ المَجْدِ بِنَفَاذِ عَزَائِمِنَا . لَمَّا نَزَلْنَا الكُوفَةَ ، وَأَنَخْنَا رِكَابَنَا ، وَرَكَزْنَا رِمَاحَنَا فَوْقَ العِزِّ وَالمَكَارِمِ ، لِمَا فَعَلْنَا مِنْ فِرَاقِ الأَسْوَدِ (كَافُور) ، وَقِتَالِ مَنْ قَاتَلَنَا في الطَّرِيقِ ، وَظَفَرِنَا بِمَنْ عَادَانَا ، وَكُلُّ هَذا يَدُلُّ عَلى المَكَارِمِ وَالعُلا ، وَظَهَرَتْ مَكَارِمُنَا بِمَا فَعَلْنَا ، وَكَأَنَّنَا نَزَلْنَا عَلى المَكَارِمِ وَالعُلا . يَعْنِي أنَّ هَذا المَسِيرَ فَخْرٌ لَنَا عَالِي المَحَل ، وَمَجْدٌ لَنَا رَفِيعُ الشَّأن ، لأَنَّنَا أَرْغَمْنَا بِهِ أَنْفَ كَافُور مَعَ مُلْكِه .

٣٧_ السُّيُوفُ

وإلا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًا تَمُتْ وَتُقَاسِي الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ

هَذا حَثٌّ مِنْهُ عَلى الحَرْبِ ، وَطَلَبِ العِزِّ . إنْ لَمْ تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ في الحَرْبِ مُكَرَّمًا ، تَمُتْ مُقَاسِيًا للمَذَلَّةِ سَاقِطَ الرُّتْبَةِ حَتْفَ أَنْفِكَ . وَمَوْتٌ في عِزٍّ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ في ذُلٍّ . إنْ لَمْ تُقْتَلْ في الحَرْبِ كَرِيمًا مُتَّ غَيْرَ كَرِيمٍ في الذُّلِّ وَالهَوَانِ . إنْ تَصْبِر عَلى شِدَّةِ الحَرْبِ أفْضَلُ مِنْ أنْ تَهْرُبَ ، ثُمَّ لا تَنْجُو مِنَ المَوْتِ في الذُّلِّ . إنْ لَمْ تَمُوتي أيَّتُهَا النَّفْسُ كَرِيمَةً بَيْنَ السُّيُوفِ ، فَسَوْفَ تَمُوتِين ذَلِيلَةً غَيْرَ مُكَرَّمَةٍ .

تَحْمَى السُّيُوفُ عَلى أعْدَائِهِ مَعَهُ كَأنَّهُنَّ بَنُوهُ أوْ عَشَائِرُه

إذا حَارَبَ أعْدَاءَهُ ، وَاشْتَدَّ حَرُّ غَضَبِه ، غَضِبَتْ سُيُوفُهُ عَلَيْهِمْ مَعَه ، حَتَّى كَأنَّ أقَارِبَهُ الذينَ يَغْضَبُونَ لِغَضَبِه . إنَّ السُّيُوفَ إذا كَانَتْ في يَدِهِ وَأيْدِي أوْلِيَائِه ، لِقُوَّتِهِ وشَجَاعَتِهِ وَإقْدَامِه ، كَأنَّهَا تَحْمَى وَتَغْضَب عَلى أعْدَائِه مَعَه،حَتَّى كَأنَّ السُّيُوفَ بَنُوهُ أوْ أقَارِبُهُ أوْ عَائِلَتُه، لأنَّهَا تَغْضَبُ لِغَضَبِه .

هُمَامٌ إذا مَا فَارَقَ الغِمْدَ سَيْفُهُ وَعَايَنْتَهُ لَمْ تَدْرِ أيَّهُمَا النَّصْلُ

هُوَ كَبِيرُ الهِمَّة ، يُشْبِهُ السَّيْفَ في مَضَائِهِ وَشِدَّتِه ، وَبَشَاشَةُ وَجْهِهِ كَصَقَالَةِ السَّيْفِ ، فَإذَا فَارَقَ السَّيْفُ غِمْدَهُ تَشُكُّ فِيهِمَا حَتَّى لا تَعْرِفَ أيُّهُمَا السَّيْف . إنَّ هَذا المَمْدُوحَ يَمْضِي في الأُمُورِ مَضَاءَ سَيْفِه ، فَإذَا فَارَقَ سَيْفُهُ الغِمْدَ لَمْ تَدْرِ أيُّهُمَا نَصْل السَّيْف .

قَوْمٌ إذا أَمْطَرَتْ مَوْتًا سُيُوفُهُمُ حَسِبْتَهَا سُحُبًا جَادَتْ عَلى بَلَدِ

هُمْ قَوْمٌ إذا قَاتَلُوا ، أَمْطَرَتْ سُيُوفُهُمْ مَوْتًا ، لِكَثْرَةِ مَا يَقْتُلُونَ بِهَا ، فَيَظُنُّ الشَّخْصُ سُيُوفَهُمْ غُيُومًا أَمْطَرَتْ مَطَرًا عَلى بَلَدٍ . إنَّهُ يُرِيدُ بِالمَوْتِ الدَّمَ ، لأنَّ سَيَلَانَهُ سَبَبُ المَوْتِ ، وإذا أَمْطَرَت السُّيُوفُ الدَّمَ ، فَقَدْ أَمْطَرَت المَوْتَ. شَبَّهَهَا وَهِيَ تُمْطِرُ الدَّمَ بِالسُّحُبِ تَجُودُ بِالمَطَرِ .

كَأنَّ الهَامَ في الهَيْجَا عُيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادِ

كَأنَّ هَامَ أَعْدَائِكَ عُيُونٌ ، وَسُيُوفُكَ مَضْرُوبَةٌ مِنَ النَّوْمِ ، فَلا يَكُونُ مَسْكَنُهَا إلا في الهَامَاتِ ، كَسُكُونِ النَّوْمِ في العَيْنِ . وَالهَامُ جَمْعُ الهَامَةِ ، وَهِيَ أعْلَى الرَّأسِ . سُيُوفُهُ لا تَقَعُ إلا عَلى الهَامِ ، ولا تَحُلُّ إلا في الرُّؤُوسِ كَالنَّوْمِ ، فَإنَّ مَحَلَّهُ مِنَ الجَسَدِ العَيْنُ ، يَقْبِضُ العَيْنَ فَيَحُلُّهَا .

وَقَدْ خَفَقَتْ لَكَ الرَّايَاتُ فِيهِ فَظَلَّ يَمُوجُ بِالبِيضِ الحِدَادِ

اضْطَرَبَتْ أعْلامُكَ وَتَحَرَّكَتْ لَكَ لا عَلَيْكَ ، في بَحْرِ الجِيَادِ ، فَظَلَّ ذَلِكَ البَحْرُ يَمُوجُ وَيَتَحَرَّكُ بِالسُّيُوفِ البَيْضَاءِ الحَادَّةِ القَاطِعَةِ. شَبَّهَ بَيَاضَ السُّيُوفِ بِمَاءِ البَحْرِ .

لَقُوكَ بِأَكْبُدِ الإبِلِ الأَبَايَا فَسُقْتَهُمُ وَحَدُّ السَّيْفِ حَادِ

لَقُوكَ عَاصِينَ غَلِيظَةً أكْبَادُهُمْ كَأكْبَادِ الإبِلِ التي تَأبَى عَلى أصْحَابِهَا ، وَلا تُطِيعُهُمْ ، وَلا تَنْقَادُ إلَيْهِمْ. وَالأَبَايَا جَمْعُ الأَبِيَّةِ، وَهِيَ المُمْتَنِعَةُ التي لا تَنْقَادُ ولا تُسَاقُ ، فَذَلَّلْتَهُمْ وَسُقْتَهُمْ أمَامَكَ كَمَا تُسَاقُ الإبِلُ ، وَحَدُّ سَيْفِكَ الذي يَحْدُوهُمْ وَيَسُوقُهُمْ ، أي إنَّ حَادِيهِمْ الذي يَسُوقُهُمْ هُوَ حَدُّ سَيْفِكَ . والإبِلُ تُوصَفُ بِغِلَظِ الأكْبَادِ . إنَّ أَعْدَاءَكَ رَأَوْكَ بِأكْبَادٍ غِلاظٍ كَأكْبَادِ الإبِلِ الأَبِيَّةِ التي لا تَنْقَادُ لِصُعُوبَتِهَا ، فَسُقْتَهُمْ مَعَ غِلَظِ أكْبَادِهِمْ رَغْمَ أُنُوفِهِمْ ، وَحَدُّ سَيْفِكَ حَادٍ بِهِمْ وَسَائِقُهُمْ .

غَمَدْتَ صَوَارِمًا لَوْ لَمْ يَتُوبُوا مَحَوْتَهُمُ بِهَا مَحْوَ المِدَادِ

غَمَدْتَ سُيُوفَكَ عَنْ قَتْلِهِمْ بِهَا، وَلَوْ لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ مَعْصِيَتِكَ ، لَمَحَوْتَهُمْ كَمَا يَنْمَحِي الحِبْرُ (المِدَادُ) مِنَ الأَلْوَاحِ .

يَهَابُهُ أَبْسَأُ الرِّجَالِ بِهِ وَتَتَّقِي حَدَّ السَّيْفِ البُهَمُ

يَخَافُ هَذا المَمْدُوحَ آنَسُ الرِّجَالِ بِه ، وَأَقْرَبُهُمْ إلَيْه ، وَتَحْذَرُ مِنْ حَدِّ سَيْفِهِ الشُّجْعَانُ ، فَكَيْفَ لا يُحْسَدُ امْرُؤٌ وَهَذِهِ صِفَتُه ؟! . كَيْفَ لا يُحْسَدُ مَنْ كَانَ مِنَ الهَيْبَةِ بِحَيْثُ يَهَابُهُ أَنِيسُه ، وَمِنَ الشَّجَاعَةِ بِحَيْثُ تَتَّقِيهِ الأبْطَالُ ؟!. وَأَبْسَأُ الرِّجَالِ بِه : آنَسُهُمْ بِهِ وَآلَفُهُمْ لَه ، وَتَتَّقِي : تَحْذَرُ ، والبُهَمُ جَمْعُ البُهْمَةِ، وَهُوَ البَطَلُ الشُّجَاعُ الذي لا يُعْرَفُ مِنْ أيْنَ يُؤْتَى مِنْ شِدَّةِ بَأسِهِ وَرَبَاطَةِ جَأشِه.

وَأَمَرُّ مِنْ فَقْدِ الأحِبَّةِ عِنْدَهُ فَقْدُ السُّيُوفِ الفَاقِدَاتِ الأَجْفُنَا

فَقْدُ السُّيُوفِ المُجَرَّدَةِ مِنَ الأغْمَادِ أَشَدُّ عَلَيْه ، وَأَمَرُّ عِنْدَهُ مِنْ فَقْدِ الأَحِبَّةِ ، وَبُعْدِهِمْ عَنْه . إنَّ الحَرْبَ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنَ الغَزَلِ ، فَإذَا فَقَدَ سُيُوفَهُ كَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ فَقْدِ أَحِبَّتِه ، ثُمَّ وَصَفَ سُيُوفَهُ بِأنَّهَا فَاقِدَةٌ لِجُفُونِهَا ، لأنَّهُ أَبَدًا يَسْتَعْمِلُهَا في الحَرْبِ .

فَصِرْتُ كَالسَّيْفِ حَامِدًا يَدَهُ لا يَحْمَدُ السَّيْفُ كُلَّ مَنْ حَمَلَه

أنا أَحْمَدُهُ حَمْدَ السَّيْفِ إيَّاه ، والسَّيْفُ لا يَحْمَدُ كُلَّ حَامِلٍ . إنَّ جَوْدَةَ ضَرْبِ المَمْدُوحِ وَقُوَّةَ سَاعِدِهِ سَبَبٌ لإظْهَارِ حَدِّ سَيْفِه ، فَصَارَ سَيْفُهُ حَامِدًا لَهُ حَيْثُ أَظْهَرَ جَوْدَتَه ، وَالسَّيْفُ إذا كَانَ في يَدِ مَنْ لا يُحْسِنُ الضَّرْبَ نَبَا إنْ كَانَ مَاضِيًا ، وإنَّمَا يَعْمَلُ السَّيْفُ في يَدِ الحَاذِقِ بِتَصْرِيفِه ، وَلا يَحْمَد السَّيْفُ مَنْ لا يُحْسِنُ الضَّرْبَ بِه .

ألا أيُّهَا السَّيْفُ الذي لَيْسَ مُغْمَدًا ولا فِيهِ مُرتَابٌ وَلا مِنْهُ عَاصِمُ

أنْتَ السَّيْفُ الذي لا يُغْمَدُ ، إذْ هُوَ دائمًا مُجَرَّد عَلى أعْدَائِه ، وَلَيْسَ يَرتَابُ (يَشُكُّ) في هَذا أَحَدٌ ، ولا يَعْصِمُ (لا يَحْمِي ولا يَمْنَع) مِنْكَ شَيْءٌ ، لا حِصْنٌ ولا حَدِيد . لَسْتَ كَسَائِرِ السُّيُوفِ في أنَّهَا تُغْمَدُ مَرَّةً ، وَتُشْهَرُ أُخْرَى ، بَلْ أنْتَ مُجَرَّد أَبَدًا ، تَنْصُر الدَّوْلَةَ ، وَتَذُبُّ عَنْهَا ، وَتُحَامِي دُونَهَا، ولا يَشُكُّ أَحَدٌ في أنَّكَ بِهَذه الصِّفَةِ ، وَمَنْ طَلَبَتَهُ لَمْ يَعْصِمْهُ مِنْكَ عَاصِمٌ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ مَانِعٌ.

إذا ضَرَبَتْ في الحَرْبِ بِالسَّيْفِ كَفُّهُ تَبَيَّنْتَ أنَّ السَّيْفَ بِالكَفِّ يَضْرِبُ

إذا ضَرَبَ بِالسَّيْفِ عَمِلَ في يَدِهِ أكْثَرَ مِمَّا يَعْمَلُ في يَدِ غَيْرِه ، فَإذَا رَأَيْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ أنَّ السَّيْفَ عَمِلَ عَلى قَدْرِ قُوَّةِ الكَفِّ . إذا نَظَرْتَ إلى أَثَرِ سَيْفِهِ عِنْدَ ضَرْبِه ، عَلِمْتَ أنَّ سَيْفَه بِكَفِّهِ يَعْمَلُ ، وَلا تَعْمَلُ كَفُّهُ بِسَيْفِه ، أي إنَّ الضَّرْبَةَ الشَّدِيدَةَ إنَّمَا تَحْصُلُ بِقُوَّةِ الكَفِّ لا بِجَوْدَةِ السَّيْفِ ، وَإنَّ السَّيْفَ المَاضِي في يَدِ الضَّعِيفِ لا يَعْمَلُ شَيْئًا. إذا ضَرَبَتْ كَفُّ المَمْدُوحِ في الحَرْبِ بِسَيْفِه ، وَأَمَدَّهُ بِقُوَّةِ سَاعِدِه ، تَبَيَّنْتَ مِنْ سُرْعَةِ قَطْعِه ، وَبَدَا لَكَ مِنْ نَفَاذِ فِعْلِه، مَا تَعْلَمُ بِهِ أنَّ السَّيْفَ إنَّمَا يَضْرِبُ عَلى حَسَبِ الكَفِّ التي تُمْسِكُه ، وَيَنْفُذُ بِمِقْدَارِ قُوَّةِ السَّاعِدِ الذي يُحَرِّكُه .

سَلَلْتَ سُيُوفًا عَلَّمَتْ كُلَّ خَاطِبٍ عَلى كُلِّ عُودٍ كَيْفَ يَدْعُو وَيَخْطُبُ

سُيُوفُكَ تُعَلِّمُ الخُطَبَاءَ الخُطْبَةَ بِاسْمِكَ في الدُّعَاءِ لَكَ ، لأنَّكَ أَخَذْتَ البِلادَ بِنَفْسِكَ ، فَصَارَ خَطِيبُ كُلِّ بَلَدٍ يَخْطُبُ عَلى اسْمِكَ . بَرْقُ سُيُوفِكَ المَسْلُولَةِ عَلَّمَت الخُطَبَاءَ في جَمِيعِ البِلادِ أنَّ الوَاجِبَ عَلَيْهِمْ أنْ يَخْطُبُوا في جَمِيعِ الناسِ ، فَخَطَبُوا عَلى كُلِّ مِنْبَرٍ بِاسْمِكَ .

جَرَحْتِ مُجَرَّحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ مَكَانٌ للسُّيُوفِ وَلا السِّهَامِ

يُخَاطِبُ الحُمَّى ، وَيُشِيرُ إلى نَفْسِه : جَرَحْتِ مِنِّي بَدَنًا مُجَرَّحًا ، قَدْ عَمَّتْهُ الجُرُوحُ ، فَلَيْسَ فِيهِ مَوْضِعٌ صَحِيحٌ تَجْرَحُهُ السُّيُوفُ وَالسِّهَامُ . جَرَحْتِ مُجَرَّحًا قَدْ أَنْهَكَتْهُ خُطُوبُ الدَّهْرِ ، وَأَتْعَبَتْهُ مَصَائِبُ الحَيَاةِ ، فَلَمْ يَبْقَ فِيهِ للسُّيُوفِ مَكَانٌ تَنَالُهُ بِالضَّرْبِ ، ولا للسِّهَامِ بَقِيَّة تَعْتَمِدُهَا بِالرَّمْيِ ، فأشارَ إلى سُوءِ حَالِه ، وَشِدَّةِ أَلَمِه ، وَصُعُوبَةِ وَضْعِه .

وَبِتْنَا نُقَبِّلُ أَسْيَافَنَا وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ العِدَى

لَمَّا وَصَلْنَا إلى وَطَنِنَا قَبَّلْنَا أَسْيَافَنَا شُكْرًا لَهَا ، لأَنَّهَا أَخْرَجَتْنَا مِنْ بَيْنِ الأَعْدَاءِ ، وَنَجَّتْنَا مِنَ المَهَالِكِ، وَمَسَحْنَا عَنْهَا دِمَاءَ الأَعْدَاءِ الذينَ قَتَلْنَاهُمْ بِهَا .

إذا كُنْتَ في شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فَابْلُهُ فَإِمَّا تُنَفِّيهِ وَإِمَّا تُعِدُّه

إذا جَرَّبْتَ السَّيْفَ بَانَ لَكَ صَلاحُهُ وَفَسَادُه ، فَإِمَّا أَنْ تُلْقِيَهُ لأَنَّهُ سَيِّئٌ ، وإِمَّا أَنْ تُعِدَّهُ للحَرْبِ لأَنَّهُ قَاطِعٌ . وَهَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ لِنَفْسِه ، يَقُول : جَرِّبْنِي فَإِمَّا أَنْ تَقْبَلَنِي ، وإِمَّا أَنْ تَرْفُضَنِي . إِنْ شَكَكْتَ في حَالِي فَجَرِّبْنِي، فَإِنَّنِي مِثْلُ السَّيْفِ يَتَبَيَّنُ حَالُهُ بِالتَّجْرِبَةِ، فَإِنْ رَضِيتَنِي جَعَلْتَنِي عُدَّةً لَكَ، وإلا رَمَيْتَ بِي . إذا كُنْتَ في شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ وَفِعْلِه ، وَصَرَامَتِهِ في قَطْعِه ، فَاخْتَبِرْهُ بِتَجْرِبَتِكَ ، وَاحْمِلْهُ عَلى مِحْنَتِكَ، فَإِمَّا تُنَفِّيهِ وَتَطْرَحُهُ لِرَدَاءَةِ حَدِّه ، وَإِمَّا تُعِدُّهُ وَتُعْجَبُ بِهِ لِمَا تَشْهَدُهُ مِنْ فِعْلِه .

لَوِ اسْتَبْدَلْتَ ذِهْنَكَ مِنْ حُسَامٍ قَدَدْتَ بِهِ المَغَافِرَ وَالدُّرُوعَا

يَصِفُهُ بِالذَّكَاءِ وَالفِطْنَةِ وَحِدَّةِ الذِّهْنِ وَجَوْدَةِ الخَاطِرِ ، حَتَّى لَوْ أَخَذَ ذِهْنَهُ بَدَلًا مِنَ الحُسَامِ لَقَطَعَ بِهِ المَغَافِرَ وَالدُّرُوعَ عَلى الأَعْدَاءِ. والمَغَافِرُ جَمْعُ المِغْفَرِ (الخُوذَة) ، والدُّرُوعُ جَمْعُ الدِّرْعِ . لَوْ جَعَلْتَ ذِهْنَكَ بَدَلًا مِنْ سَيْفِكَ لَقَطَعْتَ بِهِ المَغَافِرَ والدُّرُوعِ .

٣٨_ الجَيْشُ

إذا مَا لَمْ تُسِرْ جَيْشًا إِلَيْهِمْ أَسَرْتَ إلى قُلُوبِهِمُ الهُلُوعَا

إذا لَمْ تَغْزُهُمْ بِجَيْشِكَ غَزَوْتَهُمْ بِالفَزَعِ ، فَلا يَزَالُونَ خَائِفِينَ مِنْكَ جَزِعِين . إذا لَمْ تُسَيِّرْ جَيْشَكَ إلَيْهِمْ ، وَتَرَكْتَ قِتَالَهُمْ ، فَقَدْ سَيَّرْتَ إلى قُلُوبِهِمُ الجَزَعَ وَالخَوْفَ ، فَكَأنَّكَ قَدْ سَيَّرْتَ إلَيْهِمُ الجَيْشَ ، لأنَّ خَوْفَهُمْ مِنْكَ يَقُومُ مَقَامَ الجَيْشِ .

الجَيْشُ جَيْشُكَ غَيْرَ أنَّكَ جَيْشُهُ في قَلْبِهِ وَيَمِينِهِ وَشِمَالِه

الجَيْشُ لَكَ ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ أَمِيرٌ ، لأنَّكَ تَحْمِيهِ بِنَفْسِكَ ، وَتَذُبُّ عَنْهُ بِسَيْفِكَ ، فَكَأنَّكَ جَيْشُ الجَيْشِ . الجَيْشُ في الحَقِيقَةِ جَيْشُكَ ، فَكُلُّ جَيْشٍ سِوَى جَيْشِكَ لَيْسَ جَيْشًا ، لَكِنَّكَ جَيْشُ جَيْشِكَ، لأنَّهُمْ بِكَ يَتَقَوَّوْنَ ، وَالقَلْبُ وَالجَنَاحَانِ بِكَ قُوَّتُهُمْ .

وَجَيْشٌ يُغَنِّي كُلَّ طَوْدٍ كَأنَّهُ خَرِيقُ رِيَاحٍ وَاجَهَتْ غُصْنًا رَطْبَا

هَذا الجَيْشُ العَظِيمُ إذا مَرَّ بِجَبَلٍ كَانَ لِكَثْرَتِهِ كَأنَّهُ جَبَلٌ آخَر ، فَصَارَ بِهِ الجَبَلُ جَبَلَيْن ، وَهُوَ مَعَ هَذِهِ الكَثْرَةِ وَالكَثَافَةِ إذا لاقى عَدُوًّا كَانَ لِشِدَّتِهِ كَأنَّهُ رِيحٌ شَدِيدَةٌ لَقِيَتْ غُصْنًا رَطْبًا فَحَطَّمَتْه . وَالطَّوْدُ : الجَبَلُ العَظِيمُ ، وَالخَرِيقُ : الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ التي تَخْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ تَجْرِي عَلَيْه .

أَكُلَّمَا رُمْتَ جَيْشًا فَانْثَنَى هَرَبًا تَصَرَّفَتْ بِكَ في آثارِهِ الهِمَمُ

كُلَّمَا قَصَدْتَ جَيْشًا، وَهَرَبَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ ، حَمَلَتْكَ هِمَّتُكَ العَالِيَةُ عَلى طَلَبِه ، وَاتِّبَاعِ أَثَرِه . مَتَى مَا هَزَمْتَ جَيْشًا حَمَلَتْكَ هِمَّتُكَ عَلى اقْتِفَائِهِمْ وَاقْتِفَاءِ آثَارِهِمْ ، وهذا اسْتِفْهَامُ إنكارٍ ، أي : لا تَفْعَل هَذا .

وَهَلْ يَنْفَعُ الجَيْشُ الكَثِيرُ الْتِفَافُهُ عَلى غَيْرِ مَنْصُورٍ وَغَيْرِ مُعَانِ

إنَّ الجَيْشَ الكَثِيرَ لا يَنْفَعُ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَنْصُورًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَه وَتَعَالى ، مُعَانًا بِتَأْيِيدِه . إذا لَمْ يَكُن الإنسانُ مَنْصُورًا مِنَ اللَّهِ ، فَلا تَنْفَعُهُ كَثْرَةُ جَيْشِهِ وَاجْتِمَاعُه . والالْتِفَافُ : الاجْتِمَاعُ .

يُغَيِّرُ أَلْوَانَ الليالي عَلى العِدَى بِمَنْشُورَةِ الرَّايَاتِ مَنصُورَةِ الجُنْدِ

يُغَيِّرُ عَلى أَعْدَائِهِ أَلْوَانَ الليالي وَهِيَ مُظْلِمَةٌ ، فَيَجْعَلُهَا مُشْرِقَةً بِبَرِيقِ سِلاحِ عَسَاكِرِهِ التي هِيَ مَنْشُورَةُ الرَّايَاتِ مَنْصُورَةُ الجُنْدِ.إنَّ هَذا القَائِدَ المَمْدُوحَ يَجْعَلُ سَوَادَ اللَّيْلِ بَيَاضًا،وَيُغَيِّرُ أَلْوَانَ الليالي عَلى الأَعْدَاءِ حَتَّى يَجْعَلَهَا كَالنَّهَارِ بِجُيُوشٍ قَدْ نَشَرُوا رَايَاتِهِمْ، وَنُصِرَتْ جُنُودُهُمْ.وَتَغْيِيرُ أَلْوَانِ الليالي هُوَ أَنْ يَقْلِبَ سَوَادَهَا بِبَرِيقِ سُيُوفِهِمْ إلى ضَوْءِ النَّهَارِ، أَوْ بِالنِّيرَانِ التي أَلْقَاهَا في دِيَارِ الأَعْدَاءِ .

عَلَيْكَ هَزْمُهُمُ في كُلِّ مُعْتَرَكٍ وَمَا عَلَيْكَ بِهِمْ عَارٌ إذا انْهَزَمُوا

إنَّمَا عَلَيْكَ أنْ تَهْزِمَهُم ، فَإذَا انْهَزَمُوا فَلَيْسَ عَلَيْكَ عَارٌ في انْهِزَامِهِمْ ، بَلْ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلى قُوَّتِكَ . عَلَيْكَ أنْ تَهْزِمَهُمْ إنِ الْتَقَوْا مَعَكَ في مُلْتَقَى الحَرْبِ ، وَلا عَارَ عَلَيْكَ إذا انْهَزَمُوا ، فَتَحَصَّنُوا بِالهَرَبِ ، وَلَمْ تَظْفَرْ بِهِمْ .

٣٩ _ القَتْلُ وَالقِتَالُ

فَإنْ كَانَ يَبْغي قَتْلَهَا يَكُ قَاتِلًا بَكَفِّيْهِ فَالقَتْلُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

إذا كُنْتَ تُرِيدُ قَتْلِي وَإزْهَاقَ نَفْسِي فَلا تُرْسِلْ أَحَدًا ، تَعَالَ إلَيَّ وَاقْتُلْنِي بِيَدَيْكَ ، وَأنَا سَوْفَ أَسْتَسْلِمُ لَكَ حُبًّا وكَرَامَةً لَكَ ، لأنَّ القَتْلَ بِيَدَيْكَ شَرِيفٌ ، وأنا أُرِيدُ أَنْ أَمُوتَ مِيتَةً شَرِيفَةً .

وَكَمْ رِجَالٍ بِلا أَرْضٍ لِكَثْرَتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمُ أَرْضًا بِلا رَجُلِ

كَمْ رِجَالٍ مِنَ الأَعْدَاءِ ضَاقَت الأَرْضُ بِهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ ، فَأَفْنَيْتَهُمْ ، وَأَهْلَكْتَهُمْ ، حَتَّى أَخْلَيْتَ أَرْضَهُمْ ، وَصَارتْ دِيَارُهُمْ خَالِيَةً لَيْسَ فِيهَا رَجُلٌ .

وَلَمْ أَرَ كَالأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ بَعَثْنَ بِكُلِّ القَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ

كُنْتُ إذا نَظَرْتُ إلَى النِّسَاءِ ، وَنَظَرْنَ إلَيَّ ، قَتَلْنَنِي ، وَقَتَلْتُهُنَّ مِنْ خَوْفِ الفِرَاقِ ، وَمَا مِنَّا إلا مُشْفِقٌ عَلى صَاحِبِه ، فَلَمْ أَرَ أَعْجَبَ مِنَ الأَلْحَاظِ ، كَيْفَ اجْتَمَعَ فِيهَا القَتْلُ وَالشَّفَقَةُ ؟! . وقِيل : المُشْفِقُ هُوَ الخَائِفُ . وَمَعْنَاه : بَعَثَت الأَلْحَاظُ مِنْ كُلِّ خَائِفٍ مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ كُلَّ أَنْوَاعِ القَتْلِ ، لأنَّهَا أَبْكَتْهُمْ ، فَسَفَكَتْ دِمَاءَهُمْ وَأَمَاتَتْهُمْ .

فَإنْ كَانَ خَوْفُ القَتْلِ والأَسْرِ سَاقَهُمْ فَقَدْ فَعَلُوا مَا القَتْلُ وَالأَسْرُ فَاعِلُ

إنْ كَانَ الذي سَاقَهُمْ إلَيْكَ لِطَلَبِ الصُّلْحِ وَالأمَانِ هُوَ الخَوْف مِنَ القَتْلِ وَالأَسْرِ ، فَقَدْ فَعَلُوا في مَجِيئِهِمْ إلَيْكَ مَا يَفْعَلُهُ القَتْلُ وَالأَسْرُ مِنَ الذُّلِّ وَالخِزْيِ وَالعَارِ وَالاسْتِكَانَةِ ، لأنَّهُمْ إنَّمَا جَاؤُوكَ خَوْفًا ، فَصَارُوا كَالمَقْتُولِين والمَأسُورِين .

فَخَافُوكَ حَتَّى مَا لِقَتْلٍ زِيَادَةٌ وَجَاؤُوكَ حَتَّى مَا تُرَادُ السَّلاسِلُ

خَافُوكَ خَوْفًا لَوْ قَتَلْتَهُمْ لَمْ يَزِدْ خَوْفُهُمْ عَلى ذَلِك ، وَجَاؤُوكَ طَائِعِينَ خَاضِعِينَ حَتَّى مَا يُحْتَاجُ في أَسْرِهِمْ إلى السَّلاسِلِ التي تُجْعَلُ في أَعْنَاقِ الأَسْرَى . وَفي المَثَلِ: الحَذَرُ أَشَدُّ مِنَ الوَقِيعَةِ .

يُسَابِقُ القَتْلُ فِيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ فَمَا يُصِيبُهُمُ مَوْتٌ وَلا هَرَمُ

القَتْلُ يَسْبِقُ إلى الأعْدَاءِ كُلَّ حَادِثَةٍ ، فَيُمِيتُهُمُ القَتْلُ قَبْلَ أنْ يُصِيبَهُمْ مَوْتٌ طَبِيعِيٌّ أوْ شَيْبٌ أوْ هَرَمٌ ، ولا شَيْء مِنْ حَوَادِثِ الأيَّامِ وَمَصَائِبِ الدَّهْرِ .

لَوِ اسْتَفْرَغْتَ جُهْدَكَ في قِتَالٍ أَتَيْتَ بِهِ عَلى الدُّنْيَا جَمِيعَا

لَوْ بَذَلْتَ جُهْدَكَ وَقُدْرَتَكَ في القِتَالِ ، لأتَيْتَ عَلى جَمِيعِ أهْلِ الدُّنيا وَلَأفْنَيْتَهُمْ وَأهْلَكْتَهُمْ ، حَتَّى لا تَبْقَى الدُّنْيَا وَلا أَهْلُهَا .

والذي يَشْهَدُ الوَغَى سَاكِنَ القَلْبِ كَأنَّ القِتَالَ فِيهَا ذِمَامُ

أنْتَ الرَّجُلُ الذي يَحْضُرُ الحَرْبَ سَاكِنَ القَلْبِ وَرَابِطَ الجَأشِ ، حَتَّى كَأنَّ القِتَالَ الذي يَكُونُ في الحَرْبِ عَهْدٌ وَأمَان . كَأنَّ القِتَالَ عَاهَدَهُ عَلى أنْ لا يَقْتُلَ ، فَهُوَ يَسْكُنُ إلى القِتَالِ سُكُونَهُ إلى الذِّمَامِ (العَهْدِ وَالأمَانِ وَالضَّمَانِ) .

فَإنْ تَكُ مِنْ بَعْدِ القِتَالِ أَتَيْتَنَا فَقَدْ هَزَمَ الأعْدَاءَ ذِكْرُكَ مِنْ قَبْلِ

فَإنْ كُنْتَ جِئْتَ إلَيْنَا بَعْدَ أنْ هَزَمْنَاهُمْ ، فَإنَّمَا هَزَمْنَاهُمْ بِاسْمِكَ ، فَقَامَ ذِكْرُكَ مَقَامَ حُضُورِكَ .

الفصل السابع عَشَر
الأعْدَاءُ

١ــ أَفْئِدَةُ الأَعَادِي

فَلا تَغْرُرْكَ ألْسِنَةٌ مَوَالٍ تُقَلِّبُهُنَّ أفْئِدَةٌ أعَادِي

أَلْسِنَتُهُمْ تُظْهِرُ لَكَ الوِلايَةَ وَالمَحَبَّةَ ، وَقُلُوبُهُمْ تُضْمِرُ لَكَ العَدَاوَةَ ، فَلا تَغْتَرَّ بِذَلِكَ ، فَإِنَّ تِلْكَ الأَلْسِنَةَ المُوَالِيَةَ تُقَلِّبُهَا أَفْئِدَةٌ مُعَادِيَة . لا تَغْتَرَّ بِإظْهَارِهِمْ لَكَ المُوَالاة بِأَلْسِنَتِهِمْ ، فَإِنَّ أَفْئِدَتَهُمْ مُضْمِرَةٌ للعَدَاوَةِ ، فَتَغْلِبُ أَلْسِنَتَهُمْ قُلُوبٌ مُعَادِيَةٌ ، فَلا تَغْتَرَّ بِظَاهِرِ أحْوَالِهِمْ . وَالمَوَالي : جَمْعُ المَوْلَى ، وَهُوَ الوَلِيُّ (الحَلِيفُ وَالصَّدِيقُ) .

٢ ــ سَلْبُ الأعَادِي

قَدِ اسْتَقْصَيْتَ في سَلْبِ الأعَادِي فَرُدَّ لَهُمْ مِنَ السَّلَبِ الهُجُوعَا

بَالَغْتَ في سَلْبِ الأعْدَاءِ ، فَسَلَبْتَهُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى النَّوْم ، فَرُدَّ ذَلِكَ النَّوْمَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُمْ لا يَجِدُونَ النَّوْمَ خَوْفًا مِنْكَ. إنَّهُمْ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنْكَ أنْ تَسْلُبَهُمْ نُفُوسَهُمْ ، لا يَنَامُون، فَأَمِّنْهُمْ لِيَنَامُوا .

٣ــ لا تَسْلَمُ الأعْدَاءُ

ولا يَشْتَهِي يَبْقَى وَتَفْنَى هِبَاتُهُ ولا تَسْلَمُ الأعْدَاءُ مِنْهُ وَيَسْلَمُ

هَذا المَمْدُوحُ لا يُحِبُّ أنْ يَبْقَى،ولا عَطَاءَ لَه. إنَّمَا يُحِبُّ البَقَاءَ لِيُعْطِيَ، فَإذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَطَاءٌ، لَمْ يُحِبَّ البَقَاءَ ، ولا يُحِبُّ أنْ يَسْلَمَ في نَفْسِهِ مَعَ سَلامَةِ الأعْدَاءِ مِنْه ، أي إنَّهُ يُحِبُّ أنْ يَقْتُلَهُمْ وَإنْ كَانَ في ذَلِكَ هَلاكُه . إنَّهُ لا يُحِبُّ البَقَاءَ في الدُّنيا إلا للإفْضَالِ عَلى الأحْبَابِ والأصْدِقَاءِ ، وَمَنْحِهِم العَطَايَا ، وكذلك لا يُحِبُّ أنْ يَسْلَمَ أَعْدَاؤُهُ وَيَسْلَمَ هُوَ ، بَلْ يُحِبُّ الانْتِقَامَ مِنْهُمْ .

٤ــ قَتْلُ نُفُوسِ العِدَى

قَتَلْتَ نُفُوسَ العِدَى بِالحَدِيدِ حَتَّى قَتَلْتَ بِهِنَّ الحَدِيدَا

قَتَلْتَ الأعْدَاءَ بِالسِّلاحِ ، حَتَّى كَسَرْتَ السِّلاحَ فِيهِمْ . وَمَعْنَى (قَتْلِ الحَدِيدِ بِهِنَّ) : كَسْرُ الحَدِيدِ في نُفُوسِ الأعْدَاءِ ، وَتَحْطِيمُ السُّيُوفِ فِيهِمْ .

٥_ دَمُ الأعْدَاءِ

سَقَاني اللَّهُ قَبْلَ المَوْتِ يَوْمًا دَمَ الأعْدَاءِ مِنْ جَوْفِ الجُرُوحِ

سَقَاني اللَّهُ دَمَ الأعْدَاءِ مِنْ جُرُوحِهِمْ ، وَشَفَى قَلْبي مِنَ الغَيْظِ بِقَتْلِهِمْ ، وَهَذا دُعَاءٌ بِلَفْظِ الخَبَرِ.

٦_ مُلاقَاةُ العِدَى

أُنَاسٌ إذا لاقَوْا عِدًى فَكَأنَّمَا سِلاحُ الذي لاقَوْا غُبَارُ السَّلاهِبِ

سَلاحُ أعْدَائِهِمْ عِنْدَهُمْ كَغُبارِ الخَيْلِ ، لا يَعْبَؤُونَ بِه ، ولا يَلْتَفِتُونَ إلَيْه . والسَّلاهِبُ جَمْعُ السَّلْهَبِ ، وَهُوَ الطَّوِيلُ مِنَ الخَيْلِ . وَخَصَّ السَّلاهِبَ لأنَّهَا أَسْرَعُ ، وَغُبَارُهَا أَدَقُّ وَأَلْطَفُ . إنَّهُمْ أُنَاسٌ إذا لاقَوْا أَعْدَاءَهُمْ في الحَرْبِ ، كَانَ سِلاحُ أَعْدَائِهِمْ غُبَارَ خَيْلِهِمْ التي رَكِبُوهَا ، فَسِلاحُهُمْ لا يَرُدُّ عَنْهُمْ ولا يَحْمِيهِمْ ولا يَمْنَعُهُم ، كَمَا لا يَمْنَعُهُمُ الغُبارُ . أوْ : إنَّهُمْ إذا لَقُوا أَعْدَاءَهُمْ ، كانَ أَمْضَى سِلاحِهِمْ إثَارَةَ الغُبارِ في الهَزِيمَةِ وَالهَرَبَ ، أي : إنَّهُمْ إذا هَرَبُوا مَنَعُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الهَلاكِ ، كَمَا يَمْنَعُونَهَا بِالسِّلاحِ .

٧ _ قُلُوبُ الأعَادِي

بَعَثُوا الرُّعْبَ في قُلُوبِ الأعَادِي فَكَأنَّ القِتَالَ قَبْلَ التَّلاقي

هَيَّجُوا الخَوْفَ في قُلُوبِ الأعْدَاءِ ، فَكَأنَّهُمْ قَاتَلُوهُمْ قَبْلَ أنْ لَقُوهُمْ لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ قَبْلَ اللِّقَاءِ. لَقَدْ مَلَؤُوا قُلُوبَ أَعَادِيهِمْ مِنَ الخَوْفِ ، فَانْهَزَمُوا مِنْهُمْ قَبْلَ مُلاقَاتِهِم وَقِتَالِهِمْ ، فَكَأنَّ القِتَالَ وَالحَرْبَ قَبْلَ الالْتِقَاءِ .

٨ _ مُحَارَبَةُ الأعْدَاءِ

تُحَارِبُهُ الأعْدَاءُ وَهْيَ عَبِيدُهُ وَتَدَّخِرُ الأمْوَالَ وَهْيَ غَنَائِمُه

أَعْدَاؤُهُ يُحَارِبُونَهُ ، وَهُمْ عَبِيدُه ، لأَنَّهُ يَسْبِيهِمْ فَيَسْتَرِقُّهُمْ وَيَمْلِكُ رِقَابَهُمْ ، وَمَا يَدَّخِرُونَهُ مِنَ الأَمْوَالِ غِنَائِمُه ، لأَنَّهُ يَحْتَوِيهَا بالإِغَارَةِ عَلَيْهَا . إِنَّ أَعْدَاءَهُ يُحَارِبُونَه ، وَهُمْ عَبِيدُه ، يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَأسِرُهُمْ وَيَسْتَعْبِدُهُمْ ، وَيَجْمَعُونَ الأَمْوَالَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ يَغْنَمُهَا .

٩ _ كَأَنَّ العِدَى خُلَفَاؤُه

كَأَنَّ العِدَى في أَرْضِهِمْ خُلَفَاؤُهُ فَإِنْ شَاءَ حَازُوهَا وَإِنْ شَاءَ سَلَّمُوا

أَعْدَاؤُهُ مِنَ المُلُوكِ كَأَنَّهُمْ خُلَفَاؤُهُ حِيْثُمَا كَانُوا مِنَ الأَرْضِ ، اسْتَخْلَفَهُمْ عَلى حِفْظِهَا ، فَإِنْ شَاءَ تَرَكَهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِنْ شَاءَ أَجْلاهُمْ عَنْهَا ، فَيَخْرُجُونَ ، وَيُسَلِّمُونَ أَرْضَهُمْ إِلَيْه . كَأَنَّ أَعْدَاءَهُ في بِلادِهِمْ عُمَّالُهُ وَخُلَفَاؤُه ، فَإِنْ شَاءَ حَازَ بِلادَهُمْ بِالقَهْرِ ، وَإِنْ شَاءَ سَلَّمُوهَا وَتَسَلَّمَهَا مِنْهُمْ .

١٠ _ العُدَاةُ فَرَائِسُ

فَلا زَالَتْ عُدَاتُكَ حَيْثُ كَانَتْ فَرَائِسَ أَيُّهَا الأَسَدُ المَهِيجُ

فَلا زَالَ أَعْدَاؤُكَ أَيُّهَا الأَسَدُ فَرَائِسَ لَكَ حَيْثُمَا كَانُوا . جَعَلَ اللَّهُ أَعْدَاءَكَ حَيْثُ كَانُوا فَرَائِسَكَ أَيُّهَا الأَسَدُ . وَالمَهِيجُ : الهَائِجُ .

١١ _ ضَرْبُ الأَعْدَاءِ

لا زِلْتَ تَضْرِبُ مَنْ عَادَاكَ عَنْ عُرُضٍ بِعَاجِلِ النَّصْرِ في مُسْتَأخِرِ الأَجَلِ

لا زِلْتَ ضَارِبًا أَعْدَاءَكَ كَيْفَمَا وَجَدْتَهُمْ ، مُقْبِلِينَ وَمُدْبِرِين ، بِنَصْرٍ عَاجِلٍ في أَجَلٍ مُسْتَأخِرٍ . لا زِلْتَ تَضْرِبُ أَعْدَاءَكَ عَنْ يَمْنَةٍ وَيَسْرَةٍ ، مُعْتَرِضًا لَهُمْ بِسَيْفِكَ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُكَ بِنَصْرٍ قَدْ عَجَّلَهُ لَكَ ، وَأَجَلٍ قَدْ أَخَّرَهُ اللَّهُ عَنْكَ، فَكَأَنَّهُ أَخَّرَ اللَّهُ أَجَلَكَ، وَعَجَّلَ نَصْرَكَ .

١٢ _ كَيْدُ الأَعْدَاءِ

إِذا سَعَتِ الأَعْدَاءُ في كَيْدِ مَجْدِهِ سَعَى جَدُّهُ في كَيْدِهِمْ سَعْيَ مُحْنَقِ

إنَّ الأعْدَاءَ إذا سَعَتْ في كَيْدِ مَجْدِ هَذا المَمْدُوحِ ، سَعَى حَظُّهُ سَعْيَ مُغْضَبٍ يَجْتَهِدُ في أنْ يَفْعَلَ في المُسْتَقْبَلِ أكْثَرَ مِمَّا فَعَلَ في الزَّمَانِ الأوَّلِ . والجَدُّ : الحَظُّ ، وَالمُحْنَقُ : المُغْضَبُ . مَتَى قَصَدَ أَعْدَاؤُهُ إلى هَدْمِ مَجْدِهِ، غَضِبَ لِذَلِكَ حَظُّه ، وَرَدَّ كَيْدَ أعْدَائِهِ إلَيْهِمْ .

١٣ _ العَدَاءُ غَيْرُ المَنْطِقِيِّ

أُعَادَى عَلى مَا يُوجِبُ الحُبَّ لِلْفَتَى وَأَهْدَأُ وَالأفْكَارُ فِيَّ تَجُولُ

أُعَادَى عَلى عِلْمِي وَفَضْلِي وَتَقَدُّمِي في الشِّعْرِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يُوجِبُ الحُبَّ لا العَدَاءَ ، وَأَسْكُنُ أنا وأفكاري تَجُولُ فِيَّ ولا تَسْكُنُ. لَقَدْ حَسَدُوني لِفَضْلِي وَعَادَوْني ، وكانَ يَجِبُ أنْ يُحِبُّوني ، لأنَّ الفَضْلَ يُوجِبُ المَحَبَّةَ ، وَأَهْدَأُ مُنْطَوِيًا عَلى سَلامَةِ الصَّدْرِ ، وَأَسْكُنُ ولا أَحْسُدُ أَحَدًا ، وَأَنَامُ خَالِي البَالِ ، وأفكارُ الحَاسِدِين تَجُولُ فِيَّ ، وَأَنْفُسُهُمْ تَتَشَاغَلُ بِي .

١٤ _ كَثْرَةُ الأعْدَاءِ

وَسِوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ فَعَلَى أَيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ

أعْدَاؤُكَ كَثِيرُون ، وَلَيْسَ الرُّومُ أَعْدَاءَكَ فَحَسْب ، بَلْ أيْضًا هُنَاك أعداء لَكَ غَيْرُهُمْ ، وَرُومٌ أُخَر مِنَ البَوَادِي وَالأعْرَابِ ، فَإنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ الرُّومِ ، فَأَيُّهُمْ تُقَاتِلُ . سِوَى الرُّومِ لَكَ وَرَاءَ ظَهْرِكَ أعداء كَالرُّومِ في المُعَادَاةِ .

١٥ _ إبَادَةُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ

يُبِيدُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ بِلُطْفِهِ فَإنْ لَمْ تَبِدْ مِنْهُمْ أَبَادَ الأعَادِيَا

يَتَلَطَّفُ في أَمْرِ الأعْدَاءِ وَإزالةِ الأحْقَادِ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِإحْسَانِه ، فَإنْ لَمْ يَنْفَعْ فِيهِمْ الرِّفْقُ ، وَلَمْ تَذْهَبْ عَدَاوَتُهُمْ ، أَهْلَكَهُمْ وَأَفْنَاهُمْ . يُبِيدُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ ، وَيَقْطَعُهَا بِإحْسَانِهِ إلَيْهِمْ ، وَتَأَلُّفِهِ لِجَمِيعِهِمْ ، فَإنْ لَمْ تَنْفَعْ فِيهِمْ سَمَاحَتُه ، وَلَمْ يَصْرِفْهُمْ إلى الانقِيَادِ لِطَاعَتِهِ لُطْفُه ، حَلُّوا مَحَلَّ الأعْدَاءِ، فأبَادَتْهُمْ سَطْوَتُه، وَقَادَتْهُمْ إلى التَّلَفِ عُقُوبَتُه .

١٦_ جَمَاجِمُ الأعْدَاءِ

وَبِمَا أثَّرَتْ صَوَارِمُهُ البِيضُ لَهُ في جَمَاجِمِ الأعْدَاءِ

يَفْتَخِرُ بِتَأثِيرِ سُيُوفِهِ في رُؤُوسِ أعْدَائِه .

١٧ _ مُغَالَبَةُ الأعْدَاءِ

وَغَالَبَهُ الأعْدَاءُ ثُمَّ عَنَوْا لَهُ كَمَا غَالَبَتْ بِيضَ السُّيُوفِ رِقَابُ

لَمْ يَجِدُوا طَرِيقًا إلى غَلَبَتِه ، فَخَضَعُوا لَه ، وَانْقَادُوا كَالرِّقَابِ إذا غَالَبَت السُّيُوفَ ، صَارَتْ مَغْلُوبَةً . إنَّ أعْدَاءَهُ طَلَبُوا مُغَالَبَتَه ، فَقَهَرَهُمْ ، وَأَذَلَّهُمْ ، فَخَضَعُوا لَه ، وكانوا لَهُ مِثْلَ رِقَابٍ غَالَبَت السُّيُوفَ فَقَطَعَتْهَا . لَقَدْ غَالَبَهُ الأعْدَاءُ مُخْتَبِرِينَ لِمِقْدَارِ قُوَّتِه ، وَدَافَعُوهُ جَاهِلِينَ بِمَبْلَغِ قُدْرَتِه ، ثُمَّ خَضَعُوا لَهُ مُسَلِّمِينَ لأمْرِه ، وَتَذَلَّلُوا رَاضِينَ بِحُكْمِه ، فَكَانُوا في مُغَالَبَتِهِمْ إيَّاهُ كَالرِّقَابِ التي تُغَالِبُ السُّيُوفَ فَتَقْطَعُهَا ، وَتُعَارِضُهَا فَتَفْصِلُهَا . وإلى مِثْلِ ذَلِكَ كَانَ مَآلُ أعْدَائِهِ في مُغَالَبَتِهِمْ لَه .

١٨_ غَضَبُ الأعَادِي

وَيَزِيدُني غَضَبُ الأعَادِي قَسْوَةً وَيُلِمُّ بِي عَتْبُ الصَّدِيقِ فَأَجْزَعُ

إذا غَضِبَ العَدُوُّ ، لَمْ أُبَالِ بِغَضَبِه ، بَل ازْدَدْتُ قَسْوَةً عَلَيْه ، وَإذا عَتَبَ عَلَيَّ صَدِيقٌ أَدْنَى عَتْبٍ ، جَزِعْتُ مِنْه . إنَّهُ لا يُعْتِبُ أعْدَاءَه ، ولا يَلِينُ لَهُمْ ، بَلْ يَزْدَاد عَلَيْهِمْ قَسْوَةً إذا غَضِبُوا ، وَيَجْزَعُ عِنْدَ عَتْبِ الصَّدِيقِ ، فَلا يُطِيقُ احْتِمَالَه . يَزِيدُني غَضَبُ الأعْدَاءِ أَنَفَةً وَقَسْوَةً ، وَيَبْعَثُ مِنِّي إعْرَاضُهُمْ حَمِيَّةً وَجُرْأةً، وَيُلِمُّ بِي عَتْبُ الصَّدِيقِ فَأَجْزَعُ ، وَأُسَلِّمُ لأمْرِه ، وَيَتَزَيَّدُ عَلَيَّ فَأُرْضِيه ، وَأُلْزِمُ نَفْسِي بِحُكْمِه . يُشِيرُ إلى أنَّ جَزَعَهُ عَلى صَدِيقِهِ لَمْ يَكُنْ عَنْ ضَعْفٍ مِنْه وَقِلَّةِ حِيلَةٍ ، وإنَّمَا كَانَ عَنْ كَرَمٍ وَوَفَاءٍ جِبِلَّةٍ .

١٩_ دَمْعُ العَدُوِّ

لا يَخْدَعَنَّكَ مِنْ عَدُوٍّ دَمْعُهُ وَارْحَمْ شَبَابَكَ مِنْ عَدُوٍّ تَرْحَمُ

لا تَنْخَدِعْ بِبُكَاءِ العَدُوِّ، وَارْحَمْ نَفْسَكَ مِنْ عَدُوٍّ تَرْحَمُه ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَفِرَ بِكَ لَمْ يُبْقِ عَلَيْكَ . إذا قَدَرْتَ عَلى عَدُوِّكَ فَاقْتُلْه ، ولا يَخْدَعْكَ بُكَاؤُه، وَارْحَمْ شَبَابَكَ بِذُلِّ عَدُوٍّ تَرْحَمُه .

٢٠_ نَفْعُ العَدَاوَةِ

وَمِنَ العَدَاوَةِ مَا يَنَالُكَ نَفْعُهُ وَمِنَ الصَّدَاقَةِ مَا يَضُرُّ وَيُؤْلِمُ

إنَّ عَدَاوَةَ السَّاقِطِ تَدُلُّ عَلى مُبَايَنَةِ طَبْعِهِ لِطَبْعِكَ فَيَنْفَعُكَ، وَمَوَدَّتُهُ تَدُلُّ عَلى المُنَاسَبَةِ فَيَضُرُّكَ. أوْ : رُبَّ عَدَاوَةٍ جَلَبَتْ إلَيْكَ نَفْعًا ، أَقَلُّهُ التَّحَفُّظُ مِنْ وُقُوعِ المَهَالِكِ ، وَرُبَّ صَدَاقَةٍ أَعْقَبَتْ لَكَ ضُرًّا وَأَلَمًا ، وَأَوْرَثَتْ عَدَمَ التَّوَقِّي مِمَّا تُصَادِفُه . إنَّ عَدَاوَةَ العَاقِلِ خَيْرٌ مِنْ صَدَاقَةِ الجَاهِلِ ، فَتِلْكَ العَدَاوَةُ رُبَّمَا تَتَضَمَّنُ مَنْفَعَةً وَخَيْرًا ، وَهَذِهِ الصَّدَاقَةُ رُبَّمَا تَتَضَمَّنُ مَضَرَّةً وَشَرًّا . وكَمَا قِيل : عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ ، فَإِنَّ العَدُوَّ العَاقِلَ يَمْنَعُهُ عَنْكَ عَقْلُه ، وَالصَّدِيقُ الجَاهِلُ يُرِيدُ أنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ .

*

الفصل الثامن عَشَر

الخَمْرُ

١ _ شُرْبُ الخَمْرِ صِرْفًا

إذا مَا شَرِبْتَ الخَمْرَ صِرْفًا مُهَنَّأً شَرِبْنَا الذي مِنْ مِثْلِهِ شَرِبَ الكَرْمُ

إذا شَرِبْتَ الخَمْرَ صِرْفًا (خَالِصَةً غَيْرَ مَمْزُوجَةٍ بِشَيْءٍ) ، مُهَنَّأً بِشُرْبِهَا ، شَرِبْتُ أنا المَاءَ الذي شَرِبَ الكَرْمُ مِنْ مِثْلِه ، أي: إنَّ شَرَابِي هُوَ المَاءُ لا الخَمْرُ .

٢_ هَجْرُ الخَمْرِ

هَجَرْتُ الخَمْرَ كَالذَّهَبِ المُصَفَّى فَخَمْرِي مَاءُ مُزْنٍ كَاللُّجَيْنِ

تَرَكْتُ الخَمْرَ التي تُشْبِهُ الذَّهَبَ المُصَفَّى في لَوْنِهَا ، وَعَدَلْتُ إلى المَاءِ الصَّافِي الذي يُشْبِهُ لَوْنُهُ الفِضَّةَ (اللُّجَيْن) لِصَفَائِه . هَجَرْتُ الخَمْرَ الصَّافِيَةَ الحَمْرَاءَ ، وَجَعَلْتُ خَمْرِي مَاءً أبْيَضَ ، وَهُوَ مَاءُ الغَمَامِ (المُزْنِ) ، فلا أشْرَبُ خَمْرًا أبَدًا .

٣_ تأثيرُ الخَمْرِ

نَالَ الذي نِلْتُ مِنْهُ مِنِّي لِلَّهِ مَا تَصْنَعُ الخُمُورُ

الذي نِلْتُ مِنْهُ بِشُرْبِهِ نَالَ مِنِّي بِتَغْيِيرِ أعْضَائي ، وَالأخْذِ مِنْ عَقْلي . لَقَدْ شَرِبَت الخَمْرُ مِنْ عَقْلِي مَا شَرِبْتُ أنا مِنْهَا ، ثُمَّ تَعَجَّبَ مِمَّا تَفْعَلُهُ الخَمْرُ .

٤_ سَقْيُ الخَمْرِ

سَقَاني الخَمْرَ قَوْلُكَ لِي بِحَقِّي وَوُدٌّ لَمْ تَشُبْهُ لِي بِمَذْقِ

حَمَلَنِي عَلى شُرْبِ الخَمْرِ قَوْلُكَ لِي: بِحَقِّي، فَيَلْزَمُنِي رِعَايَتُه، والأمْرُ الثاني مَوَدَّتُكَ الخَالِصَةُ لِي التي لا يَشُوبُهَا خِلافٌ ولا مَذْقٌ. والمَذْقُ : المَخْلُوطُ (ضِد الخَالِصِ) .

الفصل التاسع عَشَر

مَنظومةُ الأخلاقِ وَالقِيَمِ وَالمَبَادِئ (الإيجابية والسلبية)

أ_ الإيجَابِيَّةُ

١_ الكَرَمُ

لَوْ فُرِّقَ الكَرَمُ المُفَرِّقُ مَالَهُ في الناسِ لَمْ يَكُ في الزَّمَانِ شَحِيحُ

لَوْ فُرِّقَ في الناسِ كَرَمُهُ الذي يُفَرِّقُ مَالَهُ لَصَارَ الناسُ كُلُّهُمْ كُرَمَاءَ أَسْخِيَاء . لَوْ أَنَّهُ فَرَّقَ كَرَمَهُ الذي يُفَرِّقُ مَالَهُ عَلى الناسِ، لَمْ يَكُنْ في الزَّمَانِ بَخِيلٌ ، أي إنَّ بِرَّهُ يَعُمُّ الناسَ حَتَّى لا يَبْخَلَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنَ المَالِ .

لَوْ كُنْتَ بَحْرًا لَمْ يَكُنْ لَكَ سَاحِلٌ أَوْ كُنْتَ غَيْثًا ضَاقَ عَنْكَ اللُّوحُ

لَوْ كُنْتَ بَحْرًا لَمْ يَكُنْ لَكَ شَاطِئٌ ونِهَايَةٌ ، أَوْ كُنْتَ غَيْثًا ضَاقَ عَنْكَ الهَوَاءُ لِكَثْرَتِه . وَالغَيْثُ : السَّحَابُ فِيهِ مَطَرٌ ، واللُّوحُ : الهَوَاءُ. لَمْ يَكُنْ يَسَعُكَ الهَوَاءُ لَوْ كُنْتَ سَحَابًا .

كَأَنَّكَ في الإعْطَاءِ للمَالِ مُبْغِضٌ وفي كُلِّ حَرْبٍ لِلْمَنِيَّةِ عَاشِقُ

كَأَنَّكَ مُبْغِضٌ مَالَكَ ، لِكَثْرَةِ تَفْرِيقِهِ للناسِ ، وَشِدَّةِ كَرَمِكَ ، وكَأَنَّكَ عَاشِقٌ للمَوْتِ في كُلِّ حَرْبٍ لِمُلازَمَتِكَ دَوَاعِيهَا وَأَسْبَابَهَا .

وَثِقْنَا بِأَنْ تُعْطِي فَلَوْ لَمْ تَجُدْ لَنَا لَخِلْنَاكَ قَدْ أَعْطَيْتَ مِنْ قُوَّةِ الوَهْمِ

وَثِقْنَا بِأَنَّكَ تُعْطِينَا لِمَا تَحَقَّقْنَاهُ مِنْ كَرَمِكَ ، فَلَوْ لَمْ تُعْطِنَا لَظَنَنَّاكَ قَدْ أَعْطَيْتَنَا . وَثِقْنَا بِأَنَّكَ تُكْرِمُنَا وَتُعْطِينَا لِقُوَّةِ ظُنُونِنَا ، حَتَّى لَوْ لَمْ تُعْطِنَا لَظَنَنَّا أَنَّكَ قَدْ أَعْطَيْتَنَا مِنْ قُوَّةِ الوَهْمِ ، وَلِمَا شَاهَدْنَا مِن شِدَّةِ كَرَمِكَ ، وَدَوَامِ جُودِكَ ، وكَثْرَةِ عَطَايَاكَ . وَخِلْنَاكَ : حَسِبْنَاكَ ، وَالوَهْمُ : تَخَيُّلُ الشَّيْءِ وَتَمَثُّلُه ، كانَ في الوُجُودِ أَوْ لَمْ يَكُنْ .

وَمَا الغَضَبُ الطَّرِيفُ وَإِنْ تَقَوَّى بِمُنْتَصِفٍ مِنَ الكَرَمِ التِّلادِ

إنَّ غَضَبَكَ المُسْتَحْدَثَ ، وَإِنْ كَانَ قَوِيًّا ، فَلا يُؤَثِّرُ في كَرَمِكَ الأَصْلِيِّ القَدِيمِ ، فَلا يُمْكِنُهُ أنْ يَغْلِبَ كَرَمَكَ المَتِينَ . والطَّرِيفُ: المُسْتَحْدَثُ (مَا اسْتَفَادَهُ الرَّجُلُ فَكَانَ مُحْدَثًا) ، فَاسْتَعَارَ ذَلِكَ للغَضَبِ ، والتِّلادُ : القَدِيمُ . لَقَدْ جَعَلَ كَرَمَ المَمْدُوحِ تِلادًا ، لأَنَّهُ وَرِثَهُ عَنْ آبَائِه . إنَّ الغَضَبَ الحَادِثَ لا يَغْلِبُ الكَرَمَ القَدِيمَ،وَإِنْ كَانَ قَوِيًّا، لأنَّ الطَّارِئَ المُسْتَحْدَثَ لا يَكُونُ كَالقَدِيمِ المَوْرُوثِ.

كَفَانِيَ الذَّمُّ أنَّني رَجُلٌ أَكْرَمُ مَالٍ مَلَكْتُهُ الكَرَمُ

الذي أَزَالَ عَنِّي الذَّمَّ أنَّني أَبْذُلُ المَالَ ، وَأَصُونُ الكَرَمَ ، فَأَكْرَمُ مَا أَمْلِكُ وَأَدَّخِرُهُ لِنَفْسِي إنَّمَا هُوَ الكَرَمُ ، فَلا سَبِيلَ لأحَدٍ أنْ يَذُمَّنِي مَعَ هَذا الكَرَمِ . وَجَعَلَ الكَرَمَ مَالًا لأَنَّهُ كَانَ يَصُونُهُ وَيَبْخَلُ بِهِ بُخْلَ غَيْرِهِ بِالمَالِ ، وَصِيَانَةُ الكَرَمِ في بَذْلِ المَالِ .

لا يَرُدُّ بِفِيهِ كَفَّ سَائِلِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَيَرُدُّ الجَحْفَلَ اللَّجِبَا

إذا جَاءَهُ السَّائِلُ لا يَرُدُّهُ بِقَوْلِهِ ولا يَنْهَرُه، وَهُوَ مَعَ ذلك يَرُدُّ الجَيْشَ العَظِيمَ بِكَلِمَةِ تَهْدِيدٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِه. لا يَرُدُّ السَّائِلَ خَائِبًا بِقَوْلِه : ((لا)) ، ولَكِنْ يَرُدُّهُ بِالعَطَاءِ . إنَّهُ كَرِيمٌ شُجَاعٌ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَرُدَّ سَائِلَه ، وَلَكِنَّهُ يَرُدُّ وَحْدَهُ الجَيْشَ العَظِيمَ . وَالجَحْفَلُ : الجَيْشُ العَظِيمُ ، واللَّجِبُ : المُخْتَلِط الأصْوَات .

لِمَنْ مَالٌ تُمَزِّقُهُ العَطَايا وَيُشْرَكُ في رَغَائِبِهِ الأَنَامُ

لَيْسَ مَالٌ تُفَرِّقُهُ العَطَايَا ، وَيُشْرَكُ جَمِيعُ الناسِ في رَغَائِبِهِ، سِوَى مَالِكَ . لِمَنْ مَالٌ نَرَاهُ عِنْدَكَ وَعَطَايَاكَ تُفَرِّقُه، وَالخَلْقُ كُلُّهُمْ شُرَكَاء في رَغَائِبِه ؟. وهَذا اسْتِفْهَامٌ، وَعِلْمُهُ ثابتٌ بِأَنَّهُ مَالُ المَمْدُوحِ . وَالرَّغَائِبُ جَمْعُ الرَّغِيبَةِ ، وَهِيَ العَطَاءُ الكَثِيرُ، وَمَا يُرْغَبُ فِيهِ مِنْ نَفَائِسِ الأَمْوَالِ .

وَلا نَالَ مِنْ حُسَّادِهِ الغَيْظُ والأذَى بِأَعْظَمَ مِمَّا نَالَ مِنْ وَفْرِهِ العُرْفُ

لَمْ يُنْقِص الغَيْظُ وَالأذَى مِنْ أبْدَانِ حُسَّادِهِ أكْثَرَ مِمَّا أَنْقَصَ الكَرَمُ مِنْ مَالِه . إنَّ الحَسَدَ قَدْ أَثَّرَ فِيهِمْ وَنَقَصَهُمْ كَمَا نَقَصَ عَطَاؤُهُ مَالَه ، وَلَيْسَ ذَلِكَ النُّقْصَانُ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذا . وَمَا الذي نَالَ مِنْ

حُسَّادِهِ الغَيْظُ بِأعْظَمَ مِمَّا نَالَ مِنْ وَفْرِهِ العُرْفُ ، أي إنَّهُ قَدْ أَهْلَكَ مَالَهُ بِالمَعْرُوفِ ، كَمَا أنَّ حُسَّادَهُ قَدْ هَلَكُوا بِالغَيْظِ . وَالوَفْرُ: المَالُ الكَثِيرُ ، وَالعُرْفُ : المَعْرُوفُ .

وَكَذَا الكَرِيمُ إذا أقَامَ بِبَلْدَةٍ سَالَ النُّضَارُ بِهَا وَقَامَ المَاءُ

إنَّ الكَرِيمَ (المَمْدُوحَ) إذا أَقَامَ بِبَلْدَةٍ ، أَعْطَى المَالَ ، وَفَرَّقَهُ في وُجُوهِ الكَرَمِ ، فَكَأنَّهُ مَاءٌ سَائِلٌ ، وَقَامَ المَاءُ (جَمَدَ) لِمَا رَأى مِنْ كَرَمِهِ وَسَخَائِه ، فَوَقَفَ مُتَحَيِّرًا ، وَكَفَّ عَن السَّيَلانِ . لَقَدْ جَمَدَ المَاءُ لِتَحَيُّرِهِ في عَطَائِه، وَخَجَلِهِ مِنْ شِدَّةِ كَرَمِه وَكَثْرَةِ سَخَائِه، وَسَالَ الذَّهَبُ (النُّضَارُ) في هِبَاتِهِ كَمَا سَالَ المَاءُ .

يُحَدِّثُ عَنْ فَضْلِهِ مُكْرَهًا كَأنَّ لَهُ مِنْهُ قَلْبًا حَسُودَا

لا يُحِبُّ نَشْرَ فَضَائِلِه ، فَكَأنَّ لَهُ قَلْبًا يَحْسُدُه ، فَلا يُحِبُّ إظْهَارَ فَضْلِهِ وَمَنَاقِبِه . إنَّهُ يَكْرَهُ أنْ يُحَدِّثَ عَنْهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الفَضْلِ وَالكَرَمِ وَالسَّخَاءِ ، تَنَزُّهًا عَن الكِبْرِ وَالغُرُورِ ، فَمَتَى حَدَّثَ عَنْ فَضْلِهِ حَدَّثَ مَجْبُورًا مُكْرَهًا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ مِنْه ، حَتَّى كَأنَّ نَفْسَهُ تَحْسُدُه ، فَلا تُحِبُّ أنْ تَسْمَعَ ثَنَاءَه ، كَمَا لا يُحِبُّ الحَاسِدُ ذَلِك .

فَلَهُ هَيْبَةُ مَنْ لا يُتَرَجَّى وَلَهُ جُودُ مُرَجًّى لا يُهَابُ

يُهَابُ هَيْبَةَ مَنْ لا يُرْجَى العَفْوُ مِنْه، وَيَجُودُ جُودَ مَنْ يُرْجَى ولا يُهَابُ. إنَّهُ مَهِيبٌ شَدِيدُ الهَيْبَةِ، وَكَرِيمٌ في غَايَةِ الكَرَمِ ، فَمَنْ يَهَابُهُ لا يَرْجُو عَفْوَه ، لِشِدَّةِ سَطْوَتِهِ ، وَعِظَمِ هَيْبَتِه ، وَمَنْ يَرْجُوهُ لا يَخَافُ سَطْوَتَه ، لِسَبْقِ جُودِهِ وَعِظَمِ كَرَمِه ، لأنَّهُ يَضَعُ كُلًّا مَوْضِعَه ، فَالمُسِيءُ لا يَرْجُو رِضَاه ، وَالمُحْسِنُ لا يَخَافُ سَخَطَه .

أَعْدَى الزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَخِيلا

إنَّ المَمْدُوحَ أَعْدَى بِكَرَمِهِ وَسَخَائِهِ الزَّمَانَ ، فَسَخَا بِهِ عَلى البَشَرِ ، وَإنَّمَا حَمَلَهُ عَلى السَّخَاءِ أنَّهُ أَعْدَاه ، وَلَوْلا ذَلِكَ لَكَانَ بَخِيلًا بِه . لَقَدْ تَعَلَّمَ الزَّمَانُ مِنْ كَرَمِ المَمْدُوحِ وَسَخَائِه ، فَسَخَا بِهَذا المَمْدُوحِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ ، وَلَوْلا سَخَاؤُهُ لَبَخِلَ الزَّمَانُ بِهِ عَلى الناسِ ، وَاسْتَبْقَاهُ لِنَفْسِه .

فَلَقَدْ عُرِفْتَ وَمَا عُرِفْتَ حَقِيقَةً وَلَقَدْ جُهِلْتَ وَمَا جُهِلْتَ خُمُولا

لَمْ يَعْرِفُوكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ ، لأَنَّهُمْ لا يَبْلُغُونَ كُنْهَ قَدْرِكَ ، فَإِذَا لَمْ يَعْرِفُوكَ حَقَّ المَعْرِفَةِ فَقَدْ جَهِلُوكَ . قَدْ عَرَفَكَ الناسُ ، وَلَكِنَّ شَأنَكَ عَظِيمٌ ، فَلَمْ يَعْرِفُوا حَقِيقَتَكَ ، وَإِنَّهُمْ لَجَاهِلُونَ بِكَ ، وَمَا جَهِلُوكَ لأَنَّكَ خَامِلٌ ، وَلَكِنْ لِعَجْزِهِمْ أنْ يُدْرِكُوا مَا عِنْدَكَ مِنَ الكَرَمِ وَالجُودِ وَالفَضْلِ . كُلُّ أَحَدٍ عَرَفَكَ لِشُهْرَتِكَ ، وَكَرَمِكَ ، وَفَضْلِكَ ، وإحْسَانِكَ ، وَارتَفَاعِ ذِكْرِكَ ، وَبُعْدِ صِيتِكَ ، وَلَكِنْ لا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ أَمْرِكَ ، فَأَنْتَ مَعْرُوفٌ مِنْ حَيْثُ يَعْرِفُكَ كُلُّ أَحَدٍ لِشُهْرَةِ ذِكْرِكَ، وَأَنْتَ مَجْهُولٌ لِبُعْدِ غَايَتِكَ ، لا لأَنَّكَ خَامِلُ الذِّكْرِ بَيْنَ الناسِ .

بِرَجَاءِ جُودِكَ يُطْرَدُ الفَقْرُ وَبِأنْ تُعَادَى يَنْفَدُ العُمْرُ

الشَّخْصُ الذي يَرْجُو كَرَمَكَ ، ويَنْتَظِرُ فَضْلَكَ ، يُصْبِحُ غَنِيًّا ، لأَنَّكَ كَرِيمٌ تَمْنَحُهُ العَطَايَا ، وَتُعْطِيهِ المَالَ الكَثِيرَ، وَمَنْ يُعَادِيكَ يَخْسَر حَيَاتَه ، ويَفْنَى ، لأَنَّكَ قَوِيٌّ تَقْضِي عَلَيْهِ ، وتُهْلِكُه .

يَتَدَاوَى مِنْ كَثْرَةِ المَالِ بِالإقْلالِ جُودًا كَأَنَّ مَالًا سَقَامُ

كَأَنَّ الغِنَى عِنْدَهُ مَرَضٌ يُرِيدُ إزَالَتَه ، فَيَتَدَاوَى مِنْهُ بِالإقْلالِ والإنْفَاقِ وَالكَرَمِ وَالجُودِ وَالسَّخَاءِ ، وكَأَنَّ الإقْلالَ صِحَّةٌ وَعَافِيَةٌ، فَهُوَ يُرِيدُ بِكَرَمِهِ إزَالَةَ المَرَضِ عَنْه ، وَطَلَبَ العَافِيَةِ . والإقْلالُ : قِلَّةُ المَالِ . كَأَنَّ المَالَ الكَثِيرَ سَقَامٌ (مَرَضٌ) ، وكَأَنَّ الإقْلالَ شِفَاءٌ مِنْ هَذا المَرَضِ ، فَهُوَ يَتَدَاوَى مِنْ كَثْرَةِ المَالِ بِالإقْلالِ ، أي : يَبْذُلُ المَالَ وَيُنْفِقُهُ حَتَّى يَصِيرَ مُقِلًّا ، فَيَصِيرُ ذَلِكَ دَوَاءً لَهُ مِنَ الدَّاءِ الذي هُوَ الإكْثَارُ . إنَّ المَمْدُوحَ يَتَدَاوَى بِشِدَّةِ كَرَمِه ، وَفَرْطِ جُودِه ، مِنْ كَثْرَةِ المَالِ بِالإقْلالِ ، حَتَّى كَأَنَّ المَالَ مَرَضٌ .

ذَا جُودُ مَنْ لَيْسَ مِنْ دَهْرٍ عَلى ثِقَةٍ وَزُهْدُ مَنْ لَيْسَ مِنْ دُنْيَاهُ في وَطَنِ

جُودُكَ بِالأمْوَالِ جُودُ مَنْ يَعْلَمُ أنَّهَا زائلةٌ عَنْه، وَزُهْدُكَ في الدُّنْيَا زُهْدُ مَنْ يَعْلَمُ أنَّهُ رَاحِلٌ عَنْهَا، فَلَيْسَ يَرَى دُنْيَاهُ مِنْ جُمْلَةِ وَطَنِه ، فَلا يَغْتَرُّ بِهَا ، ولا يَثِقُ بِكَوْنِهِ فِيهَا. هَذا الجُودُ (الكَرَمُ) الذي نُشَاهِدُهُ مِنْكَ جُودُ مَنْ لا يَأمَنُ الدَّهْرَ، وَيَعْلَمُ أنَّ المَالَ للحَادِثَاتِ، فَهُوَ يَجُودُ بِهِ لِيُحْرِزَ بِهِ الحَمْدَ وَالأجْرَ ، وَزُهْدُكَ زُهْدُ مَنْ عَلِمَ أنَّ الدُّنيا فَانِيَةٌ زَائِلَةٌ، فَلا يَشْتَغِلُ بِإعْمَارِهَا وَجَمْعِ المَالِ لَهَا .

كَرِيمٌ نَفَضْتُ الناسَ لَمَّا بَلَغْتُهُ كَأَنَّهُمْ مَا جَفَّ مِنْ زَادِ قَادِمِ

لَمَّا مِلْتُ إلى هَذا الكَرِيمِ (المَمْدُوحِ) ، طَرَحْتُ الناسَ كُلَّهُمْ ، كَمَا يَطْرَحُ القَادِمُ مَا جَفَّ مِنْ زَادِه. نَفَضْتُ الناسَ لَمَّا بَلَغْتُهُ نَفْضَ القَادِمِ حُثَالَةَ زَادِه ، لاسْتِغْنَائِهِ عَنْهَا بَعْدَ القُدُومِ ، وكَذَلِكَ أنَا اسْتَغْنَيْتُ بِهِ عَنْ غَيْرِه .

وَالغِنَى في يَدِ اللئيمِ قَبِيحٌ قَدْرَ قُبْحِ الكَرِيمِ في الإمْلاقِ

يَقْبُحُ المَالُ في يَدِ اللَّئِيمِ ، لأنَّهُ يَبْخَلُ بِهِ عَنْ حُقُوقِه ، كَمَا يَقْبُحُ الكَرِيمُ في الإمْلاقِ (الفَقْرِ). وأرادَ أنْ يَقُولَ : كَمَا يَقْبُحُ الفَقْرُ في يَدِ الكَرِيمِ ، فَقَلَبَ للضَّرُورَةِ وَالقَافِيَةِ. إنَّ الغِنَى لا يَحْسُنُ في يَدِ البَخِيل ، إذْ لا يَفْرَحُ أَحَدٌ بِه ، ولا يَظْهَرُ عَلَيْه ، فَهُوَ في القُبْحِ في اللَّئِيمِ كَالفَقْرِ بِالكَرِيمِ . أي إنَّ غِنَى اللَّئِيمِ يُسْتَقْبَحُ بِمَقْدَارِ مَا يُسْتَقْبَحُ فَقْرُ الكَرِيمِ .

وَصَاحِبَ الجُودِ مَا يُفَارِقُهُ لَوْ كانَ لِلْجُودِ مَنْطِقٌ عَذَلَه

مُلازِمٌ لِلْكَرَمِ لا يُفَارِقُه ، وَلَوْ كَانَ لِلْكَرَمِ لِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ ، لَعَذَلَهُ عَلى شِدَّةِ كَرَمِهِ ، وَلامَهُ عَلى كَثْرَةِ عَطَايَاه . لَقَدْ بَلَغَ في الكَرَمِ حَدًّا لَوْ كَانَ لَهُ لِسَانٌ لَعَذَلَه .

وَالجُودُ عَيْنٌ وَأَنْتَ نَاظِرُهَا وَالبأسُ بَاعٌ وَأَنْتَ يُمْنَاهُ

أَنْتَ مِنَ الكَرَمِ بِمَنْزِلَةِ النَّاظِرِ مِنَ العَيْنِ ، وَمِنَ الناسِ بِمَنْزِلَةِ اليَمِينِ مِنَ البَاعِ . قِوَامُ الكَرَمِ بِكَ ، كَمَا أنَّ العَيْنَ بِنَاظِرِهَا . والبَأسُ ، وَهُوَ الشَّجَاعَةُ ، قِوَامُهَا بِكَ ، وَوُجُودُهَا بِسَبَبِكَ ، كَمَا أنَّ البَاعَ بَطْشُهُ وَفَضْلُهُ في اليَدِ اليُمْنَى .

تَمْشِي الكِرَامُ عَلى آثارِ غَيْرِهِمِ وَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تأتي وَتَبْتَدِعُ

أَفْعَالُكَ في الكَرَمِ جَدِيدَةٌ لَمْ يَسْبِقْكَ إلَيْهَا أَحَدٌ ، فأنْتَ مُبْدِعٌ مُبْتَدِئٌ في كُلِّ مَكْرُمَةٍ وَفَضِيلَةٍ ، وَغَيْرُكَ مِنَ الكِرَامِ يَقْتَدِي بِمَنْ سَبَقَه . كُلُّ كَرِيمٍ يَتْبَعُ في كَرَمِهِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الكِرَامِ ، وَأَنْتَ تُحْدِثُ مِنَ الكَرَمِ مَا لا يَسْبِقُكَ إلَيْهِ أَحَدٌ ، وَتَبْتَدِعُ ابْتِدَاعًا لَيْسَ لأحَدٍ مِثْلُه . تَمْشِي الكِرَامُ عَلى آثارِ مَنْ تَقَدَّمَهَا ، مُقْتَدِيَةً بِفِعْلِه ، وَتَتْلُوهُ مُمْتَثِلَةً لِسَعْيِه ، وَأَنْتَ تَبْتَدِئُ مَا تأتيهِ في الكَرَمِ ، وَتَبْتَدِعُه ، وَتَسْبِقُ إلى ذَلِكَ وَتَخْتَرِعُه .

كَرِيمٌ مَتَى اسْتُوْهِبْتَ مَا أنْتَ رَاكِبٌ وَقَدْ لَقِحَتْ حَرْبٌ فَإنَّكَ نَازِلُ

أنْتَ كَرِيمٌ ، إذا سُئِلَ مِنْكَ فَرَسُكَ، وَقَد اشْتَدَّت الحَرْبُ، وَهَبْتَهَا مَعَ شِدَّةِ حَاجَتِكَ إلى الفَرَسِ. وَلَقِحَتْ حَرْبٌ: اشْتَدَّتْ . إنَّكَ كَرِيمٌ بِحَيْثُ لَوْ سَألَكَ سَائِلٌ في شِدَّةِ الحَرْبِ فَرَسَكَ التي تَرْكَبُهَا ، لَنَزَلْتَ عَنْهَا ، وَوَهَبْتَهَا لَه .

فَتًى لا يَرَى إحْسَانَهُ وَهْوَ كَامِلٌ لَهُ كَامِلًا حَتَّى يُرَى وَهْوَ شَامِلُ

إحْسَانُهُ الكَامِلُ عِنْدَهُ نَاقِصٌ ، حَتَّى يَكُونَ عَامًّا يَشْمَلُ الناسَ جَمِيعًا . إنَّهُ لا يَرَى كَرَمَهُ كَامِلًا حَتَّى يَكُونَ مَعَ كَمَالِهِ عَامًّا شَامِلًا .

وَفَاعِلٌ مَا اشْتَهَى يُغْنِيهِ عَنْ حَلِفٍ عَلى الفِعَالِ حُضُورُ الفِعْلِ وَالكَرَمُ

يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ، لا يَحْتَاجُ فِيهِ إلى اليَمِينِ ، لأنَّهُ عَظِيمٌ لا مُعَارِضَ لَهُ ، وَيُغْنِيهِ عَن القَسَمِ عَلى مَا يَفْعَلُهُ حُضُورُ فِعْلِهِ وكَرَمُه ، أي إنَّهُ مَوْثُوقٌ بِهِ لِكَرَمِهِ ، وَفِعْلُهُ مَا يُرِيدُ حَاضِرٌ عَاجِلٌ ، فَلا يَحْتَاجُ أنْ يُقْسِمُ عَلى مَا يُرِيدُ فِعْلَه. يُغْنِيهِ عَن القَسَمِ حُضُورُ ذَلِكَ الفِعْلِ الذي أرَادَه ، وَيُغْنِيهِ عَنْهُ أيْضًا كَرَمُهُ وَنَفَاذُ عَزْمِه ، فَهُوَ إذا هَمَّ بِأمْرٍ أمْضَاهُ بِلا مُعَارِضٍ .

أَكْثَرْتَ مِنْ بَذْلِ النَّوَالِ وَلَمْ تَزَلْ عَلَمًا عَلى الإفْضَالِ وَالإنْعَامِ

أَكْثَرْتَ بَذْلَ العَطَاءِ ، وَبَالَغْتَ في الكَرَمِ وَالجُودِ وَالسَّخَاءِ ، حَتَّى صِرْتَ في الكَرَمِ عَلَمًا مَشْهُورًا ، وَمِثَالًا مَضْرُوبًا . وَالنَّوَالُ : العَطَاءُ ، وَالعَلَمُ : العَلامَةُ التي يُعْرَفُ بِهَا الشَّيْءِ . لَمْ تَزَلْ يُعْرَفُ بِكَ الإفْضَالُ والإنْعَامُ، فَأنْتَ كَرِيمٌ مُحْسِنٌ مُنْعِمٌ مُتَفَضِّلٌ . إنَّ الإفْضَالَ وَالإنْعَامَ يُعْرَفَانِ بِكَ، وَيُهْتَدَى إلَيْهِمَا بِأفْعَالِكَ ، فَأنْتَ كَالعَلامَةِ لَهُمَا .

إذا الجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلاصًا مِنَ الأذَى فَلا الحَمْدُ مَكْسُوبًا وَلا المَالُ بَاقِيَا

إذا لَمْ يَكُن الكَرَمُ خَالِصًا مِنَ الأذَى ، وَمَا يُكَدِّرُهُ مِنَ المَنِّ ، فَلَا يُكْسِبُ فَاعِلَهُ حَمْدًا ، وَذَهَبَ مَالُهُ هَدَرًا . إذا لَمْ يَتَخَلَّص الكَرَمُ مِنَ المَنِّ بِهِ ، لَمْ يَبْقَ المَالُ ، وَلَمْ يَحْصُل الحَمْدُ ، لأنَّ المَالَ يُذْهِبُهُ الكَرَمُ ، وَالأذَى يُبْطِلُ الحَمْدَ ، فَالْمَانُّ بِمَا يُعْطِي غَيْرُ مَحْمُودٍ ولا مَأجُورٍ .

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاقٌ تَدُلُّ عَلى الفَتَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا

لِكُلِّ إنْسَانٍ أخْلاقٌ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلى مَا يَأتِيهِ مِنَ الكَرَمِ ، هَلْ هُوَ طَبِيعِيٌّ أوْ تَكَلُّفِيٌّ ؟ ، فَتُعْرَفُ حَالُه. إنَّ أخْلاقَ الإنْسَانِ تَدُلُّ عَلَيْه، هَلْ هُوَ كَرِيمٌ أَمْ مُتَشَبِّهٌ بِالْكُرَمَاءِ ؟ ، هَلْ كَرَمُهُ طَبْعٌ أَمْ تَكَلُّفٌ؟.

وَإنْ بَذَلَ الإنْسَانُ لِي جُودَ عَابِسٍ جَزَيْتُ بِجُودِ التَّارِكِ المُتَبَسِّمِ

إنْ جَادَ عَلَيَّ إنْسَانٌ في كَرَاهَةٍ وَعُبُوسٍ، جَزَيْتُ جُودَهُ بِتَرْكِ عَطَائِهِ في تَبَسُّمٍ وَرِضًا بِتَرْكِه . إذا شَابَ الإنْسَانُ كَرَمَهُ بِالعُبُوسِ ، رَفَضْتُ نَوَالَه ، وَتَرَكْتُ عَطَاءَه ، وَقَابَلْتُ عُبُوسَهُ بِالتَّبَسُّمِ . لا آخُذُ الصِّلَةَ مِنَ الإنْسَانِ حَتَّى يِكُونَ مَعَهَا بِشْرٌ وَبَشَاشَة ، وَإنْ بَذَلَ عَطِيَّةً مَنْ هُوَ عَابِسٌ جَزَيْتُهُ عَنْ كَرَمِهِ بِكَرَمٍ ، وَعْن جُودِهِ بِجُودٍ ، وَهُوَ تَرْكِي عَطِيَّتَهُ مَعَ تَبَسُّمٍ مِنِّي ، أي إنَّني أَزِيدُ عَلى مَا فَعَلَ ، لأنَّهُ بَذَلَ جُودًا بِعُبُوسٍ ، وَجَزَيْتُهُ جُودًا بِتَبَسُّمٍ .

فَأَحْسَنُ وَجْهٍ في الوَرَى وَجْهُ مُحْسِنٍ وَأَيْمَنُ كَفٍّ فِيهِمِ كَفُّ مُنْعِمِ

أَحْسَنُ الوُجُوهِ وَجْهُ مُحْسِنٍ يُكْرِمُ الناسَ ، وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِم ، وَأَيْمَنُ الأَكُفِّ كَفُّ مُنْعِمٍ ، يُنْعِمُ عَلى الناسِ بِالعَطَايا.وَجْهُ الكَرِيمِ المُحْسِنِ المُنْعِمِ أَحْسَنُ الوُجُوهِ، وَكَفُّهُ أَكْثَرُ بَرَكَةً مِنْ سَائِرِ الأَكُفِّ.

لَوْلا المَشَقَّةُ سَادَ الناسُ كُلُّهُمُ الجُودُ يُفْقِرُ وَالإقْدَامُ قَتَّالُ

لَوْلا المَشَقَّةُ في إيثارِ المَجْدِ واكْتِسَابِ الحَمْدِ ، لَسَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ ، وَأَدْرَكُوا الشَّرَفَ بِأسْرِهِمْ، وَلَكِنَّ الكَرَمَ يُورِثُ الفَقْرَ، وَالشَّجَاعَةَ تُوجِبُ القَتْلَ. وَهَذِهِ الشَّدَائِدُ لا يَتَكَلَّفُهَا إلا مَنْ شَرُفَ طَبْعُه ، ولا يَتَحَمَّلُهَا إلا مَنْ وَطَّنَ عَلى المَكَارِهِ نَفْسَه . لَوْلا أنَّ في السِّيَادَةِ مَشَقَّةً لَصَارَ الناسُ كُلُّهُمْ سَادَةً. مَنْ جَادَ افْتَقَرَ ، وَمَنْ أَقْدَمَ في الحَرْبِ قُتِلَ ، ولا سِيَادَة دُون الكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ . إنَّ السِّيَادَةَ لا تَتِمُّ إلا بِبَذْلِ المَالِ وَمُخَاطَرَةِ النَّفْسِ ، فَالكَرَمُ يُؤَدِّي إلى الفَقْرِ ، وَالإقْدَامُ يُفْضِي إلى التَّلَفِ ، وَلَوْلا مَشَقَّةُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ لَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ سَادَةً .

عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تأتي العَزَائِمُ وَتأتي عَلى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

العَزَائِمُ جَمْعُ العَزِيمَةِ ، وَهِيَ إمْضَاءُ الأمُورِ ، وَالمَكَارِمُ جَمْعُ المَكْرُمَةِ ، وَهِيَ كُلُّ فِعْلٍ مَحْمُودٍ . إنَّ العَزَائِمَ إنَّمَا تَكُونُ عَلى قَدْرِ أصْحَابِ العَزْمِ ، فَمَنْ كَانَ كَبِيرَ الهِمَّةِ ، قَوِيَّ العَزْمِ ، عَظُمَ الأمْرُ الذي يَعْزِمُ عَلَيْه ، وكَذَلِكَ المَكَارِم ، إنَّمَا تَكُونُ عَلى قَدْرِ أَهْلِهَا ، فَمَنْ كَانَ أَكْرَمَ كَانَ مَا يَأتِيهِ مِنَ المَكْرُمَاتِ أَعْظَمَ . وَالرِّجَالُ قَوَالِبُ الأحْوَالِ ، فَإذَا صَغُرُوا صَغُرَتْ ، وإذا كَبِرُوا كَبِرَتْ . إنَّ عَزِيمَةَ كُلِّ إنْسَانٍ عَلى قَدْرِ هِمَّتِهِ وَقُوَّةِ قَلْبِه ، إنْ كَانَ عَظِيمَ القَدْرِ وَالخَطَرِ ، عَظُمَ أَمْرُهُ ، وَمَضَتْ عَزَائِمُه، وَإنْ كَانَ الرَّجُلُ ضَعِيفًا فَاشِلًا ، اضْمَحَلَّ أَمْرُه ، وَبَطَلَتْ عَزَائِمُه ، وكَذَلِكَ المَكَارِم ، تَكُونُ عَلى حَسَبِ فَاعِلِيهَا ، فَهِيَ مِنَ الشَّرِيفِ شَرِيفَة ، وَمِنَ الوَضِيعِ وَضِيعَة . إنَّ الرَّجُلَ تَكُونُ عَزِيمَتُهُ عَلى مِقْدَارِه ، وكَذَلِكَ مَكَارِمُه ، فَإنْ كَانَ كَرِيمًا في نَفْسِهِ فَمَكَارِمُهُ عَلى حَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْه . عَلى قَدْرِ العَزْمِ مِنَ العُظَمَاءِ ، وَمَا يَكُونُونَ عَلَيْهِ مِنْ نَفَاذِ القُدْرَةِ ، وَعُلُوِّ المَكَانَةِ ، تَكُونُ عَزَائِمُهُمْ في نَفَاذِهَا ، وَبَصَائِرُهُمْ في قُوَّتِهَا وَثَبَاتِهَا. وَعَلى قَدْرِ الكِرَامِ في مَنَازِلِهِمْ ، وَاسْتِبَانَةِ فَضَائِلِهِمْ ، تَكُونُ مَكَارِمُهُمْ في جَلالَتِهَا ، وَأفْعَالُهُمْ في قُوَّتِهَا وَفَخَامَتِهَا .

وَتَعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

الرَّجُلُ الصَّغِيرُ النَّفْس يَسْتَكْبِرُ الصَّغِيرَ، وَالعَالِي الهِمَّة يَصْغُرُ في عَيْنِهِ مَا يَفْعَلُه،وَإنْ كَانَ عَظِيمًا. وَالضَّمِيرُ في (صِغَارِهَا) لِلْعَزَائِمِ وَالمَكَارِمِ . صِغَارُ الأمُورِ عَظِيمَةٌ في عَيْنِ الصَّغِيرِ القَدْر ، وَعِظَامُ الأمُورِ صَغِيرَةٌ في عَيْنِ العَظِيمِ القَدْر .

وَمَا تَنْفَعُ الخَيْلُ الكِرَامُ ولا القَنَا إذا لَمْ يَكُنْ فَوْقَ الكِرَامِ كِرَامُ

وَمَا تَنْفَعُ كِرَامُ الخَيْلِ ، وَصُمُّ الرِّماحِ ، إذا لَمْ يَسْتَخْدِمْهَا رِجَالٌ كِرَامٌ لا يَتَرَاجَعُون ، وَأبْطَالٌ لا يَجْبُنُون . وَالنَّفْعُ لِلرِّجَالِ وَالفُرْسَانِ لا لِلْخَيْلِ ، وَإنَّ كَرَمَهَا لَيْسَ بِنَافِعٍ إذا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهَا رِجَالٌ كِرَامٌ في الحَرْبِ ، أي إنَّ الخَيْلَ الكِرَامَ لا تُغْنِي إذا لَمْ يَكُنْ فَوْقَهَا كِرَامٌ .

لا تَطْلُبَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَتِهِ إنَّ الكِرَامَ بِأسْخَاهُمْ يَدًا خُتِمُوا

مَتَى رَأَيْتَهُ وَظَفِرْتَ بِه ، فَلا تَطْلُبْ بَعْدَهُ كَرِيمًا ، فَلا كَرِيمَ بَعْدَه ، لأنَّهُ خَاتِمَةُ الكِرَامِ ، إذْ هُوَ أَكْرَمُهُمْ ، وَأَسْخَاهُمْ يَدًا . لا تَطْلُبْ أَحَدًا كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَتِهِ ، فَإنَّ الكِرَامَ خُتِمُوا بِأسْخَاهُمْ .

وَآنَفُ مِنْ أخِي لأبي وَأُمِّي إذا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنَ الكِرَامِ

إنَّ أَخِي مِنَ الأُمِّ وَالأبِ إذا لَمْ يَكُنْ كَرِيمًا ، كَرِهْتُهُ وَجَانَبْتُه ، وَأَنِفْتُ أنْ يَكُونَ لِي أَخًا مَعَ لُؤمِه. إذا وَجَدْتُ أَخِي كَرِيمًا يَتَزَيَّنُ بِفَضْلِه ، جَوَادًا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إلى مِثْلِه ، فَإنَّني آلَفُهُ لِكَرَمِ شِيَمِه ، ولا آلَفُهُ لِعَدَمِ ذَلِكَ لِقُرْبِ رَحِمِه .

هَذِهِ دَوْلَةُ المَكَارِمِ وَالرَّأفَةِ وَالمَجْدِ والنَّدَى وَالأيَادِي

هَذِهِ دَوْلَةُ الكَرَمِ وَالتَّرَاحُمِ وَالمَجْدِ وَالتَّعَطُّفِ ، وَالنَّدَى وَالبَذْلِ ، وَالأيَادِي الجَلِيلَةِ وَالفَضْلِ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ التَّقَاطُعُ عَلى وَلِيِّ نِعْمَتِهَا ، والاخْتِلافُ عَلى رَئِيسِهَا ؟ . دَوْلَتُكُمْ دَوْلَةُ هَذِهِ الأشياءِ ، فَإذَا وَقَعَ في هَذِهِ الدَّوْلَةِ خَلَلٌ ، اخْتَلَّتْ هَذِهِ الأشياءُ ، وَإذَا سَلِمَت الدَّوْلَةُ سَلِمَتْ هَذِهِ الأشياءُ ، فَلا تُعَرِّضُوا دَوْلَتَكُمْ لِلْخِلافِ وَالنِّزَاعِ وَالصِّرَاعِ .

قَطَعَتْ مَكَارِمُهُمْ صَوَارِمَهُمْ فَإذَا تَعَذَّرَ كَاذِبٌ قَبِلُوا

كَرَمُهُمْ غَلَبَ غَضَبَهُمْ ، وكَفَّهُمْ عَن اسْتِعْمَالِ السُّيُوفِ ، وإذا اعتَذَرَ إلَيْهِمْ كَاذِبٌ قَبِلُوا عُذْرَهُ تَكَرُّمًا . إنَّ كَرَمَهُمْ قَدْ قَطَعَ سُيُوفَهُمْ ، أي : مَنَعَهَا مِنَ القَتْلِ بِالعَفْوِ ، فَإذَا اعْتَذَرَ إلَيْهِمْ مُذْنِبٌ قَبِلُوا عُذْرَه ، وَإنْ كَانَ كَاذِبًا ، كَرَمًا مِنْهُمْ .

قَدْ شَغَلَ الناسَ كَثْرَةُ الأمَلِ وَأنْتَ بِالمَكْرُمَاتِ في شُغُلِ

إنَّ الناسَ شَغَلَهُمْ كَثْرَةُ الأمَلِ ، وَشُغُلُ المَمْدُوحِ أَبَدًا المَكْرُمَاتُ وَإسْدَاءُ الإحْسَانِ . الناسُ مَشْغُولُونَ بِكَثْرَةِ آمَالِهِمْ بِكَ ، وَأطْمَاعِهِمْ فِيمَا يَأخُذُونَ مِنْ أمْوَالِك ، وَأنْتَ مَشْغُولٌ بِتَحْقِيقِ آمَالِهِمْ، وَبِتَصْدِيقِ أطْمَاعِهِمْ ، فَذَلِكَ شُغُلٌ بِالمَكْرُمَاتِ .

وكُلُّ أُنَاسٍ يَتْبَعُونَ إمَامَهُمْ وَأنتَ لأهْلِ المَكْرُمَاتِ إمَامُ

الكِرَامُ يَقْتَدُونَ بِكَ لأنَّكَ إمَامُهُمْ . كُلُّ أَحَدٍ يَقْتَدِي بِغَيْرِهِ في المَكَارِمِ ، وَأنْتَ إمَامٌ لأهْلِهَا ، فَكُلُّ كَرِيمٍ يَقْتَدِي بِكَ في المَكَارِمِ .

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ الناسُ أنَّهُ إلَيْكَ تَنَاهَى المَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ

إنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ نَسَبٌ في العَرَبِ ، فَأنْتَ أَصْلُ المَكْرُمَاتِ ، وإلَيْكَ نَسَبُهَا، فَأنْتَ أكْبَرُ مِنْ أنْ تُنْسَبُ إلى أَبٍ أَوْ جَدٍّ. يُغْنِيكَ عَنْ نِسْبَةِ الناسِ إلى قَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ أنَّ المَكْرُمَاتِ انْتَهَتْ إلَيْكَ، وَنُسِبَتْ إلَيْكَ ، أي : إذا لَمْ يَكُنْ لَكَ نَسَبٌ في العَرَبِ ، فَإنَّكَ أَصْلُ المَكَارِمِ ، وَمَنْبَعُ الفَضَائِلِ .

٢_ المَجْدُ

تِلْكَ النُّفُوسُ الغَالِبَاتُ عَلى العُلا وَالمَجْدُ يَغْلِبُهَا عَلى شَهَوَاتِهَا

يَغْلِبُونَ الناسَ على المَعَالي ، فَيَحْصُلُونَ عَلَيْهَا ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِهَا ، وَالمَجْدُ يَغْلِبُهُمْ عَلى شَهَوَاتِهِمْ ، فَيَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا ، فَلا يَأتُونَ مَا يَلْحَقُهُمْ فِيهِ خِزْيٌ وَعَارٌ وَعَيْبٌ ، وَيَصْرِفُونَ شَهَوَاتِهِمْ إلى اكْتِسَابِ المَجْدِ وَالرِّفْعَةِ وَالعُلا .

ولا تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً فَمَا المَجْدُ إلا السَّيْفُ وَالفَتْكَةُ البِكْرُ

ولا تَظُنَّ المَجْدَ وَالشَّرَفَ أنْ تَلْهُوَ بِشُرْبِ الخَمْرِ وَسَمَاعِ القِيَانِ ، لَيْسَ المَجْدُ إلا ضَرْبَ السَّيْفِ،وَالبَطْشَ بِالأعْدَاءِ بَطْشًا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِه. وَالزِّقُّ: وِعَاءُ الخَمْرِ ، وَالقَيْنَةُ : المُغَنِّيَةُ ، وَالفَتْكَةُ: المَرَّةُ مِنَ الفَتْكِ، وَهُوَ البَطْشُ، وَالبِكْرُ: أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ ، أي: الذي لَمْ يَكُنْ لَهُ مِثْلٌ سَبَقَه . لا تَشْغَلْ نَفْسَكَ باللَّهْوِ وَالشَّرَابِ ، فَإنَّهُ لَيْسَ بِمَجْدٍ ، وَإنَّمَا المَجْدُ يَحْصُلُ بِالسَّيْفِ وَالإقْدَامِ عَلى الحَرْبِ .

وَتَضْرِيبُ أعْنَاقِ المُلُوكِ وَأنْ تُرَى لَكَ الهَبَوَاتُ السُّودُ وَالعَسْكَرُ المَجْرُ

لَيْسَ المَجْدُ إلا السَّيْفَ ، وَلَيْسَ البِكْرُ إلا الفَتْكَ بِالأعْدَاءِ ، وَقَتْلُ المُلُوكُ ، وَزَعَامَةُ الجَيْشِ ، فَيُرَى لَكَ الغُبار . تُثِيرَ الغُبارَ بِحَوَافِرِ الخَيْلِ لَدَى الطِّعَانِ وَالنِّزَالِ . والهَبَوَاتُ جَمْعُ الهَبْوَةُ، وَهِيَ الغَبَرَةُ، وَالمَجْرُ:الجَيْشُ العَظِيمُ. تُثِيرُ غُبارَ العَسْكَرِ العَظِيمِ، فَتَكُونُ زَعِيمًا لَهُمْ تَقُودُهُمْ حَيْثُ شِئْتَ.

وَتَرْكُكَ في الدُّنيا دَوِيًّا كَأنَّمَا تَدَاوَلَ سَمْعَ المَرْءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

وَأنْ تَتْرُكَ في الدُّنيا جَلَبَةً وَصِيَاحًا عَظِيمًا ، جَلَبَةَ المَسَاعِي الجِسَامِ ، وَصِيَاحَ الأفْعَالِ العَظِيمَةِ، كَأنَّ المَرْءَ سَدَّ مَسَامِعَهُ بِأنَامِلِهِ عَلى وَجْهِ التَّدَاوُلِ ، إذا أَنأى وَاحِدَةً أَدْنَى أُخْرَى ، وَذَلِكَ أنَّ الإنْسَانَ إذا سَدَّ أُذُنَهُ سَمِعَ ضَجِيجًا وَجَلَبَةً . وَالدَّوِيُّ : الصَّوْتُ العَظِيمُ ، والأَنْمُلُ : رُؤُوسُ الأصَابِعِ .

أيَا مَنْ عَادَ رُوحُ المَجْدِ فِيهِ وَصَارَ زَمَانُهُ البالي قَشِيبَا

رُوحُ المَجْدِ بَعْدَ آبَائِهِ وَأجْدَادِهِ انْتَقَلَتْ إلَيْه ، فَصَارَ هُوَ المَجْدَ ، عَلى طَرِيقَةِ المُبَالَغَةِ ، وَعَادَ زَمَانُهُ الذي هُوَ فِيهِ كَثِيرَ الخَيْرِ وَالخِصْبِ ، بَعْدَمَا كَانَ قَدْ بَلِيَ وَأَجْدَبَ بِمَوْتِ آبَائِه . أوْ : يَا مَنْ عَادَتْ بِهِ رُوحُ المَجْدِ في المَجْدِ ، أي : إنَّ المَجْدَ مَاتَ مُنْذُ قَدِيمٍ ، وَذَهَبَ زَمَانُه ، ثُمَّ انْتَقَلَتْ رِفْعَتُهُ إلَيْكَ ، وَحَلَّتْ فِيكَ ، فَعَادَ المَجْدُ حَيًّا ، وَعَادَ الزَّمَانُ الذي كَانَ بَالِيًا جَدِيدًا بِكَ .

كُلَّ يَوْمٍ لَكَ احْتِمَالٌ جَدِيدٌ وَمَسِيرٌ لِلْمَجْدِ فِيهِ مُقَامُ

كُلَّ يَوْمٍ تُسَافِرُ، وَلَكَ سَفَرٌ جَدِيدٌ ، وَهَذا دَلِيلٌ عَلى بُعْدِ الهِمَّةِ ، وَعَظَمَةِ الطُّمُوحِ ، وَالمَسِيرُ لَكَ مُقَامُ المَجْدِ وَالعِزِّ ، أي : إنَّكَ دَائِمُ السَّعْي فِيمَا فِيهِ مَجْدُكَ . كُلَّ يَوْمٍ لَكَ سَيْرٌ يُقِيمُ المَجْدُ عِنْدَكَ في ذَلِكَ السَّيْرِ، لأنَّ ذَلِكَ السَّيْرَ لِطَلَبِ المَجْدِ ، أوْ لأنَّ المَجْدَ مُقِيمٌ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ . والاحْتِمَالُ : الرَّحِيلُ .

المَجْدُ عُوفِيَ إذْ عُوفِيتَ وَالكَرَمُ وَزَالَ عَنْكَ إلى أعْدَائِكَ الألَمُ

إنَّ المَجْدَ وَالكَرَمَ مَرِضَا بِمَرَضِكَ ، فَلَمَّا شُفِيتَ شُفِيَا بِعَافِيَتِكَ ، وَزَالَ أَلَمُكَ الذي بِكَ إلى أعْدَائِكَ ، لأنَّهُم اغْتَمُّوا بِعَافِيَتِكَ ، وَتَألَّمُوا بِصِحَّتِكَ ، فَكَأنَّ أَلَمَكَ انْتَقَلَ إلَيْهِمْ .

فَلا مَجْدَ في الدُّنيا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ولا مَالَ في الدُّنيا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

كَمَا لا يَقُومُ المَجْدُ مِنْ دُونِ المَالِ ، كَذَلِكَ المَالُ لا يَنْفَعُ إلا مَعَ المَجْدِ . وَمَنْ لَهُ المَالُ بِلا مَجْدٍ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الفَقِيرِ الذي لا مَالَ لَه . إنَّ الفَقِيرَ الذي لا مَالَ لَه ، لا يَبْلُغُ الشَّرَفَ وَالمَجْدَ ، والذي لا مَجْدَ لَهُ كَأنَّهُ لَيْسَ لَهُ مَالٌ ، وإنْ كَانَ غَنِيًّا، لأنَّهُ إذا لَمْ يَطْلُبْ بِمَالِهِ المَجْدَ، فَكَأنَّهُ لا مَالَ لَهُ لِمُسَاوَاتِهِ الفَقِير .

لا يُدْرِكُ المَجْدَ إلا سَيِّدٌ فَطِنٌ لِمَا يَشُقُّ عَلى السَّادَاتِ فَعَّالُ

لا يَصِلُ إلى المَجْدِ إلا كُلُّ فَطِنٍ يُرَاعِي أحْوَالَ القَضَاءِ، وَيَتَحَمَّلُ المَشَاقَّ التي تَشُقُّ عَلى سَائِرِ السَّادَاتِ . لا يُدْرِكُ المَجْدَ وَيَبْلُغُه، وَيَحْصُلُ عَلَيْهِ ، إلا سَيِّدٌ ثَاقِبُ الفِطْنَةِ ، فَاضِلٌ كَرِيمُ الجِبِلَّةِ ، يَفْعَلُ مِنَ الجَمِيلِ مَا يَشُقُّ عَلى السَّادِاتِ فِعْلُه، وَيُخَلِّدُ مِنَ الكَرَمِ مَا يَتَعَذَّرُ عَلى المُحْسِنِينَ مِثْلُه .

حَتَّى رَجَعْتُ وأقلامي قَوَائِلُ لِي المَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ المَجْدُ لِلْقَلَمِ

مَا زِلْتُ أَتَوَسَّلُ إِلَيْهِمْ بِالقَلَمِ وَالفَضْلِ وَالعِلْمِ ، فَلَمَّا لَمْ أَظْفَرْ بِخَيْرٍ قَالَتْ لِيَ الأَقْلامُ : اطْلُبِ المَجْدَ بِالسَّيْفِ لا بِالقَلَمِ . عُدْتُ إلى وَطَنِي وَقَدْ عَلِمْتُ أنَّ المَجْدَ يُدْرَكُ بِالسَّيْفِ لا بِالقَلَمِ ، لأنَّ العَالِمَ غَيْرُ مُعَظَّمٍ ، ولا مَهِيب هَيْبَةَ صَاحِبِ السَّيْفِ ، ولا يُدْرِكُ مِنْ أُمُورِ المَجْدِ وَالشَّرَفِ مَا يُدْرِكُه ، وَلِهَذا قِيل : لا مَجْدَ أَسْرَعُ مِنْ مَجْدِ السَّيْفِ .

٣_ إكْرَامُ الضَّيْفِ

لا يَعْرِفُ الرُّزْءَ في مَالٍ وَلا وَلَدٍ إلا إذا حَفَزَ الضِّيفانَ تَرْحَالُ

لا يَغْتَمُّ لِشَيْءٍ أَصَابَهُ في مَالِهِ وَوَلَدِه، وَإِنَّمَا يَحْزَنُ عِنْدَمَا يَتَأَهَّبُ الضَّيْفُ للرَّحِيلِ . المُصِيبَةُ عِنْدَهُ في المَالِ وَالوَلَدِ ارتِحَالُ الضُّيُوفِ مِنْ دَارِه ، أي: يَنَالُهُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَنَال مَنْ يَفْقِدُ مَالَهُ وَوَلَدَه. وَالرُّزْءُ: المُصِيبَةُ ، وَالحَفْزُ : الإبْعَادُ وَالتَّحْرِيكُ .

٤_ الافْتِخَارُ

لا افْتِخَارٌ إلا لِمَنْ لا يُضَامُ مُدْرِكٍ أوْ مُحَارِبٍ لا يَنَامُ

لا فَخْر إلا لِمَنْ لا يُظْلَمُ بِامْتِنَاعِهِ عَن الظُّلْمِ بِقُوَّتِه ، وَهُوَ مُدْرِك مَا طَلَبَ ، أوْ مُحَارِب لا يَنَامُ ولا يَغْفُل حَتَّى يُدْرِكَ مَا يَطْلُبُه . لا يَنْبَغِي أنْ يَفْتَخِرَ إلا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ ضَيْمٌ وَذُلٌّ مِنْ قِبَلِ أَحَدٍ ، وَلَنْ يَكُونَ أَحَدٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ إلا أنْتَ ، وَمَنْ يَكُونُ مُدْرِكًا لِمَا أرَادَه ، لا يَنَامُ عَنْ أَعْدَائِهِ وَمُحَارَبَتِهِم .

٥_ الشَّجَاعَة

سَلْ عَنْ شَجَاعَتِهِ وَزُرْهُ مُسَالِمًا وَحَذَارِ ثُمَّ حَذَارِ مِنْهُ مُحَارِبَا

اسْأَلْ عَنْ شَجَاعَتِهِ لِتَعْرِفَهَا بِالخَبَرِ ، ولا تُحَاوِلْ مَعْرِفَتَهَا بِالمُشَاهَدَةِ وَالتَّجْرِبَةِ . اسْأَلْ عَنْ شَجَاعَتِهِ لِتَعْلَمَ رُجُولِيَّتَه ، وَتَعَالَ إِلَيْهِ زَائِرًا مُسَالِمًا ، حَتَّى تَسْتَفِيدَ مِنْه ، وَاحْذَرْ أنْ تَقْصِدَهُ وَتُجَرِّبَ شَجَاعَتَهُ مُبَارِزًا ، فَإِنَّهُ يُهْلِكُكَ وَيَقْتُلُكَ فَوْرًا ، ولا تَصِل إلى مَقْصِدِكَ مِنْه .

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ المَصْقُولا

يَا مَنْ يُعَفِّرُ الأَسَدَ بِشَدِيدِ صَوْتِه ، لِمَن ادَّخَرْتَ سَيْفَكَ المَصْقُولَ ، أي : لا تَدَّخِرْه ، فَإِنَّكَ لا تَحْتَاجُ إِلَيْه ، لأنَّ السَّوْطَ إذا كَفَاكَ مَعْرَكَةَ الأَسَدِ مَعَ أَنَّهُ لا يُقَاوِمُهُ أَحَدٌ ، وَاسْتَغْنَيْتَ عَن السَّيْفِ ، فَإِنَّكَ لا تَحْتَاجُ إِلَيْه ، ولا إلى أَحَدٍ ، لأنَّ كُلَّ شُجَاعٍ دُون الأَسَدِ. وَالمُعَفِّرُ: مِنْ عَفَّرْتُهُ ، إذا أَلْقَيْتُهُ عَلى العَفَرِ ، وَهُوَ التُّرَاب ، وَالهِزَبْرُ : مِنْ أَسْمَاءِ الأَسَدِ ، فَكَأَنَّهُ وَصَفَهُ بِشِدَّةِ الصَّوْتِ .

وَشَجَاعَةٌ أَغْنَاهُ عَنْهَا ذِكْرُهَا وَنَهَى الجَبَانَ حَدِيثُهَا أنْ يَجْبُنَا

صَارَ الناسُ يَهَابُونَ هَذا المَمْدُوحَ ، حَتَّى قَدْ غَنِيَ عَن الشَّجَاعَةِ ، لأَنَّهُ لا يُطْمَعُ في قِتَالِه ، وإذا سَمِعَ الجَبَانُ حَدِيثَ شَجَاعَتِهِ نَهَاهُ ذَلِكَ عَن الجُبْنِ . ذِكْرُ شَجَاعَتِهِ وَاشْتِهَارُهَا في الناسِ أَغْنَاهُ عَنْ إظْهَارِهَا وَاسْتِعْمَالِهَا ، فَكُلُّ أَحَدٍ يَهَابُهُ لِمَا سَمِعَ عَنْ شَجَاعَتِه ، وَذَلِكَ أَيْضًا يُشَجِّعُ الجَبَانَ ، لأَنَّهُ يَسْمَعُ مَا يَتَكَرَّرُ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْه، فَيَتَمَنَّى ذَلِكَ فَيَتْرُك الجُبْنَ . إنَّ شَجَاعَتَهُ قَد اشْتَهَرَ ذِكْرُهَا ، وَشَاعَ في الناسِ حَدِيثُهَا ، فَانْقَادَ أَعْدَاؤُهُ لِحُكْمِه ، فَاسْتَغْنَى عَن اسْتِعْمَالِ شَجَاعَتِهِ لِدُخُولِهِمْ في طَاعَتِه، وَهُوَ المُرَادُ بِقَوْلِه : (أَغْنَاهُ عَنْهَا ذِكْرُهَا) ، أي : عَنْ إظْهَارِ شَجَاعَتِهِ وَاسْتِعْمَالِهَا ، وَقَوِيَ قَلْبُ الجَبَانِ مِنْ كَثْرَةِ ذِكْرِهَا ، حَتَّى اضْطُرَّ إلى تَرْكِ جُبْنِه .

وَكُلُّ شَجَاعَةٍ في المَرْءِ تُغْنِي ولا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ في الحَكِيمِ

الشَّجَاعَةُ مَحْمُودَة ، وَتُغْنِي صَاحِبَهَا وَتَنْفَعُه ، خَاصَّةً إذا كَانَ صَاحِبُهَا حَكِيمًا عَاقِلًا مُدَبِّرًا ، لأَنَّهُ يَسْتَعْمِلُهَا في وَقْتِهَا وَمَحَلِّهَا. الشَّجَاعَةُ كَيْفَمَا كَانَتْ وَفِيمَنْ كَانَتْ مُغْنِيَةٌ كَافِيَة ، وإذا كَانَتْ في

الرَّجُلِ الحَكِيمِ العَاقِلِ كَانَتْ أَتَمَّ وَأَحْسَنَ ، لانْضِمَامِ العَقْلِ إِلَيْهَا ، وَالمَعْنَى أنَّ الشَّجَاعَةَ في غَيْرِ الحَكِيمِ لَيْسَتْ مِثْلَ الشَّجَاعَةِ في الحَكِيمِ .

كُلُّ ذِمْرٍ يَزِيدُ في المَوْتِ حُسْنًا كَبُدُورٍ تَمَامُهَا في المُحَاقِ

كُلُّ شُجَاعٍ إذا مَاتَ زَادَ حُسْنُه ، لأَنَّهُ لا يَمُوتُ إلا قَتْلًا ، فَكَأَنَّهُ يَقُول : إنَّ الشُّجْعَانَ في الحُسْنِ بُدُورٌ، وَإذا قُتِلُوا زَادَ حُسْنُهُمْ بِمَا يَظْهَر مِنْ صَبْرِهِمْ وَإِقْدَامِهِمْ ، فَكَأَنَّهُمْ بُدُورٌ تَمَامُهَا في المُحَاقِ . أي : لَوْ وُجِدَتْ بُدُورٌ إتْمَامُهَا في مُحَاقِهَا لَكَانُوا مُشَبَّهِينَ بِهَا . وَالذِّمْرُ : الرَّجُلُ الشُّجَاعُ. أرادَ بِالتَّمَامِ غَايَةَ مَا يُفْضِي إلَيْهِ أَمْرُ البُدُورِ ، وَهُوَ المُحَاق ، أي إنَّ هَؤلاءِ الشُّجْعَانَ تَمَامُ أَمْرِهِمْ في قَتْلِهِمْ ، كَبُدُورٍ يُفْضِي أَمْرُهَا إلى المُحَاقِ ، فَكَذَلِكَ يُفْضِي أَمْرُ هَؤلاءِ إلى القَتْلِ ، ولا يَمُوتُ أَحَدُهُمْ حَتْفَ أَنْفِه (عَلى فِرَاشِه) . إنَّهُمْ مِنْ قَوْمٍ أَحْسَنُ أَحْوَالِهِمْ عِنْدَهُمْ أنْ يُقْتَلُوا في طَلَبِ المَجْدِ وَالشَّرَفِ، فَلَمَّا كَانُوا كَذَلِكَ شَبَّهَهُمْ بِبُدُورٍ تَمَامُهَا في مُحَاقِهَا . إنَّهُمْ إذا قُتِلُوا في طَلَبِ المَجْدِ وَالذِّكْرِ ازدادَ شَرَفُهُمْ، فَزَادَ حُسْنُ ذِكْرِهِمْ بِمَوْتِهِمْ كَالبُدُورِ ، فَإِنَّهَا تَسْتَفِيدُ الكَمَالَ بِالمُحَاقِ، وَمَا لَمْ يَصِرْ إلى المُحَاقِ لَمْ يَتِمَّ،لأَنَّهُ مِنَ المُحَاقِ يَرتَفِعُ إلى دَرَجَةِ الكَمَالِ،فَمُحَاقُهَا سَبَبُ كَمَالِهَا ، كَذَلِكَ هَؤلاء ، عِنْدَمَا يُقْتَلُونَ يَكْتَسِبُونَ ذِكْرًا وَمَجْدًا وَشَرَفًا .

يَأنَفُ مِنْ مِيتَةِ الفِرَاشِ وَقَدْ حَلَّ بِهِ أَصْدَقُ المَوَاعِيدِ

يَأنَفُ مِنْ أنْ يَمُوتَ عَلى فِرَاشِهِ بِسَبَبِ شَجَاعَتِهِ وَمُشَارَكَتِهِ في المَعَارِكِ وَالحُرُوبِ ، في حَالِ نُزُولِ المَوْتِ بِهِ، الذي هُوَ أَصْدَقُ المَوَاعِيدِ .

وَيَطْلُبُ عِنْدَ الناسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ وَذَلِكَ مَا لا تَدَّعِيهِ الضَّرَاغِمُ

يَطْلُبُ عِنْدَ الناسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالبَأسِ ، وَالأُسُودُ تَعْجِزُ عَن ادِّعَاءِ ذلك ، فَكَيْفَ بالناسِ ؟! . يُرِيدُ أنْ يَكُونَ الناسُ مِثْلَهُ في الشَّجَاعَةِ، وَذَلِكَ مَا لا تَدَّعِيهِ الأُسُودُ ، أي : لا تَدَّعِي أنَّهَا مِثْلُهُ في الشَّجَاعَةِ .

تَمُرُّ بِكَ الأبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

وَقَفْتَ وكَانَت الأبْطَالُ مِنَ الأعْدَاءِ تَمُرُّ بِكَ ، وَهِيَ مَجْرُوحَةٌ مُنْهَزِمَةٌ عَابِسَةُ الوُجُوهِ ، وَأنْتَ مُشْرِقُ الوَجْهِ ضَاحِكُ السِّنِّ . وَهَذا يَدُلُّ عَلى شَجَاعَتِه ، وقُوَّةِ قَلْبِه ، وَرَبَاطَةِ جَأشِه . تَمُرُّ بِكَ الأبْطَالُ جَرْحَى مُنْهَزِمين مُسْتَسْلِمِين، وَذَلِكَ لا يَثْنِي عَزْمَكَ ، ولا يُضْعِفُ نَفْسَكَ ، بَلْ كُنْتَ حِينَئِذٍ ضَحَّاكًا غَيْرَ مُتَوَقِّعٍ ، وَبَسَّامًا غَيْرَ مُتَضَجِّرٍ .

مَنْ أطَاقَ الْتِمَاسَ شَيْءٍ غِلابًا وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالا

مَنْ قَدَرَ عَلى مُرَادِهِ بِالغَصْبِ لَمْ يَطْلُبْهُ بِالسُّؤالِ . والإنْسَانُ طُبِعَ عَلى حُبِّ الغَلَبَةِ وَالاسْتِظْهَارِ ، فإذا هُوَ اسْتَطَاعَ أنْ يَنَالَ الشَّيْءَ بِالعُنْفِ وَالاغْتِصَابِ ، رَفَضَ أنْ يَلْتَمِسَهُ بِالسُّؤالِ والرِّفْقِ واللِّينِ ، لِيُبَيِّنَ للناسِ أنَّهُ قَوِيٌّ شُجَاعٌ . وَالغِلابُ : المُغَالَبَةُ .

كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أنْ يَكُونَ الغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالا

كُلُّ غَادٍ مِنْهُمْ لِحَاجَةٍ ، وَمُعْتَمِدٍ لِبُغْيَتِه ، يَوَدُّ أنَّهُ الأَسَدُ بَأسًا وَشِدَّةً ، وَاقْتِدَارًا وَقُوَّةً ، لِيَتَنَاوَلَ مَا يَقْصِدُهُ بِفَضْلِ قُوَّتِه ، وَيَسْتَظْهِرُ عَلَيْهِ بِبَأسِهِ وَشِدَّتِه. مَنْ يَطْلُب أَمْرًا يَتَمَنَّى أنْ يَكُونَ فِيهِ كَالأَسَدِ في الشَّجَاعَةِ وَالقَهْرِ . والرِّئْبَالُ وَالغَضَنْفَرُ : اسْمَان للأَسَدِ ، وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا لاختلافِ اللَّفْظَيْن .

فَمَا يَنْفَعُ الأُسْدَ الحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى وَلا تُتَّقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا

الحَيَاءُ لا يَنْفَعُ الأَسَدَ مِنَ الجُوعِ ، ولا يُشْبِعُه ، ولا يُخْشَى مِنْهُ إلا إذا كَانَ ضَارِيًا جَرِيئًا . وَالأَسَدُ إذا لَزِمَ عَرِينَهُ حَيَاءً ، وَلَمْ يَصْطَدْ شَيْئًا ، لَمْ يَنْفَعْ حَيَاؤُه ، وَبَقِيَ جَائِعًا غَيْرَ مَهِيبٍ ، وَإنَّمَا يُهَابُ وَيُتَّقَى وَيُخَافُ مِنْهُ إذا كَانَ ضَارِيًا مُفْتَرِسًا حَرِيصًا عَلى الصَّيْدِ . والمَعْنَى : إنَّ الإنْسَانَ إنَّمَا يَبْلُغُ مُرَادَهُ إذا تَرَكَ الخَجَلَ ، وَطَرَحَ قِنَاعَ الحَيَاءِ عَنْ وَجْهِه ، وَصَارَ شُجَاعًا مُنْدَفِعًا جَرِيئًا مِقْدَامًا .

وَمَا عَدِمَ اللاقُوكَ بَأسًا وَشِدَّةً وَلَكِنَّ مَنْ لاقَوْا أَشَدُّ وَأَنْجَبُ

لَمْ يَعْدَمْ هَؤلاءِ الذينَ لَقُوكَ مُحَارِبِينَ شَجَاعَةً وَشِدَّةَ إقْدَامٍ ، أي : كَانُوا شُجَعَاءَ أشِدَّاءَ ، وَلَكِنَّ أصْحَابَكَ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ وَأَنْجَبَ. إنَّ الذينَ لَقُوكَ في الحَرْبِ لَمْ يَكُونُوا ضِعَافًا جُبَنَاء ، وَلَكِنَّهُمْ لَقُوا مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ وَأَقْدَرُ عَلى قَهْرِهِمْ .

أَيَا أَسَدًا في جِسْمِهِ رُوحُ ضَيْغَمٍ وَكَمْ أُسُدٍ أَرْوَاحُهُنَّ كِلابُ

أَنْتَ الأَسَدُ ، وَرُوحُكَ رُوحُ الأَسَدِ ، وَغَيْرُكَ مِنَ المُلُوكِ جِسْمُهُ جِسْمُ الأَسَدِ، وَرُوحُهُ رُوحُ كَلْبٍ. شَبَّهَهُمْ بالأُسُودِ مِنْ حَيْثُ الجُثَّة ، وَبِالكِلابِ مِنْ حَيْثُ الهِمَّة . وَقَوْلُه : (أَرْوَاحُهُنَّ كِلابُ) ، أي : أَرْوَاحُهُنَّ أَرْوَاحُ كِلابٍ ، فَحَذَفَ المُضَافَ . أَنْتَ أَسَدٌ ، وَهِمَّتُكَ أَيْضًا هِمَّةُ الأُسُودِ ، وَالأَسَدُ يُوصَفُ بِعُلُوِّ الهِمَّةِ ، لأَنَّهُ لا يَأكُلُ مِنْ فَرِيسَةِ غَيْرِه ، أي إنَّهُ يَأكُلُ مِمَّا صَادَهُ بِنَفْسِه . كَمْ مِنْ أَسَدٍ خَبِيثِ النَّفْسِ ، دَنِيءِ الهِمَّة ، وَأَنْتَ أَسَدٌ مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ ، لأَنَّكَ شُجَاعٌ رَفِيعُ الهِمَّةِ طَيِّبُ النَّفْسِ ، وَهَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ لِسَائِرِ المُلُوكِ . والضَّيْغَمُ : الشَّدِيد العَض ، وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الأَسَدِ . يَا مَنْ ظَاهِرُهُ ظَاهِرُ الأَسَدِ في إقْدَامِهِ وَشِدَّتِه ، وَصَرَامَتِهِ وَقُوَّتِه ، وَرُوحُهُ رُوحُ أَسَدٍ صَائِلٍ فِيمَا طُبِعَ عَلَيْهِ مِنَ العِزَّةِ ، وَمَا في جِبِلَّتِهِ مِن ارتفاعِ الهِمَّةِ ، وكَمْ مِنَ المُلُوكِ أُسُود في ظَاهِرِ هَيْئَتِهَا ، وَشِدَّةِ قُوَّتِهَا ، وَلَكِنَّ أَنْفُسَهَا أَنْفُسُ كِلابٍ في رِقَّتِهَا وَدَنَاءَتِهَا وَلُؤمِهَا وَجَهَالَتِهَا .

وَيَا آخِذًا مِنْ دَهْرِهِ حَقَّ نَفْسِهِ وَمِثْلُكَ يُعْطَى حَقَّهُ وَيُهَابُ

وَيَا آخِذًا مِنَ الدَّهْرِ حَقَّ نَفْسِه، وَمُتَقَدِّمًا في إنْفَاذِهِ غَيْرَ مُتَأخِّرٍ، وَمِثْلُكَ يُهَابُ فلا يُؤَخَّرُ حَقُّه، وَيُخَافُ مِنْهُ ، فَلا يُعَارَضُ في إنْفَاذِ أَمْرِه . إنَّ الأيَّامَ لا تَقْدِرُ عَلى أنْ تَنْقُصَهُ حَقَّه ، لأَنَّهُ يَغْلِبُهَا ، وَيَحْكُمُ عَلَيْهَا ، وَمِثْلُهُ يُهَابُ ، وَيُعْطَى حَقَّه. هَذا المُلْكُ حَقٌّ لَكَ ، أَخَذْتَهُ مِنْ دَهْرِكَ قَهْرًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ أنْ يَمْتَنِعَ مِنْ ذَلِك، وَمَنْ كَانَ مِثْلَكَ في البَأسِ وَالقُوَّةِ ، يُخَافُ مِنْه ، ويُعْطَى حَقَّهُ كَامِلًا .

شُجَاعٌ كَأنَّ الحَرْبَ عَاشِقَةٌ لَهُ إذا زَارَهَا فَدَّتْهُ بِالخَيْلِ وَالرَّجْلِ

هُوَ شُجَاعٌ كَأنَّ الحَرْبَ تَعْشَقُهُ وَتُحِبُّه ، فَإذَا أَتَى الحَرْبَ اسْتَبْقَتْهُ ، وَحَافَظَتْ عَلى حَيَاتِه ، وَأَفْنَتْ مَنْ سِوَاه مِنَ الفُرْسَانِ وَالرِّجَالِ ، وَأَهْلَكَتْهُمْ جَمِيعًا ، فَكَأنَّهَا جَعَلَتْهُمْ فِدَاءً لَه . إنَّ الحَرْبَ تُسَلِّمُ إلَيْهِ مَنْ شَاءَ قَتْلَهُ أوْ سَبْيَه ، فَكَأنَّهَا عَاشِقَةٌ لَه ، وَتَفْدِيهِ بِهِمْ .

٦ــ الرَّأيُ وَالعَقْلُ

الرَّأيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلٌ وَهِيَ المَحَلُّ الثاني

العَقْلُ مُقَدَّمٌ عَلى الشَّجَاعَةِ ، فَإنَّ الشَّجَاعَةَ إذا لَمْ تَصْدُرْ عَنْ عَقْلٍ ، أَتَتْ عَلى صَاحِبِهَا فَأَهْلَكَتْه ، وَتُسَمَّى طَيْشًا وَتَهَوُّرًا، وَالمَعْنَى أنَّ العَقْلَ في تَرْتيبِ المَنَاقِبِ هُوَ الأوَّلُ ، ثُمَّ الشَّجَاعَة ثَانٍ لَه . إنَّ الرَّأيَ وَالعَقْلَ أَفْضَلُ مِنَ الشَّجَاعَةِ ، لأنَّ الشُّجْعَانَ يَحْتَاجُونَ أوَّلًا إلى الرَّأيِ ، ثُمَّ إلى الشَّجَاعَةِ ، فَإذَا لَمْ تَصْدُر الشَّجَاعَةُ عَن الرَّأيِ فَهِيَ الكَارِثَةُ، وَسَوْفَ تَقْضِي عَلى الرَّأيِ وَتُزِيلُه .

فَإذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ العَلْيَاءِ كُلَّ مَكَانِ

إذا اجْتَمَعَ العَقْلُ وَالشَّجَاعَةُ لِنَفْسٍ حُرَّةٍ كَرِيمَةٍ أَبِيَّةٍ للذُّلِّ وَالضَّيْمِ وَالخِزْيِ وَالعَارِ ، ولا تَخْضَعُ للأعْدَاءِ، بَلَغَتْ أَعْلَى المَرَاتِبِ ، وَأَرْفَعَ الدَّرَجَاتِ ، أي: بَلَغَتْ كُلَّ مَكَانٍ مِنَ المَعَالي .

وَلَرُبَّمَا طَعَنَ الفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الأَقْرَانِ

هَذا تَفْضِيلٌ لِلْعَقْلِ . رُبَّمَا طَعَنَ الفَتَى أَقْرَانَهُ بِالخُدْعَةِ وَالمَكِيدَةِ وَالحِيلَةِ ، وَلُطْفِ التَّدْبِيرِ ، وَدِقَّةِ الرَّأيِ ، قَبْلَ وُقُوعِ القِتَالِ . قَدْ يُغْنِي الرَّأيُ عَن الشَّجَاعَةِ ، وَيُوصِلُ صَاحِبَه إلى الإيقَاعِ بِالأعْدَاءِ، وَالنِّكَايَةِ بِهِمْ ، قَبْلَ أنْ تَقَعَ حَرْبٌ أَوْ قِتَال .

لَوْلا العُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ أَدْنَى إلى شَرَفٍ مِنَ الإنْسَانِ

لَوْلا مَا خَصَّ اللَّهُ الناسَ مِنَ العَقْلِ ، لَكَانَ أَدْنَى أَسَدٍ أَقْرَبَ إلى الشَّرَفِ مِنَ الإنْسَانِ ، لِمَا للأَسَدِ مِنْ فَضْلِ البَأسِ وَالإقْدَامِ . وَ (أَدْنَى) الأُولَى : مِنَ الدَّنَاءَةِ ، وَهِيَ ضِد الشَّرَفِ. و (أَدْنَى) الثانية : مِنَ الدُّنُوِّ ، وَهُوَ القُرْبُ . لَوْلا العُقُولُ لَكَانَ أَقَلُّ الأُسُودِ بَأسًا أَقْرَبَ إلى الشَّرَفِ مِنَ الإنْسَانِ ، لأنَّهُ أَجْرَأُ مِنْه . لَوْلا العُقُولُ التي تَبْعَثُ عَلى الرَّأيِ ، وَتَدُلُّ عَلى مَوَاضِعِ الشَّجَاعَةِ ، لَكَانَ أَقَلُّ الأُسُودِ حَالًا ، وَأَوْضَعُهَا مَنْزِلَةً ، أَقْرَبَ إلى شَرَفِ الرِّفْعَةِ ، وَعُلُوِّ المَنْزِلَةِ ، مِنَ الإنْسَانِ ، لأنَّهُ يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ مَا لا يَبْلُغُه ، ويُدْرِكُ مِنْهَا أكْثَرَ مِمَّا يُدْرِكُه ، وَلَكِنَّ الإنْسَانَ يَفْضُلُهُ بِرَأيِهِ وَعَقْلِه ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِه .

فَتًى يَمْلَأُ الأفْعَالَ رَأيًا وَحِكْمَةً وَنَادِرَةً أحْيَانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ

أفْعَالُهُ مُمْتَلِئَةٌ عَقْلًا وَحِكْمَةً ، فَمَنْ نَظَرَ إلى أفْعَالِه اسْتَدَلَّ بِهَا عَلى مَا عِنْدَهُ مِنَ العَقْلِ والإصَابَةِ في حَالَتَي الرِّضَا وَالغَضَبِ . وَنَادِرَة : فَعْلَة غَرِيبَة لا تُوجَد إلا مِنْه . لَيْسَ لَهُ فِعْلٌ إلا فِيهِ حِكْمَةٌ

وَرَأيٌ،وَيَفْعَلُ ذَلِكَ في حَالَتَي الرِّضَا وَالغَضَبِ،ولا يَمْنَعُهُ غَضَبُهُ مِنَ الحِكْمَةِ ، ولا رِضَاهُ يُلْهِيهِ عَنْهَا . إنَّهُ يَشْمَلُ أَفْعَالَه بِرَأيِهِ وَحِكْمَتِه ، وَيَمْلَؤُهَا بِقُوَّتِه وَعَزِيمَتِه ، فَيُنَفِّذُهَا عَلى حَسَبِ مَا يَقْصِد ، وَيُمْضِيهَا بِمِقْدَارِ مَا يَعْتَقِد ، في رِضَاهُ وَغَضَبِه ، لا يُرَدُّ أَمْرُه ، ولا يُعْتَرَضُ رَأيُه .

٧_ حِدَّةُ الذِّهْنِ

نَفَتِ التَّوَهُّمَ عَنْهُ حِدَّةُ ذِهْنِهِ فَقَضَى عَلى غَيْبِ الأمُورِ تَيَقُّنَا

إنَّهُ مِنْ حِدَّةِ فِطْنَتِهِ وَشِدَّةِ ذَكَائِه ، صَارَ تَوَهُّمُهُ عِلْمًا ، فَيَقْضِي عَلى الأمُورِ الغَائِبَةِ بِاليَقِينِ ، لا بِالتَّوَهُّمِ وَالظَّنِّ . إنَّ فِطْنَتَهُ تَكْشِفُ عَوَاقِبَ الأمُورِ حَتَّى يَعْرِفَهَا يَقِينًا لا وَهْمًا . هَذا الرَّجُلُ لا يَتَوَهَّمُ كَتَوَهُّمِ الناسِ ، لأنَّ التَّوَهُّمَ إنَّما يَكُونُ في قِلَّةِ الفِطْنَةِ ، وَالتَّوَهُّمُ قَدْ يَقَعُ فِي شَيْءٍ شُوهِدَ ، وَعُلِمَتْ حَقِيقَتُه ، ثُمَّ حَدَثَ الشَّكُّ فِيه ، وَجَاءَ الشاعرُ في النِّصْفِ الثاني بِمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الإنْسَانُ ، وَهُوَ قَوْلُه : (فَقَضَى عَلى غَيْبِ الأمُورِ تَيَقُّنَا) .

٨_ الرِّفْقُ

يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقًا مِنْ تِيهِهِ فَكَأنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَلِيلا

الأَسَدُ لِعِزَّتِهِ في نَفْسِهِ وَقُوَّتِه ، لا يُسْرِعُ المَشْيَ ، لأنَّهُ لا يَخَافُ شَيْئًا . شَبَّهَهُ في لِينِ مَشْيِهِ بالطَّبِيبِ (الآس) الذي يَمَسُّ المَرِيضَ (العَلِيل) ، فَإنَّهُ يَرْفُقُ بِه ، ولا يَعْجَلُ . إنَّ الأَسَدَ يَمْشِي عَلى التُّرَابِ بِالرِّفْقِ لا بِالكِبْرِ ، فَكَأنَّهُ طَبِيبٌ يَجُسُّ عَلِيلًا ، لأنَّهُ إذا جَسَّ العَلِيلَ تَرَفَّقَ .

٩_ مَعْرِفَةُ الأُمُورِ مُسْبَقًا

وَيَعْرِفُ الأمْرَ قَبْلَ مَوْقِعِهِ فَمَا لَهُ بَعْدَ فِعْلِهِ نَدَمُ

إنَّهُ يَعْلَمُ عَوَاقِبَ الأُمُورِ قَبْلَ فِعْلِهَا وَوُقُوعِهَا ، فَإذَا فَعَلَ أَمْرًا لَمْ يَنْدَمْ عَلى فِعْلِه ، لأنَّهُ لَمْ يَفْعَلْهُ إلا وَهُوَ عَالِمٌ بِعَاقِبَتِه . وَهَذا يَدُلُّ عَلى جَوْدَةِ الرَّأيِ ، وَحِدَّةِ الفِطْنَةِ ، وَشِدَّةِ الذَّكَاءِ . إنَّمَا يَنْدَمُ مَنْ لا يَعْرِفُ العَوَاقِبَ ، وإذا عَرَفَ الإنْسَانُ الأمْرَ قَبْلَ وُقُوعِهِ لا يَنْدَمُ عَلى فِعْلِه ، لأنَّهُ يَعْلَمُ وَجْهَ الصَّوَابِ فِيه ، فَيَفْعَلُهُ عَلى البَصِيرَةِ وَالمَعْرِفَةِ . والمَوْقِعُ هُنَا مَصْدَرٌ بِمَعْنى الوُقُوعِ .

١٠ _ السِّيَادَةُ

وَالأمْرُ والنَّهْيُ والسَّلاهِبُ والبِيضُ لَهُ وَالعَبِيدُ وَالحَشَمُ

إنَّ المَمْدُوحَ لَهُ هَذِهِ الأشياءُ : الأمْرُ وَالنَّهْيُ وَالخَيْلُ وَالسُّيُوفُ وَالعَبِيدُ وَالحَوَاشِي. والسَّلاهِبُ: الخَيْلُ الطِّوَالُ ، جَمْعُ السَّلْهَبِ ، وَالحَشَمُ : حَاشِيَةُ الرَّجُلِ الذينَ يَغْضَبُونَ لَه ، وَيَغْضَبُ لَهُمْ .

وَأضْحَى وَبَيْنَ الناسِ في كُلِّ سَيِّدٍ مِنَ الناسِ إلا في سِيَادَتِهِ خُلْفُ

بَيْنَ الناسِ في سِيَادَةِ كُلِّ سَيِّدٍ خِلافٌ، إلا في سِيَادَتِه ، فَإنَّ الناسَ اتَّفَقُوا عَلى أنَّهُ سَيِّدٌ .

يَا ذَا المَعَالي وَمَعْدِنَ الأدَبِ سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِ العَرَبِ

يَا صَاحِبَ المَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَالمَكَانَةِ العَظِيمَةِ وَالرُّتْبَةِ السَّامِيَةِ ، وَيَا أَصْلَ الأدَبِ وَمَرْكَزَه ، يَا رَئِيسَنَا وَابْنَ رَئيسِ العَرَبِ، أي إنَّهُ وَرِثَ مِنْ أبِيهِ زَعَامَةَ العَرَبِ وَالسِّيَادَةَ عَلَيْهِمْ .

فَتًى زَانَ في عَيْنَيَّ أقْصَى قَبِيلِهِ وكَمْ سَيِّدٍ في حِلَّةٍ لا يَزِينُهَا

هُوَ زَيْنُ عَشِيرَتِهِ وَرَهْطِه ، وَإنْ تَبَاعَدُوا عَنْهُ في النَّسَبِ ، أي إنَّهُ زَيْنُ عَشِيرَتِهِ ، القَرِيب مِنْهَا وَالبَعِيد ، أمَّا غَيْرُهُ مِنَ السَّادَةِ فَلَيْسَ بِهَذه الصِّفَةِ . وَالقَبِيلُ : الجَمَاعَةُ ، وَالحِلَّةُ : الجَمَاعَةُ يَحُلُّونَ بِالمَكَانِ . فَتًى زَانَ في عَيْنَيَّ أَقْصَى قَبِيلِه ، وَحَسُنَتْ عِنْدِي أَحْوَالُ جَمَاعَتِه ، وَكَمْ سَيِّدٍ يَكُونُ في الحِلَّةِ التي تَصْغُرُ عِنْدِ مِثْلِهَا القَبِيلَةُ الحَافِلَةُ ، وَتَقِلُّ عِنْدَ كَثْرَتِهَا الجَمَاعَةُ الوَافِرَةُ ، فَلا يَزِينُهَا بِمَشْكُورِ فِعْلِه ، ولا يَعُمُّهَا بِمَرْجُوِّ فَضْلِه . لَقَدْ زُيِّنَ في عَيْنَيَّ قَبِيلُه ، وَصَارَ قَوْمُهُ مُفْتَخِرِينَ بِهِ وَبِشَرَفِه ، وكَمْ سَيِّدٍ لا يَتَجَاوَزُ فَخْرُهُ إلى غَيْرِه .

١١_ عَدَمُ سَمَاعِ الفُحْشِ

يُرْعِيكَ سَمْعًا فِيهِ استماعٌ إلى الدَّاعِي وَفِيهِ عَنِ الخَنَا صَمَمُ

يُصْغِي إلى المُسْتَغِيثِ سَمْعًا ، وَعَادَتُهُ الإصْغَاءُ إلى كُلِّ مَنْ يَدْعُوه ، وَلَكِنَّهُ عَن الفُحْشِ وَالقَبِيحِ أَصَمُّ (أَطْرَشُ) ، أي : يُعْرِضُ عَنْه ، ولا يُصْغِي إلَيْه ، فَكَأنَّهُ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ ذلك .

١٢_ القُوَّةُ

إذا مَا المُعْلِمُونَ رَأَوْكَ قالوا بِهَذَا يُعْلَمُ الجَيْشُ اللُّهَامُ

إنَّ الشُّجْعَانَ إذا رَأَوْكَ قالوا : بِهَذا الرَّجُلِ يُعْلَمُ الجَيْشُ ، فَلَيْسَ فِيهِمْ أشْهَرُ مِنْه . إنَّهُ عَلَامَةُ الجَيْشِ ، وَزَعِيمُه ، وَفَارِسُهُ المَشْهُورُ. إذا شَاهَدَكَ الأبْطَالَ قَالُوا : هَذا عَلَامَةُ الجَيْشِ العَظِيمِ ، لأنَّهُ الأكْثَرُ شُهْرَةً والأعْلَى مَجْدًا . وَالمُعْلِمُ : مَنْ جَعَلَ لِنَفْسِهِ عَلَامَةً لِيُعْرَفَ بِهَا ، وَتِلْكَ عَلَامَةُ الشُّجْعَانِ ، أي إنَّهُ يُشْهِرُ نَفْسَهُ في الحَرْبِ بِعَلَامَةٍ يُعْرَفُ بِهَا أنَّهُ بَطَلٌ ، وَاللُّهَامُ : الجَيْشُ العَظِيمُ الذي يَلْتَهِمُ كُلَّ مَنْ يَسْتَقْبِلُه .

أَشَدُّ مِنَ الرِّيَاحِ الهُوجِ بَطْشًا وَأسْرَعُ في النَّدَى مِنْهَا هُبُوبَا

هُوَ في الحَرْبِ أَشَدُّ بَطْشًا مِنَ الرِّيَاحِ الشَّدِيدَةِ ، وَهُوَ في الجُودِ أَسْرَعُ مِنْهَا في العَطَاءِ . إنَّهُ أَشَدُّ مِنَ الرِّيَاحِ الهُوجِ بَطْشًا ، فَكُلُّ مَنْ يَبْطِشُ بِهِ أَهْلَكَه، وَهُوَ أَسْرَعُ مِنْ هَذِهِ الرِّيَاحِ في العَطَاءِ ، أي : لا يَرُدُّ سَائِلًا .

١٣_ الحُسْن

لَقَدْ حَسُنَتْ بِكَ الأوْقَاتُ حَتَّى كَأنَّكَ في فَمِ الزَّمَنِ ابْتِسَامُ

أوْقَاتُ الزَّمَانِ حَسُنَتْ لِكَوْنِكَ فِيهَا ، كَمَا يَحْسُنُ وَجْهُ الإنْسَانِ بِالابْتِسَامِ في الفَمِ . طَابَتْ بِكَ أيَّامُ الدَّهْرِ ، وَبَدَتْ بَشَاشَتُهَا حَتَّى كَأنَّ الدَّهْرَ مُبْتَسِمٌ بِكَ ، يَعْنِي أَنَّهَا كَانَتْ مُتَجَهِّمَةً عَابِسَةً ، فَزَالَ بِكَ عُبُوسُهَا، فَكَأنَّكَ ابْتِسَامٌ لَهَا وَطَلَاقَة .

وَمَا حَارَتِ الأوْهَامُ في عُظْمِ شَأنِهِ بِأكْثَرَ مِمَّا حَارَ في حُسْنِهِ الطَّرْفُ

يَصِفُهُ بِعُظْمِ شَأنِه ، وَحُسْنِ وَجْهِه . مَا تَحَيَّرَت العُقُولُ في عُظْمِ حَالِهِ أكْثَرَ مِمَّا تَحَيَّرَ البَصَرُ في حُسْنِ وَجْهِه، فَهُمَا مُتَسَاوِيَان. لَقَدْ حَارَت الأوْهَامُ في عُظْمِ شَأنِه، وَحَارَ الطَّرْفُ (النَّظَرُ) في حُسْنِهِ وَجَمَالِه ، وَلَيْسَتْ حَيْرَةُ الأوْهَامِ بِأكْثَرَ مِنْ حَيْرَةِ الطَّرْفِ ، أي إنَّهُ بَلَغَ الغَايَةَ في العَظَمَةِ وَالحُسْنِ .

١٤ _ التَّوَاضُعُ

عَظُمْتَ فَلَمَّا لَمْ تُكَلَّمْ مَهَابَةً تَوَاضَعْتَ وَهُوَ العُظْمُ عُظْمًا عَنِ العُظْمِ

أَنْتَ عَظِيمُ القَدْرِ وَالنَّفْسِ وَالهِمَّةِ ، فَلَمْ يُكَلِّمْكَ الناسُ مَهَابَةً لَكَ ، فَلَمَّا هَابُوكَ تَوَاضَعْتَ مُتَعَظِّمًا عَنْ تِلْكَ العَظَمَةِ ، وَهَذا التَّوَاضُعُ وَالتَّعَظُّمُ عَن العَظَمَةِ هُوَ عَيْنُ العَظَمَةِ ، لأنَّ تَوَاضُعَ الشَّرِيفِ عَنْ شَرَفِهِ هُوَ الشَّرَفُ الحَقِيقِيُّ . وَقَوْلُه : (عُظْمًا عَنِ العُظْمِ) ، أي : تَعَظُّمًا عَن التَّعَظُّمِ، وَتَرْكًا للتَّعَظُّمِ . لَقَدْ عَظُمَ قَدْرُكَ ، فَمَنَعَتْ هَيْبَتُكَ أنْ تُكَلَّمَ ، فَلَمَّا عَلِمْتَ أنَّ الناسَ هَابُوكَ تَوَاضَعْتَ، فَتَعَظَّمْتَ بِذَلِكَ التَّوَاضُعِ عُظْمًا عَن العُظْمِ ، وَذَلِكَ التَّوَاضُعُ هُوَ عَيْنُ العُظْمِ ، يَعْني : التَّوَاضُعُ رَفْعُ النَّفْسِ عَن التَّكَبُّرِ .

١٥_ الصُّلْحُ

حَسَمَ الصُّلْحُ مَا اشتَهَتْهُ الأعَادِي وَأذَاعَتْهُ أَلْسُنُ الحُسَّادِ

قَطَعَ الصُّلْحُ مَا كَانَتْ تَشْتَهِيهِ الأعَادِي مِنَ الخِلافِ بَيْنَكُمَا، وَمَا أفْشَاهُ الحُسَّادُ مِنَ الوَحْشَةِ الوَاقِعَةِ بَيْنَكُمَا . اشْتَهَت الأعْدَاءُ أنْ يَنْتَشِرَ بَيْنَكُمَا شَرٌّ ، وَالحُسَّادُ أذَاعُوا ذَلِك ، ثُمَّ انْحَسَمَ بِالصُّلْحِ مَا اشْتَهَوْهُ وَأذَاعُوه .

وَكَلامُ الوُشَاةِ لَيْسَ عَلى الأحْبَابِ سُلْطَانُهُ عَلى الأضْدَادِ

وَكَلامُ الوُشَاةِ إنَّمَا يُؤَثِّرُ إذا كَانَ بَيْنَ الأضْدَادِ ، فإذا كانَ بَيْنَ الأحْبَابِ سَقَطَ وَلَمْ يُؤَثِّرْ ، لأنَّهُ إنَّمَا يَتَسَلَّطُ عَلى الأضْدَادِ . وَالوُشَاةُ جَمْعُ الوَاشِي ، وَهُوَ النَّمَّامُ . كَلامُ الوُشَاةِ إنَّمَا يُوقِعُ الفَسَادَ إذا كَانَ بَيْنَ الأضْدَادِ ، فَأمَّا بَيْنَ الأحْبَابِ المُتَصَافِينَ فَلا يُوقِعُ الفَسَادَ . كَلامُ الوُشَاةِ وَسَعْيُهُمْ وَاحْتِيَالُهُمْ وَبَغْيُهُمْ ، لا يَنْجَحُ في أَهْلِ المَحَبَّةِ ، ولا سُلْطَانَ لَهُ عَلى المُعْتَقِدِينَ لِلْمَوَدَّةِ ، وَإنَّمَا سُلْطَانَ ذَلِكَ عَلى الأضْدَادِ المُتَنَافِرِين ، وَالأعْدَاءِ المُتَبَاغِضِين . لَقَدْ قَدَّمَ مَا حَقُّهُ التَّأخير ، وَأَضْمَرَ ثِقَةً بِمَا أَظْهَرَ ، وأرادَ : وَكَلامُ الوُشَاةِ سُلْطَانُهُ عَلى الأضْدَادِ، لَيْسَ سُلْطَانُهُ عَلى الأحْبَابِ ، فَحَذَفَ ثِقَةً بِفَهْمِ المُخَاطَبِ .

١٦ _ التَّوْفِيقُ

إنَّمَا تُنْجِحُ المَقَالَةُ في المَرْءِ إذا وَافَقَتْ هَوًى في الفُؤادِ

إنَّمَا يَبْلُغُ القَوْلُ النَّجَاحَ إذا سَمِعَهُ مَنْ يُوَافِقُ هَوَاهُ ذَلِكَ القَوْلُ ، وَالمَقَالَةُ إنَّمَا تَعْمَلُ في المَرْءِ إذا وَافَقَتْ مِنْهُ مُرَادًا لَهَا ، وَأَصْغَى إلَيْهَا .

قَدْ يُصِيبُ الفَتَى المُشِيرُ وَلَمْ يَجْهَدْ وَيُشْوِي الصَّوَابَ بَعْدَ اجْتِهَادِ

قَدْ يُصِيبُ الإنْسَانُ الصَّوَابَ ، وَإنْ لَمْ يَجْتَهِدْ ، وَقَدْ يُخْطِئُ الصَّوَابَ بَعْدَ الاجْتِهَادِ . قَدْ يُصِيبُ المُشِيرُ دُونَ اجْتِهَادٍ لِنَفْسِه ، وَيُدْرِكُ المَطْلُوبَ مِنْ حَقِيقَةِ الرَّأيِ بِأيْسَرِ سَعْيِه ، وَقَدْ يُخْطِئُ مَعَ الإمْعَانِ في النَّظَرِ ، وَيُحْرَمُ الصَّوَابَ مَعَ شِدَّةِ البَحْثِ وَالطَّلَبِ .

١٧_ عَدَمُ انْتِظَارِ الشُّكْرِ

كَالشَّمْسِ لا تَبْتَغِي بِمَا صَنَعَتْ مَعْرِفَةً عِنْدَهُمْ وَلا جَاهَا

هُوَ في شُمُولِ نِعْمَتِهِ كَالشَّمْسِ ، لأنَّهَا تُشْرِقُ بِطَبْعِهَا، ولا تُرِيدُ مِنَ الناسِ شُكْرًا وَلا أَجْرًا مِنْ مَنْفَعَةٍ أوْ جَاهٍ ، فَكَمَا لا يَتَصَوَّرُونَ فِيهَا ذَلِكَ فَكَذَلِكَ حَالُه . لَقَدْ ضَرَبَ لِلْمَمْدُوحِ المَثَلَ بِالشَّمْسِ ، فَإنَّ أَكْثَرَ مَنَافِعِ الدُّنيا تَحْصُلُ مِنَ الشَّمْسِ ، ثُمَّ هِيَ لا تَبْتَغِي بِصُنْعِهَا مَنْفَعَةً عِنْدَ النَّاسِ ولا جَاهًا ، وَذَلِكَ أنَّهَا مُسَخَّرَةٌ لِتِلْكَ المَنَافِعِ ، كَذَلِكَ هُوَ مَطْبُوعٌ عَلى الجُودِ وَالكَرَمِ .

١٨_ الجَمَالُ الذُّكُورِيُّ

خَفِ اللَّهَ وَاسْتُرْ ذَا الجَمَالِ بِبُرْقُعٍ فَإنْ لُحْتَ ذَابَتْ في الخُدُورِ العَوَاتِقُ

اتَّقِ اللَّهَ ، وَاسْتُرْ جَمَالَكَ بِبُرْقُعٍ ، فَإنَّكَ إنْ ظَهَرْتَ لِذَوَاتِ الخُدُورِ مِنَ النِّسَاءِ ، الجَوَاري الأبْكَارِ ، ذُبْنَ وَجْدًا بِكَ ، وَشَوْقًا إلَيْكَ . اسْتُرْ جَمَالَكَ بِبُرْقُعٍ تُرْسِلُهُ عَلى وَجْهِكَ ، فَإنَّكَ إنْ ظَهَرْتَ ذَابَت الشَّبَّاتُ في خُدُورِهِنَّ شَوْقًا إلَيْكَ ، وَعِشْقًا لَكَ . وَالبُرْقُعُ : القِنَاعُ الذي يَسْتُرُ الوَجْهَ، وَالخُدُورُ : جَمْعُ الخِدْرِ ، وَهُوَ نَاحِيَةٌ في البَيْتِ يُتْرَكُ عَلَيْهَا سِتْرٌ فَتَكُونُ فِيهِا الجَارِيَةُ البِكْرُ . وَالعَوَاتِقُ : جَمْعُ العَاتِقِ ، وَهِيَ الجَارِيَةُ الشَّابَّةُ أوَّل مَا تُدْرِكُ .

وَمَا الحُسْنُ في وَجْهِ الفَتَى شَرَفًا لَهُ إذا لَمْ يَكُنْ في فِعْلِهِ وَالخَلائِقِ

إذا لَمْ يَحْسُنْ فِعْلُ الفَتَى وَخُلُقُهُ ، لَمْ يَكُنْ حُسْنُ وَجْهِهِ شَرَفًا لَه . إنَّ حُسْنَ الوَجْهِ لا يُكْسِبُ لِصَاحِبِهِ شَرَفًا ، مَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ حُسْنُ الفِعْلُ وكَرَمُ الأخْلاقِ .

١٩_ الشَّوْقُ

بِئْسَ الليالي سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ شَوْقًا إلى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُهَا

يَذُمُّ الليالي التي لَمْ يَنَمْ فِيهَا بِسَبَبِ قَلَقِهِ وَخِفَّةِ الشَّوْقِ إلى الحَبِيبِ الذي كانَ يَرْقُدُ تِلْكَ الليالي ، أي : إنَّهُ كَانَ سَالِيًا لا يَجِدُ مِنْ أسْبَابِ امْتِنَاعِ الرُّقَادِ مَا كُنْتُ أَجِدُه . يَذُمُّ الليالي التي سَهِرَ فِيهَا حُزْنًا عَلى المَحْبُوبَةِ، لأنَّهَا لَيَالي المِحْنَةِ ، لِمُفَارَقَتِهَا مِنْ وَجْهَيْن : أَحَدُهُمَا مِنْ حَيْثُ الشَّخْص، والثاني أنَّهَا لَمْ تُقَابِلْهُ في المَحَبَّةِ،فَتَسْهَرُ كَسَهَرِهِ في تِلْكَ الليالي،ولا سَاعَدَتْهُ عَلى سَبِيلِ المُجَامَلَةِ. وَسَهِدْتُ (بالدَّال) لا تُسْتَعْمَلُ إلا في العِشْقِ ، والسَّهَرُ عَامٌّ. وَالطَّرَبُ : الخِفَّةُ في فَرَحٍ أوْ حُزْنٍ ، وَأَرَادَهَا هُنَا مَا يَكُونُ مِنَ الحُزْنِ ، وَيَرْقُدُهَا : يَرْقُدُ فِيهَا ، والهَاءُ تَرْجِعُ إلى الليالي .

لا تَعْذُلِ المُشْتَاقَ في أشْوَاقِهِ حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ في أحْشَائِه

لا تَكُنْ لائِمًا لِلْمُشْتَاقِ حَتَّى تَجِدَ مَا يَجِدُه.أيُّهَا اللائِمُ،أَنْتَ لا تَقْبَلُ عُذْرَ العَاشِقِ حَتَّى تُبْتَلَى بِمِثْلِ مَا ابْتُلِيَ بِهِ مِنَ الصَّبَابَةِ وَالاشْتِيَاقِ ، فَيَكُون في قَلْبِكَ مِنْ لَوْعَةِ الشَّوْقِ مِثْلُ مَا في قَلْبِ المُشْتَاقِ .

أَقِلَّ اشتِيَاقًا أيُّهَا القَلْبُ رُبَّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِي الوُدَّ مَنْ لَيْسَ جَازِيَا

يَقُولُ لِقَلْبِه : لا تَشْتَقْ إلى مَنْ فَارَقْتَه ، فَإنَّكَ تُحِبُّ مَنْ لَيْسَ يُجَازِيكَ بِالحُبِّ . قَلِّلِ الاشْتِيَاقَ إلى مَنْ لا يَشْتَاقُ إلَيْكَ ، فَإنَّكَ تُخْلِصُ المَوَدَّةَ لِمَنْ لا يُجَازِيكَ عَلى ذَلِك، ولا يَوَدُّكَ مِثْلَ مَا تَوَدُّه . وَهَذا تَعْرِيضٌ بِسَيْفِ الدَّوْلَةِ، وَتَطْيِيبٌ لِنَفْسِهِ عَلى فِرَاقِه. أَقَلَّ اشْتِيَاقًا أيُّهَا القَلْبُ إلى سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَهَوِّنْ عَلَيْكَ مَا تَكَلَّفْتَهُ مِنْ مُفَارَقَتِه ، فَقَدْ كَانَ لا يُعْطِيكَ حَقَّكَ، ولا يَجْزِيكَ بِصَفَاءِ وُدِّكَ، وكَثِيرًا مَا صَفَوْتَ لِمَنْ لا يَصْفُو لَكَ ، وَبَخِلْتَ بِمَنْ لا يَبْخَلُ بِكَ .

خُلِقْتُ أَلُوفًا لَوْ رَحَلْتُ إلى الصِّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ القَلْبِ بَاكِيَا

لَوْ فَارَقْتُ شَيْبِي إلى الصِّبَا لَبَكَيْتُ عَلَيْهِ لإلْفِي إيَّاهُ، إذْ خُلِقْتُ أَلُوفًا . لَوْ فَارَقْتُ الشَّيْبَ الذَّمِيمَ بِرَحِيلِي إلى الصِّبَا ، وَهُوَ خَيْرُ حَيَاةِ الإنْسَانِ ، لَكَانَ ذَلِكَ الفِرَاقُ مُوجِعًا لِقَلْبِي مُبْكِيًا لِعَيْنِي . لَقَدْ جُبِلْتُ عَلى الإلْفِ ، حَتَّى إنَّني لِشِدَّةِ إلْفِي ، لَوْ فَارَقْتُ الشَّيْبَ الذي هُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ ، وَرَجَعْتُ إلى أيَّامِ الصِّبَا، لَبَكَيْتُ جَزَعًا عَلى الشَّيْبِ، مِنْ فِرَاقِ المَألُوفِ ، فَلِهَذا أَحِنُّ إلى سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَإنْ كَانَ يَقْصِدُني بالأذَى. خُلِقْتُ أَلُوفًا لِمَنْ أُصَاحِبُه ، خَالِصَ الوُدِّ لِمَنْ أُدَاخِلُه ، مُعْرِضًا عَنْ زَلَّتِه ، صَابِرًا عَلى هَفْوَتِه ، حَتَّى إنَّني لِمَا أَرْعَاهُ مِنْ حَقِّ الصُّحْبَةِ ، وَأَحْفَظُهُ مِنْ رَابِطَةِ الصَّدَاقَةِ ، لَوْ رَحَلْتُ إلى الصِّبَا، مَعَ جَمَالِهِ وَبَهَائِه ، وَأَسَفِ النُّفُوسِ عَل زَوَالِه ، لَفَارَقْتُ الشَّيْبَ مُوجَعَ القَلْبِ لِفُرْقَتِه ، بَاكِيًا عَلَيْهِ لِمَا أَرْعَاهُ مِنْ ذِمَّةِ صُحْبَتِه ، مَعَ أنَّ الشَّيْبَ يُؤْذِنُ بِذَهَابِ القُوَّةِ ، وَيَدُلُّ عَلى انْقَضَاءِ العُمْرِ ، وَيُشِيرُ إلى قُرْبِ المَوْتِ .

أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ وَالشَّوْقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ وَالوَصْلُ أَعْجَبُ

يُخَاطِبُ حَبِيبَهُ قَائِلًا : أنا أُحَاوِلُ أنْ أَغْلِبَ شَوْقِي إلَيْكَ ، وَهُوَ يَغْلِبُنِي لا مَحَالَة ، لأنَّهُ أَغْلَبُ مِنِّي ، أي : أَقْدَرُ عَلى الغَلَبَةِ ، وَأَعْجَبُ مِنْ هَجْرِكَ لِي ، وَوَصْلُكَ أَوْلَى بِأنْ أَعْجَبَ مِنْه ، لأنَّ عَادَتَكَ الهَجْر ، فَلَيْسَ هُوَ بِعَجِيبٍ ، وإنَّمَا العَجَبُ مِنَ الوَصْلِ . إنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّوْقِ مُغَالَبَةً لأجْلِكَ ، وَالغَلَبَةُ لِلشَّوْقِ ، لأنَّهُ يَغْلِبُ صَبْرِي . وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ لِتَمَادِيهِ وَطُولِه ، وَالوَصْلُ لَوْ وَافَقَنَا كَانَ أَعْجَبَ مِنْه ، لأنَّ عَادَةَ الأيَّامِ التَّفْرِيقُ . أُغَالِبُ فِيكَ الشَّوْقَ بِمُحَاوَلَةِ سَتْرِه ، وَأُدَافِعُهُ بِالاحْتِيَالِ عَلى كَتْمِه، فَيَقْوَى عَلَيَّ وَيَغْلِبُ، وَيَسْتَبِينُ فِيَّ وَيَظْهَر، وكَذَلِكَ الحُبُّ لا تَخْفَى شَوَاهِدُه ، وَالشَّوْقُ لا تَسْتَتِرُ دَلائِلُه ، وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ وَاتِّفَاقِهِ لِي ، وَمِنْ هَذا الاجْتِنَابِ وَتَحَكُّمِهِ بِي ، وَمَا أَبْغِيهِ مِنَ الوَصْلِ أَبْعَدُ وَأَعْجَبُ وَأَغْرَبُ ، لأنَّ سَبِيلَ المَحْبُوبِ أنْ يَبْخَلَ بِوَصْلِه ، وَسَبِيلَ المُحِبَّ أنْ يُمْتَحَنَ بِهَجْرِه ، هَذا هُوَ المَشْهُورُ الذي لا يُنْكَرُ ، وَالمَعْهُودُ الذي لا يُدْفَعُ .

وَمَا أنا مِمَّنْ يَدَّعِي الشَّوْقَ قَلْبُهُ وَيَحْتَجُّ في تَرْكِ الزِّيَارَةِ بِالشُّغْلِ

لَسْتُ كَمَنْ يَدَّعِي الشَّوْقَ ثُمَّ لا يَزُور ، وَيَحْتَجُّ بِالعَائِقِ عَن الزِّيَارَةِ ، يَعْنِي أنَّ المُدَّعِي للشَّوْقِ إذا كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ كَانَ كَاذِبًا في دَعْوَاه، لأنَّ مَنْ عَالَجَ الشَّوْقَ زَار ، وَلَمْ يَسْتَبْعِد الدَّار .

مَا في هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتي عِوَضٌ إنْ مُتُّ شَوْقًا وَلا فِيها لَهَا ثَمَنُ

لَسْتُمْ أَهْلًا لأنْ تُبْذَلَ فِيكُمُ الأرْوَاحُ شَوْقًا إلَيْكُمْ ، وَمَحَبَّةً لَكُمْ ، فَلَسْتُمْ تُعَوِّضُونَنِي رُوحًا غَيْرَهَا إذا أَتْلَفْتُهَا . إنَّ نَفْسِي أَحَبُّ إلَيَّ مِنَ النِّسَاءِ اللواتي في هَوَادِجِكُمْ ، فَكَيْفَ أَفْنِيهَا شَوْقًا إلَيْهِنَّ ولا عِوَضَ لِي فِيهِنَّ ؟!، وَلَيْسَ في الهَوَادِجِ ثَمَنٌ لِمُهْجَتِي. وَالهَوْدَجُ: مَرْكَبُ النِّسَاءِ ، وَالمُهْجَةُ : الرُّوح .

٢٠_ التَّمَنِّي

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّياحُ بِمَا لا تَشْتَهِي السُّفُنُ

لَيْسَ كُلُّ مَا يَشْتَهِيهِ الإنْسَانُ يَصِلُ إلَيْه ، فَإنَّ الأقْدَارَ لا تَجْرِي عَلى وَفْقَ الإرَادَاتِ ، كَمَا أنَّ الرِّيَاحَ إنَّمَا تَهُبُّ عَلى طَبْعِهَا لا عَلى مَا يَخْتَارُهُ أصْحَابُ السُّفُنِ . إنَّ أعْدَائي لا يُدْرِكُونَ مَا يَتَمَنَّوْنَ ، فَإنَّ الرِّياحَ لا تَجْرِي عَلى مَا يُرِيدُهُ أهْلُ السُّفُنِ .

٢١_ التَّجْدِيدُ

عِيدٌ بِأيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يا عِيدُ بِمَا مَضَى أَمْ لأمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ

كَأنَّهُ قَالَ : هَذا عِيد ، ثُمَّ خَاطَبَ العِيدَ ، فقال : يا عَيدُ ، بِأيَّةِ حَالٍ عُدْتَ ؟ ، هَلْ عُدْتَ بِمَا مَضَى مِنْ حَالِكَ أَمْ فِيكَ تَجْدِيدٌ لأمْرٍ آخَر ؟ . مَعَ أيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيد ؟ ، ثُمَّ فَسَّرَ الحَالَ ، فَقَال : بِمَا مَضَى أَمْ بِأمْرٍ مُجَدَّدٍ ، يَقُولُ لِلْعِيدِ : هَلْ تُجَدِّدُ لِي حَالَةً سِوَى مَا مَضَتْ أَمْ عُدْتَ وَالحَالُ عَلى مَا كَانَتْ مِنْ قَبْل ؟ .

أَمَّا الأحِبَّةُ فَالبَيْدَاءُ دُونَهُمُ فَلَيْتَ دُونَكَ بِيدًا دُونَهَا بِيدُ

يَتَأسَّفُ عَلى بُعْدِ أَحِبَّتِهِ عَنْهُ . أَمَّا هُمْ فَعَلَى البُعْدِ مِنِّي ، فَلَيْتَكَ يَا عِيدُ كُنْتَ بَعِيدًا وكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ البُعْدِ ضِعْفُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الأَحِبَّةِ ، أي إنَّهُ لا يُسَرُّ بِعَوْدَةِ العِيدِ مَعَ بُعْدِ الأَحِبَّةِ . إنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ أَحْبَابِي فَلَاةً بَعِيدَةً ، فَمَا أَصْنَعُ بِكَ أَيُّهَا العِيدُ مَعَ البُعْدِ عَنْهُمْ ؟ ، لأنَّ الإنْسَانَ إنَّمَا يُسَرُّ بالعِيدِ إذا كَانَ مَعَهُ أَحِبَّتُه ، فأمَّا مَعَ بُعْدِهِمْ، فَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَلَوَاتٍ دُونَهَا فَلَوَات . والبِيدُ : جَمْعُ البَيْدَاءِ ، وَهِيَ الصَّحْرَاءُ وَالفَلَاةُ وَالمَفَازَةُ التي لا شَيْءَ فِيهَا .

٢٢ _ الثَّباتُ

وَلَمْ أَرَ أَعْصَى مِنْكَ لِلْحُزْنِ عَبْرَةً وَأَثْبَتَ عَقْلًا وَالقُلُوبُ بِلا عَقْلِ

لَمْ أَرَ أَحَدًا لا يُطِيعُ دَمْعَةَ الحُزْنِ ، ولا أَثْبَتَ عَقْلًا مِنْكَ ، حِينَ تَخْلُو القُلُوبُ مِنَ العُقُولِ عِنْدَ شِدَّةِ الفَزَعِ . مَا رَأَيْتُ إنْسَانًا أَصْبَرَ عَلى المَصَائِبِ مِنْكَ ، وَأَعْصَى عِنْدَ الحُزْنِ دَمْعَةً مِنْكَ ، ولا أَثْبَتَ عَقْلًا عِنْدَ المُصِيبَةِ مِنْكَ، لأنَّكَ أَبَدًا ثَابِتٌ لا يَعْتَرِيكَ الطَّيْشُ وَالخِفَّةُ .

٢٣ _ النَّجَاحُ

أَبْلَغُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ بِهِ الطَّبْعُ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ

النَّجَاحُ في الأُمُورِ مَقْرُونٌ بِمَا يَفْعَلُهُ الإنْسَانُ بِطَبْعِه ، فَإذَا تَكَلَّفَ وَبَالَغَ زَلَّ فَأخْطَأَ . وَالنَّجَاحُ : الظَّفَرُ . وَالتَّعَمُّقُ : بُلُوغُ عُمْقِ الشَّيْءِ ، وَهُوَ أقْصَاه ، يُرِيدُ بِهِ المُبَالَغَةَ وَمُجَاوَزَةَ الحَدِّ . إنَّ الإنْسَانَ إنَّمَا يَظْفَرُ بِمُرَادِهِ إذا جَرَى عَلى طَبْعِه ، فَإذَا تَكَلَّفَ وَقَعَ في الغَلَطِ وَالزَّلَلِ .

٢٤_ الصَّبْرُ

مَضَى مَنْ فَقَدْنَا صَبْرَنَا عِنْدَ فَقْدِهِ وَقَدْ كَانَ يُعْطِي الصَّبْرَ وَالصَّبْرُ عَازِبُ

مَضَى بِالْمَوْتِ مَنْ فَقَدْنَا صَبْرَنَا بِمُصِيبَتِه ، وَقَدْ كَانَ يُعْطِينَا الصَّبْرَ إذا بَعُدَ عَنَّا الصَّبْرُ . لَقَدْ كَانَ في حَالِ حَيَاتِهِ يُصَبِّرُ غَيْرَهُ إذا عَزَبَ (بَعُدَ) الصَّبْرُ عَن الناسِ ، في المَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ ، يُعِينُ الناسَ ، وَيُحْسِنُ إلَيْهِمْ ، حَتَّى يَصْبِرُوا عَلى مَا يَنُوبُهُمْ ، بِمَا يَنَالُونَ مِنْه . وَالعَازِبُ : البَعِيدُ .

أُعِيذُكُمْ مِنْ صُرُوفِ دَهْرِكُمُ فَإنَّهُ في الكِرَامِ مُتَّهَمُ

أُعِيذُكُمْ بِاللَّهِ مِنْ مَصَائِبِ الدَّهْرِ وَشَدَائِدِه ، فَإنَّكُمْ كِرَام ، وَهُوَ مُتَّهَمٌ بِالإسَاءَةِ إلى الكِرَامِ ، ولا يُؤْمَنُ عَلى قَصْدِهِ إيَّاكُمْ بِالمَكَارِهِ . إنَّ الزَّمَانَ مُتَّهَمٌ في الكِرَامِ ، مُولَعٌ بِإفْنَائِهِمْ وَإهْلاكِهِمْ ، وأنا أسألُ اللَّهَ أنْ يَحْفَظَكُمْ .

قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كُلَّ نَازِلَةٍ وَلَيَّنَ العَزْمُ حَدَّ المَرْكَبِ الخَشِنِ

قَدْ جَعَلَ الصَّبْرُ كُلَّ بَلِيَّةٍ تَنْزِلُ بِي خَفِيفَةً هَيِّنَةً ، وَأَمْضَيْتُ عَزْمِي فِيمَا أَرَدْتُ ، فَلَيَّنَ لِي كُلَّ صَعْبٍ خَشِنٍ. إنَّ صَبْرِي جَعَلَ كُلَّ حَادِثَةٍ تَنْزِلُ بِي سَهْلَةً بَسِيطَةً ، وَعَزْمِي أَلانَ لِي المَرْكِبَ الخَشِنَ، أي : لا أشتكي النَّوَازِلَ ، بَلْ أَصْبِرُ عَلَيْهَا ، ولا أَسْتَخْشِنُ الخُطُوبَ الصَّعْبَةَ لِقُوَّةِ عَزْمِي إذا عَزَمْتُ .

كُنْ أَيُّهَا السِّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ فَقَدْ وَطَّنْتُ لِلْمَوْتِ نَفْسَ مُعْتَرِفِ

يَقُولُ لِلسِّجْنِ: كُنْ كَيْفَ شِئْتَ عَلَيَّ ، فَإِنَّني قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي لِلْمَوْتِ تَوْطِينَ المُعْتَرِفِ بِالشَّيْءِ، الرَّاضِي بِه ، المُقِرِّ بِالْمَوْتِ ، الذي سَكَنَ إلَيْه . وَقِيلَ : المُعْتَرِفُ : الصَّابِرُ عَلى مَا يُصِيبُه. يَعْني: كُنْ أَيُّهَا السِّجْنُ كَيْفَ شِئْتَ مِنَ الشِّدَّةِ ، فَإِنَّني صَابِرٌ عَلَيْه. أوْ: وَطَّنْتُ لِلْمَوْتِ نَفْسِي نَفْسَ رَجُلٍ صَابِرٍ عَلى الشَّدَائِدِ . وَالتَّوْطِينُ : جَعْلُ النَّفْسِ وَطَنًا .

٢٥_ العِزُّ

وَلِحَتْفٍ في العِزِّ يَدْنُو مُحِبٌّ وَلِعُمْرٍ يَطُولُ في الذُّلِّ قالِ

هُوَ مُحِبٌّ لِلْحَتْفِ في العِزِّ ، وَإِنْ دَنَا مِنْهُ وَقَرُبَ ، وَمُبْغِضٌ لِلْعُمْرِ في الذُّلِّ ، وَإِنْ طَالَ ذَلِكَ العُمْرُ ، أي إنَّ المَوْتَ في العِزِّ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنَ الحَيَاةِ في الذُّلِّ .

فَلا عَبَرَتْ بِي سَاعَةٌ لا تُعِزُّني ولا صَحِبَتْني مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

إنَّمَا أُرِيدُ الحَيَاةَ لِلْعِزِّ ، فَكُلُّ سَاعَةٍ لا أَكْسِبُ فِيهَا عِزًّا أَمَاتَنِي اللَّهُ قَبْلَهَا ، ولا صَاحَبْتُ نَفْسِي مُحْتَمِلَةً لِلظُّلْمِ ، وَفَرَّقَ اللَّهُ بَيْني وَبَيْنَهَا .

وَكُلُّ امْرِئٍ يُولِي الجَمِيلَ مُحَبَّبٌ وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ

أَحْبَبْتُكَ وَآثَرْتُكَ عَلى أَهْلِي ، لِمَا أَسْدَيْتَ إلَيَّ مِنَ الجَمِيلِ ، وَطَابَتَ لِيَ الإقَامَةُ بِسَاحَتِكَ ، لِمَا وَجَدْتُ فِيهَا مِنَ العِزِّ . لَقَدْ أَوْلاهُ الجَمِيلَ ، أي : صَنَعَهُ إلَيْهِ ، فَهُوَ يُحِبُّه ، وَيُعِزُّه ، وَطَابَ مَكَانُهُ عِنْدَه .

عِشْ عَزِيزًا أوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْنِ القَنَا وَخَفْقِ البُنُودِ

إمَّا أنْ تَعِيشَ عَزِيزًا مُمْتَنِعًا مِنَ الأعْدَاءِ ، أوْ تَمُوتَ في الحَرْبِ مَوْتَ الكِرَامِ ، لأنَّ القَتْلَ في الحَرْبِ يَدُلُّ عَلى شَجَاعَةِ الرَّجُلِ ، وكَرَمِ خُلُقِه ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنَ العَيْشِ في الخِزْيِ وَالذُّلِّ وَالعَارِ . وَالقَنَا : الرِّماحُ ، وَخَفْقُ البُنُودِ : اضْطِرَابُ الرَّايَاتِ ، وَهِيَ جَمْعُ البَنْدِ ، وَهُوَ العَلَمُ . يَحُضُّ نَفْسَهُ أوْ صَاحِبَهُ عَلى طَلَبِ العِزِّ وَالعُلا ، وَيَنْهَاهُ عَن الخِزْيِ وَالعَارِ . عِشْ عَزِيزًا إنْ أَمْكَنَكَ ، وَإلا فَمُتْ كَرِيمًا بَيْنَ طَعْنِ الرِّماحِ وَخَفْقِ الرَّايَاتِ ، فَإنَّ مَنْ مَاتَ بَيْنَ هَذِهِ الأشياءِ مَاتَ عَزِيزًا ، لِبَقَاءِ الذِّكْرِ الحَسَنِ بَعْدَ مَوْتِه ، وكُلُّ هَذا لِلْمَنْعِ مِنَ الذُّلِّ ، وَالحَثِّ عَلى طَلَبِ العُلُوِّ .

٢٦_ الشَّرَفُ

لا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لا بِجُدُودِي

إنَّ شَرَفِي بِنَفْسِي لا بِقَوْمِي، بَلْ هُمْ شَرُفُوا بِي ، فَإذَا فَخَرْتُ فَبِنَفْسِي لا بِجُدُودِي ، لا لِعَدَمِ فَضْلِهِمْ ، وَلَكِنْ لِزِيَادَةِ فَضْلي عَلى فَضْلِهِمْ .

أَلَسْتَ ابْنَ الأُلَى سَعِدُوا وَسَادُوا وَلَمْ يَلِدُوا امْرَأً إلا نَجِيبَا

أَلَسْتَ ابْنَ الذينَ كَانُوا سُعَدَاءَ بِمَا طَلَبُوا ، فَكَانُوا سَادَةً مُنْجِبِينَ لَمْ يَلِدُوا إلا نَجِيبًا . وَهَذا اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ التَّقْرِير ، أي: أَنْتُمْ كَذلك. أنْتَ ابْنُ الآبَاءِ الكِرَامِ، ذَوِي السَّعَادَةِ وَالمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، وَهُمْ لا يَلِدُونَ إلا مَنْ هُوَ نَجِيبٌ مِثْلُكَ .

إذا غَامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ فَلا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

إذا طَلَبْتَ شَرَفًا فَلا تَقْنَعْ بِمَا دُون أعْلاه، وَالمُغَامَرَةُ : الدُّخُولُ في المَهَالِك . إذا غَامَرْتَ بِنَفْسِكَ في شَرَفٍ طَالِبًا لَه، فَلا تَطْلُبْ إلا أَعْظَمَه، وَحَدِّثْ نَفْسَكَ بِأنَّكَ تَنَالُ النُّجُومَ بِعَزْمِكَ .

فَإنَّ حَظَّكَ مِنْ تَكْرَارِهَا شَرَفٌ وَحَظَّ غَيْرِكَ مِنْهَا الشَّيْبُ وَالكِبَرُ

إنَّكَ لا تَزَالُ تَزْدَادُ شَرَفًا عَلى مُرُورِ الأيَّامِ وَتَكَرُّرِ الأعْوَامِ ، لأنَّكَ تَفْعَلُ في كُلِّ وَقْتٍ فِعْلًا لَكَ فِيهِ ذِكْرٌ وَشَرَفٌ ، وَغَيْرُكَ يَزْدَادُ شَيْبًا وَهَرَمًا .

مَا لَنَا فِي النَّدَى عَلَيْكَ اخْتِيَارٌ كُلُّ مَا يَمْنَحُ الشَّرِيفُ شَرِيفُ

لا اخْتِيَارَ لَنَا عَلَيْكَ فِيمَا تَهَبُ وَتُعْطِي ، فَأَنْتَ كَرِيمٌ ، وَكُلُّ مَا تَمْنَحُهُ جَلِيلٌ شَرِيفٌ ، لأَنَّكَ جَلِيلٌ شَرِيفٌ .

وَمَنْ تَكُنِ الأُسْدُ الضَّوَارِي جُدُودَهُ يَكُنْ لَيْلُهُ صُبْحًا وَمَطْعَمُهُ غَصْبَا

مَنْ كَانَ شُجَاعًا كَالأَسَدِ، لَمْ يَثْنِهِ اللَّيْلُ عَنْ مَرَامٍ ، ولا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُرَادِهِ ظَلامُ لَيْلٍ ، فَهُوَ مِثْلُ الصُّبْحِ ، يَسْعَى فِيهِ لِطَلَبِ مَآرِبِه ، وإذا حَاوَلَ أَمْرًا أَوْ طَلَبَ مَالًا ، تَنَاوَلَهُ غَصْبًا وَقَسْرًا . وَمَعْنَاهُ أَنَّ المَمْدُوحَ أَسَدٌ ، وَمَنْ كَانَ أَسَدًا كَانَ جَدُّهُ أَسَدًا لا مَحَالَة ، وَلَيْسَ المُرَادُ بِهِ مَنْ كَانَ لَهُ أَبٌ أَوْ جَدٌّ شُجَاع ، لأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ أَبُوهُ شُجَاعًا وَهُوَ جَبَان .

فَخْرُ الفَتَى بِالنَّفْسِ وَالأَفْعَالِ مِنْ قَبْلِهِ بِالعَمِّ وَالأَخْوَالِ

يَفْخَرُ الفَتَى بِشَرَفِ نَفْسِه وَحُسْنِ أَفْعَالِهِ قَبْلَ افْتِخَارِهِ بِأَعْمَامِهِ وَأَخْوَالِه ، أي : لا يَفْخَرْ أَحَدٌ بِعَمِّهِ وَخَالِه ، وَيَتْرُكُ نَفْسَهُ وَأَفْعَالَه .

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَّى يُرَاقُ عَلى جَوَانِبِهِ الدَّمُ

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الأَذَى حَتَّى تَحْمِيَهُ بِالسَّيْفِ . لا يَسْلَمُ لِلشَّرِيفِ شَرَفُهُ مِنْ أَذَى الحُسَّادِ وَالأَعْدَاءِ ، حَتَّى يَقْتُلَ حُسَّادَهُ وَأَعْدَاءَه، فَإِذَا أَرَاقَ دِمَاءَهُمْ سَلِمَ شَرَفُه ، لأَنَّهُ يَصِيرَ مَهِيبًا ، فَلا يَتَعَرَّض لَهُ أَحَد .

٢٧_ الآمَالُ

وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنِّي بَعْضُ مَوْعِدِهِ فَمَا تَأَخُّرُ آمَالي وَلا تَهِنُ

وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنِّي بَعْضُ مَا وَعَدَني بِهِ ، فَإِنَّ أَمَلِي فِيهِ في غَايَةِ القُوَّةِ ، وَهَذا اسْتِبْطَاء وَعِتَاب . إِنَّ وُعُودَهُ زَائِدَةٌ عَلى آمَالي ، وَهُوَ يُنَفِّذُ آمَالي، وَلَيْسَ يَتَأَخَّرُ عَنِّي مَا آمُلُه ، ولا يَضْعُف رَجَائي عِنْدَه ، وَإِنْ تَأَخَّرَ بَعْضُ مَوْعِدِه .

٢٨_ الطَّرَبُ

وَمَا طَرَبِي لَمَّا رَأَيْتُكَ بِدْعَةً لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ

لَيْسَ سُرُوري _ الآنَ وَقَدْ رَأَيْتُكَ _ بِدْعَةً ، فَإِنَّني كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَأَطْرَبُ بِمُجَرَّدِ الرَّجَاءِ ، فَكَيْفَ الآنَ وَقَدْ رَأَيْتُكَ ؟!. وَمَا فَرَحِي بِمُشَاهَدَةِ حَضْرَتِكَ، وإِفْرَاطِي في السُّرُورِ بِالنَّظَرِ إلى عِزَّتِكَ ، بِدْعَةً مِنَ الفِعْلِ ، ولا غَرِيبَةً مِنَ الأمْرِ ، فَمَا زِلْتُ مُسْتَحْكِمَ الرَّجَاء في الفَرَحِ بِمَا أَلْقَاهُ مِنْ بِرِّكَ ، ثَابِتَ اليَقِين فِيمَا شَمِلَني عِنْدَ رُؤْيَتِكَ مِنْ إِكْرَامِكَ وَفَضْلِكَ . وَالطَّرَبُ : خِفَّةٌ تَلْحَقُ الإِنْسَانَ فَتَكْشِفُ مَا بِنَفْسِهِ مِنَ الفَرَحِ وَالحُزْنِ، وَهِيَ في الفَرَحِ أَشْهَرُ .

٢٩_ المَوَدَّةُ

هُوَ الوَفِيُّ وَلَكِنِّي ذَكَرْتُ لَهُ مَوَدَّةً فَهْوَ يَبْلُوهَا وَيَمْتَحِنُ

هُوَ يَفِي بِمَا وَعَدَ إلا أَنَّهُ يَخْتَبِرُ مَا ذَكَرْتُ لَهُ مِنَ المَوَدَّةِ وَالمَحَبَّةِ، لِهَذا يَتَأَخَّرُ عَنِّي مَا وَعَدَني بِه. والابْتِلاءُ وَالامْتِحَانُ: الاخْتِبَارُ. كُنْتُ أُظْهِرُ لَهُ المَوَدَّةَ فَأَذْكُرُهَا ، فَهُوَ يَمْتَحِنُ مَا ذَكَرْتُهُ مِنَ المَوَدَّةِ، فَيُؤَخِّرُ مَوْعِدِي تَجْرِبَةً لِمَوَدَّتي لَه .

٣٠_ عَدَمُ الطَّمَعِ

لا أَشْرَئِبُّ إلى مَا لَمْ يَفُتْ طَمَعًا ولا أَبِيتُ عَلى مَا فَاتَ حَسْرَانَا

لا أَمُدُّ عُنُقِي فِيمَا لا يَصِلُ إِلَيَّ طَمَعًا فِيه ، وَإِنْ فَاتَني شَيْءٌ لَمْ أَتَحَسَّرْ عَلَيْه .

٣١_ هُدُوءُ الأعْصَابِ

يَلْقَى الوَغَى وَالقَنَا والنازلاتِ بِهِ والسَّيْفَ والضَّيْفَ رَحْبَ البالِ جَذْلانا

يَلْقَى الحَرْبَ وَالرِّمَاحَ وَمَصَائِبَ الدَّهْرِ وَالسَّيْفَ وَالضَّيْفَ وَاسِعَ القَلْبِ مَسْرُورًا . أي إِنَّهُ لا يَضِيقُ صَدْرُهُ بِحَوَادِثِ الدَّهْرِ النَّازِلَةِ .

٣٢_ الدَّعْمُ

الكَائِنِينَ لِمَنْ أَبْغِي عَدَاوَتَهُ أَعْدَى العِدَى وَلِمَنْ آخَيْتُ إِخْوَانا

إِنَّهُمْ أَعْدَاءُ أَعْدَائي،وَأَوْلِيَاءُ أَوْلِيَائي.وَنَصَبَ (الكائنين) عَلى المَدْحِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَعْنِي الكَائِنِين .

٣٣_ السَّيْطَرَةُ

وَالأَمْرُ أَمْرُكَ وَالقُلُوبُ خَوَافِقٌ في مَوْقِفٍ بَيْنَ المَنِيَّةِ وَالمُنَى

الأَمْرُ هُنَا بِمَعْنَى الحَالِ ، أي : أَقْبَلْتَ وَحَالُكَ في طَلَاقَةِ وَجْهِكَ مِثْلُ حَالِكَ إذا كُنْتَ في الحَرْبِ ، حِينَ تَخْفِقُ القُلُوبُ مِنَ الرُّعْبِ ، فَتَكُون القُلُوبُ وَاقِفَةً بَيْنَ المَوْتِ وَالبَقَاءِ . يَعْنِي أَنَّهُ في الحَرْبِ ضَاحِكُ السِّنِّ مِثْلُ حَالِهِ القَدِيمَةِ . أَوْ : أرادَ بِهِ أَنَّ أَمْرَكَ مُطَاعٌ وَنَافِذٌ في الأَوْلِيَاءِ وَالأَعْدَاءِ ، وَقُلُوبُ أَعْدَائِكَ خَائِفَةٌ وَاقِفَةٌ بَيْنَ الخَوْفِ مِنَ المَوْتِ وَبَيْنَ الرَّجَاءِ .

٣٤_ الصَّدَاقَةُ

أُصَادِقُ نَفْسَ المَرْءِ مِنْ قَبْلِ جِسْمِهِ وَأَعْرِفُهَا في فِعْلِهِ وَالتَّكَلُّمِ

أُصَادِقُ الأَرْوَاحَ قَبْلَ الأشباحِ ، وَأعْرِفُ أحوالَ الأرواحِ في فِعْلِ المَرْءِ وكَلامِه . يُرِيدُ بِالنَّفْسِ الهِمَّةَ وَالمَعَاني التي في نَفْسِ الإِنْسَانِ مِنْ أَخْلاقِه ، يَذكُر لُطْفَ حِسِّهِ وَدِقَّةَ عِلْمِه ، وَأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّه المَعْرِفَةُ ، يُصَادِقُ نَفْسَهُ أَوَّلًا ، وَيَسْتَدِلُّ عَلَيْهَا بِفِعْلِهِ وكَلامِه .

شَرُّ البِلادِ مَكَانٌ لا صَدِيقَ بِهِ وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الإنسانُ مَا يَصِمُ

شَرُّ البِلادِ بِلادٌ لا صَدِيقَ بِهَا تَسْكُنُ إِلَيْه ، وَيُعِينُكَ عَلى مَا تُرِيدُه ، وَيَدْفَعُ مَا يَضُرُّكَ ، وَشَرُّ كَسْبٍ يَكْسِبُهُ الإِنْسَانُ مَا يُعَابُ بِه ، وَيُذَلُّ عِرْضُهُ بِسَبَبِه . وَمَا يَصِمُ : مَا يَصِمُه ، وَمَعْنَاه : مَا يَلْحَقُهُ الوَصْمُ ، وَهُوَ العَيْب .

٣٥_ الحَمْدُ

بَصِيرٌ بِأَخْذِ الحَمْدِ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ وَلَوْ خَبَّأَتْهُ بَيْنَ أَنْيَابِهَا الأُسْدُ

إنَّهُ عَالِمٌ بِطَرِيقِ الحَمْدِ ، وَكَيْفِيَّةِ أخْذِه ، فَهُوَ يَتَحَمَّلُ فِيهِ المَوْتَ ، حَتَّى لَوْ كانَ في أفْوَاهِ الأُسُودِ لاسْتَخْرَجَه . يَتَوَصَّلُ إلى إحْرَازِ الحَمْدِ بِإحْسَانِه ، وَإنْ كانَ يَتَعَذَّرُ الوُصُولُ إلَيْه ، وَالمَعْنَى : لَوْ لاحَ لَهُ الحَمْدُ في فَكِّ الأَسَدِ لَتَوَصَّلَ إلَيْه .

٣٦_ المُرُوءَةُ

تَلَذُّ لَهُ المُرُوءَةُ وَهِيَ تُؤْذِي وَمَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ لَهُ الغَرَامُ

المُرُوءَةُ لَذِيذَةٌ لَهُ مَعَ أنَّهَا تُؤْذِي صَاحِبَهَا، لِمَا فِيهَا مِنْ تَفْرِيقِ المَالِ وَتَحَمُّلِ التَّكَالِيفِ الشَّاقَّةِ، فَهُوَ يَلْتَذُّ بِهَا لِعِشْقِهِ لَهَا ، كَمَا أنَّ العَاشِقَ يَلْتَذُّ بِالغَرَامِ ، وَمَا يَجِدُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْقِ وَحُرْقَةِ الهَوَى .

أَلِفَ المُرُوءَةَ مُذْ نَشَا فَكَأَنَّهُ سُقِيَ اللِّبَانَ بِهَا صَبِيًّا مُرْضَعَا

اعْتَادَ المُرُوءَةَ مِنْ صِغَرِه،فَكَأَنَّهُ سُقِيَ بِهَا اللَّبَنَ وَهُوَ يَرْضَعُ،أي: كَأَنَّهُ رَضِعَ المُرُوءَةَ مِنْ لَبَنِ أُمِّه.

وَتَرَى المُرُوَّةَ وَالفُتُوَّةَ وَالأُبُوَّةَ في كُلِّ مَلِيحَةٍ ضَرَّاتِهَا

المُرُوَّةُ وَالمُرُوءَةُ : الإنْسَانِيَّة ، وَالفُتُوَّةُ : الكَرَمُ وَالسَّخَاءُ ، وَالأُبُوَّةُ هُنَا : الأَنَفَةُ وَعِزَّةُ النَّفْسِ . إنَّ هَذِهِ المَعَاني تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخَلْوَةِ بِالنِّسَاءِ الحِسَانِ ، فَكَأَنَّهَا ضَرَائِر لَهُنَّ .

هُنَّ الثَّلاثُ المَانِعَاتي لَذَّتي في خَلْوَتي لا الخَوْفُ مِنْ تَبِعَاتِهَا

هَذِهِ الأشياءُ (المُرُوَّةُ وَالفُتُوَّةُ وَالأُبُوَّةُ) تَمْنَعُني اللَّذَّةَ بِالنِّسَاءِ في الخَلْوَةِ لا الخَوْف مِنْ تَبِعَاتِ اللَّذَّةِ . هَذِهِ الثَّلاثَةُ مَنَعَتْنِي عَنْ لَذَّتي بِالنِّسَاءِ في حَالِ الخَلْوَةِ ، لأنَّني لا أخَافُ تَبِعَاتِ ذَلِك ، أي : الخَوْفُ مِنَ الوُشَاةِ ، أوْ عَشَائِرِهِنَّ ، أوْ غَيْر ذَلِك ، لأنَّني كُنْتُ لا أخَافُ أَحَدًا .

كَفَتْكَ المُرُوءَةُ مَا تَتَّقِي وَآمَنَكَ الوُدُّ مَا تَحْذَرُ

إنَّ مَوَدَّتي لَكَ وَمُرُوءَتي آمَنَاكَ مَا تَخَافُ مِنْ إفْشَاءِ السِّرِّ ، فَلا تَحْذَرْ عَلى سِرِّكَ مِنْ جَانِبِي . اطْمَئِنَّ مِنْ جِهَتِي ، لأنَّني ذُو مُرُوءةٍ ، وَذُو المُرُوءَةِ لا يَكُونُ مِذْيَاعًا للأسْرَارِ ، وأنا _ مَعَ ذَلِكَ _ مُحِبٌّ لَكَ ، وَالمُحِبُّ لا يُسِيءُ إلى حَبِيبِهِ بِإفْشَاءِ سِرِّه . وَالمُرُوءَةُ : كَرَمُ الأخْلاقِ وَعُلُوُّ الهِمَّةِ ، وَكَفَاهُ الشَّيْءَ : أغْنَاهُ عَنْ مُعَانَاتِه ، وَتَتَّقِي : تَحْذَرُ .

٣٧_ عُلُوُّ الهِمَّةِ

تُحَقِّرُ عِنْدِي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ وَيَقْصُرُ في عَيْنِي المَدَى المُتَطَاوِلُ

هِمَّتِي تُرِينِي كُلَّ شَيْءٍ أَطْلُبُهُ حَقِيرًا ، وَالغَايَةَ البَعِيدَةَ قَصِيرَةً في عَيْنِي . إنَّ لِي هِمَّةً تُحَقِّرُ عِنْدِي كُلَّ مَطْلَبٍ،وَتُقَصِّرُ الغَايَةَ القُصْوَى في عَيْنِي مَعَ تَطَاوُلِهَا . أي : لا أَرْضَى لِنَفْسِي كُلَّ مَرْتَبَةٍ أَبْلُغُهَا ، بَلْ أَطْلُبُ فَوْقَهَا .

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِي ولا القَنَاعَةُ بِالإقْلالِ مِنْ شِيَمِي

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالأَمَاني دُون الوُصُولِ إلى البُغْيَةِ مِنْ حَاجَتِي ، وكَذَلِكَ لَيْسَ القَنَاعَةُ بِالفَقْرِ وَضَنْكِ العَيْشِ مِنْ عَادَتي، وَلَكِنِّي أَطْلُبُ المَعَالي وَالمَفَاخِرَ . لَيْسَ مِنْ عَادَتي أنْ أَتَزَجَّى بِالآمَالِ ، وَأُدَافِعُ الوَقْتَ بِشَيْءٍ أَرْجُوهُ لَعَلَّهُ لا يَكُون ، ولا أَنْ أَقْنَعَ بِاليَسِيرِ ، يَعْني أنَّهُ يَطْلُبُ الكَثِيرَ ، وَيُسَافِرُ في طَلَبِ المَالِ. وَالتَّعَلُّلُ : تَزْجِيَةُ الوَقْتِ بِالشَّيْءِ اليَسِيرِ بَعْدَ الشَّيْءِ ، يُقَال : فُلان يَتَعَلَّلُ بِكَذَا ، أي: يُمْضِي بِهِ وَقْتَهُ وَدَهْرَه ، وَالإقْلالُ: الفَقْرُ وَالحَاجَةُ .

قَدْ بَلَغُوا بِقَنَاهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِ وَلَيْسَ يَبْلُغُ مَا فِيهِمْ مِنَ الهِمَمِ

بَلَغُوا بِقَنَاهُمْ فَوْقَ طَاقَةِ القَنَا (الرِّماحِ) مِنَ الطَّعْنِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإنَّ القَنَا لا يَبْلُغُ حَدَّ هِمَمِهِمْ، بَلْ يَقْصُرُ عَنْه . إنَّهُمْ قَدْ حَطَّمُوا قَنَاهُمْ ، فَكَلَّفُوهُ مَا لا يُطِيقُ ، وَلَمْ يَبْلُغْ هِمَمَهُمْ ، لأنَّهُمْ لَمْ يَرْضَوْا لأنْفُسِهِمْ بِمَا أَتَوْهُ ، بَلْ يُرِيدُونَ مَا هُوَ أعْظَمُ وَأفْضَلُ وَأعْلى .

وَأَنِّي إذا بَاشَرْتُ أَمْرًا أُرِيدُهُ تَدَانَتْ أَقَاصِيهِ وَهَانَ أَشَدُّه

وَأَنِّي إذا أَرَدْتُ أَمْرًا ، قَرُبَ بَعِيدُه ، وَهَانَ شَدِيدُه .

وَأَشْرَفُهُمْ مَنْ كَانَ أشرَفَ هِمَّةً وَأَكْثَرَ إقْدَامًا عَلى كُلِّ مُعْظَمِ

أَشْرَفُ الناسِ مَنْ كَانَتْ هِمَّتُهُ أشْرَفَ ، وَإقْدَامُهُ عَلى كُلِّ أَمْرٍ عَظِيمٍ أكْثَرَ . إنَّ أَحَقَّ الناسِ بِالشَّرَفِ وَالرِّفْعَةِ ، وَأَجْدَرَهُمْ بِعُلُوِّ الرُّتْبَةِ ، مَنْ كَانَ أَشْرَفَهُمْ نَفْسًا وَهِمَّةً ، وَأَثْبَتَهُمْ قُوَّةً وبَأسًا ، وَأكْثَرَهُمْ إقْدَامًا عَلى كُلِّ مَا عَظُمَ مِنَ الأُمُورِ ، وَكَبُرَ مِنَ الشُّؤُونِ .

وفي الجِسْمِ نَفْسٌ لا تَشِيبُ بِشَيْبِهِ وَلَوْ أنَّ مَا في الوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ

وفي جِسْمِي نَفْسٌ كَرِيمَةٌ، صَابِرَةٌ عَلى رَيْبِ الخُطُوبِ، لا تَشِيبُ بِشَيْبِ الجِسْمِ المُتَضَمِّنِ لَهَا ، ولا تَهْرَمُ بِهَرَمِ الشَّخْصِ المُسْتَقِلِّ بِهَا ، وَلَوْ أنَّ مَا في الوَجْهِ مِنَ الشَّيْبِ حِرَابٌ تَنْكُتُه، وَأَسِنَّةٌ تَطْعَنُه. وَالحِرَابُ جَمْعُ الحَرْبَةِ ، وَهِيَ قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيدٍ مُحَدَّدَةُ الرَّأسِ كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ في الحُرُوبِ قَدِيمًا . إنْ كَانَ جِسْمِي أَثَّرَ فِيهِ الشَّيْبُ ، فَإنَّ نَفْسِي التي في جِسْمِي لَمْ تَضْعُفْ بِضَعْفِه ، وَلَوْ أنَّ بَدَلَ كُلِّ شَعْرَةٍ بَيْضَاء حَرْبَة في الوَجْهِ مَغْرُوزة . إنَّ هِمَّتَهُ وَعَزِيمَتَهُ وَمَا فِيهِ مِنْ مَعَاني الكَرَمِ لا تَشِيبُ ، ولا يُدْرِكُهَا العَجْزُ وَالضَّعْفُ بِشَيْبِ جِسْمِه ، وَلَوْ أنَّ الشَّعَرَاتِ البِيضَ في وَجْهِهِ كَانَتْ حِرَابًا .

لَهَا ظُفُرٌ إنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ وَنَابٌ إذا لَمْ يَبْقَ في الفَمِ نَابُ

لِنَفْسِي ظُفُرٌ أَجْعَلُهُ عُدَّةً لِي إنْ كَلَّ ظُفْرُ الجِسْمِ ، أي : إنْ ذَهَبَتْ قُوَّتُه ، فَقُوَّةُ النَّفْسِ بَاقِيَةٌ ، وَكَذَلِكَ إنْ لَمْ يَبْقَ فَي فَمِي نَابٌ ، فَلِلنَّفْسِ نَابٌ (إرَادَة وَعَزِيمَة) . نَفْسِي لَهَا إرَادَةٌ قَوِيَّةٌ إذا ضَعُفَ جِسْمِي ، وَتَسَاقَطَتْ أسْنَاني ، بِسَبَبِ الكِبَرِ وَتَقَدُّمِ العُمْرِ ، فَهِمَّتِي لا يَضْعُفُ ظُفُرُهَا ، ولا يَذْهَبُ نَابُهَا .

يُغَيِّرُ مِنِّي الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا وَأَبْلُغُ أقْصَى العُمُرِ وَهِيَ كَعَابُ

الدَّهْرُ يُغَيِّرُ مِنْ جِسْمِي كُلَّ شَيْءٍ ، وَلا يَقْدِرُ أنْ يُغَيِّرَ نَفْسِي ، فَإنَّهَا أبَدًا تَبْقَى في قُوَّتِهَا ، وَإنْ بَلَغْتُ أَقْصَى العُمُرِ . نَفْسِي شَابَّةٌ أبَدًا لا يُغَيِّرُهَا الدَّهْرُ وَإنْ تَغَيَّرَ جِسْمِي . وَالكَعَابُ : الفَتَاةُ التي نَهَدَ ثَدْيُهَا وَأَشْرَفَ .

وَلَيْسَ بِأوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ

لَيْسَ الخَارِجِيُّ بِأوَّلِ مَنْ دَعَتْهُ هِمَّتُهُ إلى مَا لا يَنَالُه . وكانَ هَذا الخَارِجِيُّ يَطْمَعُ في الخِلافَةِ وَالمُلْكِ . إنَّ الخَارِجِيَّ لَيْسَ بِأوَّلِ مَنْ لَمْ يُدْرِكْ مُرَادَه ، وَمَا دَعَتْهُ إلَيْهِ هِمَّتُه ، وَقَدْ خَرَجَ قَبْلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الخَوَارِجِ، وَطَلَبُوا مِثْلَ مَا طَلَبَ ، فَقُتِلُوا كَمَا قُتِلَ .

تُسَلِّيهِمُ عَلْيَاؤُهُمْ عَنْ مُصَابِهِمْ وَيَشْغَلُهُمْ كَسْبُ الثَّنَاءِ عَنِ الشُّغْلِ

إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ فَإنَّ عَلْيَاءَهُمْ وَسَلَامَتَهَا تُسَلِّيهِمْ عَن المُصِيبَةِ ، وَيَشْغَلُهُمْ اكْتِسَابُ الثَّنَاءِ عَنْ كُلِّ شُغْلٍ سِوَاه . إنَّ مَعَالِيهِمْ تُذْهِبُ عَنْهُمْ حُزْنَ المُصِيبَةِ ، وَذَلِكَ أنَّ الجَزَعَ مِنْ أخْلاقِ اللئيمِ ، وَمَنْ نَبُلَ قَدْرُه ، وَعَلَتْ هِمَّتُه ، وَكَرُمَ حَسَبُه ، لَمْ يَجْزَعْ لِمَا أَصَابَه ، وَيَشْتَغِلُونَ بِكَسْبِ الثَّنَاءِ عَنْ كُلِّ شُغْلٍ ، لأنَّ ذَلِكَ شُغْلُهُمُ الذي يَشْغَلُهُمْ عَنْ غَيْرِه .

٣٨ _ الرَّشَادُ

وَقَدْ مَزَّقْتَ ثَوْبَ الغَيِّ عَنْهُمْ وَقَدْ أَلْبَسْتَهُمْ ثَوْبَ الرَّشَادِ

قَاتَلْتَهُمْ حَتَّى انْقَادُوا ، وكَشَفْتَ عَنْهُمْ ثَوْبَ الضَّلالَةِ ، وَأَلْبَسْتَهُمْ ثَوْبَ الرَّشَادِ وَالحَقِّ ، فَصَارُوا رَاشِدِين بَعْدَ أنْ كَانُوا غَاوِين . أي إنَّهُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَلالِ المَعْصِيَةِ إلى رُشْدِ الطَاعَةِ .

٣٩ _ الحِلْمُ

إذا قِيلَ رِفْقًا قَالَ لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الفَتَى في غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ

إذا قِيلَ لَهُ في الحَرْبِ : ارْفُقْ ، قالَ : لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ ، وَلَيْسَ هَذا مَوْضِعَه ، وَحِلْمُ المَرْءِ في غَيْرِ المَكَانِ الصَّحِيحِ جَهْلٌ . إنَّهُ إذا أُمِرَ بِالرِّفْقِ بِالأقْرَانِ ، وَقِيلَ له : ارْفُقْ رِفْقًا ، قال : مَوْضِعُ الحِلْمِ غَيْرُ الحَرْبِ ، يَعْنِي أنَّ الرِّفْقَ وَالحِلْمَ يُسْتَعْمَلانِ في السِّلْمِ ، وَأمَّا الحَرْبُ فَلا رِفْقَ فِيهَا بِالأقْرَانِ ، وَالحَلِيمُ في الحَرْبِ جَاهِلٌ وَاضِعٌ الشَّيْءَ في غَيْرِ مَوْضِعِه .

كُلُّ حِلْمٍ أتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لاجِئٌ إلَيْهَا اللِّئَامُ

الحِلْمُ إذا لَمْ يَكُنْ عَنْ قُدْرَةٍ عَلى العَدُوِّ كَانَ عَجْزًا ، وَهُوَ حُجَّةُ اللِّئَامِ ، يُسَمُّونَ عَجْزَهُمْ عَنْ مُكَافَأةِ العَدُوِّ حِلْمًا . لَيْسَ حِلْمُ الإنْسَانِ مِمَّا يُحْمَدُ عَلَيْهِ إلا أنْ يَكُونَ عَنْ مَقْدِرَةٍ ، وإلا فَحِلْمُهُ ذُلٌّ وَخِزْيٌ وَعَارٌ ، وَإنَّمَا يَحْتَجُّ بِذَلِكَ لِئَامُ الناسِ الغَارِقُونَ في الضَّعْفِ وَالعَجْزِ وَالهَوَانِ .

ثَاقِبُ العَقْلِ ثَابِتُ الحِلْمِ لا يَقْدِرُ أَمْرٌ لَهُ عَلى إقْلاقِ

عَقْلُهُ صَادِقٌ مُنِيرٌ ، يَرَى بِهِ الأُمُورَ عَلى حَقَائِقِهَا ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْ حِلْمِه ، لا يَطِيشُ ، ولا يُزْعِجُهُ شَيْءٌ ، ولا يُقْلِقُهُ أَمْرٌ مِنَ الأُمُورِ ، لِثَباتِ عَقْلِه ، وَزِيَادَةِ حِلْمِه .

لِأنَّ حِلْمَكَ حِلْمٌ لا تَكَلَّفُهُ لَيْسَ التَّكَحُّلُ في العَيْنَيْنِ كَالكَحَلِ

لِأنَّ لَكَ حِلْمًا طُبِعْتَ عَلَيْه، لا تَحْتَاجُ إلى أنْ تَكَلَّفَه ، كَالكُحْلِ في العَيْنِ ، لَيْسَ ذَلِكَ كَالتَّكَحُّلِ الذي هُوَ تَكَلُّفٌ . لِأنَّ حِلْمَكَ حِلْمٌ قَدْ طُبِعْتَ عَلَيْهِ فَمَا تَتَكَلَّفُه ، وَخُصِصْتَ بِهِ فَمَا تَتَكَسَّبُه ، وَحُسْنُ التَّكَحُّلِ غَيْرُ حُسْنِ الكَحَلِ ، وَحِلْمُ التَّكَلُّفِ غَيْرُ حِلْمِ الطَّبْعِ . وَالكَحَلُ : أنْ تَكُونَ أَشْفَارُ العَيْنِ سُودًا خِلْقَةً ، وَالتَّكَحُّلُ : اسْتِعْمَالُ الكُحْلِ . إنَّ حِلْمَكَ في طِبَاعِكَ غَيْرُ مُتَكَلَّفٍ ، فَلا يَتَغَيَّرُ بِسِعَايَةِ سَاعٍ ، وَلا وِشَايَةِ وَاشٍ . حِلْمُكَ ثَابِتٌ لا يَزُولُ ، كَمَا أنَّ الكُحْلَ في العَيْنِ إذا كانَ خِلْقَةً لا يَزُولُ ولا يَحُول، وَحِلْمُ غَيْرِكَ مِنَ المُلُوكِ مُتَكَلَّفٌ سَرِيعُ الانتقالِ، كَمَا أنَّ التَّكَحُّلَ لا دَوَامَ لَه .

فَمَا الحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ قَدْ يُوجَدُ الحِلْمُ في الشُّبَّانِ وَالشِّيبِ

لَيْتَ الحَوَادِثَ رَدَّتْنِي إلى أيَّامِ الصِّبَا وَالحَدَاثَةِ ، فَإنَّهَا لا تَمْنَعُ مِنَ الحِلْمِ ، فَيَكُونُ مَعَ الحَدَاثَةِ مَا يَكْفِيني مِنَ الحِلْمِ وَالتَّجْرِبَةِ ، فَإنَّ العَقْلَ يُوجَدُ في الأحْدَاثِ كَمَا يُوجَدُ في الشُّيُوخِ . وَالحَدَاثَةُ : حَدَاثَةُ السِّنِّ وَالشَّبَابِ . يُرِيدُ أنَّهُ كَانَ حَلِيمًا قَبْلَ تَحْلِيمِ الحَوَادِثِ إيَّاه ، وَحَدَاثَةُ السِّنِّ لا تَمْنَعُ مِنَ الحِلْمِ ، فَالمَرْءُ قَدْ يَكُونُ حَلِيمًا في الشَّبَابِ ، كَمَا يَكُونُ حَلِيمًا في المَشِيبِ .

وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِّي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَجْزِهِ حِلْمًا عَلى الجَهْلِ يَنْدَمِ

وَأَصْفَحُ عَنْ خَلِيلِي عِلْمًا بِأنِّي مَتَى جَازَيْتُهُ عَلى سَفَهِهِ وَجَهْلِهِ بِالْحِلْمِ نَدِمَ عَلى قَبِيحِ فِعْلِه ، فَاعْتَذَرَ إلَيَّ ، وَأرْضَاني، وَرَجَعَ إلى مُرَادِي . إذا جَهِلَ عَلَيَّ صَدِيقِي حَلُمْتُ ، وَعَلِمْتُ أنِّي إذا قَابَلْتُهُ بِالْحِلْمِ نَدِمَ عَلى مَا بَدَرَ مِنْه ، وَعَادَ إلى الوَصْلِ . وَهَذِهِ صِفَةُ خِلٍّ جَمِيل الطَّرِيقَة . وفي الناسِ مَنْ إذا حَلُمَ عَنْهُ الصَّدِيقُ زادَ في الطَّمَعِ والأذَى .

وَإذا الحِلْمُ لَمْ يَكُنْ في طِبَاعٍ لَمْ يُحَلِّمْ تَقَادُمُ المِيلادِ

وَإذا لَمْ يُطْبَع المَرْءُ عَلى الحِلْمِ الغَرِيزِيِّ ، لَمْ يُفِدْهُ عُلُوُّ سِنِّهِ وَتَقَدُّمُ وِلادَتِهِ حِلْمًا ، وَلَيْسَ الشَّيْخُ أَوْلَى بِصِحَّةِ الرَّأيِ مِنَ الشَّابِّ . إذا لَمْ يَكُن الرَّجُلُ مَطْبُوعًا عَلى الحِلْمِ ، فَمُرُورُ الأيَّامِ وَتَقَدُّمُ الوِلادَةِ ، لا تَجْعَلُهُ حَلِيمًا . يَعْني : لا اعْتِبَارَ بِالسِّنِّ ، وإنَّمَا الاعْتِبَارُ بِالطَّبْعِ . وَالحِلْمُ هُوَ الأنَاةُ

وَالعَقْلُ . إذا لَمْ يَكُن الحِلْمُ غَرِيزَةً وَجِبِلَّةً طُبِعَ عَلَيْهَا المَرْءُ وَفُطِرَ ، لَمْ يُفِدْهُ الكِبَرُ وَتَقَادُمُ السِّنِّ ، وَلَيْسَ الشُّيُوخُ أَوْلَى بِجَوْدَةِ الرَّأيِ مِنَ الشَّبَابِ . وَالحِلْمُ يَتَعَلَّقُ بِالغَرِيزَةِ وَالفِطْرَةِ وَالطَّبْعِ ، وَلا يَتَعَلَّقُ بِمُرُورِ السَّنَوَاتِ وَكِبَرِ السِّنِّ .

إنِّي أُصَاحِبُ حِلْمِي وَهْوَ بِي كَرَمٌ وَلا أُصَاحِبُ حِلْمِي وَهْوَ بِي جُبُنُ

أَحْلُمُ عَمَّنْ يُؤْذِيني مَا دَامَ حِلْمِي كَرَمًا ، فَإذَا كَانَ حِلْمِي جُبُنًا لَمْ أَحْلُمْ . ولا شَكَّ أنَّ الحِلْمَ في غَيْرِ مَوْقِعِهِ الصَّحِيحِ هُوَ ذُلٌّ وَخِزْيٌ وَعَارٌ . أَحْلُمُ مَا دَامَ الحِلْمُ مِنِّي مَنْسُوبًا إلى الكَرَمِ ، فَأمَّا إذا كَانَ مَنْسُوبًا إلى الذُّلِّ وَالجُبُنِ لَمْ أَصْبِرْ عَلَيْه . إنَّني أُصَاحِبُ حِلْمِي إذا كَانَ بِي كَرَمًا وَتَجَاوُزًا ، وَأُؤْثِرُهُ إذا كَانَ إغْضَاءً وَتَغَافُلًا ، ولا أُصَاحِبُهُ إذا كَانَ عَجْزًا وَجُبُنًا ، ولا أَرتَضِيهِ إذا كَانَ ذُلًّا وَضَعْفًا .

٤٠_ طَلَبُ المَعَالي

سَعَوْا لِلْمَعَالي وَهُمْ صِبْيَةٌ وَسَادُوا وَجَادُوا وَهُمْ في المُهُودِ

إنَّ المَمْدُوحَ وَآبَاءَهُ وَأجْدَادَهُ قَدْ سَعَوْا في طَلَبِ المَعَالي في حَالِ صِبَاهُمْ ، وَسَادُوا غَيْرَهُمْ ، وَجَادُوا بِأمْوَالِهِمْ ، وَهُمْ أطفالٌ في المُهُودِ . وَالغَرَضُ المُبَالَغَةُ في مَجْدِهِمْ وكَرَمِهِمْ . لَقَدْ وَرِثُوا السِّيَادَةَ وَالجُودَ عَنْ آبَائِهِم المَاضِين، فَحَكَمَ لَهُمْ بِالجُودِ وَالسِّيَادَةِ وَهُمْ صِغَارٌ .

وَشُغْلُ النَّفْسِ عَنْ طَلَبِ المَعَالي بِبَيْعِ الشِّعْرِ في سُوقِ الكَسَادِ

يَقُولُ مُعَاتِبًا نَفْسَه : إلى كَمْ تَشْغَلُ نَفْسَكَ عَنْ طَلَبِ المَعَالي ، بِأنْ تَبِيعَ الشِّعْرَ في سُوقِ الكَسَادِ ، وَتَقْتَصِر عَلَيْهِ دُون مَا هُوَ أَجَلُّ مِنْه ، فأنتَ تُجِيدُ الشِّعْرَ ، ولا تُصِيبُ الصِّلَةَ التي تَسْتَحِقُّهَا بِشِعْرِكَ . وكَسَدَ الشَّيْءُ : لَمْ يَنْفَقْ لِقِلَّةِ الرَّغْبَةِ فِيه . إلى كَمْ أَشْغَلُ نَفْسِي عَنْ طَلَبِ المَعَالي بِنَظْمِ الشِّعْرِ في مَدْحِ مَنْ لا قِيمَةَ عِنْدَهُ لِلشِّعْرِ ؟! .

سَمَوْتَ بِهِمَّةٍ تَسْمُو فَتَسْمُو فَمَا تُلْفَى بِمَرْتَبَةٍ قَنُوعَا

تَسْمُو أنْتَ وَتَسْمُو هِمَّتُكَ بِسُمُوِّكَ ، أوْ : تَسْمُو هِمَّتُكَ فَتَسْمُو أنْتَ بِسُمُوِّ هِمَّتِكَ ، أوْ : تَسْمُو هِمَّتُكَ إلى دَرَجَةٍ فَمَا تَرْضَى بِهَا ، فَتَسْمُو إلى مَا فَوْقَهَا ، فَمَا تُلْفَى أنْتَ أوْ هِمَّتُكَ بِمَرْتَبَةٍ قَنُوعًا، أي : لا يَرْضَى بِمَرْتَبَةٍ نَالَهَا ، بَلْ يَطْلُبُ فَوْقَهَا .

وَهَبْكَ سَمَحْتَ حَتَّى لا جَوَادٌ فَكَيْفَ عَلَوْتَ حَتَّى لا رَفِيعَا

افْرِضْ أنَّ جُودَكَ مَحَا اسْمَ الجَوَادِ عَن الناسِ، فَكَيْفَ مَحَا ارتفاعُكَ اسْمَ الرَّفيعِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؟. افْرِضْ أنَّكَ بِجُودِكَ عَلَوْتَ أقْرَانَكَ حَتَّى لا نَظِيرَ لَكَ فِيه ، فَكَيْفَ قَدَرْتَ عَلى السُّمُوِّ والارتفاعِ حَتَّى لا يَبْقَى رَفِيعٌ سِوَاك ؟ .

التَّارِكِينَ مِنَ الأشياءِ أَهْوَنَهَا وَالرَّاكِبِينَ مِنَ الأشياءِ مَا صَعُبَا

نَصَبَ التاركينَ والراكبينَ عَلى المَدْحَ ، كَأنَّهُ قَال: أَمْدَحُ التاركينَ والراكبين . إنَّهُمْ يَتْرُكُونَ مِنَ الأُمُورِ مَا هُوَ سَهْلٌ ، وَيَفْعَلُونَ مَا هُوَ أَصْعَبُ عَلى غَيْرِهِمْ ، لِفَضْلِ قُوَّتِهِمْ وَشَجَاعَتِهِمْ . إنَّهُمْ يَتْرُكُونَ مَا هَانَ مِنَ الأُمُورِ وَسَهُلَ وُجُودُه، وأرادوا مَا صَعُبَ مِنْهَا لِبُعْدِ هِمَّتِهِمْ .

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ المَعَالي نَافِذًا فِيهَا ولا كُلُّ الرِّجَالِ فُحُولا

لَيْسَ كُلُّ مَنْ طَلَبَ المَعَالي يُدْرِك مِنْهَا مَا أَدْرَكْتَ ، وَيَنْفُذُ فِيهَا كَمَا نَفَذْتَ ، ولا كُلُّ مَنْ هُوَ عَلى خِلْقَةِ الرِّجَالِ فَحْلًا جَامِعًا لِغَايَاتِ الرُّجُولِيَّةِ .

وَمَنْ يَجِدُ الطريقَ إلى المَعَالي فَلا يَذَرُ المَطِيَّ بِلا سَنَامِ

عَجِبْتُ مِمَّنْ يَجِدُ الطريقَ إلى مَعَالي الأُمُورِ، فَلا يَسِيرُ إلَيْهَا ، وَيَبْذُلُ جُهْدَهُ مِنْ أَجْلِهَا ، حَتَّى يُتْعِبَ المَطِيَّ بِسَيْرِه ، وَيُذِيبَ أَسْنِمَتَهَا تَحْتَه ، فَتَبْقَى بِغَيْرِ سَنَامٍ . وَالمَطِيُّ جَمْعُ المَطِيَّةِ ، وَهِيَ البَعِيرُ الذي يُرْكَب . وَالسَّنَامُ : كُتَلٌ مِنَ الشَّحْمِ مُحَدَّبَة عَلى ظَهْرِ البَعِيرِ .

إنِّي أَرَاكَ مِنَ المَكَارِمِ عَسْكَرًا في عَسْكَرٍ وَمِنَ المَعَالي مَعْدِنَا

إنِّي أراكَ عَسْكَرًا في عَسْكَرٍ مِنَ المَكَارِمِ ، أي : أنْتَ في نَفْسِكَ عَسْكَرٌ ، وَحَوْلَكَ عَسْكَرٌ آخَر مِنَ المَكَارِمِ ، وأراكَ مَعْدِنًا مِنَ المَعَالي ، أي : أصْلًا لَهَا فَهِيَ تُؤْخَذُ مِنْكَ . إنَّكَ في نَفْسِكَ عَسْكَرٌ ، وَحَوْلَكَ مِنْ مَكَارِمِكَ عَسْكَرٌ ، لِهَذَا أراكَ عَسْكَرًا في عَسْكَرٍ مِنَ المَكَارِمِ . أوْ : إنِّي أراكَ عَسْكَرًا مِنَ المَكَارِمِ ، في عَسْكَرٍ مِنَ الخَيْلِ وَالرِّجَالِ ، وَإنَّكَ مَعْدِنٌ ، أي : أَصْلٌ لِكُلِّ خَيْرٍ وَشَرَفٍ.

هِمَمٌ بَلَّغَتْكُمُ رُتَبَاتٍ قَصُرَتْ عَنْ بُلُوغِهَا الأَوْهَامُ

لَهُمْ هِمَمٌ قَدْ بَلَّغَتْهُمْ مَنَازِلَ مِنَ المَجْدِ ، بِحَيْثُ تَقْصُرُ الأَوْهَامُ عَنْ بُلُوغِ تِلْكَ المَنَازِلِ ، ولا تَبْلُغُهَا أَوْهَامُ الناسِ .

وَإِنِّي لِمَنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالعَظْمَا

إنَّا نَتَعَرَّضُ أَبَدًا لِلْحَرْبِ لِنُقْتَلَ ، فَكَأَنَّ نُفُوسَنَا تَأَنَفُ أَنْ تَسْكُنَ أَجْسَادًا هِيَ لَحْمٌ وَعَظْمٌ ، فَهِيَ تَتَطَلَّعُ لِسُكْنَى غَيْرِهَا ، أي : تَخْتَارُ القَتْلَ عَلى الحَيَاةِ . وكانَ القِيَاسُ أَنْ يَقُولَ: كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ ، إلا أَنَّهُ اختارَ رَدَّ الكِنَايَةِ إلى الإِخْبَارِ عَن النَّفْسِ، لأَنَّهُمْ هُمُ القَوْمُ الذينَ عَنَاهُمْ ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ مُبَالَغَةِ المَدْحِ. إنَّا نَخْتَارُ المَوْتَ، وَنَتَلَذَّذُ بِه، وَنَسْتَمْتِعُ بِه، فَكَأَنَّ نُفُوسَنَا تَأَنَفُ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالعَظْمَ ، فَتُحِب مُفَارَقَتَهُمَا ، وَتَحْرِص عَلى التَّخَلُّصِ مِنْهُمَا .

فَتًى لا يَضُمُّ القَلْبُ هِمَّاتِ قَلْبِهِ وَلَوْ ضَمَّهَا قَلْبٌ لَمَا ضَمَّهُ صَدْرُ

إنَّ هِمَّتَهُ عَظِيمَةٌ لا يَسَعُهَا قَلْبُ أَحَدٍ ، وَلَوْ ضَمَّ هِمَّتَهُ قَلْبُ أَحَدٍ ، لَمَا اسْتَطَاعَ صَدْرٌ أَنْ يَضُمَّ هَذا القَلْبَ ، أي إنَّ هَذا القَلْبَ لِعِظَمِهِ لا يَسَعُهُ صَدْرٌ ولا يَسْتَوْعِبُه ، بَلْ يَنْشَقُّ . إنَّ مَا تَوَافَرَ في قَلْبِهِ مِنَ الهِمَمِ لا يَجْمَعُهُ قَلْبٌ سِوَاه ، وَلَوْ ضَمَّهَا قَلْبُ أَحَدٍ لَكَانَ عَظِيمًا مِثْلَهَا ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا وَسِعَهُ الصَّدْرُ لِعِظَمِ القَلْبِ . وَهَذا مِمَّا أُجْرِيَ فِيهِ المَجَازُ مَجْرَى الحَقِيقَةِ ، لأَنَّ عِظَمَ الهِمَّةِ لَيْسَ مِنْ كَثْرَةِ الأَجْزَاءِ حَتَّى يَكُونَ مَحَلُّهَا وَاسِعًا لِسَعَتِهَا . ألا تَرَى أَنَّ قَلْبَ المَمْدُوحِ قَدْ وَسِعَهَا وَصَدْرُهُ قَدْ وَسِعَ قَلْبَهُ وَلَيْسَ بِأَعْظَم مِنْ صَدْرِ غَيْرِه ؟ .

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ المَعَالي رَخِيصَةً وَلا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إبَرِ النَّحْلِ

تُرِيدِينَ أَنْ أُدْرِكَ المَعَالي رَخِيصَةً ، أي : دُون أَنْ أَبْذُلَ فِيهَا نَفْسِي وَأُعَرِّضَهَا للأَهْوَالِ ، وَالمَعَالي لا تُدْرَكُ كَذَلك ، فَإِنَّ مَنْ حَاوَلَ اجْتِنَاءَ الشَّهْدِ (العَسَلِ) قَاسَى لَسْعَ النَّحْلِ ، وَلا يَبْلُغُ حَلاوةَ العَسَلِ إلا بِمُقَاسَاةِ مَرَارَةِ اللَّسْعِ . إنَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ أُدْرِكَ المَعَالي بِالْهُوَيْنَى ، وَهَذا مِمَّا لا يَكُون، فَإِنَّ المَرْءَ لا يُدْرِكُ حَلاوَةَ المَعَالي إلا بِمُقَاسَاةِ مَرَارَةِ الخَطَرِ ، كَمَا أَنَّهُ لا يَجْتَنِي العَسَلَ حَتَّى يَصْبِرَ عَلى أَلَمِ لَسْعِ النَّحْلِ . وَقَدْ قُرِئَ عَلى المُتَنَبِّي (لُقْيَان) بِضَمِّ اللامِ ، وكَذَلِكَ أمْلاه ، وَهُوَ خَطَأ ، وَالصَّوَابُ : كَسْرُ اللامِ (لِقْيَان) .

شَغَلَتْ قَلْبَهُ حِسَانُ المَعَالي عَنْ حِسَانِ الوُجُوهِ والأَعْجَازِ

شُغْلُهُ الشَّاغِلُ إنَّمَا هُوَ طَلَبُ مَعَالي الأمُورِ ، وَلَيْسَ مُغَازَلَة النِّسَاءِ . إنَّ المَعَالي الحِسَانَ شَغَلَتْ قَلْبَهُ بِاكْتِسَابِهَا عَنْ طَلَبِ النِّسَاءِ الجَمِيلاتِ المُتَّصِفَاتِ بَحُسْنِ الوُجُوهِ وَالمُؤَخَّرَاتِ . وَالأَعْجَازُ جَمْعُ العَجُزِ ، وَهُوَ مُؤَخَّرُ الشَّيْءِ ، يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ ، وَهُوَ للرَّجُلِ وَالمَرْأةِ جَمِيعًا . وَالمَقْصُودُ في هَذا السِّيَاقَ هُوَ مُؤَخَّرَةُ المَرْأةِ ، أي: عَجِيزَتُهَا .

هُمُ المُحْسِنُونَ الكَرَّ في حَوْمَةِ الوَغَى وَأَحْسَنَ مِنْهُ كَرُّهُمْ في المَكَارِمِ

هُمْ يُحْسِنُونَ ، أي : يَعْرِفُونَ أوْ يَأتُونَ مَا يُسْتَحْسَنُ مِنَ الكَرِّ في وَسَطِ الحَرْبِ ، وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ في المَكَارِمِ ، وَذَلِكَ أَحْسَنُ مِنْ كَرِّهِمْ في الحَرْبِ وَالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ . وَالكَرُّ : رُجُوعٌ بَعْدَ انْصِرَافٍ ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ إذا لَقِيَ القَوْمَ في الحَرْبِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَقِيَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ : حَمَلَ عَلَيْهِمْ ، فَإذَا انْصَرَفَ ثُمَّ رَجَعَ ، قِيلَ : كَرَّ عَلَيْهِمْ . لَقَدْ اسْتَحْسَنَ كَرَّهُمْ في الحَرْبِ ، وَفَضَّلَ عَلَيْهِ في الحُسْنِ كَرَّهُمْ في المَكَارِمِ. إنَّهُمْ يَكُرُّونَ في الحَرْبِ عَلى أعْدَائِهِمْ ، كَذَلِكَ يَعُودُونَ في المَكَارِمِ ، فَيَزِيدُونَهَا، ولا يُقَصِّرُونَ في الأمْرَيْن .

قَدْ عَلِمْنَا مِنْ قَبْلُ أنَّكَ مَنْ لا يَمْنَعُ اللَّيْلُ هَمَّهُ وَالغَمَامُ

قَدْ عَلِمَ الناسُ وَانْتَشَرَ بَيْنَهُمْ وَاشْتَهَرَ أنَّ اللَّيْلَ وَالمَطَرَ لا يَمْنَعَانِكَ عَمَّا هَمَمْتَ بِه . وَهَذا يَدُلُّ عَلى عُلُوِّ هِمَّتِه ، وَطُمُوحِهِ العَالي ، وَحِرْصِهِ عَلى طَلَبِ المَعَالي بإرادةٍ صُلْبَةٍ لا يَقِفُ أَمَامَهَا شَيْءٌ .

فَتًى عَلَّمَتْهُ نَفْسُهُ وَجُدُودُهُ قِرَاعَ الأعَادِي وَابْتِذَالَ الرَّغَائِبِ

إنَّ نَفْسَهُ عَلَّمَتْهُ مُضَارَبَةَ الأعْدَاءِ وَالأبْطَالِ ، وَابْتِذَالَ الأمْوَالَ ، وَعَلَّمَهُ هَاتَيْنِ الخَصْلَتَيْنِ أيْضًا آبَاؤُهُ الكِرَامُ ، وَأجْدَادُهُ العِظَامُ ، وَإنَّ مَجْدَهُ وَشَرَفَهُ وَسَخَاءَهُ وَشَجَاعَتَه ، لَيْسَتْ بِطَارِئَةٍ عَلَيْه ، بَلْ مَوْرُوثَةٌ لَه ، أي إنَّ شَجَاعَتَهُ وكَرَمَهُ غَرِيزَتَان مَوْرُوثَتَان . والابْتِذَالُ مِثْلُ البَذْلِ ، وَالرَّغَائِبُ جَمْعُ الرَّغِيبَةِ ، وَهِيَ الشَّيْءُ المَرْغُوبُ فِيه .

فَسِرْتُ إلَيْكَ في طَلَبِ المَعَالي وَسَارَ سِوَايَ في طَلَبِ المَعَاشِ

إنَّمَا قَصَدْتُكَ لأبْلُغَ المَنَازِلَ الرَّفيعةَ ، وَالمَرَاتِبَ السَّنِيَّةَ ، وَقَصَدَكَ غَيْرِي لِطَلَبِ المَعَاشِ ، وَاقْتِنَاءِ الرِّيَاشِ (المَالِ وَالحَالِ الجَمِيلَةِ). وَالمَعَاشُ : مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إلى العَيْشِ وَمَا يَسْتَعْمِلُهُ الناسُ فِيمَا يُؤَدِّيهِمْ إلى الحَيَاةِ .

وَهَمُّهَا في العُلَى وَالمَجْدِ نَاشِئَةً وَهَمُّ أَتْرَابِهَا في اللَّهْوِ واللَّعِبِ

كَانَ هَمُّهَا مُنْذُ صِبَاهَا مُنْصَبًّا في العُلا ، وَتَدْبِيرِ المُلْكِ، بَيْنَمَا أَقْرَانُهَا هَمُّهُنَّ في اللَّهْوِ واللَّعِبِ. وَأَتْرَابُهَا : نَظِيرَاتُهَا في العُمْرِ . كَانَ هَمُّهَا اكْتِسَابَ المَعَالي ، وَهِيَ نَاشِئَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ ، وَهَمُّ أَمْثَالِهَا وَمَنْ كُنَّ في سِنِّهَا هُوَ اللَّهْوُ وَاللَّعِبِ . وَالمَقْصُودُ : خَوْلَة أُخْتُ سَيْفِ الدَّوْلَة .

وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِأنْ أُعْزَى إلى جَدٍّ هُمَامِ

لا أَقْنَعُ مِنَ الفَضْلِ بِأنْ أُنْسَبَ إلى جَدٍّ فَاضِلٍ ، يَعْنِي إذا لَمْ أَكُنْ فَاضِلًا بِنَفْسِي لَمْ يُغْنِ عَنِّي فَضْلُ جَدِّي . لا أَرْضَى مِنَ الفَضْلِ وَالشَّرَفِ بِمُجَرَّدِ كَرَمِ النَّسَبِ ، حَتَّى أَكْسِبَ لِنَفْسِي مَفَاخِرَ أَتَشَرَّفُ بِذِكْرِهَا .

٤١_ الإتْقَانُ

وَلَمْ أَرَ في عُيُوبِ الناسِ شَيْئًا كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلى التَّمَامِ

وَلَمْ أَرَ في عُيُوبِ الناسِ عَيْبًا أَظْهَرَ وَأَبْيَنَ ، وَعَجْزًا أَبْلَغَ وَأَمْكَنَ ، مِنْ نَقْصِ مَنْ بِهِ عَلى التَّمَامِ أَعْظَمُ قُدْرَة ، وَخُمُولِ مَنْ لَهُ عَلى الظُّهُورِ أَوْفَرُ قُوَّة . لا عَيْبَ أَبْلَغُ مِنْ عَيْبِ مَنْ قَدَرَ أنْ يَكُونَ كَامِلًا في الفَضْلِ ، فَلَمْ يَكْمُلْ ، أي : لا عُذْرَ لَهُ في تَرْكِ الكَمَالِ إذا قَدَرَ عَلى ذَلِكَ ثُمَّ تَرَكَه ، وَالعَيْبُ أَلْزَمُ لَهُ مِنَ النَّاقِصِ الذي لا يَقْدِرُ عَلى الكَمَالِ. لَيْسَ في الإنْسَانِ عَيْبٌ أَقْبَحُ مِنْ أنْ يَكُونَ نَاقِصًا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلى الكَمَالِ . وَقِيلَ : مَعْنَاه : لا عَيْبَ أَقْبَحُ مِنَ الكَسَلِ .

٤٢_ طُمُوحُ القَلْبِ

وَلَكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيَّ مَا لَهُ مَدًى يَنْتَهِي بِي في مُرَادٍ أَحُدُّه

وَلَكِنَّ لِي قَلْبًا لَيْسَ لَهُ غَايَةٌ يَنْتَهِي بِي إلى تِلْكَ الغَايَةِ في مَطْلُوبٍ أَجْعَلُ لَهُ حَدًّا ، يَعْنِي إذا جَعَلْتُ حَدًّا لِمَطْلُوبي لَمْ يَرْضَ قَلْبي بِذَلِكَ ، فَطَلَبَ مَا وَرَاءَه. وَلَكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيَّ بَعِيدًا مَرَامُه ، جَلِيلًا مُرَادُه ، لَيْسَ لِمَا يَبْغِيهِ مَدًى أَقِفُ عِنْدَه ، ولا لِمَا يُحَاوِلُهُ طَرَفٌ أَحْصُرُ بِالوَصْفِ حَدَّه . وَالمَعْنَى: أنا لَسْتُ شَخْصًا ضَعِيفًا عَاجزًا كَسُولًا، وَلَكِنِّي بَعِيدُ الهِمَّةِ ، لَيْسَ لِهِمَّتِي غَايَةٌ تَقِفُ عِنْدَهَا.

يَرَى جِسْمَهُ يُكْسَى شُفُوفًا تَرُبُّهُ فَيَخْتَارُ أنْ يُكْسَى دُرُوعًا تَهُدُّه

هَذا القَلْبُ الذي لِي يَرَى جِسْمَهُ يُكْسَى ثِيَابًا رَقِيقَةً بِلِينِهَا وَنُعُومَتِهَا، فَيَرْفُضُ ذَلِكَ ، وَيُرِيدُ أنْ يُكْسَى دُرُوعًا خَشِنَةً غَلِيظَةً تَكْسِرُهُ بِثِقَلِهَا ، وَتَهْدِمُ نُعُومَةَ الجِسْمِ . لا يَرْضَى قَلْبِي بِأنْ أَتَنَعَّمَ بِالثِّيَابِ الرَّقِيقَةِ، وَيُرِيدُني أنْ أَطْلُبَ المَعَالي بِلُبْسِ الدُّرُوعِ. وَالشُّفُوفُ : الثِّيَابُ الرَّقِيقَة . تَرُبُّه : تُنَمِّيهِ وَتُنَعِّمُه . تَهُدُّه : تَهْدِمُه .

٤٣ _ العَفْو

وَهُمْ يُحْسِنُونَ العَفْوَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ وَيَحْتَمِلُونَ الغُرْمَ عَنْ كُلِّ غَارِمِ

إنَّهُمْ يَعْفُونَ عَنْ كُلِّ مُجْرِمٍ ، وَيَحْمِلُونَ عَلى أمْوَالِهِمْ كُلَّ مَغْرَمٍ . وَالغُرْمُ : مَا يَلْزَمُ الرَّجُلَ أَدَاؤُهُ مِنْ دِيَةٍ ، أوْ ضَمَانٍ ، أوْ غَيْرِ ذَلِك. وَالغَارِمُ : الرَّجُلُ الذي يَلْتَزِمُ مَا ضَمِنَهُ وَتَكَفَّلَ بِه .

٤٤ _ الحَيَاء

حَيِيُّونَ إلا أنَّهُمْ في نِزَالِهِمْ أَقَلُّ حَيَاءً مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ

مِنْ عَادَتِهِم الحَيَاءُ في مَوَاضِعِ الحَيَاءِ ، لَكِنَّهُمْ في الحَرْبِ يَمْتَازُونَ بِالوَقَاحَةِ وَالصَّفَاقَةِ ، لا يُبَالُونَ بِشَيْءٍ كَحَدِّ السَّيْفِ لا يُبَالي بِأَحَدٍ . إنَّهُمْ يَمْتَازُونَ بِالحَيَاءِ إلا في وَقْتِ الحَرْبِ ، فَلا حَيَاءَ عِنْدَهُمْ في الحَرْبِ ، فَهُمْ فِيهَا وَقِحُونَ مُتَغَطْرِسُونَ صَفَاقُ الوُجُوهِ لا يَلِينُونَ لأقْرَانِهِمْ ، ولا يَعْبَؤُونَ بِهِمْ ، ولا يَأبَهُونَ لَهُمْ . وَالشِّفَارُ : جَمْعُ الشَّفْرَةِ، وَهِي حَدُّ السَّيْفِ، وَالصَّوَارِمُ : السُّيُوفُ القَوَاطِعُ .

٤٥ _ الحَذَر

وَكُنْ عَلى حَذَرٍ للنَّاسِ تَسْتُرُهُ ولا يَغُرَّكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

احْذَر الناسَ، وَاسْتُرْ حَذَرَكَ مِنْهُمْ، لأَنَّكَ إذا أَظْهَرْتَهُ جَاهَرُوكَ بِالعَدَاوَةِ، ولا تَغْتَر بِابْتِسَامِهِمْ في وَجْهِكَ ، فَإِنَّ خَدِيعَتَهُمْ وَخِيَانَتَهُمْ في صُدُورِهِمْ .

٤٦_ رُكُوبُ الأخْطَارِ

سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كَيْفَ لَذَّتُهَا فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الألَمِ

يَتَعَجَّبُ مِنْ أنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَذَّةَ نَفْسِهِ وَمُتْعَتَهَا وَسَعَادَتَهَا في رُكُوبِ الأخْطَارِ ، وَالقِتَالِ في الحُرُوبِ ، وَوُرُودِ المَهَالِكِ ، وَقَطْعِ المَفَاوِزِ وَالبَرَاري ، وَذَلِكَ عِنْدَ النَّاسِ غَايَةُ ألَمِ النُّفُوسِ . فَسُبْحَانَ اللَّهِ الذي خَلَقَ نَفْسِي عَلى هَذِهِ الصِّفَةِ .

٤٧_ البَصَرُ وَالبَصِيرَةُ

أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

أُعِيذُ نَظَرَاتِكَ الصَّادِقَةَ أنْ تَغْلَطَ فَتَرَى الشَّيْءَ عَلى خِلافِ الحَقِيقَةِ ، فَتَحْسَبَ الشَّحْمَ وَرَمًا . لَقَدْ جَعَلَ الشَّحْمَ مَثَلًا لِنَفْسِه ، وَالوَرَمَ لِسَائِرِ الشُّعَرَاءِ . إذا نَظَرْتَ إلى شَيْءٍ عَرَفْتَهُ عَلى مَا هُوَ ، فَنَظَرَاتُكَ صَادِقَةٌ تَصْدُقُكَ ، ولا تَغْلَطُ فِيمَا تَرَاه ، فَلا تَحْسَب الوَرَمَ شَحْمًا . وَهَذا مَثَلٌ ، يَقُول : لا تَظُنَّ كُلَّ شَاعِرٍ شَاعِرًا .

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنيا بِنَاظِرِهِ إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنْوَارُ وَالظُّلَمُ

إنَّ الإنْسَانَ إذا لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ ، فَاسْتَوَيَا في عَيْنِه ، فَلا يَنْتَفِعْ بِبَصَرِه ، بَلْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الأعْمَى . يَعْني أنَّ حَالَهُ تُخَالِفُ غَيْرَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَالفُصَلاءِ ، وَأنْتَ إذا لَمْ تُمَيِّزْ بَيْنَنَا كُنْتَ كَالأعْمَى . إذا لَمْ يُمَيِّز الإنْسَانُ البَصِيرُ بَيْنَ النُّورِ والظَّلَامِ ، فَأيُّ نَفْعٍ لَهُ في بَصَرِه ؟ ، أي : يَجِبُ أنْ تَكُونَ صَاحِبَ بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ كَي تُمَيِّزَ بَيْنِي وَبَيْنَ غَيْرِي مِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَتي ، كَمَا تُمَيِّز بَيْنَ النُّورِ وَالظَّلَامِ . وإذا لَمْ يَسْتَفِد الإنْسَانُ المُبْصِرُ مِنْ بَصَرِهِ في التَّمْيِيزِ بَيْنَ الأشياءِ ، فَلَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ بَصِيرَتِه ، وَهُوَ أعْمَى البَصَرِ وَالبَصِيرَةِ مَعًا .

إذا رَأيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلا تَظُنَّنَّ أنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ

إذا كَشَرَ الأَسَدُ عَنْ نَابِه ، فَلَيْسَ ذَاكَ تَبَسُّمًا ، وإنَّمَا يَقْصِدُ الافْتِرَاسَ . وَهَذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ ، يَعْني أنَّهُ وَإنْ أَبْدَى بِشْرَهُ وَتَبَسُّمَهُ لِلْجَاهِل ، فَلَيْسَ ذَاكَ رِضًى عَنْه . لَمَّا رَآني أَكْشِرُ الأسْنَانَ ، حَسِبَ أنِّي مَسْرُورٌ بِفِعْلِه ، وَلَمْ يَعْلَمْ ــ مِنْ جَهْلِه ــ أنِّي كَاللَّيْثِ ، إنَّمَا يَكْشِرُ عَنْ أنْيَابِهِ وَأَسْنَانِهِ إذا اشْتَدَّ غَضَبُه .

ذَكِيٌّ تَظَنِّيهِ طَلِيعَةُ عَيْنِهِ يَرَى قَلْبُهُ في يَوْمِهِ مَا تَرَى غَدَا

هُوَ ذَكِيٌّ ظَنُّه ، يَرَى الشَّيْءَ قَبْلَ أنْ تَرَاهُ عَيْنُهُ ، كَالطَّلِيعَةِ تَتَقَدَّمَ أمَامَ القَوْمِ ، وَيَرَى قَلْبُهُ في يَوْمِهِ بِظَنِّهِ مَا تَرَاهُ عَيْنُهُ في غَدٍ . وَالتَّظَنِّي : الظَّنُّ ، وَطَلِيعَةُ الجَيْشِ : مَنْ يُبْعَثُ أَمَامَهُ وَتَتَقَدَّمُ كَي تَسْتَطْلِعَ أَمْرَ العَدُوِّ . هُوَ ذَكِيٌّ يَعْرِفُ الأَمْرَ قَبْلَ مَوْقِعِه ، فَكَأنَّ ظَنَّهُ طَلِيعَةٌ لِعَيْنِه ، فَهُوَ يَرَى بِقَلْبِهِ اليَوْمَ مَا تَرَاهُ أيُّهَا الإنْسَانُ بِعَيْنِكَ غَدًا . إنَّهُ مِنَ الذَّكَاءِ وَالنَّفَاذِ وَثُقُوبِ البَصِيرَةِ بَحَيْثُ يَرَى ظَنُّهُ الشَّيْءَ قَبْلَ أنْ تَرَاهُ عَيْنُه ، كَالطَّلِيعَةِ تَتَقَدَّمُ أمَامَ الجَيْشِ ، أي إنَّهُ لِصِحَّةِ ذَكَائِهِ وَصِحَّةِ ظَنِّهِ إذا ظَنَّ شَيْئًا رَآهُ بِعَيْنِهِ لا مَحَالَة .

أقْسَمُوا لا رَأَوْكَ إلا بِقَلْبٍ طَالَمَا غَرَّتِ العُيُونُ الرِّجَالا

حَلَفُوا أنَّهُمْ لا يَرَوْنَكَ إلا بِالقَلْبِ وَإعْمَالِ الفِكْرِ ، فَإنَّ عُيُونَهُمْ قَدْ غَرَّتْهُمْ ، وَأَرَتْهُمْ مِنْكَ خِلافَ مَا جَرَّبُوه. حَلَفُوا أنْ يُحْضِرُوا عُقُولَهُمْ ، وَيُعْمِلُوا أفْكَارَهُمْ في قِتَالِكَ ، كَذَّبَهُمْ عَنْكَ كَثِيرًا مَا رَأَوْهُ بِعُيُونِهِمْ مِمَّا يُوهِمُهُمْ أنَّ في إمْكَانِهِمْ قِتَالَكَ وَمُحَارَبَتَكَ . أوْ : لَمَّا امْتَحَنُوا بَأسَكَ ، وَعَايَنُوا أفْعَالَكَ ، عَلِمُوا أنَّ عُيُونَهُمْ غَرَّتْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَأَطْمَعَتْهُمْ في مُقَاوَمَتِكَ ، وَحِينَئِذٍ بَطَلَ اعْتِمَادُهُمْ عَلى رُؤيةِ العُيُونِ ، وَاعْتَمَدُوا عَلى رُؤيةِ القَلْبِ ، أي : صَارُوا يَرْجِعُونَ في الرَّأيِ إلى مَا عَلِمُوهُ بِقُلُوبِهِمْ وَعُقُولِهِمْ مِنْ قُوَّةِ بَطْشِكَ ، لا إلى مَا يَرَوْنَ مِنْ كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَأحْلافِهِمْ .

٤٨ ــ الحُرِّيةُ

وَمَا قَتَلَ الأحْرَارَ كَالعَفْوِ عَنْهُمُ وَمَنْ لَكَ بِالحُرِّ الذي يَحْفَظُ اليَدَا

إذا قَدَرْتَ عَلى حُرٍّ فَعَفَوْتَ عَنْه ، فَكَأَنَّكَ قَتَلْتَه ، لأَنَّهُ لا يَقْدِرُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلى مُحَارَبَتِكَ ، حَيَاءً مِنْ إحْسَانِكَ إلَيْه ، وَلَكِنْ أيْنَ ذَلِكَ الحُرُّ الذي يَحْفَظُ النِّعْمَةَ وَيَشْكُرُهَا ؟! . إنَّ مَنْ عَفَا عَنْ حُرٍّ صَارَ كَأَنَّهُ قَتَلَه ، لأَنَّهُ يَسْتَرِقُّهُ بِالْعَفْوِ عَنْه ، فَيَذِلُّ لَه ، وَيَنْقَادُ إلَيْه . وَقَدْ قِيلَ : غَلَّ يَدًا مُطْلِقُهَا ، وَاسْتَرَقَّ رَقَبَةً مُعْتِقُهَا . وَمَنْ يَتَكَفَّلُ لَكَ بِالحُرِّ الذي يَحْفَظُ النِّعْمَةَ ، وَيُرَاعِي حَقَّهَا ، وَيَعْرِفُ قَدْرَ العَفْوِ عَنْه ؟! .

٤٩_ الثِّقَةُ بِالنَّفْسِ

خَلِيلُكَ أنْتَ لا مَنْ قُلْتَ خِلِّي وَإنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالكَلامُ

لَيْسَ لَكَ صَدِيقٌ في الحَقِيقَةِ إلا نَفْسَكَ ، فَأنْتَ صَدِيقُ نَفْسِكَ ، لا مَنْ تُسَمِّيهِ خَلِيلًا ، وَإنْ كَثُرَتْ مُجَامَلَتُه ، وَأَظْهَرَ لَكَ الوُدَّ بِالكَلامِ . وَالخَلِيلُ وَالخِلُّ : الصَّدِيقُ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمُدَاخَلَةِ صَدِيقِهِ في جَمِيعِ أُمُورِهِ وَأحْوَالِه ، وَلأنَّ حُبَّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْخُلُ في خَلَلِ صَاحِبِ قَلْبِه ، وَالتَّجَمُّلُ : إظْهَارُ الجَمِيلِ مِنَ القَوْلِ وَغَيْرِه .

وَإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتِي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأنِّيَ كَامِلُ

إذا رَأيْتَ الجَاهِلَ وَالنَّاقِصَ يَذُمُّني ، فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلى فَضْلي ، لأَنَّهُ إنَّمَا يَذُمُّني لأَنَّهُ ضِدِّي وَنَقِيضِي . إذا ذَمَّني نَاقِصٌ كَانَ ذَمُّهُ دَلِيلَ فَضْلي ، لأنَّ النَّاقِصَ لا يُحِبُّ الفَاضِلَ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّنَافُرِ وَالتَّعَارُضِ وَالتَّضَاد .

٥٠_ الوِدَادُ

طَارَ الوُشَاةُ عَلى صَفَاءِ وِدَادِهِمْ وَكَذَا الذُّبَابُ عَلى الطَّعَامِ يَطِيرُ

إنَّ الوُشَاةَ تَعَرَّضُوا لِيُفْسِدُوا مَا بَيْنَهُمْ مِنْ صَفَاءِ الوُدِّ ، كَمَا أنَّ الذُّبَابَ يَطِيرُ عَلى الطَّعَامِ لإفْسَادِه، وَلَمْ تُؤَثِّرْ وِشَايَتُهُمْ في وِدَادِهِمْ،إلا قَدْرَ مَا أَثَّرَ الذُّبَابُ في إفْسَادِ الطَّعَامِ ، إذا طَارَ عَلَيْه. وَهَذا إشَارَةٌ إلى قِلَّةِ الوُشَاةِ وَحَقَارَتِهِمْ . وَالوُشَاةُ : جَمْعُ الوَاشِي ، وَهُوَ النَّمَّامُ الذي يُفْسِدُ بَيْنَ الناسِ . إنَّ اجْتِمَاعَ الوُشَاةِ وَسَعْيَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالنَّمَائِمِ دَلِيلٌ عَلى مَا بَيْنَهُمْ مِنَ المَوَدَّةِ ، كَالذُّبَابِ لا يَجْتَمِعُ إلا عَلى طَعَامٍ ، وكَذَا الوُشَاةُ إنَّمَا يَتَعَرَّضُونَ لِلأَحِبَّةِ المُتَوَادِّين .

٥١ _ عَدَمُ الغَدْرِ

إذا تَوَلَّوْا عَدَاوَةً كَشَفُوا وَإنْ تَوَلَّوْا صَنِيعَةً كَتَمُوا

إذا عَادَوْا فَإنَّهُمْ يُجَاهِرُونَ الأعْدَاءَ، وَيُظْهِرُونَ العَدَاوَةَ ، بِسَبَبِ قُوَّتِهِمْ وَجُرْأتِهِمْ وَعَدَمِ غَدْرِهِمْ ولا خِيَانَتِهِمْ . وَإنْ أَعْطَوْا أَحَدًا ، وَصَنَعُوا مَعْرُوفًا ، أَخْفَوْا ذَلِكَ ، وَسَتَرُوه ، وَلَمْ يَفْتَخِرُوا بِه ، لِيَكُونَ أَدَلَّ عَلى الكَرَمِ، وَأَبْعَدَ مِنَ الامْتِنَانِ .

٥٢_ الشُّكْرُ

فَمَتَى أَقُومُ بِشُكْرِ مَا أَوْلَيْتَنِي وَالقَوْلُ فِيكَ عُلُوُّ قَدْرِ القَائِلِ

مَتَى أَقُومُ بِشُكْرِ مَا أَعْطَيْتَنِي ؟ ، أي : لا أَقُومُ بِهِ ، لأنِّي كُلَّمَا أَثْنَيْتُ عَلَيْكَ وَشَكَرْتُكَ حَصَلَتْ عَلَيَّ نِعْمَةٌ لَكَ جَدِيدَةٌ ، وَهُوَ أنْ ذَلِكَ يُكْسِبُنِي عُلُوًّا وَرِفْعَةً . مَتَى يُمْكِنُنِي أنْ أَقُومَ بِشُكْرِ مَا أَعْطَيْتَنِي مِنَ النِّعَمِ ؟ ، فأنا إذا شَكَرْتُكَ وَمَدَحْتُكَ ، فَإنَّ مَدْحِي فِيكَ يَرْفَعُ قَدْرِي وَيُشَرِّفُنِي ، فَيَكُون ذَلِكَ نِعْمَةً مِنْكَ عَلَيَّ ، يَجِبُ القِيَامُ بِشُكْرِهَا ، وَذَلِكَ الشُّكْرُ نِعْمَةٌ، فإذا كَانَت الحَالُ هَذِه ، كَيْفَ يُمْكِنُ القِيَامُ بِشُكْرِك ؟ .

٥٣_ الذِّكْرُ الحَسَنُ

إنْ يَفْنَ مَا يَحْوِي فَقَدْ أَبْقَى لَهُ ذِكْرًا يَزُولُ الدَّهْرُ قَبْلَ زَوَالِه

إنْ كَانَ قَدْ أَفْنَى مَالَهُ بِكَرَمِهِ وَسَخَائِه ، فَقَد اكْتَسَبَ ذِكْرًا يَبْقَى إلى آخِرِ الزَّمَانِ ، ولا يَزُولُ ذِكْرُهُ أبَدًا مَا دَامَ الدَّهْرُ، لأنَّهُ أرادَ أنَّهُ يَبْقَى بَعْدَ الدَّهْرِ، وَإنَّمَا قَصَدَ بِهِ تَأكِيدَ بَقَاءِ الذِّكْرِ .

وَأَنْتَ أَبْعَدُهُمْ ذِكْرًا وَأَكْبَرُهُمْ قَدْرًا وَأَرْفَعُهُمْ في المَجْدِ بُنْيَانا

وَأنْتَ أَكْرَمُ الكِرَامِ ، فَذِكْرُكَ أَشْهَرُ ، وَقَدْرُكَ أَشْرَفُ ، وَمَجْدُكَ أَعْلَى وَأَرْفَعُ .

وَمَا زِلْتُ حَتَّى قَادَنِي الشَّوْقُ نَحْوَهُ يُسَايِرُنِي في كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ

وَمَا زِلْتُ يُسَايِرُني في كُلِّ رَكْبٍ ذِكْرُه ، حَتَّى قَادَني الشَّوْقُ إلَيْه ، أي : مَا زِلْتُ أَسْمَعُ بِخَبَرِهِ وكَرَمِه ، حَتَّى اشْتَقْتُ إلى لِقَائِهِ فَقَصَدْتُه . قَبْلَ أنْ آتِيَ إلَيْهِ كُنْتُ أَسْمَعُ ذِكْرَه ، وَمَا صَاحَبْتُ أَحَدًا إلا وَهُوَ يَذكُرُهُ بِمَدْحٍ وَثَنَاءٍ .

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثاني وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ العَيْشِ أشغَالُ

إذا ذُكِرَ الإنْسَانُ بَعْدَ مَوْتِه ، كَانَ ذَلِكَ حَيَاةً ثَانِيَةً لَه ، وَمَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ في دُنْيَاهُ قَدْرُ القُوتِ ، وَمَا فَضَلَ مِنَ القُوتِ فَهُوَ شُغْلٌ . ذِكْرُ الإنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ يَقُومُ لَهُ مَقَامَ العُمْرِ الثاني ، فَكَأَنَّهُ مَوْجُودٌ وَغَيْرُ مَعْدُومٍ ، وَحَاجَتُهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَقُوتُه ، وَمَا فَضَلَ عَنْهُ يَكُونُ شُغْلًا لَه . وَهَذا حَثٌّ عَلى العُلا ، وَمَنْعٌ عَنْ جَمْعِ المَالِ . لَقَد اخْتَصَرَ حَيَاةَ الإنْسَانِ كَامِلَةً : ذِكْرُ الإنْسَانِ الحَسَنُ بَعْدَ مَوْتِهِ هُوَ عُمْرٌ ثَانٍ لَه ، لِذَلِكَ خَلِّد اسْمَكَ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ وَالمُفِيدِ ، وَحَاجَتُكَ مِنَ الدُّنيا هِيَ مَا تَأكُلُه ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنَ الأعْمَالِ، فَهُوَ زَائِدٌ عَنْ حَاجَتِكَ ، لأنَّكَ سَتَمُوتُ وَتَتْرُكُه .

٥٤ _ الفَضْلُ

مَضَى اللَّيْلُ وَالفَضْلُ الذي لَكَ لا يَمْضِي وَرُؤيَاكَ أَحْلَى في العُيُونِ مِنَ الغُمْضِ

اللَّيْلُ قَدْ مَضَى ، وَفَضْلُكَ بَاقٍ ثَابِتٌ ، وَخِصَالُكَ المَحْمُودَةُ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ وَلا زَائِلَةٍ بِاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَرُؤيَتُكَ أَحْلَى في العُيُونِ مِنَ النَّوْمِ . والرُّؤيا : هِيَ مَا يُرَى في النَّوْمِ ، وَاسْتُعْمِلَ هَاهُنَا بِمَعْنَى رُؤيةِ البَصَرِ ، أي : ذَهَبَ بِالرُّؤيا إلى الرُّؤيةِ ، لأنَّهُ كَانَ باللَّيْلِ .

يُقِرُّ لَهُ بِالفَضْلِ مَنْ لا يَوَدُّهُ وَيَقْضِي لَهُ بالسَّعْدِ مَنْ لا يُنَجِّمُ

عَدُوُّهُ يَشْهَدُ لَهُ بِالفَضْلِ لِظُهُورِهِ وَوُضُوحِه ، بِحَيْثُ لا يُمْكِنُ أنْ يُنْكِرَ فَضْلَه ، وَالفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأعْدَاءُ ، وَلِظُهُورِ آثارِ السَّعَادَةِ عَلَيْهِ يَحْكُمُ لَهُ بِالسَّعَادَةِ مَنْ لا يَعْرِفُ أحْكَامَ النُّجُومِ مِنَ السَّعَادَةِ وَالنُّحُوسَةِ . قَدْ ظَهَرَ فَضْلُهُ في الناسِ ، حَتَّى تَسَاوَى في الإقْرَارِ بِهِ الأوْلِيَاءُ وَالأعْدَاءُ ، وَثَبَتَتْ لَهُ السَّعَادَةُ ، وَاسْتَمَرَّتْ لَهُ السَّلامَةُ ، حَتَّى تَشَارَكَ المُنَجِّمُ وَغَيْرُهُ بِالقَضَاءِ لَهُ بِالسَّعَادَةِ ، اسْتِشْهَارًا بِظَاهِرِ الحَالِ ، فَيُعْتَبَر بِهِ المَآل .

يَقُودُ إِلَيْهِ طَاعَةَ الناسِ فَضْلُهُ وَلَوْ لَمْ يَقُدْهَا نَائِلٌ وَعِقَابُ

لَوْ لَمْ يُطِعْهُ الناسُ رَغْبَةً في نَائِلِهِ ، وَرَهْبَةً مِنْ عِقَابِه ، لَأَطَاعُوهُ لِفَضْلِهِ . لَوْ لَمْ يُطِعْهُ الناسُ رَغْبَةً ولا رَهْبَةً ، لَأَطَاعُوهُ مَحَبَّةً وَاحْتِرَامًا وَتَقْدِيرًا لِمَا فِيهِ مِنَ الفَضْلِ . أي إنَّ الناسَ يُطِيعُونَهُ لاسْتِحْقَاقِهِ طَاعَتَهُمْ بِفَضْلِه، لا لِرَجَاءِ جُودِه ، ولا لِخَوْفِ عُقُوبَتِه .

٥٥ _ العُلَا

وَلَوْ جَازَ أنْ يَحْوُوا عُلاكَ وَهَبْتَهَا وَلَكِنْ مِنَ الأشياءِ مَا لَيْسَ يُوهَبُ

وَلَوْ جَازَ أنْ يَحْوُوا عُلاكَ مَنَحْتَهَا وَأَعْطَيْتَهَا ، جَارِيًا عَلى عَادَاتِكَ ، وَسَمَحْتَ بِهَا مُحْتَمِلًا عَلى سَجِيَّتِكَ ، وَلَكِنْ مِنَ الأشياءِ مَا لا تُمْكِنُ الهِبَةُ في مِثْلِه ، ولا تَبْلُغُ طَاقَةُ الإنْسَانِ إلى بَذْلِه . مِنَ الأشياءِ مَا لا تَجُوزُ هِبَتُه ، وَعُلاكَ مِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ ، لأنَّهُ لا يُمْكِنُ لأَحَدٍ أنْ يَحْوِيَهَا ، فَلَسْتَ تَمْنَعُهُمْ ذَلِكَ للبُخْلِ . وَالمَعْنَى: لَسْتَ تُؤْتَى مِنْ بُخْلٍ وَشُحٍّ ، فَلَوْ كَانَت العُلا تُوَهَبُ لَوَهَبْتَهَا ، وَلَكِنَّهَا لا تُوهَبُ .

ذَرِيني أَنَلْ مَا لا يُنَالُ مِنَ العُلَا فَصَعْبُ العُلَا في الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ في السَّهْلِ

يَقُولُ للعَاذِلَةِ : دَعِيني مِنَ لَوْمِكَ أَنَلْ مِنَ العُلا مَا لَمْ يُنَلْ قَبْلِي ، فَإِنَّ العُلا الصَّعْبَةَ الشَّاقَّةَ التي لَمْ يَبْلُغْهَا أَحَدٌ، في الأمْرِ الصَّعْبِ الذي لَمْ يَرْكَبْهُ أَحَدٌ ، وَمَا يَسْهُل وُجُودُه يَسْهُل الوُصُولُ إلَيْه . دَعِيني أُخَاطِرْ بِنَفْسِي حَتَّى أَنَالَ مِنَ الأُمُورِ مَا لا يَنَالُهُ غَيْرِي ، فَإِنَّ صِعَابَ المَعَالي لا تُنَالُ إلا بِصِعَابِ الأُمُورِ .

٥٦ _ كَتْمُ السِّرِّ

وَلِلسِّرِّ مِنِّي مَوْضِعٌ لا يَنَالُهُ نَدِيمٌ ولا يُفْضِي إلَيْهِ شَرَابُ

أنا كَتُومٌ للأسْرَارِ ، أُودِعُ السِّرَّ مِنْ قَلْبِي مَوْضِعًا لا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ نَدِيمِي ، ولا تَصِلُ إلَيْهِ الخَمْرُ مَعَ تَغَلْغُلِهَا في البَدَنِ ، وَذَلِكَ أنَّ الشَّخْصَ إذا سَكِرَ أَذَاعَ مَا في قَلْبِهِ مِنَ السِّرِّ . أنا لا أَسْكَرُ مِنَ الخَمْرِ عَلى وَجْهٍ يَزُولُ عَقْلي ، حَتَّى لا أَبُوحَ بِمَا في قَلْبي مِنِّ السِّرِّ صِيَانَةً لِعَقْلِي وَمُرُوءَتي . أوْ : إنَّ الخَمْرَ لا تَصِلُ إلى السِّرِّ ، مَعَ أنَّ الخَمْرَ تَجْرِي مِنَ الإنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ ، فَتَصِل إلى كُلِّ مَوْضِعٍ .

٥٧_ العِفَّةُ

مُتَشَابِهِي وَرَعِ النُّفُوسِ كَبِيرُهُمْ وَصَغِيرُهُمْ عَفُّ الإزارِ حُلَاحِلُ

كُلُّهُمْ مُتَشَابِهُونَ في الوَرَعِ وَالتَّقْوَى ، وَكُلٌّ مِنْ كَبِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ عَفِيفٌ ذُو سِيَادَةٍ وَعَظَمَةٍ . كُلُّهُمْ سَادَةٌ كِرَامٌ، لا يَقْرَبُونَ الفَاحِشَةَ ، ولا يَسْعَوْنَ إلى زِنا، ولا رِيبَة . وَمُتَشَابِهِي : مَنْصُوبٌ عَلى الحَالِ ، وَالوَرَعُ : التَّقْوَى ، وَعَفُّ الإزارِ : مُتَنَزِّهٌ عَن الفَحْشَاءِ ، وَالحُلَاحِلُ : السَّيِّدُ العَظِيم .

ولا عِفَّةٌ في سَيْفِهِ وَسِنَانِهِ وَلَكِنَّهَا في الكَفِّ وَالفَرْجِ وَالفَمِ

هُوَ عَفِيفُ النَّفْسِ ، وَلَيْسَ بِعَفِيفِ السَّيْفِ وَالرُّمْحِ ، فَإِنَّهُ إذا شَهِدَ الحَرْبَ قَتَلَ الأَعْدَاءَ ، لَمْ يَتَعَفَّفْ عَنْ دِمَائِهِمْ ، وَإِنَّمَا عِفَّتُهُ في كَفِّه ، لا يَأْخُذُ مِنْ مَالِ أَحَدٍ شَيْئًا . وفي فَرْجِهِ لا يَقْرَبُ الزِّنَا ، وفي فَمِهِ ، فَهُوَ يُمْسِكُ لِسَانَهُ عَنْ كُلِّ مَا لا يَحِلُّ ، ولا يَأْكُلُ إلا الحَلَالَ . إنَّ هَذا المَمْدُوحَ يَمْتَازُ بِجُرْأَةِ النَّفْسِ ، وَشِدَّةِ البَطْشِ ، فَلا عِفَّة في سَيْفِهِ وَرُمْحِه ، لِمُبَادَرَتِه إلى الحَرْبِ ، وَتَسَرُّعِه إلى الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ، وَلَكِنَّ العِفَّةَ في كَفِّه ، بِإمْسَاكِهِ عَنْ مَكْرُوهِ المَكَاسِبِ ، وفي فَرْجِهِ بِتَنَزُّهِهِ عَن إتْيَانِ المَحَارِمِ ، وفي فَمِهِ بِتَرَفُّعِهِ عَن القَوْلِ بِالمَآثِمِ .

٥٨_ فِعْلُ الجَمِيلِ

وَمَا كُلُّ هَاوٍ للجَمِيلِ بِفَاعِلٍ ولا كُلُّ فَعَّالٍ لَهُ بِمُتَمِّمِ

لَيْسَ كُلُّ مَنْ يُحِبُّ الأَمْرَ الجَمِيلَ يَصْنَعُه ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَصْنَعُهُ يُكْمِلُه .

٥٩_ الفَصَاحَةُ

نَطِقٌ إذا حَطَّ الكَلامُ لِثَامَهُ أَعْطَى بِمَنْطِقِهِ القُلُوبَ عُقُولا

هُوَ فَصِيحٌ بَلِيغٌ ، فَإِذَا حَطَّ لِثَامَهُ لِيَتَكَلَّمَ للأمْرِ وَالنَّهْيِ، أفادَ الناسَ عُقُولًا بِمَا يَنْطِقُ مِنَ الحِكَمِ وَالمَوَاعِظِ وَالأَمْثَالِ. إنَّهُ يُعْطِي مَنْ يَسْمَعُ كَلامَهُ عَقْلًا، لأَنَّهُ يَنْطِقُ بِالحِكْمَةِ، وَمَا يَهْتَدِي بِهِ الضَّالُّون. إذا وَضَعَ الكَلامُ لِثَامَهُ عَنْ فَمِهِ عِنْدَ النُّطْقِ ، أفادَ مَنْطِقُهُ قُلُوبَ السَّامِعِينَ عُقُولًا ، يَعْنِي أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِالحِكْمَةِ ، وَبِمَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ العَقْل .

مَتَى أَحْصَيْتُ فَضْلَكَ في كَلامٍ فَقَدْ أَحْصَيْتُ حَبَّاتِ الرِّمَالِ

فَضَائِلُكَ لا تُحْصَى ، وَإِنْ قُلْتُ : إِنِّي أُحْصِيهَا ، فَكَأَنِّي أَقُول : إِنِّي أُحْصِي الرَّمْلَ ، وَهَذا مَا لا تَقْبَلُهُ العُقُولُ ، لأَنَّهُ مُحَال . إِنَّ لَكَ فَضَائِل عَدَد الرَّمْلِ ، فَإِنْ قَدَرْتُ عَلى عَدِّهَا فَقَدْ أَحْصَيْتُ مَدِيحَكَ ، وَهَذا غَيْرُ مُمْكِن ، فَكَذَلِكَ إِحْصَاءُ فَضَائِلِك .

يَا أَكْرَمَ الناسِ في الفَعَالِ وَأفْصَحَ الناسِ في المَقَالِ

يَا أَكْرَمَ الناسِ خِصَالًا وَأفْعَالًا ، وَأَنْصَحَهُمْ كَلامًا وَمَقَالًا .

ب _ السَّلْبِيَّةُ

١_ الوَدَاعُ

فَافْتَرَقْنَا حَوْلًا فَلَمَّا الْتَقَيْنَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ عِنْدَ اللِّقَاءِ تَوْدِيعًا لِفِرَاقٍ ثَانٍ .

وَجَلَا الوَدَاعُ مِنَ الحَبِيبِ مَحَاسِنًا حُسْنُ العَزَاءِ وَقَدْ جُلِينَ قَبِيحُ

كَشَفَ الوَدَاعُ مَحَاسِنَ الحَبِيبِ عِنْدَ الفِرَاقِ،التي يُمْكِنُ أنْ تَظْهَرَ،حَتَّى قَبُحَ الصَّبْرُ عِنْدَهَا. أَظْهَرَ الوَدَاعُ مِنَ الحَبِيبِ مَحَاسِن، فَصَارَ الصَّبْرُ قَبِيحًا ، لِظُهُورِ هَذِهِ المَحَاسِن ، أوْ لِمَا يَعْقُبُهُ مِنَ الفِرَاقِ.

مَا ذَا الوَدَاعُ وَدَاعَ الوَامِقِ الكَمِدِ هَذا الوَدَاعُ وَدَاعُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ

لَيْسَ هَذا الوَدَاعُ وَدَاعَ مُحِبٍّ لِحَبِيبِه ، وَإِنَّمَا هُوَ وَدَاعُ رُوحٍ لِجَسَدِهَا . وَدَاعِي لِهَذا المَمْدُوحِ لَيْسَ يُشْبِهُ وَدَاعَ عَاشِقٍ لِحَبِيبِه ، وَلَكِنَّهُ وَدَاعُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ ، أي : هُوَ مَوْتُه . وَالوَامِقُ : العَاشِقُ ، وَالكَمِدُ : المَغْمُومُ ، وَالكَمَدُ : الغَمُّ .

٢_ اللُّؤمُ

أَرَى الأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيرًا عَلى الأَوْلادِ أَخْلاقُ اللِّئَامِ

خُلُقُ اللَّئِيمِ قَدْ يَغْلِبُ الأَصْلَ الطَّيِّبَ حَتَّى يَكُونَ صَاحِبُهُ لَئِيمًا ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَصْلٍ كَرِيمٍ . وطَالَمَا رَأَيْتَ العَالِمَ وَابْنَهُ جَاهِلًا ، وَالكَرِيمَ وَابْنَهُ بَخِيلًا ، وَالشُّجَاعَ وَابْنَهُ جَبَانًا . إذا كَانَ الوَلَدُ لَئِيمًا

حَالَ لُؤمُ الوَلَدِ بَيْنَ الوَلَدِ وَالجَدِّ ، فَيُنْسَب إلى اللُّؤم ، وَيُعْرَفُ بِهِ دُون الجَدِّ ، فَيَكُون كَأَنَّهُ وُلِدَ مِنَ اللُّؤم لا مِنَ الأبِ .

٣_ الفَقْدُ

وَلَمَّا فَقَدْنَا مِثْلَهُ دَامَ كَشْفُنَا عَلَيْهِ فَدَامَ الفَقْدُ وَانكَشَفَ الكَشْفُ

وَلَمَّا لَمْ نَجِدْ مِثْلَهُ في المَجْدِ وَالكَرَمِ ، جَعَلْنَا نَبْحَثُ عَنْ أَحَدٍ يُشْبِهُه ، وَحَاوَلْنَا ذَلِكَ ، وَاسْتَفْرَغْنَا الجُهْدَ ، فَدَامَ الفَقْدُ ، أي : لَمْ نَجِدْ أَحَدًا ، وَزَالَ وَبَطَلَ الكَشْفُ (البَحْثُ) ، لأنَّنا يَئِسْنَا مِنْ وُجُودِ مِثْلِه ، فَهُوَ مُنْقَطِعُ النَّظِير .

٤_ قِلَّةُ الإنْصَافِ

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الإنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَوْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ

إنَّ تَرْكَ الإنْصَافِ يَدْعُو إلى التَّقَاطُعِ بَيْنَ الناسِ وَلَوْ كانوا أقَارِب ، فَمَا الظَّنُّ بِمَنْ لا قَرَابَةَ بَيْنَهُمْ ؟!. إنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يُنْصِفُوا في إنْزَالِنَا مَنَازِلَنَا ، فَارَقْنَاهُمْ ، لأنَّ قِلَّةَ الإنْصَافِ تَقْطَعُ بَيْنَ الناسِ ، وَإنْ كانوا ذَوِي قُرْبَى .

٥_ النِّفَاقُ

قَلَّ نَفْعُ الحَدِيدِ فِيكَ فَمَا يَلْقَاكَ إلا مَنْ سَيْفُهُ مِنْ نِفَاقِ

أَعْدَاؤُكَ لا يَقْدِرُونَ عَلَيْكَ بِالحَدِيدِ،لامْتِنَاعِكَ عَنْ أسْلِحَتِهِمْ بِبَأسِكَ وَشَجَاعَتِكَ وَشِدَّةِ شَوكَتِكَ، فَلا يَلْقَاكَ إلا مَنْ يَخْدَعُكَ بِنِفَاقِه ، فَيَجْعَل النِّفَاقَ سَيْفًا لَه . أَعْدَاؤُكَ يَحِيدُونَ عَنْ مُجَاهَرَتِكَ بِالحَرْبِ إلى التَّعَامُلِ مَعَكَ بِالنِّفَاقِ وَالخِدَاعِ وَالمُدَاهَنَةِ. إنَّ الحَدِيدَ لا يَعْمَلُ فِيكَ ، فَعَجَزَ أَعْدَاؤُكَ عَن المُجَاهَرَةِ بِعَدَاوَتِكَ ، وَأعَادُوا السُّيُوفَ وَالرِّمَاحَ ، وَاخْتَارُوا الخِدَاعَ وَالنِّفَاقَ في حُبِّكَ ، فَأَظْهَرُوا الحُبَّ وَالانقِيَادَ لِلتَّغْطِيَةِ عَلى الحِقْدِ وَالكَرَاهِيَةِ وَرُوحِ الانتِقَام .

وَجَائِزَةٌ دَعْوَى المَحَبَّةِ وَالهَوَى وَإنْ كَانَ لا يَخْفَى كَلامُ المُنَافِقِ

دَعْوَى المَحَبَّةِ مِنْ غَيْرِ مَعْنًى رُبَّمَا تَجُوزُ وَتَنْفُذُ ، وَإنْ كَانَ لا يَخْفَى كَلامُ مَنْ يُنَافِقُ في دَعْوَى المَحَبَّةِ . وَالمَعْنَى : إنَّ كُلَّ أَحَدٍ إذا أرادَ أنْ يَدَّعِيَ المَحَبَّةَ أَمْكَنَهُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ يَتَبَيَّنُ الصَّادِقُ مِنَ الكَاذِبِ في دَعْوَاه .

٦_ العَارُ

هُمُ لأمْوَالِهِمْ وَلَسْنَ لَهُمْ وَالعَارُ يَبْقَى وَالجُرْحُ يَلْتَئِمُ

اللِّئَامُ خَدَمٌ لأمْوَالِهِمْ ، وَعَبِيدٌ لَهَا ، حَتَّى أَوْقَعُوا أَنْفُسَهُمْ في الهَلاكِ بِسَبَبِهَا ، وَلَيْسَتْ الأمْوَالُ لَهُمْ ، لأنَّهُمْ لا يَنْتَفِعُونَ بِهَا، ولا يَكْتَسِبُونَ بِهَا حَمْدًا ولا أَجْرًا ، وَغِنَاهُمْ عَارٌ عَلَيْهِمْ ، يَبْقَى بَعْدَهُمْ، وَالجُرْحُ يَلْتَئِمُ ، أي: إنَّ الجُرْحَ أَهْوَنُ مِنَ العَارِ ، لأنَّ الجُرْحَ يَنْدَمِلُ ، وَيَذْهَبُ أَثَرُه، وَالعَارُ يَبْقَى عَلى مَرَّ الأيَّامِ وَالأعْوَامِ . اللِّئَامُ مَمْلُوكُونَ لأمْوَالِهِمْ ، لأنَّهُمْ يَتْعَبُونَ في حِفْظِهَا وَجَمْعِهَا وَمَنْعِهَا ، وَهِيَ كَأنَّهَا تُشِيرُ عَلَيْهِمْ بِأنْ يَصُونُوهَا ، ولا يَبْذُلُوها ، وَهُمْ يُطِيعُونَهَا ، ولا يَمْلِكُونَهَا ، لأنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلى البَذْلِ لَهَا ، ولا أنْ يَكْسِبُوا بِهَا مَحْمَدَةً في الدُّنيا ، أوْ أَجْرًا وَمَثُوبَةً في الآخِرَةِ . إذَنْ، هُمْ للأمْوَالِ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ ، بِهَذا يُوصَفُ اللَّئِيمُ المُكْثِرُ .

وَرُبَّمَا فَارَقَ الإنْسَانُ مُهْجَتَهُ يَوْمَ الوَغَى غَيْرَ قَالٍ خَشْيَةَ العَارِ

شَبَّهَ فِرَاقَهُ لِلْمَمْدُوحِ بِفِرَاقِ الإنْسَانِ لِرُوحِه. قَدْ يَعْرِضُ لِلْمَرْءِ مَا يُوجِبُ لَهُ فِرَاقَ رُوحِهِ مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ لِلرُّوحِ ، كَذَلِكَ أنا أُفَارِقُكَ كَارِهًا لِذَلِكَ مُضْطَرًّا . مُفَارَقَتي إيَّاكَ بِمَنْزِلَةِ مُفَارَقَةِ الإنْسَانِ نَفْسَهُ يَوْمَ الحَرْبِ ، فَإنَّهُ لا يَكُونُ مُبْغِضًا لِنَفْسِه ، وَإنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِخَوْفِ العَارِ، كَذَلِكَ مُفَارَقَتِي إيَّاكَ ، لَيْسَ لِبُغْضِي لَكَ ، وإنَّمَا هُوَ بِمَعْنًى آخَر .

لِلَّهِ قَلْبُكَ مَا يَخَافُ مِنَ الرَّدَى وَيَخَافُ أنْ يَدْنُو إلَيْكَ العَارُ

مَا أَعْجَبَ أَمْرَكَ ! ، وَمَا أَعْظَمَ أَمْرَ قَلْبِكَ ! ، لِمَا فِيهِ مِنَ القُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالهِمَّةِ التي لا تَخَافُ مَعَهَا الهَلاك، وَمَعَ ذَلِكَ فَأنْتَ تَخَافُ مِنْ أنْ يَقْتَرِبَ إلَيْكَ العَارُ . هَذا المَمْدُوحُ لا يَخَافُ الهَلاكَ، وَيَخَافُ العَارَ ، أي: لا تَحْذَرُ مِنَ المَهَالِكِ ، وَتَحْذَرُ أنْ يَقْتَرِبَ مِنْكَ شَيْءٌ مِنَ العَارِ .

٧_ الهِجَاءُ

وَيَكْذِبُ مَا أَذْلَلْتُهُ بِهِجَائِهِ لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الهِجَاءِ ذَلِيلا

هُوَ كَاذِبٌ في دَعْوَاهُ أنِّي أَذْلَلْتُهُ بِهِجَائي ، فَهُوَ ذَلِيلٌ حَقِيرٌ مِنْ قَبْلِ هِجَائي إيَّاه . زَعَمَ هَذا الجَاهِلُ أنِّي أَذْلَلْتُهُ بِهِجَائي ، فَقَدْ كَذَبَ في دَعْوَاه، لأنِّي لَمْ أُنقِصْ شَيْئًا مِنْ قَدْرِهِ بِالهِجَاءِ ، فَإنَّهُ ذَلِيلٌ خَامِلٌ لا قَدْرَ لَه .

٨_ العُبُوسُ

يَقُومُ مَقَامَ الجَيْشِ تَقْطِيبُ وَجْهِهِ وَيَسْتَغْرِقُ الأَلْفَاظَ مِنْ لَفْظِهِ حَرْفُ

هُوَ مَهِيبٌ عِنْدَ العُبُوسِ ، فَإِذَا نَطَقَ بِحَرْفٍ قَامَ مَقَامَ الكَلامِ الكَثِيرِ ، لِبَلاغَتِهِ بِجَمْعِ المَعَانِي الكَثِيرَةِ فِي القَلِيلِ مِنَ الكَلام . إنَّ هَذا المَمْدُوحَ شُجَاعٌ فَصِيحٌ ، فَعُبُوسُ وَجْهِهِ فِي الحَرْبِ يَقُومُ مَقَامَ العَسْكَرِ فِي هَزْمِ الأَعْدَاءِ ، وَحَرْفٌ مِنْ لَفْظِهِ يُسْتَفَادُ مِنْهُ مَا يُسْتَفَادُ مِنَ اللَّفْظِ الكَثِيرِ مِنْ غَيْرِه، فَكَأَنَّ حَرْفَهُ يَسْتَغْرِقُ جَمِيعَ الأَلْفَاظِ .

٩_ الحَسَدُ

تُطِيعُ الحَاسِدِينَ وَأَنْتَ مَرْءٌ جُعِلْتُ فِدَاءَهُ وَهُمُ فِدَائِي

أَتُطِيعُ الحَاسِدِينَ الذينَ كَذَبُوا عَلَيَّ ، وَتَسْمَعُ كَلامَهُمْ فِيَّ ؟، وَأَنْتَ الرَّجُلُ ! ، جُعِلْتُ أنا فِدَاءَه، وَجُعِلَ الحَاسِدُونَ فِدَائي.أي: جُعِلْتُ فِدَاءَهُ لأَفْضَالِهِ عَلَيَّ ، وَهُمْ فِدَائي لِفَضْلِي عَلَيْهِمْ . وَيَجُوزُ أنْ يَتِمَّ الكَلامُ عِنْدَ قَوْلِه: وَأَنْتَ مَرْءٌ، يَعْنِي:أَنْتَ رَجُلٌ مُسْتَحِقٌّ أنْ تُوصِفَ بِالرُّجُولِيَّةِ،فَلا يَنْبَغِي أنْ تَسْمَعَ كَلامَ الحَاسِدِينَ فِيَّ ، ثُمَّ ابْتَدَأَ بِالدُّعَاءِ لَهُ وَعَلى الحَاسِدِين . وَيَجُوزُ أنْ يَكُونَ بَعْضُهُ مُتَّصِلًا بِبَعْضٍ.

إنِّي وَإنْ لُمْتُ حَاسِدِيَّ فَمَا أُنْكِرُ أنِّي عُقُوبَةٌ لَهُمُ

إنَّهُمْ مَعْذُورُونَ في حَسَدِي ، لأَنَّهُمْ مُعَاقَبُونَ بِتَقَدُّمِي عَلَيْهِمْ ، وَظُهُورِ نُقْصَانِهِمْ بِزِيَادَةِ فَضْلِي . إنْ كُنْتُ أَلُومُ حُسَّادِي عَلى حَسَدِهِمْ إيَّايَ ، وَعَدَاوَتِهِمْ لِي ، فَإنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَعْذُورُونَ عَلى حَسَدِهِمْ لِي ، لأنِّي عُقُوبَةٌ لَهُمْ ، لِمَا لِي مِنَ الفَضْلِ وَالعُلُوِّ ، فَأَقْتُلُهُمْ غَيْظًا وَحَسَدًا .

وَكَيْفَ لا يُحْسَدُ امْرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ عَلى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ

كَيْفَ لا يُحْسَدُ رَجُلٌ مَشْهُورٌ بِالفَضْلِ وَالكَمَالِ ، عَالِي المَكَانَة ، رَفِيعُ المَنْزِلَة ، وَلَهُ عَلى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمٌ ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . لِمَ لا يُحْسَدُ مَنْ صَارَ كَالعَلَمِ ، وَهُوَ الجَبَلُ المُنِيفُ في كُلِّ فَضْلٍ ، أي : اشْتَهَرَ ، وَصَارَ كَالمُشَارِ إلَيْه ، وَعَلا الناسَ كُلَّهُمْ ، فَصَارَ قَدَمُهُ فَوْقَ الهَامَاتِ ، يَعْنِي: عَلَتْ دَرَجَتُهُ دَرَجَاتِهِمْ .

وَقَدْ مُنِيتُ بِحُسَّادٍ أُحَارِبُهُمْ فَاجْعَلْ نَدَاكَ عَلَيْهِمْ بَعْضَ أنْصَارِي

أنا مُبْتَلًى بِحُسَّادٍ أُعَادِيهِمْ ، فَانْصُرْنِي عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ ، لِأَفْتَخِرَ عَلَيْهِمْ بِمَا وَهَبْتَ لِي . إنِّي بُلِيتُ بِقَوْمٍ حُسَّادٍ ، أُحَارِبُهُمْ وَأُنَازِعُهُمْ ، وَأَطْلُبُ قَهْرَهُمْ ، فَاجْعَلْ عَطَاءَكَ بَعْضَ أنْصَارِي عَلَيْهِمْ . أوْ: لِي حُسَّادٌ يَحْسُدُونَني عَلَيْكَ،وَيُحَاوِلُونَ إفْسَادَ حَالِي عِنْدَكَ،فَانْصُرْنِي عَلَيْهِمْ بِكَرَمِكَ وَإحْسَانِكَ.

وَيَحْتَقِرُ الحُسَّادَ عَنْ ذِكْرِهِ لَهُمْ كَأَنَّهُمُ في الخَلْقِ مَا خُلِقُوا بَعْدُ

إِنَّهُ يَحْتَقِرُ حُسَّادَه ، فَلا يَذْكُرُهُمْ حَتَّى لا يَشْتَهِرُوا بِذِكْرِهِ إِيَّاهُمْ ، فَكَأَنَّهُمْ لِعَدَمِ ذِكْرِهِ لَهُمْ وَاحْتِقَارِهِمْ ، في العَدَمِ ، وَلَمْ يُخْلَقُوا بَعْد ، وَلَيْسَ لَهُمْ وُجُودٌ . يَحْتَقِرُ حُسَّادَه ، فلا يُعْرِض عَنْ عَتْبِهِمْ وَمُؤَاخَذَتِهِمْ فَحَسْب ، بَلْ أَيْضًا لا يَذْكُرُهُمْ بِلِسَانِه ، لأَنَّهُمْ لَدَيْهِ كَالعَدَمِ . يَحْتَقِرُ الحُسَّادَ عَنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِيهِمْ ، وإذا لَمْ يَذْكُرْهُمْ كانوا كَأَنَّهُمْ مَعْدُومُون ، لَمْ يُخْلَقُوا بَعْد ، لأَنَّ مَنْ لَمْ تَذْكُرْهُ لَمْ يَذْكُرْهُ الناسُ ، وَذَلَّ قَدْرُه .

وَمَا كَمَدُ الحُسَّادِ شَيْئًا قَصَدْتُهُ وَلَكِنَّهُ مَنْ يَزْحَمِ البَحْرَ يَغْرَقِ

لَسْتُ أَقْصِدُ أَنْ أُحْزِنَ حُسَّادِي ، لأَنِّي لا آبَهُ لَهُمْ ، ولا أَعْبَأُ بِهِمْ ، إلا أَنَّهُمْ لَمَّا تَعَرَّضُوا لِي لَمْ يُطِيقُوا مُزَاحَمَتِي، فَحَزِنُوا لِذَلِكَ،فَكَانُوا كَمَنْ زَاحَمَ البَحْرَ ، فَغَرِقَ في مَائِه . لَيْسَ لِمَنْ يَحْسُدُني أَنْ يَلُومَني،لأَنِّي لَمْ أَقْصِدْ أَنْ أَغُمَّ الحُسَّادَ وَأُحْزِنَهُمْ،وَلَكِنِّي بَحْرٌ في الفَضْلِ ، فَمَنْ زَاحَمَني مِنَ الجُهَّالِ غَرِقَ في فَضْلي ، كَمَا أَنَّ مَنْ تَعَرَّضَ لِلْبَحْرِ وَطَرَحَ نَفْسَهُ فِيهِ غَرِقَ ، فَاللَّوْمُ عَلَيْهِ لا عَلى البَحْرِ .

سِوَى وَجَعِ الحُسَّادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ إذا حَلَّ في قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحُولُ

لا تَشْتَغِلْ بِمُدَاوَاةِ حَسَدِ الحُسَّادِ ، فَإِنَّ الحَسَدَ مَرَضٌ شَدِيدٌ إذا نَزَلَ في القَلْبِ لا يَتَحَوَّلُ عَنْه، ولا أَمَلَ في زَوَالِه . دَاوِ كُلَّ مَرَضٍ ، فَإِنَّهُ يَزُولُ بِمُدَاوَاتِكَ ، ولا تَشْتَغِلْ أَنْتَ بِمُدَاوَاةِ وَجَعِ الحُسَّادِ ، لأَنَّهُ لا يَزُولُ أَبَدًا .

ولا تَطْمَعَنْ مِن حَاسِدٍ في مَوَدَّةٍ وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ

لا تَطْمَعْ في مَوَدَّةِ حَاسِدِكَ ، فَإِنَّكَ وَإِنْ كُنْتَ تُظْهِرُ لَهُ المَوَدَّةَ ، وَتُعْطِيهِ المَحَبَّةَ ، وَتَبْذُلُ لَهُ النِّعْمَةَ،فَإِنَّ مَا في قَلْبِهِ مِنَ الحَسَدِ يَمْنَعُهُ مِنْ مَوَدَّتِهِ لَكَ .

أَزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ فَأَنْتَ الذي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَّدَا

أَنْتَ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ بِالنِّعَمِ التي صِرْتُ بِهَا مَحْسُودًا ، وَظَهَرَ لِي حُسَّادٌ يَحْسُدُونَني وَيَقْصِدُونَني بِسُوءٍ ، فَاكْفِنِي شَرَّهُمْ بِأَنْ تَكْبِتَهُمْ وَتُخْزِيَهُمْ بالإِعْرَاضِ عَنْهُمْ ، وَنَهْيِهِمْ عَنْ إِسَاءَةِ القَوْلِ فِيَّ . أَزِلْ عَنِّي حَسَدَ الحُسَّادِ، بِأَنْ تَكْبِتَهُمْ وَتُذِلَّهُمْ ، بالازديادِ في الإِحْسَانِ إِلَيَّ ، وَالرَّفْعِ مِنْ مَنْزِلَتي لَدَيْكَ ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الذي جَعَلْتَهُمْ حُسَّادًا لِي، إِذْ أَعْطَيْتَني وَقَرَّبْتَ مَنْزِلَتي عِنْدَكَ، حَتَّى حَسَدُوني عَلى ذَلِك.

وَمَنْ فَرَّ مِنْ إِحْسَانِهِ حَسَدًا لَهُ تَلَقَّاهُ مِنْهُ حَيْثُمَا سَارَ نَائِلُ

وَمَنْ هَرَبَ مِنْ إِحْسَانِه ، وَقَرَّرَ مُجَانَبَتَه ، حَسَدًا لَه ، اسْتَقْبَلَهُ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ عَطَاءٌ مِنْه ، وَذَلِكَ لِعُمُومِ نَائِلِهِ الأَرْضَ. إِنَّ جُودَهُ يَعُمُّ الأَرْضَ، وَيَشْمَلُ الوَلِيَّ وَالحَاسِدَ وَالمُحْسِنَ وَالمُسِيءَ . فَمَنْ

حَسَدَهُ عَلى إحْسَانِه ، وَهَرَبَ إلى مَوْضِعٍ لا يُرَى فِيهِ إحْسَانُه ، ولا يُسْمَعُ بِه ، رَأى مِنْهُ في كُلِّ مَكَانٍ نَائِلًا ، وَسَمِعَ حَيْثُمَا كَانَ بِذِكْرِ كَرَمِهِ وَجُودِهِ وَعَطَايَاه ، فَلا يُمْكِنُهُ الفِرَارُ مِنْهُ أبَدًا .

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ في نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

إنَّ هَؤلاءِ الحَاسِدِينَ يَتَقَلَّبُونَ في نِعَمِكَ ، فَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أنْ يَحْسُدُوك ، لأنَّ أَشَدَّ الظالمين ظُلْمًا مَنْ تَقَلَّبَ في نِعْمَةِ إنْسَانٍ ، ثُمَّ بَاتَ يَحْسُدُهُ عَلى تِلْكَ النِّعْمَةِ . أَظْلَمُ الظَّالِمِينَ مَنْ يَحْسُدُ الذي يُنْعِمُ عَلَيْه ، فَهُوَ يَتَقَلَّبُ في نِعَمِ المَحْسُودِ ، فَحُسَّادُكَ يَتَقَلَّبُونَ في نِعَمِكَ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَحْسُدُونَكَ . أَشَدُّ الظُّلْمِ وَأَفْحَشُهُ حَسَدُ المُنْعِمِ عَلَيْكَ ، فَمَنْ بَاتَ مُتَقَلِّبًا في نِعْمَةِ إنْسَانٍ ، ثُمَّ بَاتَ حَاسِدًا لَه ، فَهُوَ أَظْلَمُ الظَّالِمِين . وَالمَعْنَى: إنَّ هَؤلاءِ الذينَ يَحْسُدُونَكَ أَنْتَ وَلِيُّ نِعْمَتِهِمْ .

قَلِيلٌ عَائِدِي سَقِمٌ فُؤَادِي كَثِيرٌ حَاسِدِي صَعْبٌ مَرَامِي

إنِّي بِمِصْرَ غَرِيبٌ ، فَلَيْسَ يَعُودُني بِهَا إلا القَلِيلُ مِنَ الناسِ ، وَفُؤَادي سَقِيمٌ لِتَرَاكُمِ الأَحْزَانِ عَلَيَّ ، وَحُسَّادِي كَثِيرٌ لِوُفُورِ فَضْلي، وَمَرَامِي (مَطْلَبِي) صَعْبٌ ، لِأنِّي أَطْلُبُ المُلْكَ .

قَطَّعْتَهُمْ حَسَدًا أَرَاهُمْ مَا بِهِمْ فَتَقَطَّعُوا حَسَدًا لِمَنْ لا يَحْسُدُ

إنَّهُمْ حَسَدُوكَ فَمَاتُوا بِشِدَّةِ حَسَدِهِمْ إيَّاكَ، فَكَأنَّكَ قَطَّعْتَهُمْ إرْبًا إرْبًا (عُضْوًا عُضْوًا) . أرَاهُمْ حَسَدُهُمْ مَا بِهِمْ مِنَ الذُّلِّ وَالتَّقْصِيرِ عَنْكَ وَالنَّقْصِ دُونَكَ، فَتَقَطَّعُوا حَسَدًا لِمَا فِيكَ مِنَ الفَضْلِ ، وَأَنْتَ لا تَحْسُدُ أَحَدًا ، لأنَّكَ قَدْ جَمَعْتَ الفَضَائِلَ الكُلِّية ، وَالحَسَدُ مِنْ صِفَاتِ النَّاقِصِين ، فَأَنْتَ تُحْسَدُ ، ولا تَحْسُدُ أَحَدًا .

وَلَكِنِّي حُسِدْتُ عَلى حَيَاتي وَمَا خَيْرُ الحَيَاةِ بِلا سُرُورِ

حَسَدُوني عَلى حَيَاتي وَهِيَ مَشُوبَةٌ بِالحُزْنِ ، وَأيُّ خَيْرٍ في حَيَاةٍ بِلا سُرُورٍ ؟! ، فَأنَا لا أَرْضَاهَا لِنَفْسِي ، فَكَيْفَ لِغَيْرِي ؟! . حَسَدُوني عَلى حَيَاتي مَعَ أنَّهَا لَيْسَتْ بِالشَّيْءِ الذي يُحْسَدُ عَلَيْه ، وَيُرْغَبُ فِيه، لأنَّهَا خَالِيَةٌ مِنَ السُّرُورِ ، وإلا لَجُدْتُ بِهَا عَلَيْهِمْ أيْضًا كَي أستريحَ مِنْهُمْ وَمِنْ شُرُورِهِمْ.

فَإنِّي قَدْ وَصَلْتُ إلى مَكَانٍ عَلَيْهِ تَحْسُدُ الحَدَقَ القُلُوبُ

مَنْ يَحْسُدُني عَلى مَنْزِلَتِي عِنْدَ المَمْدُوحِ ، وَنَظَرِي إلَيْه ، فَهُوَ مَغْدُور ، لأنَّني قَدْ جُعِلْتُ في مَكَانٍ يَحْسُدُ قَلْبي فِيهِ عَيْنِي ، لِمَا تُدْرِكه مِنَ اللَّذَّةِ بِالنَّظَرِ إلَيْه ، وَرُؤيتها لِمكَارِمِهِ وَمَحَاسِنِه . وَالقَلْبُ لا يَصِلُ إلَيْهَا مُبَاشَرَةً ، وإنَّمَا يَصِلُ إلَيْهَا بِالْعِلْمِ .

١٠_ الهَجْرُ

كَأنَّ الحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبي فَسَاعَةَ هَجْرِهَا يَجِدُ الوِصَالا

كَأنَّ الحُزْنَ يَعْشَقُ قَلْبي ، وَإنَّمَا يَجِدُ الوِصَالَ إذا هَجَرْتِني ، يَعْنِي : كُلَّمَا هَجَرَتْني وَاصَلَ الحُزْنُ قَلْبي ، وَعَلِقَ بِه .

وَالهَجْرُ أَقْتَلُ لِي مِمَّا أُرَاقِبُهُ أنا الغَرِيقُ فَمَا خَوْفي مِنَ البَلَلِ

إنَّ هَجْرَهَا أَقْتَلُ لِي مِنْ سِلاحِهِمْ ، فَإذَا كَانَ مَقْتُولًا بِالهَجْرِ لَمْ يُبَالِ بَعْدَهُ بِالسِّلاحِ ، لأنَّ مَنْ غَرِقَ في المَاءِ لَمْ يَخْشَ البَلَلَ .

شَابَ مِنَ الهَجْرِ فَرْقُ لِمَّتِهِ فَصَارَ مِثْلَ الدِّمَقْسِ أَسْوَدُهَا

لِعِظَمِ مَا ألَمَّ بِهِ مِنْ هَجْرِ الحَبِيبِ ابْيَضَّ شَعْرُهُ حَتَّى صَارَ مَا كَانَ اسْوَدَّ مِنْ لِمَّتِهِ أَبْيَضَ . وَاللِّمَّةُ مِنَ الشَّعْرِ : مَا ألَمَّ بِالمَنْكِبِ وَجَاوَزَ شَحْمَةَ الأُذُنِ ، والدِّمَقْسُ : الحَرِيرُ الأبْيَض .

١١ _ الخِدَاعُ

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ الناسِ خِبًّا جَزَيْتُ عَلى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ

وَلَمَّا فَسَدَ وُدُّ الناسِ ، وَصَارَ خِدَاعًا ، يُظْهِرُونَ لِيَ البَشَاشَةَ بِوُجُوهِهِم ، وَيُنَافِقُونَني بِالوِدَادِ ، وَقُلُوبُهُمْ مَلِيئَةٌ بِالحِقْدِ وَالخُبْثِ،عَامَلْتُهُمْ بِمِثْلِ مَا يُعَامِلُونَني بِه، وَابْتَسَمْتُ إلَيْهِمْ كَمَا يَبْتَسِمُونَ إلَيَّ.

وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أنَّهُ بَعْضُ الأنَامُ

لِعُمُومِ الفَسَادِ في الناسِ كُلِّهِمْ ، صِرْتُ إذا اصْطَفَيْتُ (اخْتَرْتُ) أَحَدًا لِمَوَدَّتي لَمْ أَكُنْ عَلى ثِقَةٍ مِنْ مَوَدَّتِه ، لِعِلْمِي أنَّهُ وَاحِدٌ مِنَ الناسِ ، وَمِنْ جُمْلَةِ الخَلْقِ .

وَمَا كُلُّ وَجْهٍ أبْيَضٍ بِمُبَارَكٍ ولا كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بِنَجِيبِ

إنَّ المَظْهَرَ يَكُونُ خَادِعًا في كَثِيرٍ مِنَ الأحْيَانِ ، وَالعِبْرَة إنَّمَا هِيَ بِالجَوْهَرِ . لَيْسَ كُلُّ وَجْهٍ أَبْيَض اللَّوْنِ يَكُونُ طَيِّبًا صَالِحًا ، ولَيْسَ كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ يَكُونُ كَرِيمًا غَيْرَ لَئِيمٍ .

١٢ _ الجُبْن

يَرَى الجُبَنَاءُ أنَّ العَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللَّئِيمِ

إنَّ لُؤمَ طَبْعِ الجَبَانِ يُرِيهِ العَجْزَ عَن اقْتِحَامِ العَظَائِمِ في صُورَةِ العَقْلِ ، حَتَّى يَظُنَّ أنَّ عَجْزَهُ وَجَرْيَهُ عَلى حُكْمِ الجُبْنِ عَقْلٌ ،وَلَيْسَ الأمْرُ كَذَلِك ، وَإنَّمَا ذَلِكَ لِسُوءِ طَبْعِهِ الرَّدِيءِ ، وَصِغَرِ هِمَّتِه. إنَّ الجَبَانَ يَخْدَعُهُ لُؤمُ طَبْعِه ، وَيُصَوِّرُ لَهُ أنَّ الاحْتِرَازَ مِنَ الحَرْبِ رَأيٌ وَعَقْلٌ ، وَلَيْسَ كَمَا ظَنَّ ، وَإنَّمَا خَدَعَهُ لُؤمُ طَبْعِهِ عَمَّا في الشَّجَاعَةِ مِنَ العِزِّ بِالفَخْرِ بِهَا .

وَكَيْفَ يَبِيتُ مُضْطَجِعًا جَبَانٌ فَرَشْتَ لِجَنْبِهِ شَوْكَ القَتَادِ

إنَّ خَوْفَ عَدُوِّكَ الجَبَانِ مِنْكَ يَمْنَعُهُ مِنَ النَّوْمِ، كَمَا لَوْ فَرَشْتَ لَهُ شَوْكَ القَتَادِ (شَجَر لَهُ شَوْك). كَيْفَ يَبِيتُ عَدُوُّكَ مُضْطَجِعًا وكُلَّمَا أَلْقَى جَنْبَهُ للنَّوْمِ وَجَدَ نَفْسَهُ يَتَقَلَّبُ عَلى مِثْلِ شَوْكِ القَتَادِ مِنْ خَوْفِكَ ؟!. يَعْني أَنَّهُ لا يَزَالُ مُتَيَقِّظًا لَكَ لا يَأخُذُهُ نَوْمٌ عَنْ مُحَاوَلَةِ الكَيْدِ لَكَ ، وَدَفْعِ خَوْفِكَ عَنْه .

وإذا مَا خَلَا الجَبَانُ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالا

الجَبَانُ إذا خَلَا بِنَفْسِهِ أَظْهَرَ الشَّجَاعَةَ ، وَإذا عَايَنَ الحَرْبَ انْثَنَى عَزْمُه . إنَّ الجَبَانَ إذا كَانَ وَحْدَهُ مُنْفَرِدًا يَحُسُّ مِنْ نَفْسِهِ شَجَاعَةً ، وَيَظُنُّ عِنْدَهُ قُوَّةً وَإقْدَامًا ، وَيَطْلُبُ الطِّعَانَ وَالمُنَازَلَةَ .

١٣ _ الفَسَادُ

فَإنَّ الجُرْحَ يَنْفِرُ بَعْدَ حِينٍ إذا كانَ البِنَاءُ عَلى فَسَادِ

إنَّ الجُرْحَ يَتَوَرَّمُ وَيَظْهَرُ إذا نَبَتَ اللَّحْمُ عَلى ظَاهِرِهِ وَلَهُ غَوْرٌ فَاسِدٌ . إذا كَانَ البِنَاءُ عَلى غَيْرِ قَوَاعِد ، كَانَ الفَسَادُ أَقْرَبَ إلَيْهِ مِنَ الصَّلاحِ ، وَمَا بُنِيَ عَلى بَاطِلٍ فَهُوَ بَاطِلٌ . وَالمَعْنَى : إنَّهُمْ يَطْوُونَ العَدَاوَةَ في أنْفُسِهِمْ إلى أنْ تُمَكِّنَهُمُ الفُرْصَةُ .

١٤ _ الذُّلُّ

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بِعَيْشٍ رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُّ مِنْهُ الحِمَامُ

مَنْ عَاشَ في ذُلٍّ فَلَيْسَ لَهُ عَيْشٌ يُغْبَطُ عَلَيْه ، وَمَنْ غَبَطَهُ عَلى ذَلِكَ العَيْشِ الذَّلِيلِ فَهُوَ ذَلِيلٌ ، لأنَّ المَوْتَ في العِزِّ أَخَفُّ مِنَ العَيْشِ في الذُّلِّ . وَإذا لَمْ تَتَصَرَّف النُّفُوسُ في شَهَوَاتِهَا وَمُرَادِهَا ، فَحَيَاتُهَا مَوْتٌ ، وَوُجُودُهَا عَدَمٌ .

إنْ مَاتَ مَاتَ بِلا فَقْدٍ ولا أَسَفٍ أَوْ عَاشَ عَاشَ بِلا خَلْقٍ ولا خُلُقِ

إنَّ مَوْتَهُ وَحَيَاتَهُ سَوَاءٌ ، فَإنْ مَاتَ لا يَحْزَنُ عَلَيْهِ أَحَدٌ لِذُلِّه ، ولا يَشْعُرُ بِمَوْتِهِ أَحَدٌ لِخُمُولِه ، فَيَكُون مَفْقُودًا ، وَإنْ عَاشَ فَلا نَفْعَ فِيه ، ولا أَحَد يُبَالي بِه ، لأنَّهُ دَمِيمُ الخَلْقِ ، سَيِّئُ الخُلُقِ ، فَلَيْسَ لَهُ مَنْظَرٌ يَمْلأُ العُيُونَ، وَلا خُلُقٌ يَعْطِفُ عَلَيْهِ القُلُوبَ .

إذا كُنْتَ تَرْضَى أنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ فَلا تَسْتَعِدَّنَّ الحُسَامَ اليَمَانِيَا

إذا رَضِيتَ أنْ تَعِيشَ ذَلِيلًا ، وَصَبَرْتَ عَلى الظُّلْمِ ، فَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ اليَمَانِيِّ (المَنْسُوبِ إلى اليَمَنِ) تُعِدُّه ؟ . لا مَعْنَى لاسْتِعْدَادِ السَّيْفِ ، لأنَّ السَّيْفَ يُرَادُ لِدَفْعِ الذُّلِّ وَالظُّلْمِ .

إذا أَتَتِ الإسَاءَةُ مِنْ وَضِيعٍ وَلَمْ أَلُمِ المُسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ

يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ مِنْ تَكَلُّفِهِ هِجَاءَه : إذا أَسَاءَ إلَيَّ وَضِيعٌ لَئِيمٌ وَلَمْ أُوَجِّه اللَّوْمَ إلَيْهِ فَإلَى مَنْ أُوَجِّه؟. إنَّ الإسَاءَةَ إذا وَصَلَتْ لِي مِنْ جِهَةِ لَئِيمٍ اضْطُرِرْتُ إلى لَوْمِه ، ولا مَعْنَى لِلَوْمِ غَيْرِهِ وَلَمْ يُسِئْ إلَيَّ .

وَالذُّلُّ يُظْهِرُ في الذَّلِيلِ مَوَدَّةً وَأَوَدُّ مِنْهُ لِمَنْ يَوَدُّ الأَرْقَمُ

إنَّ الذَّلِيلَ يُظْهِرُ المَحَبَّةَ لِمَنْ أَذَلَّه ، كَيْ يَتَّقِيَ شَرَّه ، إذْ لَيْسَ يَقْدِرُ عَلى مُوَاجَهَتِه ، ولا امْتِنَاع عِنْدَه،فَيَتَوَدَّد إلَيْه،عَلى أنَّ الأَرْقَمَ (الحَيَّة) أَقْرَبُ إلى المُصَافَاةِ مِنَ الذَّلِيلِ إذا أَظْهَرَ الوُدَّ لِمَنْ يَوَدُّه .

١٥_ الظُّلْمُ

الظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإنْ تَجِدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

إنَّ الناس جُبِلُوا عَلى الظُّلْمِ ، فَإذَا رَأَيْتَ عَفِيفًا لا يَظْلِمُ ، فَإنَّمَا تَرْكُهُ الظُّلْمَ لِسَبَبٍ مَانِعٍ مِنْ ذَلِكَ : إمَّا عَجْزٌ أوْ خَوْفٌ ، وَلَوْ جَاءَتْهُ الفُرْصَةُ لاسْتَعْلَى عَلى مَنْ هُوَ دُونَه .

١٦_ العُجْب

إنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعُجْبُ عَجِيبٍ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِن مَزِيدِ

إنْ كُنْتُ مُعْجَبًا بِنَفْسِي ، فَهَذا العُجْبُ صَادِرٌ مِنْ رَجُلٍ عَجِيبٍ لا نَظِيرَ لَه ، لا يَرَى لِأحَدٍ مَزِيَّةً يَمْتَازُ بِهَا عَلَيْه، فَلَيْسَ عُجْبِي مُنْكَرًا . إنْ تَكَبَّرْتُ بِمَا لِي مِنَ الشَّرَفِ ، فَلَيْسَ إلا لأنِّي عَجِيبٌ ، لا نَظِيرَ لِي في زَمَاني ، وَلَيْسَ لِأحَدٍ مَزِيدٌ عَلَيَّ .

إلَيَّ لَعَمْرِي قَصْدُ كُلِّ عَجِيبَةٍ كَأنِّي عَجِيبٌ في عُيُونِ العَجَائِبِ

كُلُّ عَجِيبَةٍ مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ تَقْصِدُني، وَكَأنِّي عَجِيبٌ في عُيُونِهَا ، فَتَقْصِدُني لِتَرَى فِيَّ عَجَبًا. إنَّهُ يُعَرِّضُ بِالذينَ تَوَعَّدُوه. لا عَجَبَ مِنْ قَصْدِهِمْ إلَيَّ بِهَذا الوَعِيدِ ، فَإنِّي لا أزالُ أَتَعَثَّرُ بِالعَجَائِبِ حَتَّى كَأنَّهَا بِذَلِكَ تَتَعَجَّبُ مِنْ صَبْرِي وَحِلْمِي وَعُلُوِّ هِمَّتِي ، فَهِيَ تأتي إلَيَّ مِنْ كُلِّ الجِهَاتِ .

١٧_ الغُرْبَةُ

أنَا في أُمَّةٍ تَدَارَكَهَا اللَّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ في ثَمُودِ

تَدَارَكَهَا اللَّهُ : إمَّا دُعَاءٌ لَهَا ، أي : تَدَارَكَهُمُ اللَّهُ بِالإصْلاحِ ، وَنَجَّاهُمْ مِنْ لُؤمِهِمْ ، أوْ دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ ، أي : أَدْرَكَهُمُ اللَّهُ بِالإهْلاكِ لِأنْجُوَ مِنْهُمْ . وَثَمُود : قَبِيلَةٌ مِنَ العَرَبِ الأوائِلِ .

وَهَكَذَا كُنْتُ في أهْلِي وفي وَطَنِي إنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا

وكُنْتُ وأنا بَيْنَ أَهْلِي في وَطَنِي غَرِيبًا قَلِيلَ المُرَافِقِ وَالمُسَاعِدِ، وكَذَلِكَ النَّفِيسُ العَزِيزُ غَرِيبٌ حَيْثُ كَان ، وَلَوْ بَيْنَ أَهْلِهِ في وَطَنِه ، لأنَّ هَذِهِ الغُرْبَةَ إنَّمَا هِيَ لِفَقْدِ النَّظِيرِ ، لا لِفَقْدِ النَّسِيبِ .

أَنْتَ الغَرِيبةُ في زَمَانٍ أَهْلُهُ وُلِدَتْ مَكَارِمُهُمْ لِغَيْرِ تَمَامِ

أَنْتَ أُعْجُوبَةُ هَذا الزَّمَانِ،لأنَّ أَهْلَهُ كُلَّهُمْ نَاقِصُو المَكَارِمِ ، وَأَنْتَ تَامُّ الكَرَمِ بَيْنَهُمْ . إنَّ أَهْلَ هَذا الزَّمَانِ إذا فَعَلُوا مَكْرُمَةً لَمْ يُتِمُّوهَا ، وَأنْتَ بَيْنَهُمْ حَالَةٌ غَرِيبَةٌ ، لِتَمَامِ مَكَارِمِكَ ، وكَمَالِ مَعَالِمِكَ .

١٨ــ الأَرَقُ

أَرَقٌ عَلى أَرَقٍ وَمِثْلِيَ يَأرَقُ وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

بِي أَرَقٌ عَلى أَرَقٍ ، وَمِثْلِي جَدِيرٌ بِالأَرَقِ ، وَبِي حُزْنٌ يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ ، وَلِي دَمْعَةٌ تَسِيلُ أَبَدًا . وَالأَرَقُ : فَقْدُ النَّوْمِ ، وَالجَوَى : الحُرْقَةُ مِنْ حُزْنٍ أوْ عِشْقٍ ، وَالعَبْرَةُ : الدَّمْعَةُ تَتَرَدَّدُ في العَيْنِ .

١٩ــ البَيْنُ

أَبَنِي أَبِينَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ أَبَدًا غُرَابُ البَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ

يَا إِخْوَانَنَا ، أوْ يَا بَنِي آدَمَ ، نَحْنُ نَازِلُونَ في مَنَازِل ، يَتَفَرَّقُ عَنْهَا أَهْلُهَا بِالْمَوْتِ ، فَإِنْ كَانَ اليَوْمَ وَقَعَ الفِرَاقُ بَيْنَنَا ، فَكَذَلِكَ يَقَعُ في الدُّنْيَا بَيْنَ أَهْلِهَا . وَإِنَّمَا ذُكِرَ غُرَابُ البَيْنِ ، لأنَّ العَرَبَ تَتَشَاءَمُ بِصِيَاحِ الغُرَابِ ، يَقُولُون : إذا صَاحَ الغُرَابُ في دَارٍ تَفَرَّقَ أَهْلُهَا ، وَهُوَ كَثِيرٌ في أشعَارِهِمْ .

أَكَيْدًا لَنَا يَا بَيْنُ وَاصَلْتَ وَصْلَنَا فَلا دَارُنَا تَدْنُو ولا عَيْشُنا يَصْفُو

أَتَكِيدُ لَنَا أيُّهَا البَيْنُ (البُعْدُ) فَتُوَاصِلُ وَصْلَنَا ، أي : تُلازِمُه ؟ ، والمَعْنَى : كُلَّمَا تَوَاصَلْنَا فَرَّقَنَا البَيْنُ ، فَلا تَدْنُو لَنَا دَارٌ ، وَلا يَصْفُو لَنَا عَيْشٌ .

٢٠ ــ القَلَقُ

عَلى قَلَقٍ كَأنَّ الرِّيحَ تَحْتِي أُوَجِّهُهَا جَنُوبًا أَوْ شَمَالا

أنا عَلى الاضْطِرَابِ ، لا أَسْتَقِرُّ في مَكَانٍ ، كَأنِّي عَلى ظَهْرِ الرِّيحِ ، أُوَجِّهُهَا مَرَّةً إلى جَانِبِ الجَنُوبِ ، وَمَرَّةً إلى جَانِبِ الشَّمَالِ ، فَعَبَّرَ بِالرِّيحَيْنِ عَن الجَانِبَيْن .

كَرِيشَةٍ بِمَهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٍ لا تَسْتَقِرُّ عَلى حَالٍ مِنَ القَلَقِ

أنا مِنَ القَلَقِ كَرِيشَةٍ في مَجْرَى الرِّيحِ سَاقِطَةٍ ، لا تَسْتَقِرُّ مِنَ القَلَقِ عَلى حَالٍ . يَصِفُ نَفْسَهُ بِالطَّيْشِ ، وأنَّهُ لا يَثْبُتُ عَلى حَالٍ .

٢١ــ الشَّمَاتَةُ

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِأَنْفِهِمُ رَغْمَا

إنْ كانَ الأَعْدَاءُ فَرِحُوا بِمَوْتِهَا ، وَشَمِتُوا بِه ، فَقَدْ خَلَّفَتْ مِنِّي مَنْ يُرْغِمُ أُنُوفَهُمْ ، أي : يُلْصِقُهَا بِالرَّغَامِ (التُّرَابِ) . أي : إنَّهَا وَلَدَتْ رَجُلًا يُذِلُّهُمْ وَيَقْهَرُهُمْ .

٢٢ــ الثَّأرُ

هَبِينِي أَخَذْتُ الثَّأرَ فِيكِ مِنَ العِدَا فَكَيْفَ بِأَخْذِ الثَّأرِ فِيكِ مِنَ الحُمَّى

اجْعَلِيني بِمَنْزِلَةِ مَنْ أَخَذَ ثَأرَكَ مِنَ الأعْدَاءِ لَوْ قَتَلُوكِ،فَكَيْفَ آخُذُ ثَأرَكِ مِنَ العِلَّةِ (الحُمَّى) التي قَتَلَتْكِ ؟.وَالحُمَّى هِيَ العَدُوُّ الذي لا سَبِيلَ إلَيْه . لا أَقْدِرُ عَلى أَخْذِ الثَّأرِ مِنَ الحُمَّى التي قَتَلَتْكِ .

كَطَالِبِ الثَّأرِ وَإنْ لَمْ يَحْقِدِ يَقْتُلُ مَا يَقْتُلُهُ ولا يَدِي

إنَّهُ لِحِرْصِهِ عَلى الصَّيْدِ ، كَأنَّ لَهُ عِنْدَهُ ثأرًا ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حِقْدٌ ، وَإنَّهُ إذا قَتَلَ صَيْدًا لَمْ يَخَفْ أنْ يُطَالَبَ بِدِيَتِه ، فَلا تَجِبُ عَلَيْه، ولا يُبَالي لِذَلِكَ .

٢٣_ البُخْلُ

وَمَا كُلٌّ بِمَعْذُورٍ بِبُخْلٍ ولا كُلٌّ عَلى بُخْلٍ يَلامُ

لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يُعْذَرُ إذا بَخِلَ ، لأنَّ الوَاجِدَ الغَنِيَّ لا عُذْرَ لَهُ في البُخْلِ وَالمَنْعِ ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يُلَامُ عَلى البُخْلِ ، فَإنَّ المُعْسِرَ المُحْتَاجَ إلى مَا في يَدِهِ لا يُلَامُ في بُخْلِه . إنَّ الكَرِيمَ لا يُعْذَرُ عَلى بُخْلِه ، لِكَرَمِهِ وَلاتِّصَالِ الآمَالِ بِه ، وَإنْ بَخِلَ المُعْسِرُ لا يُلَامُ، لأنَّ فَضْلَهُ وَمَنْزِلَتَهُ إنَّمَا هُوَ بِالمَالِ .

فَتًى لا يُرَجِّي أنْ تَتِمَّ طَهَارَةٌ لِمَنْ لَمْ يُطَهِّرْ رَاحَتَيْهِ مِنَ البُخْلِ

هُوَ مَجْبُولٌ على البَذْلِ وَالكَرَمِ ، وَيَكْرَهُ البُخْلَ ، وَيَعْتَقِدُ أنَّ الطَّهَارَةَ مِنَ النَّجَاسَةِ لا تَتِمُّ إلا بِتَطْهِيرِ اليَدَيْنِ مِنَ البُخْلِ. وكَمَا أنَّ الطَّهَارَةَ مِنَ النَّجَاسَةِ وَاجِبَةٌ ،كَذَلِكَ اجْتِنَاب البُخْلِ وَاجِبٌ .

٢٤_ الجَهْلُ

وَمِنْ جَاهِلٍ بِي وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عِلْمِي أنَّهُ بِي جَاهِلُ

اجْتَمَعَ في هَذا الشَّخْصِ ثَلاثَةُ أنْوَاعٍ مِنَ الجَهْلِ : جَهْلُهُ بِقَدْرِي ، وَجَهْلُهُ بِأنَّهُ جَاهِلٌ بِقَدْرِي ، وَجَهْلُهُ بِأنِّي عَالِمٌ بِجَهْلِهِ وَبِقَدْرِي ، فَمَن اجْتَمَعَ فِيهِ هَذِهِ الأنْوَاعُ مِنَ الجَهْلِ كَيْفَ يَعْرِفُ قَدْرِي ؟! .

جَهِلُوني وَإنْ عَمَرْتُ قَلِيلًا نَسَبَتْني لَهُمْ رُؤُوسُ الرِّمَاحِ

جَهِلُوا قَدْرِي وَنَسَبِي وَأَصْلِي ، وَلَوْ عِشْتُ قَلِيلًا ، عَرَّفَتْهُمُ الرِّماحُ نَسَبِي ، فَيَعْرِفُونَني بِطَعْنِي لَهُمْ بِهَا ، وَيَرَوْنَ حُسْنَ بَلائي. يَتَوَعَّدُهُمْ وَيُهَدِّدُهُمْ بِالقَتْلِ .

أَمَاتَكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ الجَهْلُ وَجَرَّكُمُ مِنْ خِفَّةٍ بِكُمُ النَّمْلُ

أَمَاتَكُمُ الجَهْلُ قَبْلَ أنْ تَمُوتُوا ، أي : أنْتُمْ أمْوَاتٌ مِنْ جَهْلِكُمْ ، وَإنْ كُنْتُمْ أحياء ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَزْنٌ ولا قَدْرٌ . وَلِخِفَّةِ وَزْنِكُمْ يَسْتَطِيعُ النَّمْلُ أنْ يَجُرَّكُمْ . وَالسَّفِيهُ الأحْمَقُ الخَفِيفُ العَقْل يُوصَفُ بِخِفَّةِ الوَزْن ،كَمَا أنَّ الحَلِيمَ الرَّزِينَ يُوصَفُ بِثِقَلِ الوَزْن .

مِنَ الحِلْمِ أنْ تَسْتَعْمِلَ الجَهْلَ دُونَهُ إذا اتَّسَعَتْ في الحِلْمِ طُرْقُ المَظَالِمِ

إذا كَانَ حِلْمُكَ دَاعِيًا إلى ظُلْمِكَ،وَإقْدَامِ السَّفِيهِ عَلَيْكَ، فَإنَّ مِنَ الحِلْمِ أنْ تَجْهَلَ ، لأنَّ الحِلْمَ إنَّمَا يُلْجَأ إلَيْهِ لِتَدَارُكِ الشِّرِّ، فإذا تَفَاقَمَ بِهِ الشَّرُّ، وَلَمْ يُتَدَارَك الشَّرُّ إلا بِالجَهْلِ ، كَانَ الجَهْلُ حِلْمًا.

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لا يَرَى

إذا لَمْ يَعْلَم الإنسانُ قَدْرَ نَفْسِهِ فَإنَّ الناسَ يَعْلَمُونَ مِنْ حَالِهِ مَا خَفِيَ عَلَيْه. مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدْرَ نَفْسِهِ غُرُورًا وَإعْجَابًا، خَفِيَتْ عَلَيْهِ عُيُوبُه، فَرَأى الناسُ مِنْ عُيُوبِهِ مَا لا يَرَاه، وَاسْتَقْبَحُوا مِنْهُ مَا اسْتَحْسَنَ .

كَدَعْوَاكِ كُلٌّ يَدَّعِي صِحَّةَ العَقْلِ وَمَنْ ذَا الذي يَدْرِي بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلِ

يَقُولُ لِلْعَاذِلَةِ (اللائِمَةِ) : كُلُّ أَحَدٍ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ صِحَّةَ العَقْلِ ، كَمَا تَدَّعِينَ أَنْتِ ، يَعْني أنَّكِ بِلَوْمِكِ إيَّايَ تَدَّعِينَ أنَّكِ أَصَحُّ عَقْلًا مِنِّي، وَلَكِنْ لا أَحَدَ يَعْلَمُ جَهْلَ نَفْسِه ، لأنَّ المَرْءَ لا يَعْرِفُ عَيْبَ نَفْسِه ، وَمَتَى عَلِمَ جَهْلَ نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ جَاهِلًا .

وَمِنَ البَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لا يَرْعَوِي عَنْ جَهْلِهِ وَخِطَابُ مَنْ لا يَفْهَمُ

مِنَ البَلاءِ لَوْمُ مَنْ لا يَنْصَرِفُ عَن الجَهْلِ ، وَمُخَاطَبَةُ الجَاهِلِ الذي لا يَفْهَمُ الكَلامَ .

٢٥ _ الخَوْفُ

وَلَكِنْ هَبَّ خَوْفُكَ في حَشَاهُمْ هُبُوبَ الرِّيحِ في رِجْلِ الجَرَادِ

هَبَّ خَوْفُكَ في قُلُوبِهِمْ فَطَيَّرَهَا ، كَمَا تَهُبُّ الرِّيحُ في قِطْعَةٍ مِنَ الجَرَادِ فَتُبَدِّدُهَا . إنَّ رِيحَ الخَوْفِ عَصَفَتْ بِهِمْ وَفَرَّقَتْهُمْ ، كَمَا تُفَرِّقُ الرِّيحُ القِطْعَةَ مِنَ الجَرَادِ .

وَمَا الخَوْفَ إلا مَا تَخَوَّفَهُ الفَتَى وَمَا الأَمْنُ إلا مَا رَآهُ الفَتَى أَمْنَا

الخَوْفُ وَالأَمْنُ ، مَا تَصَوَّرَهُ الإنْسَانُ في نَفْسِه ، فَإذَا تَصَوَّرَ في الشَّيْءِ أَنَّهُ مُخِيفٌ خَافَه ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ مُخِيفًا ، وإذا تَصَوَّرَ في نَفْسِهِ أنَّ الشَّيْءَ مَأمُونٌ أَمِنَ مِنْه ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ في الحَقِيقَةِ.

٢٦ _ الهَوَانُ

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

إذا كَانَ الإنْسَانُ هَيِّنًا في نَفْسِهِ سَهُلَ عَلَيْهِ احْتِمَالُ الهَوَانِ ، كَالمَيِّتِ الذي لا يَتَأَلَّمُ بِالجِرَاحَةِ .

٢٧ _ الفِرَاقُ

فَوَا حَسْرَتَا مَا أَمَرَّ الفِرَاقَ وَأَعْلَقَ نِيرانَهُ بِالكُبُودِ

وَاحَسْرَتَا عَلى نَفْسِي مِنْ مُفَارَقَةِ الأَحْبَابِ، فَمَا أَمَرَّ الفِرَاقَ وَأَشَدَّ مَرَارَتَه ! ، وَمَا أَشَدَّ عَلَقَ نِيرَانِ الفِرَاق بِالكُبُودِ ! . وَالكُبُودُ : جَمْعُ الكَبِدِ . وَجَمَعَ الكُبُودَ ذَهَابًا إلى العُمُوم ، فَكَأنَّهُ قال : مَا أَعْلَقَ نِيرَانَهُ بِكُبُودِ العُشَّاقِ .

عُجْنَا فَأَذْهَبَ مَا أَبْقَى الفِرَاقُ لَنَا مِنَ العُقُولِ وَمَا رَدَّ الذي ذَهَبَا

عَاجَ عَلى المَكَانِ : مَرَّ عَلَيْهِ ومَالَ إلَيْه . عَطَفْنَا عَلى هَذا الرَّبْعِ لِنَزُورَه ، فَأَذْهَبَ مَا كَانَ بَقِيَ لَنَا مِنْ عُقُولِنَا، بِتَجْدِيدِهِ ذِكْر الأحِبَّةِ ، وَلَمْ يَرُد مَا كَانَ ذَهَبَ مِنْ عُقُولِنَا عِنْدَ الفِرَاقِ .

حَدَقُ الحِسَانِ مِنَ الغَوَانِي هِجْنَ لِي يَوْمَ الفِرَاقِ صَبَابَةً وَغَلِيلا

لَمَّا نَظَرْتُ يَوْمَ الفِرَاقِ إلى الجَوَاري الحِسَانِ، وَتَأَمَّلْتُ حُسْنَ عُيُونِهِنَّ ، هَيَّجَتْ لِي أَحْدَاقُهُنَّ رِقَّةَ الشَّوْقِ وَحَرَارَةَ القَلْبِ . وَالحَدَقُ: جَمْعُ حَدَقَةٍ ، وَهِيَ سَوَادُ العَيْنِ الأعْظَمُ . وَالحِسَانُ : جَمْعُ الحَسْنَاءِ. وَالغَوَاني : جَمْعُ الغَانِيَةِ ، وَهِيَ التي غَنِيَتْ بِحُسْنِهَا عَن التَّجَمُّلِ ، وَالصَّبَابَةُ : رِقَّةُ الشَّوْقِ، وَالغَلِيلُ : حَرَارَةُ العَطَشِ ، وَالمُرَادُ بِهِ هُنَا : لاعِجُ الوَجْدِ .

وَفَارَقْتُ الحَبِيبَ بِلا وَدَاعٍ وَوَدَّعْتُ البِلادَ بِلا سَلَامِ

وَرُبَّمَا فَارَقْتُ الحَبِيبَ بِلا وَدَاعٍ لِعَجَلَتِي ، يُرِيدُ أَنَّهُ قَدْ هَرَبَ مِنْ أشياء كَرِهَهَا ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلى تَوْدِيعِ الحَبِيبِ ، ولا عَلى أنْ يُسَلِّمَ عَلى أَهْلِ ذَلِكَ البَلَدِ الذي هَرَبَ مِنْه .

أمَّا الفِرَاقُ فَإنَّهُ مَا أَعْهَدُ هُوَ تَوْأمِي لَوْ أنَّ بَيْنًا يُولَدُ

أمَّا الفِرَاقُ فَهُوَ شَيْءٌ أَعْهَدُهُ مِنْ قَدِيمٍ، حَتَّى لَوْ أنَّهُ مِمَّا يُولَدُ، لَقُلْتُ: هُوَ تَوْأمِي، أي: لا أَنْفَكُّ مِنْ فِرَاقِ حَبِيبٍ ، فَلَوْ كَانَ الفِرَاقُ مَوْلُودًا لَحَكَمْتُ بِأَنَّهُ تَوْأمِي . إنَّني تَعَاهَدْتُ الفِرَاقَ ، وَهُوَ الذي أَعْهَدُهُ مُنْذُ وُلِدْتُ، وَلَوْ كَانَ البَيْنُ يُولَدُ لَكُنْتُ أنا وَهُوَ تَوْأَمَيْن .

وَالأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ وَالأَسَى لا يَكُونُ بَعْدَ الفِرَاقِ

الجَزَعُ مِنَ المَوْتِ قَبْلَ وُقُوعِهِ عَجْزٌ يَنْشَأ عَن الجُبْنِ وَضَعْفِ النَّفْسِ ، فَلا مَعْنى لِلْجَزَعِ وَالرُّوحُ لَمْ تُفَارِق الجِسْمَ ، فَإذَا فَارَقَت الرُّوحُ بَطَلَ الجِسْمُ ، وَزَالَتْ حَيَاتُه ، وَبَطَلَ حِسُّه ، فَلا جَزَعَ بَعْدَ المَوْتِ . لا يَحْسُنُ أنْ يَحْزَنَ الإنْسَانُ لِلْمَوْتِ بَعْدَ تَيَقُّنِهِ بِوُقُوعِه ، فَإنَّهُ قَبْلَ الوُقُوعِ لا يَنْفَعُ الحَذَرُ ، وَيُنَغِّصُ العَيْشِ ، وَإذَا وَقَعَ المَوْتُ فَلا حُزْنَ عَلى الإنْسَانِ ، ولا عِلْم لَهُ بِه . وَالخَوْفُ مِنَ المَوْتِ لا يَمْنَعُ المَوْتَ ، وَلَكِنَّهُ يَمْنَعُ الحَيَاةَ . وَهَذا البَيْتُ حَثٌّ عَلى الشَّجَاعَةِ ، وَتَحْذِيرٌ مِنَ الجُبْنِ ، وَتَهْوِينٌ لِلْمَوْتِ لِئَلا يَخَافَهُ الإنْسَانُ فَيَتْرُك الإقْدَامَ ، وَلَمْ يُرِد الشَّاعِرُ الإلْحَادَ ، وَإنَّمَا قَالَ هَذا مِنْ حَيْثُ الظاهر .

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أنْ نُفَارِقَهُمْ وِجْدَانُنا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ

يا مَنْ يَشْتَدُّ عَلَيْنَا فِرَاقُه ، بِمَا أَسْلَفَ إلَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِه ، كُلُّ شَيْءٍ وَجَدْنَاهُ بَعْدَ فِرَاقِكُمْ فَهُوَ عِنْدَنَا عَدَمٌ ، أي : وُجُودُهُ كَعَدَمِه . لا أَحَد يَحُلُّ مَكَانَكُمْ ، وَلَيْسَ لَكُمْ بَدِيلٌ .

إذا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أنْ لا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

إذا رَحَلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلى إرْضَائِكَ حَتَّى لا تُضْطَرَّ إلى مُفَارَقَتِهِمْ فَهُمُ المُخْتَارُونَ لِفِرَاقِكَ، فَكَأنَّهُمْ هُمُ الرَّاحِلُونَ عَنْكَ. إذا قَدَرَ قَوْمٌ عَلى ألا يَضْطَرُّوكَ إلى مُفَارَقَتِهِمْ وَالرَّحِيلِ عَنْهُمْ ، ثُمَّ اضْطَرُّوكَ إلى ذَلِكَ ، فَهُمْ مُخِلُّون بِحَقِّكَ ، فَيَكُونُونَ بِمَنْزِلَةِ المُرْتَحِلِينَ عَنْكَ ، لِرَغْبَتِهِمْ عَنْكَ ، فَلا فَرْقَ بَيْنَ رَحِيلِهِمْ عَنْكَ ، وَإلْجَائِهِمْ إيَّاكَ إلى فِرَاقِهِمْ .

تَحَمَّلُوا حَمَلَتْكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَيَّ اليَوْمَ مُؤْتَمَنُ

مَتَى شِئْتُمُ الرَّحِيلَ فَارْحَلُوا ، فَلَسْتُ أُبَالي بِفِرَاقِ مَنْ بَانَ عَنِّي ، بَعْدَ أنْ عَرَفْتُ قُبْحَ أفْعَالِكُمْ ، ولا أَخَافُ الآنَ مِنَ الفِرَاقِ ، فَكُلُّ فِرَاقٍ مَأمُونٌ في حَقِّي . وَتَحَمَّلُوا : أَمْرٌ ، وَحَمَلَتْكُمْ : دُعَاء ، وَالنَّاجِيَةُ : النَّاقَةُ السَّرِيعَةُ . ارتَحِلُوا عَنِّي، حَمَلَتْكُمْ كُلُّ نَاقَةٍ مُسْرِعَةٍ ، وَهَذا دُعَاءٌ بِالبُعْدِ ، فَالفِرَاقُ _ بَعْدَ اخْتِبَارِي لأحْوَالِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا _ مُؤْتَمَنٌ عَلَيَّ ، أي : أَرْضَى بِحُكْمِهِ ، وَلا تَضُرُّني مُصِيبَتُه . وَالمَعْنَى : لا أَحْزَنُ لِفِرَاقِكُمْ .

إنِّي لَأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبَّتي وَتُحِسُّ نَفْسِي بِالحِمَامِ فَأَشْجُعُ

أنا جَبَانٌ عِنْدَ فِرَاقِ الأحِبَّةِ ، أَخَافُهُ خَوْفَ الجُبَنَاءِ ، وَأَشْجُعُ (أَتَشَجَّعُ) عِنْدَ المَوْتِ في مَيْدَانِ الوَغَى ، فَلا أَهَابُه ، يَعْني أنَّ الفِرَاقَ أَعْظَمُ خَطْبًا عِنْدَهُ مِنَ المَوْتِ .

٢٨ _ اللَّهْفُ

أُرَدِّدُ وَيْلي لَوْ قَضَى الوَيْلُ حَاجَةً وَأُكْثِرُ لَهْفِي لَوْ شَفَى غُلَّةً لَهْفُ

أُرَدِّدُ هَاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ (الوَيْل واللَّهْف) عَلى لِسَاني ، وَمَعْنَاهُمَا في قَلْبي ، فَلَوْ نَفَعَ ذَلِكَ لَنَفَعَنِي، وَقَضَى حَاجَتي ، وَشَفَى غُلَّتي . وَالوَيْلُ : كَلِمَة يَقُولُهَا كُلُّ وَاقِعٍ في الشَّرِّ ، وَاللَّهْفُ : التَّحَسُّرُ عَلى مَا فَاتَ ، وَالغُلَّةُ:العَطَشُ وَحَرَارَةُ الجَوْفِ .

٢٩_ الهَمُّ

وَالهَمُّ يَخْتَرِمُ الجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

إنَّ الهَمَّ يُذِيبُ جِسْمَ البَدِينِ الضَّخْمِ ، وَيَجْعَلُهُ هَزِيلًا ، وَيُشِيبُ الصَّبِيَّ قَبْلَ الأوَانِ حَتَّى يَصِيرَ كَالعَجُوزِ مِنَ الضَّعْفِ وَالعَجْزِ. يُشِيرُ إلى أنَّ الهَمَّ هُوَ سَبَبُ شَيْبِه . وَيَخْتَرِمُ : يَقْطَتِعُ وَيَسْتَأصِلُ ، وَالجَسِيمُ : السَّمِين ، وَالنَّحَافَةُ : الهُزَال ، وَالنَّاصِيَةُ: شَعْرُ مُقَدَّمِ الرَّأسِ .

٣٠_ البُغْضُ

وَأَرْحَمُ أَقْوَامًا مِنَ العِيِّ وَالغَبَا وَأَعْذِرُ في بُغْضِي لأنَّهُمُ ضِدُّ

إذا رَأيْتُ أُنَاسًا مِنْ أَهْلِ العِيِّ وَالغَبَاءِ ، رَحِمْتُهُمْ وَأَشْفَقْتُ عَلَيْهِمْ ، وإذا أَبْغَضُوني عَذَرْتُهُمْ ، لأنَّهُمْ أَضْدَادٌ لِي بِسَبَبِ مَا بَيْنَنَا مِنَ الاخْتِلافِ وَالتَّبَايُنِ، إذْ لَيْسَ فِيَّ مِثْلُ مَا فِيهِمْ مِنَ العِيِّ وَالغَبَاءِ، وَالضِّدُّ يُبْغِضُ ضِدَّه . وَالعِيُّ : العَجْزُ عَن الكَلامِ ، وَالغَبَا : الغَبَاءُ وَالجَهْلُ ، أي : قِلَّة الفِطْنَة .

٣١ _ قِلَّةُ الوَفَاءِ

غَاضَ الوَفَاءُ فَمَا تَلْقَاهُ في عِدَةٍ وَأَعْوَزَ الصِّدْقُ في الإخْبَارِ وَالقَسَمِ

ذَهَبَ الوَفَاءُ فَلا تَلْقَاهُ في وَعْدِ أَحَدٍ مِنَ الناسِ،وَتَعَذَّرَ وُجُودُ الصِّدْقِ في أخْبَارِ الناسِ وَأيْمَانِهِمْ. لا تَرَى الوَفَاءَ في عِدَةٍ ، أي : إذا وَعَدَكَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ لَمْ يَفِ بِه ، وَلا يُوجَدُ الصِّدْقُ في إخْبَارٍ ولا قَسَمٍ ، أي : إذا أَخْبَرَكَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ لَمْ يَصْدُقْ فِيه ، وإذا حَلَفَ لَمْ يَصْدُقْ . وَغَاضَ : قَلَّ وَنَقَصَ ، وَأَعْوَزَ الشَّيْءُ : عَزَّ ، فَلا يَكَادُ يُوجَد .

٣٢ _ الفَهْمُ الخَاطِئُ للدِّينِ

أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ يا أُمَّةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الأُمَمُ

مِنْ عَادَةِ أَهْلِ مِصْرَ إحْفَاءُ الشَّوَارِبِ . يُخَاطِبُهُمْ قَائِلًا : اقْتَصَرْتُمْ مِنَ الدِّينِ عَلى ذَلِكَ ، وَعَطَّلْتُمْ سَائِرَ أَحْكَامِه،وَرَضِيتُمْ بِوِلايَةِ كَافُور عَلَيْكُمْ مَعَ خِسَّتِهِ وَدَنَاءَتِه، حَتَّى ضَحِكَت الأُمَمُ مِنْكُمْ ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِكُمْ وَبِقِلَّةِ عُقُولِكُمْ . وَهَذا إنكارٌ عَلَيْهِم طَاعَة العَبْدِ الأَسْوَدِ ، وَتَقْرِيره في المَمْلَكَة .

٣٣_ الكِبْرُ

وَإنِّي رَأَيْتُ الضُّرَّ أَحْسَنَ مَنْظَرًا وَأَهْوَنَ مِنْ مَرْأَى صَغِيرٍ بِهِ كِبْرُ

إنَّ مُعَانَاةَ الفَقْرِ وَالحَاجَةِ أَهْوَنُ عِنْدَي وَأَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أنْ أَرَى أَوْ أَلْقَى شَخْصًا حَقِيرًا مُتَكَبِّرًا .

٣٤_ الكَذِبُ

إنَّ الكِذَابَ الذي أُكَادُ بِهِ أَهْوَنُ عِنْدِي مِنَ الذي نَقَلَه

إنَّ الكَذِبَ الذي يَكِيدُني بِهِ حُسَّادِي ، لا أُبَالي بِه ، ولا أَكْتَرِثُ لَه ، وَهَذا الكَذِبُ أَهْوَنُ وَأَقَلُّ وَزْنًا مِنَ الكَاذِبِ الذي نَقَلَ هَذا الكَذِبَ ، ولا قَدْرَ لَه .

٣٥ _ العُبُودِيَّةُ

بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمٌ تُرْعَى بِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمُ

وَجَدْتُ في كُلِّ بَلَدٍ دَخَلْتُهَا أُمَمًا ، أي : جَمَاعَاتٍ ، يَحْكُمُهُمْ عَبْدٌ ، فَهُمْ لا يَأنَفُونَ عَن الانقيادِ لَه ، كَأَنَّهُمْ غَنَمٌ . وأرادَ بِالعَبْدِ : العَجَم ، لأَنَّهُمْ مَوَالي العَرَبِ وَعَبِيدُهُمْ ، وَهُمْ يَنْزِلُونَ مِنَ العَرَبِ مَنْزِلَةَ العَبِيدِ . وَفِيهِ تَعْيِيرٌ لِلْعَرَبِ ، حَيْثُ رَضُوا بِأنْ يَحْكُمَهُم العَجَمُ ، وانقادوا لَهُمْ .

٣٦ _ الغَدْرُ

أَعْدَدْتُ لِلْغَادِرِينَ أَسْيَافًا أَجْدَعُ مِنْهُمْ بِهِنَّ آنَافَا

أَعْدَدْتُ لِلْغَادِرِينَ سُيُوفًا ، أَقْطَعُ بِهَا أُنُوفَهُمْ ، أي : أُذِلُّهُمْ بِهَا ، وَأُنَكِّلُ بِهِمْ .

إذا امْرُؤٌ رَاعَنِي بِغَدْرَتِهِ أَوْرَدْتُهُ الغَايَةَ التي خَافَا

إذا خَوَّفَني امْرُؤٌ بِغَدْرَتِهِ كَافأتُهُ بِالْقَتْلِ ، وَهُوَ غَايَةُ مَا يَخَافُهُ المَرْءُ .

٣٧ _ الإِهَانَةُ

وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلادٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الحِدَادِ البَوَاكِيَا

إنَّكَ عَجَبٌ ، مَنْ رَآكَ يَضْحَكُ مِنْكَ ، حَتَّى النِّسَاء اللابِسَات السَّوَاد في المَصَائِب ، إذا رَأَيْنَكَ يَضْحَكْنَ مِنْكَ ، وَيَتَسَلَّيْنَ عَنْ غَمِّهِنَّ ، وَكُلُّ مَنْ عَلَيْهِ الحُزْن يَقْصِدُكَ مِنَ الأَمَاكِنِ البَعِيدَةِ لِيَتَعَجَّبَ مِنْ غَرَابَةِ مَنْظَرِكَ، وَيَلْهُوَ عَنْ حُزْنِه .

مَنْ عَلَّمَ الأَسْوَدَ المَخْصِيَّ مَكْرُمَةً أَقَوْمُهُ البِيضُ أَمْ آبَاؤُهُ الصِّيدُ

مِنْ أَيْنَ تَعَلَّمَ هَذا العَبْدُ الأَسْوَدُ المَخْصِيُّ المَكَارِمَ ، أَتَعَلَّمَهَا مِنْ قَوْمِهِ البِيضِ الأَلْوَان ، أو البِيضِ الكِرَامِ ، أوْ مِنْ آبَائِهِ المُلُوكِ ؟! ، إنَّ هَذا الأَسْوَدَ لا يَعْرِفُ المَكْرُمَةَ مَا هِيَ ، لأَنَّهُ عَبْدٌ أَسْوَدُ لَمْ يَرِث المَجْدَ وَالمَكَارِمَ عَنْ آبَائِه . لَيْسَ لَهُ في الكَرَمِ أَصْلٌ ، فَكَيْفَ يَهْتَدِي إلى فِعْلِ المَكَارِمِ وَإِتْيَانِ الجَمِيل ؟! . يَلُومُ نَفْسَهُ لِطَلَبِهِ الغِنَى عِنْدَهُ مَعَ لُؤمِ أَصْلِه .

وَذَاكَ أنَّ الفُحُولَ البِيضَ عَاجِزَةٌ عَنِ الجَمِيلِ فَكَيْفَ الخِصْيَةُ السُّودُ ؟

إنَّ الكِرَامَ الأَحْرَارَ عَاجِزُونَ عَنْ فِعْلِ الجَمِيلِ فَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ اللِّئَامُ ؟. وَالخِصْيَةُ : الخِصْيَان.

٣٨_ الكَيْدُ

وَمَكَايِدُ السُّفَهَاءِ وَاقِعَةٌ بِهِمْ وَعَدَاوَةُ الشُّعَرَاءِ بِئْسَ المُقْتَنَى

إنَّ السَّفِيهَ لِضَعْفِ رَأْيِهِ إذا كَانَ عَدُوًّا ، رَجَعَ ضَرَرُ كَيْدِهِ عَلَيْه ، وَمَنْ عَادَى شَاعِرًا فَقَد اكْتَسَبَ شَرًّا طَوِيلًا، وَهَجْوًا كَثِيرًا ، وَذَلِكَ بِئْسَ المُدَّخَر . وَالسَّفِيهُ : الذي لا عَقْلَ لَهُ ولا رَأي ، وَأَصْلُهُ الذي لا يَعْرِفُ أنْ يُدَبِّرَ أَمْرَه . وَعَنَى بِالسُّفَهَاءِ السُّعَاةَ وَالوُشَاةَ الذينَ وَشَوْا بِه . إنَّ كَيْدَهُمْ يَعُودُ عَلَيْهِمْ بِالشَّرِّ،وَإذا عُودِيَ الشَّاعِرُ أَلْحَقَ بِعِرْضِ عَدُوِّهِ مَا يَبْقَى لاصِقًا بِهِ بَقَاء الدَّهْر، وَهَذا تَهْدِيدٌ بِالهِجَاءِ .

٣٩_ الشَّكْوَى

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أقُولُ قَصِيدَةً فَلا أشتَكي فِيهَا وَلا أتَعَتَّبُ

لَيْتَني أَعْلَمُ هَلْ تَخْلُو لِي قَصِيدَةٌ مِنْ شَكْوَى الدَّهْرِ وَعِتَابِهِ بِأنْ يُبَلِّغَنِي المُرَادَ ، وَأنَالَ مِنْهُ مَا أَطْلُبُ،فَأتْرُكُ الشَّكْوَى؟.هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً وأنا رَاضٍ عَن الزَّمَانِ ؟،لا أَشْكُو صُرُوفَه،وَلا أَتَعَتَّبُ عَلَيْه.

وَلا تَشَكَّ إلى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ شَكْوَى الجَرِيحِ إلى الغِرْبَانِ وَالرَّخَمِ

لا تَشَكَّ إلى أَحَدٍ مَا يَنْزِلُ بِكَ مِنْ أَلَمٍ وَضُرٍّ وَشِدَّةٍ ، فَتُشْمِتَهُ بِشَكْوَاك ، فَتَكُون شَكْوَاكَ كَشَكْوَى الجَرِيحِ إلى الطَّيْرِ التي تَرْقُبُ أنْ يَمُوتَ فَتَأكُلَه . إنَّ الناسَ بَعْضَهُمْ أعْدَاءُ بَعْضٍ ، فَمَنْ شَكَا حَالَهُ إلَيْهِمْ ، فَهُوَ كَالجَرِيحِ الذي اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ لِتَأكُلَ لَحْمَه ، فَهُوَ يَشْكُو إلى مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ رَحْمَة ، لأنَّ الغِرْبَانَ (جَمْع الغُرَابِ) وَالرَّخَمَ (جَمْع الرَّخَمَةِ) ، مِنَ الطُّيُورِ الخَسِيسَةِ التي تَجْتَمِعُ حَوْلَ الجَرِيحِ لِتَأكُلَ لَحْمَه .

٤٠_ التَّحْقِيرُ

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَمَرَّسُ بِي شُوَيْعِرٌ في صِنَاعَتِه ، ضَعِيفٌ في مَعْرِفَتِه ، فَأَرَاهُ يُبَارِيني في القُوَّةِ ، وَهُوَ لا قُوَّةَ لَه ، وَيُطَاوِلُني وَهُوَ قَصِيرٌ أَحْمِلُهُ تَحْتَ ضِبْنِي ؟! . يُرِيدُ حَقَارَةَ ذَلِكَ الشَّاعِرِ ، حَتَّى لَوْ أَرَادَ أنْ يَحْمِلَهُ تَحْتَ ضِبْنِهِ لَقَدَرَ عَلى ذَلِكَ. وَالضِّبْنُ : مَا بَيْنَ الإبْطِ وَالخَاصِرَةِ ، وَالشُّوَيْعِرُ : تَصْغِيرُ شَاعِرٍ، وَيُقَاوِيني : مِنَ القُوَّةِ ، وَيُطَاوِلُ : مِنَ الطُّولِ . والاسْتِفْهَامُ للتَّعَجُّبِ والإنكارِ . لا أزالُ أَرَى كُلَّ يَوْمٍ شُوَيْعِرًا ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَمَعَ ذَلِكَ يُفَاخِرُني في القَوْلِ ، وَهُوَ قَصِيرٌ يُطَاوِلُني بِقِصَرِه ، أي : يُبَارِيني ولا يُقَاوِمُني .

لِسَاني بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ وَقَلْبي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ

لِسَانِي مَعَ كَوْنِي نَاطِقًا قَادِرًا عَلى الكَلامِ صَامِتٌ عَنْ هَذا الشُّوَيْعِرِ ، وَعَادِلٌ عَنْهُ لِقِلَّتِهِ وَقِلَّةِ مُبَالاتي بِه ، وَقَلْبي ضَاحِكٌ مِنْهُ وَمِنْ جَهْلِهِ مَعَ صَمْتِي عَنْ إجَابَتِه ، يَعْني : أَضْحَكُ مِنْهُ في نَفْسِي وَإنْ لَمْ أَنْطِق بِالكَلامِ. إذا نَطَقْتُ صَمَتَ لِسَاني عَنْهُ ، وَعَدَلَ عَنْ مُخَاطَبَتِه ، وَقَلْبي يَضْحَكُ مِنْهُ احْتَقَارًا لَه ، وَازْدِرَاءً بِه . يَعْدِلُ عَنْهُ لِسَاني ، فَلا أُكَلِّمُهُ ولا أَهْجُوه ، لأنِّي لا أرَاهُ أهْلًا لِذَلِك ، وَقَلْبي يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَسْخَر ، وَإنْ كُنْتُ صَامِتًا لا أُبْدِي الضَّحِكَ وَالسُّخْرِيَةَ .

وَأَتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لا تُجِيبُهُ وَأَغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لا تُشَاكِلُ

أَشَدُّ الناسِ تَعَبًا في نِدَائِهِ مَنْ نَادَاكَ وَأَنْتَ لا تُجِيبُه ، بَلْ تَجْعَل السُّكُوتَ جَوَابَه ، وَأَشَدُّهُمْ غَيْظًا مَنْ عَادَاكَ وَهُوَ دُونَكَ في العَمَلِ، فَيَعْجِزُ عَنْ مُقَاوَمَتِكَ.أَتْعَبُ مُنَادٍ لَكَ مَنْ نَادَاكَ فَلَمْ تُجِبْه، لأَنَّكَ لا تَشْفِيهِ بِالجَوَابِ ، فَيُجْهِدُ نَفْسَهُ في النِّدَاءِ ، كَمَا أنَّ أَغْيَظَ الأَعْدَاءِ لَكَ مَنْ عَادَاكَ وَهُوَ دُونَكَ، لأَنَّكَ تَتَرَفَّعُ عَنْ مُعَارَضَتِه ، فَيَفْشَلُ في مُوَاجَهَتِك .

وَمَا التِّيهُ طِبِّي فِيهِمُ غَيْرَ أَنَّني بَغِيضٌ إِلَيَّ الجَاهِلُ المُتَعَاقِلُ

لَيْسَ الكِبْرُ عَادَتي ودَيْدَني ، وَلَمْ أَتْرُكْ جَوَابَهُ كِبْرًا وَغُرُورًا وَتِيهًا ، غَيْرَ أَنَّني أُبْغِضُ الجَاهِلَ المُتَكَلِّفَ لِلْفَضْلِ ، ويَرَى نَفْسَهُ عَاقِلًا ، يَعْنِي أنَّ الذي يَمْنَعُني مِنْ تَكْلِيمِهِ إِنَّمَا هُوَ بُغْضِي إِيَّاه ، وَتَرَفُّعِي عَنْه ، وَلَيْسَ التَّكَبُّر عَلَيْه .

٤١ _ إِسَاءَةُ التَّقْدِيرِ

وَمَنْ يَجْعَلِ الضِّرْغَامَ بَازًا لِصَيْدِهِ تَصَيَّدَهُ الضِّرْغَامُ فِيمَا تَصَيَّدَا

وَمَنْ يَتَّخِذِ الأَسَدَ بَازًا يَصِيدُ بِه ، أَتَى عَلَيْهِ الأَسَدُ ، فَصَادَه ، وَصَارَ فَرِيسَةً لَه . أَنْتَ كَالأَسَدِ ، فإذا جَعَلَكَ الخَلِيفَةُ بَازَه ، كَانَ قَدْ وَضَعَ الشَّيْءَ في غَيْرِ مَوْضِعِه ، لأَنَّ الأَسَدَ لا يَصِيدُ لِأَحَدٍ ، وإِنَّما يَصِيدُ لِنَفْسِه ، فَمَنْ جَعَلَ الأَسَدَ بَازَهُ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهِ يَوْمًا فَيَجْعَلَهُ مِنْ جُمْلَةِ صَيْدِه، فَكَذَلِكَ الخَلِيفَة، رُبَّمَا عَطَفْتَ عَلَيْه، فَأَقَمْتَهُ عَنْ مُلْكِه،وَقَعَدْتَ مَكَانَه، فَيَصِير صَيْدًا لَك .

٤٢ _ سُوءُ الفِعْلِ

إذا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

إذا كَانَ فِعْلُ المَرْءِ سَيِّئًا قَبِيحًا سَاءَ ظَنُّهُ بالناسِ لِسُوءِ مَا انْطَوَى عَلَيْه ، وإذا تَوَهَّمَ في أَحَدٍ رِيبَةً أَسْرَعَ إلى تَصْدِيقِ مَا تَوَهَّمَه ، لِمَا يَجِدُ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ في نَفْسِه . وَالمُسِيءُ يُسِيءُ الظَّنَّ ، لأَنَّهُ لا يَأْمَنُ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْه ، وَمَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ مِنَ التَّوَهُّمِ عَلى إِسَاءَةِ غَيْرِهِ يُصَدِّقُ ذَلِكَ ، وكُلَّمَا سَمِعَ عَنْ شَخْصٍ كَلامَ سُوءٍ يَظُنُّهُ فِيهِ لِسُوءِ وَهْمِهِ وَفِعْلِه .

وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ وَأَصْبَحَ في لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وَلِسُوءِ ظَنِّهِ يُعَادِي الذينَ يُحِبُّونَهُ بِوِشَايَةِ أَعْدَائِه ، فَلا يُمَيِّزُ صَدِيقَهُ مِنْ عَدُوِّه ، إِذْ يَشُكُّ في كُلِّ شَخْصٍ ، وَيُصبح في كُلِّ أُمُورِهِ حَائِرًا بِسَبَبِ أَنَّهُ يُصَدِّقُ مَا يَتَوَهَّمُه .

صَدَرَ للمُؤلِّف

الدراسات الدِّينية

١_ حقيقة القرآن . ٢_ أركان الإسلام . ٣_ أركان الإيمان . ٤_النَّبِيُّ مُحَمَّد ، صَلَّى اللَّهُ عليه وآلِه وسَلَّم. ٥_ دراسات منهجية في القرآن والسُّنَّة. ٦_ العُلوم والفُنون في القُرآن. ٧_ العمل في القُرآن . ٨_ العلاقات الأخلاقية في القرآن . ٩_ العلاقات المالية والقضائية والسياسية والاقتصادية في القرآن . ١٠_ القصص والتاريخ في القرآن . ١١_ الإنسان والأسرة والمجتمع في القرآن . ١٢_ الدَّعوة الإسلامية . ١٣_ دراسات منهجية في القُرآن والتوراة والإنجيل. ١٤_ بحوث في الفكر الإسلاميِّ . ١٥_ منهج الكافرين في القرآن. ١٦_ الديانات في القرآن. ١٧_ التناقض في التوراة والإنجيل . ١٨_صورة اليهود في القرآن والسُّنَّة والإنجيل. ١٩_ عقائد العرب في الجاهليَّة . ٢٠_ نقض عقائد ابن تَيْمِيَّة المُخَالِفة للقُرآن والسُّنَّة .

الأدب والثقافة والفِكْر

٢١_ فلسفة المُعلَّقات العَشْر. ٢٢_ النظام الاجتماعي في القصيدة (المأزق الاجتماعي للثقافة. كلام في فلسفة الشِّعْر) . ٢٣_ صرخة الأزمنة (سِفْر الاعتراف) . ٢٤_ مشكلات الحضارة الأمريكية. ٢٥_ حياة الأدباء والفلاسفة العالميين. ٢٦_ خواطر في زمن السراب . ٢٧_ فلسفة المتنبي الشعرية .

الشِّعْر

٢٨_ الأعمال الشعرية الكاملة (مجلد واحد)
٢٩_ سينواميس (الساكنة في عيوني)

الرِّوَاية

٣٠_ أشباح الميناء المهجور
٣١_ جبل النظيف

فِهْرِس

مقدمة.....5

الفَصْلُ الأول : أمْرُ اللَّهِ وَقَضَاؤُه [7]

١_ الأمْرُ للَّهِ [7] ٢_ قَضَاءُ اللَّهِ [7] ٣_ لا أحَدَ يُغَالِبُ اللَّهَ [8] ٤_ إضلالُ اللَّهِ للعَبْدِ [8]

الفَصْلُ الثاني : المَوْت [9]

١_ المَوْتُ آتٍ[9] ٢_ المَوْتُ قَبْلَ المَوْتِ[9] ٣_ التَّشَبُّهُ بِالمَوْتِ[9] ٤_ حَلاوةُ المَوْتِ[10] ٥_ طَعْمُ المَوْتِ[10] ٦_طِبَاعُ المَوْتِ[10] ٧_المَوْتُ مُرُّ المَذَاقِ[11] ٨_خَوْضُ المَنَايَا [11] ٩_ المَوْتُ ضَرْبٌ مِنَ القَتْلِ [11] ١٠_ دَوَاءُ المَوْتِ [12] ١١_ غَدْرُ المَوْتِ [12] ١٢ _ المَوْتُ شَافٍ[13] ١٣_ لا بُدَّ مِنَ المَوْتِ [13] ١٤_ مُلاقَاةُ المَنَايَا [13] ١٥_ المَنَايَا هِيَ الغَايَةُ [14] ١٦_ مُشَابَهَةُ الأمْوَاتِ [14] ١٧_ المَوْتُ المُشَهِّي [14] ١٨_ السَّلامة مِنَ المَوْتِ إلى المَوْتِ [15] ١٩_ سُرْعَةُ المَنِيَّةِ [15] ٢٠_ ضَجْعَةُ المَوْتِ [15] ٢١_ شُرْبُ المَوْتِ[15] ٢٢_ المَوْتُ يُوحِّد بَيْنَ الجَاهِلِ والعَالِمِ [16] ٢٣_ مَوْتُ الأكَاسِرَةِ الجَبَابِرَةِ [16] ٢٤_الفَنَاءُ هُوَ المَصِيرُ[16] ٢٥_الدَّفْنُ في التُّرَابِ[17] ٢٦_الضَّرِيحُ مَخْفُورٌ في القَلْبِ [17] ٢٧_ اسْتِسْقَاءُ الغَمَامِ للقَبْرِ [17] ٢٨_ النَّعْي [17]

الفَصْلُ الثالث : الحَيَاة [19]

١_ الحَيَاةُ شَهِيَّة [19] ٢_ عَدَمُ بَقَاءِ الحَيَاةِ [19] ٣_ الحَيَاةُ غُرُور [19] ٤_ الحَيَاةُ هِيَ المَوْتُ [20] ٥_ زَوَالُ الحَيَاةِ [20] ٦_ الحَيَاةُ غَيْرُ المُلائِمَةِ [20] ٧_ الحِرْصُ عَلى الحَيَاةِ[21] ٨ _ لَذِيذُ الحَيَاةِ [21] ٩ _ صَفَاءُ الحَيَاةِ [21] ١٠_ عَدَمُ المَلَلِ مِنَ الحَيَاةِ [22] ١١_ العَيْشُ السَّعِيدُ في الحَيَاةِ [22] ١٢_ حَيَاةٌ بِلا مَعْنى [22]

الفَصْلُ الرابع: الدُّنيا [23]

١_ البُكَاءُ على الدُّنيا [23] ٢_ الدُّنيا لِمَنْ غَلَبَ [23] ٣_ اسْتِصْغَارُ الدُّنيا [23] ٤_ الدُّنيا سَبَبُ الظَّمَأ[24] ٥_تَقَلُّبُ الأحْوَالِ في الدُّنيا [24] ٦_ سَعَةُ الدُّنيا [24] ٧_ نَكَدُ الدُّنيا [24] ٨_ قَسْوَةُ الدُّنيا[25] ٩_ إهْمَالُ الدُّنيا [25] ١٠_ خِيَانةُ الدُّنيا [25] ١١_ حُبُّ الدُّنيا[26] ١٢_صُحْبَةُ الدُّنيا [26] ١٣_ عِلَّةُ الدُّنيا [27] ١٤_ هِبَةُ الدُّنيا[27] ١٥_ كِفَايَةُ الدُّنيا [27] ١٦ _ عِشْقُ الدُّنيا [28] ١٧ _ التَّمَسُّكُ بالدُّنيا [28] ١٨_ شِيَمُ الدُّنيا [28] ١٩ _ التَّفَكُّرُ

في الدُّنيا [29]٢٠_ نِهَايَةُ الدُّنيا [29] ٢١_ طَلَبُ الدُّنيا [29] ٢٢_ لَعْنُ الدُّنيا [30] ٢٣_ التَّعَادِي في الدُّنيا [30]٢٤_ أَعَزُّ مَكَانٍ في الدُّنيا [30] ٢٥_ البَحْثُ عَنْ كَرِيمٍ في الدُّنيا [31] ٢٦_ البَحْثُ عَنْ مَكَانٍ في الدُّنيا [31]

الفَصْلُ الخامس : الرُّوحُ والنَّفْسُ والقَلْبُ [32]

١_ تَرَدُّدُ الرُّوحِ[32]٢_ تَقَطُّعُ النَّفْسِ أسًى[32]٣_ طَبْعُ النَّفْسِ[32]٤_النُّفُوسُ الكِبَارُ[33] ٥_ النَّفْسُ الحُرَّة [33] ٦_ النَّفْسُ الجَبَّارَة [33] ٧_ الفِدَاءُ بِالنَّفْسِ [34]٨_ وُقُوعُ الشَّيْءِ سَهْلٌ في الأنْفُسِ [34] ٩_ القَلْبُ غَيْرُ غَادٍ [35] ١٠_ طَرْفُ القَلْبِ [35]

الفَصْلُ السادس : الجِسْم [36]

١_ نُحُولُ الجِسْمِ [36]٢ _ صِحَّةُ الأجْسَامِ بالعِلَلِ[36]٣_ إصَابَةُ الجُسُوم[36] ٤_ الجِسْمُ فَوْقَ الدَّاءِ [37] ٥_ مَرَضُ الجِسْمِ [37]٦_ الفَمُ المَرِيضُ [37]

الفَصْلُ السابع : العَقْلُ وَالعِلْمُ [38]

١_ تأثيرُ العَقْلِ في الحُبِّ [38]٢_ حُبُّ العَاقِلين [38]٣_ شَقَاءُ العَاقِلِ [39]٤_ إفَادَةُ العَالِمِ[39] ٥_ رُسُوخُ العِلْمِ [40] ٦_ التَّفَكُّرُ عِلْمٌ [40]٧_ العِلْمُ وَالغَيْبُ [40]٨ _ إحْكَامُ العِلْمِ[41]٩_ قِلَّةُ العِلْمِ تُؤَدِّي إلى الفَهْمِ السَّقِيمِ[41]١٠_العِلْمُ بأسرارِ الدِّيَاناتِ واللُّغَى [42] ١١_ العِلْمُ الوَاضِحُ لا يَحْتَاجُ إلى بُرْهَان [42]١٢_ العِلْمُ العَمِيقُ [42]١٣_ سَعَةُ العِلْمِ[43] ١٤_ العِلْمُ قَبْلَ التَّجْرِبَةِ [43]

الفَصْلُ الثامن : الدَّهْرُ وَالزَّمَانُ [44]

١_ عَدَمُ القَنَاعَةِ مِنَ الدَّهْرِ [44]٢ _ نَكَبَاتُ الدَّهْرِ [44]٣ _ بَنَاتُ الدَّهْرِ [44] ٤_ صُرُوفُ الدَّهْرِ [45]٥_ الدَّهْرُ العَصِيُّ [45] ٦_ لا شَيْءَ يُحْمَدُ في الدَّهْرِ [45]٧_ صُرُوفُ الدَّهْرِ أنصار [46] ٨ _ شِدَّةُ الأيَّامِ [46]٩_ لُبْسُ الدَّهْرِ[48]١٠_ عَجَبُ الدَّهْرِ[48]١١_ الزَّمَانُ لا يَشِيبُ[49]١٢_ هَانَ الزَّمَانُ عَلى القَلْبِ [49]١٣_ جُمُوحُ الزَّمَانِ[49] ١٤_ ذَمُّ أهْلِ الزَّمَانِ [50] ١٥_ حَالاتُ الزَّمَانِ [50]١٦_ أهْوَالُ الزَّمَانِ [50]١٧_ نُيُوبُ الزَّمَانِ [51] ١٨_ شِدَّةُ حُبِّ الزَّمَانِ [51] ١٩_ تَقْصِيرُ أهْلِ الزَّمَانِ [51]٢٠_ صُحْبَةُ الناسِ للزَّمَانِ [52] ٢١_ الغُصَّةُ مِنَ الزَّمَانِ [52] ٢٢_ لَيَالي الزَّمَانِ [52] ٢٣_ رَيْبُ الدَّهْرِ[53]٢٤_ التَّعَامُلُ مَعَ الزَّمَانِ [53] ٢٥_ هَرَمُ الزَّمَانِ [55] ٢٦_ ضَيَاعُ الوَقْتِ [56] ٢٧_ العُمْر [56] ٢٨_ الشَّبَاب [56] ٢٩_ المَصَائِبُ وَالحَوَادِث [57]

الفَصْلُ التاسع: الناس [61]

١_اختلافُ أحْوَالِ الناسِ[61] ٢_ناسٌ صِغَارٌ [61] ٣_حُثَالَةُ الناسِ[61] ٤_الناسُ حَيْثُ أنْتَ [62] ٥_ أفَاضِلُ الناسِ[62] ٦_ في الناسِ أمْثِلَةٌ [62] ٧_ قِلَّةُ طُمُوحِ بَعْضِ الناسِ [62] ٨_مَعْرِفَةُ الناسِ[63] ٩_الدَّوَرَانُ عَلى الناسِ[63] ١٠_تَجْرِيبُ الناسِ[63] ١١_أَعْدَلُ الناسِ [64] ١٢_قُعُودُ الناسِ[64] ١٣_التَّفَوُّقُ عَلى الناسِ[64] ١٤_كَلامُ الناسِ[65] ١٥_أقْدَارُ الناسِ [65] ١٦_اسْتِحَالَةُ خِدَاعِ الناسِ [66] ١٧_الأهْلُ [67] ١٨_الجَارُ السَّيِّئُ [67]

الفَصْلُ العاشر : المَرْأةُ وَالحُبُّ وَالعِشْقُ [69]

١ _ أوْصَافُ المَرْأةِ المَعْنوِيَّةُ والحِسِّيةُ [69] ٢_ كِتْمَانُ الحُبِّ [74] ٣_ كَاتِمُ الحُبِّ [75] ٤_ جَرَيَانُ الحُبِّ[75] ٥_ زِيَارَةُ المُحِبِّ[75] ٦_القَنَاعَةُ مِنَ الحَبِيبِ[75] ٧_ مَكَانُ المُحِبِّ [76] ٨ _ هِيَامُ الفُؤادِ[76] ٩_الحُبُّ يَمْنَعُ الكَلامَ [76] ١٠_ تَمَنِّي الوَصْلِ [76] ١١_ تَوَقُّدُ الأنْفَاسِ[77] ١٢_الحُزْنُ عَلى فَقْدِ الحَبِيبِ[77] ١٣_ النَّصِيبُ مِنَ الحَبِيبِ[77] ١٤_ حُبُّ القَلْبِ[78] ١٥_ المُحِبُّ غَيْرُ المَحْبُوبِ[78] ١٦_ المَحَبَّةُ تُؤَدِّي إلى الرِّضَا [78] ١٧_ نَارُ الحُبِّ [79] ١٨_ لَوْمُ أهْلِ العِشْقِ [79] ١٩_ كَثْرَةُ العُشَّاقِ[79] ٢٠_الجُفُونُ سَبَبُ العِشْقِ [80] ٢١_ لَيْلُ العَاشِقِين [80] ٢٢_ عِشْقُ الوَجْهِ الحَسَنِ [80] ٢٣_ العِشْقُ غَفْلَةٌ وَطَمَعٌ [81] ٢٤_البَحْثُ عَنْ مِثْلِ الحَبِيبِ[81] ٢٥_ زِيَادَةُ أذَى المُهْجَةِ[82] ٢٦_مُنْتَهَى حُسْنِ الحَبِيبِ[82] ٢٧_ مَسْحُ المَدَامِع [82] ٢٨_ الوَجْدُ المُتَبَادَلُ بَيْنَ الحَبِيبَيْن [83] ٢٩_ شِدَّةُ الهَوَى [83] ٣٠ _ غَدْرُ الحَسْنَاءِ وَبُغْضُهَا وَحِقْدُهَا [84] ٣١ _ الحَضَرِيَّاتُ وَالبَدَوِيَّاتُ [86]

الفَصْلُ الحَادِي عَشَر : المَدِيح [88]

١ _ المُرَادُ بِالمَدْحِ [88] ٢ _ مَنْطِقُ القُوَّةِ وَقُوَّةُ المَنْطِقِ [88] ٣ _ رُكُوبُ الخيل [88] ٤_ الإشراق[88] ٥_ الهَيْبَة [89] ٦_ الأخْبَارُ عَنِ المَكْرُمَاتِ [89] ٧_ التَّشْبِيهُ بِالبَدْرِ [89] ٨_ التَّشْبِيهُ بِالبَحْرِ[89] ٩_التَّشْبِيهُ بِالشَّمْسِ[90] ١٠_ التَّفَوُّقُ عَلى الكُرَمَاءِ[90] ١١_ المَحَلُّ المَقْصُودُ[91] ١٢_ مَجْمَعُ الصِّفَاتِ الحَسَنَةِ[91] ١٣_ السَّبْقُ [91] ١٤_ فَارِجُ الكُرَبِ [91] ١٥_ البَدِيعُ الفَرْدُ[92] ١٦_ الأعْضَاءُ الحَسَنَةُ [92] ١٧_ بُلُوغُ المُرَادِ [92] ١٨_ السَّجَايَا المَادِحَاتُ [93] ١٩_ المَدِيحُ الحَقِيقِيُّ [93] ٢٠_ مَعْنَى الدَّهْرِ [93] ٢١_ الاعْتِمَادُ عَلى الرُّؤيَةِ لا السَّمْعِ [94] ٢٢_ المُسْتَغَاثُ بِه [94] ٢٣_ إكْرَامُ الكَرِيم [94] ٢٤ _ وَضْعُ النَّدَى وَالسَّيْفِ [95] ٢٥_ قَيْدُ الإحْسَانِ [95] ٢٦_ مَوْعِدُ الغِنَى [95] ٢٧_ الحُزْنُ

المُخْتَلِفُ[96] ٢٨_حَيْرَةُ النَّظَرِ واللِّسَانِ [96] ٢٩_ الارتباطُ مَعَ الزَّمَانِ [96] ٣٠_ حُضُورُ الوَجْهِ الجَمِيلِ [97]٣١_ المَدْحُ قَبْلَ مَدْحِكَ [97]٣٢_تَجَاوُزُ قَدْرِ المَدْح[97]٣٣_ مَدْحُكَ حَقٌّ [98] ٣٤ _ عُلُوُّ المَكَانَةِ [98] ٣٥ _ شَخْصٌ لا يَتَكَرَّرُ [99] ٣٦ _ مَدْحُ الآبَاءِ [99] ٣٧_ الفَرْعُ يَتَفَوَّقُ عَلى الأصْلِ [99] ٣٨ _ مَدْحُ النَّفْسِ [100] ٣٩_ مَدْحُ المُلُوكِ [104]

الفَصْلُ الثاني عَشَر : البُكَاءُ والدَّمْعُ [105]

١_ البُكَاءُ المُؤَثِّرُ [105] ٢_ فَيَضَانُ الدَّمْعِ [105] ٣_ تأثيرُ الدُّمُوعِ في الخُدُودِ [105] ٤_ تَقَرُّحُ الأجْفَانِ مِنَ البُكَاءِ[106]٥_ جَرَيَانُ الدَّمْع[106]٦_ تَشْبِيهُ الدُّمُوعِ بِالمَطَرِ [106] ٧_العَلاقَةُ بَيْنَ الحَيَاءِ وَالبُكَاءِ[106]٨_أَثَرُ الدَّمْعِ في العُرُوقِ[107]٩_الدَّمْعُ وَالبَصَرُ [107] ١٠_ الدُّمُوعُ وَالجُفُونُ [107] ١١_ مَجَالُ الدَّمْع [107]١٢ _ الدُّمُوعُ وَالدِّمَاءُ [108] ١٣_ الدَّمْعُ بَيْنَ الحُزْنِ وَالتَّجَمُّلِ [108] ١٤_ اشتِبَاهُ الدُّمُوع [108]

الفَصْلُ الثالثُ عَشَر : الدِّيَارُ وَالمَنَازِلُ [109]

١_ عَدَمُ شَكْوَى الدِّيَارِ [109]٢_ دَارُ المُلِمِّ [109] ٣_ الدِّيَارُ المُشْرِقَاتُ [109] ٤_ الدَّارُ العَزِيزَةُ [110]٥_المَنَازِلُ في القُلُوبِ[110]٦_سَاكِنُ الدَّارِ[110] ٧_ مَنْزِلُ اللَّذَّاتِ [111] ٨_ البَلَدُ البَعِيدُ [111] ٩_ الأطلال[112]

الفَصْلُ الرابعُ عَشَر : المال [113]

١_ هَوَانُ المَالِ [113]٢_ جَمْعُ المَالِ [113]٣_ عَدَمُ الإقَامَةِ عَلى المَالِ [113]٤_ المَالُ هَيِّنٌ مُقَابِلَ الوُدِّ [114] ٥ _ عَدَمُ وُجُودِ المَالِ [114]

الفَصْلُ الخَامِسُ عَشَر : السِّيَاسَة [115]

١_ الناسُ بِالمُلُوكِ [115] ٢_ مُلُوكٌ أرَانِب [115] ٣ _ يَجِبُ أنْ يَكُونَ بَعْضُ الحُكَّامِ مَحْكُومًا [116] ٤_ اسْتِقَامَةُ المَلِكِ [116] ٥_ مُوَاجَهَةُ المُلُوكِ [116] ٦ _ المَنُّ عَلى المُلُوكِ بِالعَفْوِ [117] ٧_ عَطَايَا المُلُوكِ [117] ٨ _ خُضُوعُ المُلُوكِ [117] ٩_ مَصِيرُ المُلُوكِ [118] ١٠_ الاخْتِيَارُ مِنْ بَيْنِ المُلُوكِ [118] ١١_ غَضَبُ مُلُوكِ الأرْضِ [118] ١٢_ أعْلَى المَمَالِكِ [119] ١٣_ سَادَاتُ الناسِ [119] ١٤ _ قُرْبُ السَّلاطِين [120] ١٥_ الإمَارَةُ وَالأمِيرُ [120] ١٦_ الأحْوَالُ السِّياسِيَّةُ في مِصْر [120]

الفَصْلُ السَّادِسُ عَشَر : الحَرْبُ [123]

١ _ الحَرْبُ قَائِمَةٌ [123] ٢_الإقْدَامُ في الحَرْبِ[123] ٣ _ الخَيْلُ [123]٤ _ السَّرَايَا

[125]٥_شُهُودُ الحَرْبِ[125]٦_ حَوْمَةُ الوَغَى [125] ٧ _ التَّقَدُّمُ في الحَرْبِ [126]
٨ _ المُهْجَةُ في الحَرْبِ [126] ٩_ الإقَامَةُ مِنَ الهَيْجَاءِ [126] ١٠_ جَبِينُ فَتَى الحَرْبِ
[126] ١١_ حِرْصُ الشُّجَاعِ عَلى الحَرْبِ [127] ١٢_ الحُرُوبُ شَافِيَةٌ [127] ١٣ _ عُقْبَى
الوَغَى [128] ١٤_ السُّقُوطُ وَالانْهِزَامُ [128] ١٥ _ عَسَلُ المَوْتِ في الهَيْجَا [128]
١٦ _ المَوْتُ في الوَغَى عَيْشٌ [129] ١٧_ المَوْتُ في الحَرْبِ خُلُودٌ [129] ١٨_ الهُرُوبُ
مِنَ العَارِ [129] ١٩_ للنَّفْسِ حَالَتَانِ في الحَرْبِ [130] ٢٠_ خَوْضُ المَوْتِ [130]
٢١_ السَّبْيِ [130] ٢٢_ سَفْكُ الدِّمَاءِ[131]٢٣_ لُبْسُ الدُّرُوعِ [131] ٢٤ _ تَأَمُّلُ
الدِّرْعِ [131] ٢٥_ صِيَاغَةُ الأَسِنَّةِ [132] ٢٦ _ الهَمُّ في ذَوِي الأَسِنَّةِ [132] ٢٧_ خِفَّةُ
الحَدِيدِ وَلُيُونَتُه [132] ٢٨_طَعْنُ النُّحُورِ[133]٢٩_ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ [133]٣٠ _ طَاعِنُ
الطَّعْنَةِ [133] ٣١_ الطِّعَانُ المُرُّ [133] ٣٢_ التَّضْحِيَةُ بِالحَيَاةِ [134] ٣٣ _ السِّلاحُ
[134]٣٤ _ الطِّعَانُ وَالدَّمُ [134] ٣٥ _ أَطْرَافُ القَنَا [135] ٣٦_ الرِّماحُ [135]
٣٧_ السُّيُوفُ[136] ٣٨_ الجَيْشُ [140] ٣٩ _ القَتْلُ وَالقِتَالُ [142]

الفَصْلُ السَّابِعُ عَشَر : الأعْدَاءُ [144]

١_ أَفْئِدَةُ الأَعَادِي[144]٢_ سَلْبُ الأعَادِي[144]٣_لا تَسْلَمُ الأعْدَاءُ[144]٤_قَتْلُ نُفُوسِ
العِدَى[144]٥_ دَمُ الأعْدَاءِ [145] ٦_ مُلاقَاةُ العِدَى [145] ٧ _ قُلُوبُ الأعَادِي [145]
٨_مُحَارَبَةُ الأعْدَاءِ[145]٩_كَأنَّ العِدَى خُلَفَاؤُه[146]١٠_العُدَاةُ فَرَائِسُ[146]١١_ ضَرْبُ
الأعْدَاءِ [146] ١٢_ كَيْدُ الأعْدَاءِ [146] ١٣ _ العَدَاءُ غَيْرُ المَنْطِقِيِّ [147] ١٤_ كَثْرَةُ
الأعْدَاءِ[147]١٥_ إبَادَةُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ[147] ١٦_ جَمَاجِمُ الأعْدَاءِ [148] ١٧ _ مُغَالَبَةُ
الأعْدَاءِ[148]١٨_غَضَبُ الأعَادِي[148]١٩_دَمْعُ العَدُوِّ [149]٢٠_ نَفْعُ العَدَاوَةِ [149]

الفَصْلُ الثَّامِنُ عَشَر : الخَمْرُ [150]

١_شُرْبُ الخَمْرِ صِرْفًا[150]٢_هَجْرُ الخَمْرِ[150]٣_تَأثِيرُ الخَمْرِ[150]٤_سَقْيُ الخَمْرِ[150]

الفَصْلُ التَّاسِعُ عَشَر: مَنْظُومَةُ الأخْلاقِ وَالقِيَمِ وَالمَبَادِئِ (الإيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ) [151]

أ_ الإيجَابِيَّةُ [151]

١_ الكَرَمُ [151] ٢_ المَجْدُ [160] ٣_ إكْرَامُ الضَّيْفِ [162] ٤_ الافْتِخَارُ [162]
٥_ الشَّجَاعَة [163]٦_ الرَّأيُ وَالعَقْلُ [166]٧_ حِدَّةُ الذِّهْنِ [168] ٨ _ الرِّفْقُ [168]
٩_ مَعْرِفَةُ الأمُورِ مُسْبَقًا [168] ١٠_ السِّيَادَة [169] ١١_ عَدَمُ سَمَاعِ الفُحْشِ [169]

١٢_ القُوَّةُ [170] ١٣_ الحُسْن [170] ١٤ _ التَّوَاضُعُ [171] ١٥_ الصُّلْحُ [171]
١٦_ التَّوْفِيقُ [172] ١٧ _ عَدَمُ انْتِظَارِ الشُّكْرِ [172] ١٨ _ الجَمَالُ الذُّكُورِيُّ [172]
١٩_ الشَّوْقُ [173] ٢٠_ التَّمَنِّي [175] ٢١_ التَّجْدِيدُ [175] ٢٢ _ الثَّباتُ [176]
٢٣ _ النَّجَاحُ [176] ٢٤ _ الصَّبْرُ [176] ٢٥_ العِزُّ [177] ٢٦_ الشَّرَفُ [178]
٢٧_ الآمَالُ [179] ٢٨_ الطَّرَبُ [180] ٢٩_ المَوَدَّةُ [180] ٣٠_ عَدَمُ الطَّمَع [180]
٣١_هُدُوءُ الأعْصَابِ[180]٣٢_الدَّعْمُ[181]٣٣_السَّيْطَرَة [181] ٣٤_ الصَّدَاقَةُ [181]
٣٥_ الحَمْدُ [181] ٣٦_ المُرُوءَةُ [182] ٣٧_ عُلُوُّ الهِمَّةِ [183] ٣٨_ الرَّشَادُ [185]
٣٩_ الحِلْمُ[185] ٤٠_ طَلَبُ المَعَالي[187] ٤١_الإتْقَانُ [191]٤٢_طُمُوحُ القَلْبِ[191]
٤٣_ العَفْو[192] ٤٤_ الحَيَاء [192] ٤٥_ الحَذَر [192] ٤٦_ رُكُوبُ الأخْطَارِ [193]
٤٧_البَصَرُ وَالبَصِيرَةُ[193]٤٨_الحُرِّيةُ[194]٤٩_ الثِّقَةُ بِالنَّفْسِ[195]٥٠_الوِدَادُ [195]
٥١_عَدَمُ الغَدْرِ[196]٥٢_الشُّكْرُ[196]٥٣_الذِّكْرُ الحَسَنُ [196] ٥٤ _ الفَضْلُ [197]
٥٥_ العُلَا [198] ٥٦ _ كَتْمُ السِّرِّ [198] ٥٧_ العِفَّةُ [199] ٥٨_ فِعْلُ الجَمِيلِ [199]
٥٩_ الفَصَاحَةُ [199]

ب _ السَّلْبِيَّةُ [200]

١_الوَدَاع[200]٢_اللُّؤم[200]٣_الفَقْدُ[201]٤_قِلَّةُ الإنْصَافِ[201]٥_ النِّفَاق [201]
٦_العَارُ[202]٧_الهِجَاءُ [202]٨_ العُبُوسُ [203]٩_الحَسَدُ[203]١٠_ الهَجْرُ[205]
١١_ الخِدَاعُ [206]١٢_ الجُبْن[206]١٣_ الفَسَاد[207]١٤_ الذُّلُّ[207]١٥_ الظُّلْمُ
[208]١٦_العُجْب[208] ١٧_ الغُرْبَةُ [208]١٨_ الأَرَقُ[209] ١٩_ البَيْنُ [209]
٢٠ _ القَلَقُ [209]٢١_ الشَّمَاتَةُ [209]٢٢_ الثَّأرُ [209] ٢٣_ البُخْلُ [210]
٢٤_ الجَهْلُ [210] ٢٥_ الخَوْفُ [211] ٢٦_ الهَوَانُ [211] ٢٧_ الفِرَاقُ [211]
٢٨_ اللَّهْفُ [213] ٢٩_ الهَمُّ [213]٣٠_ البُغْضُ [213] ٣١_ قِلَّةُ الوَفَاءِ [214]
٣٢ _ الفَهْمُ الخَاطِئُ للدِّينِ[214]٣٣_ الكِبْرُ [214]٣٤_ الكَذِبُ [214] ٣٥ _ العُبُودِيَّةُ
[214] ٣٦ _ الغَدْرُ [215] ٣٧ _ الإهَانَةُ [215] ٣٨_ الكَيْدُ [215] ٣٩_الشَّكْوَى
[216]٤٠_التَّحْقِيرُ [216] ٤١ _ إسَاءَةُ التَّقْدِيرِ [217] ٤٢_ سُوءُ الفِعْلِ [217]
صَدَرَ للمُؤلِّف.....218
فِهْرِس.....219